رواية

يوسف المحيميد

الحمام لا يطير في بريدة

الطبعة الرابعة



يوسف المحيميد

الحمام لا يطير في بـريدة

رواية

المركز الثقافي العربـي

الكتاب

الحمام لا يطير في بريدة

Pigeons Don't Fly in Buraidah

تأليف

يوسف المحيميد

الطبعة

الرابعة، 2011

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-361-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء- المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522303339- 0522307651

فاكس: 2305726-52 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت- لبنان

ص.ب: 5158- 113 الحمراء

شارع جاندارك- بناية المقدسي

هاتف: 01750507- 01352826

فاكس: 01343701- 961+

www. ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

«أقسى العذاب أن توهب عقلاً محتجّاً في مجتمع غير محتجّ!»

عبد الله القصيمي

الجزء الأول

رقبة، وسيف، وهواء ثقيل!

«الرياضُ،
رعاةٌ
يسوقون القطيع
إلى الذئاب»

علي العمري: أبناء الأرامل

حين تحرك القطار غروب ذاك اليوم المعتدل من أيام تموز عام 2007م، من محطة ليفربول في لندن متجهاً شمالاً صوب مدينة غريت يارموث الساحلية، شعر فهد السفيلاوي بسعادة وقد منح نفسه إجازة يومين من عمل مضنٍ في مكتب خدمات الطباعة والبحوث، كي يتجول في شوارع لندن وحدائقها. سكن في فندق متواضع، في منطقة كوينزواي قرب حديقة الهايد بارك. ارتاد مطعماً لبنانياً صغيراً، تذوق فيه طعم الأرز الأبيض بعد انقطاع طويل، ومطعماً إيرانياً متواضعاً تنتشر كراسي الخيزران عند مدخله، وتنساب خراطيم الشيشة كأفاعٍ بين كراسيه، واكتشف حانة صغيرة تدعى «الأسد السعيد» ذات طابع فيكتوري رائع. كما صرف وقته بالتجوال بين شارع أكسفورد وساحة ترافالغر، والجلوس في حانات جديدة ومقاهٍ على النهر، قرب جسر لندن الشهير.

اختار مقعداً عند طاولة في القطار، ووضع عليها حقيبة الظهر التي أصبحت جزءاً من جسده، ثم سحب من جيبها الجانبي قارورة ماء، وعلبة بنادول إكسترا كان قد ابتاعها من صيدلية في إجوار رود، دفع قرصاً في أقصى بلعومه وأتبعه بجرعة ماء، ثم فعل ذلك ثانية. تناول من قاع الحقيبة رواية «القُبلة المرسومة» لإليزابيث هايكي، التي تتناول علاقة غوستاف

كليمت بمعشوقته الصغيرة إيميلي التي لفظ اسمها وهو يحتضر، حيث تستعيد المعشوقة الصغيرة، بعد أن شاخت، حياتها مذ كانت تلميذة في الثانية عشرة، تتعلم الرسم على يد أستاذها المحروم، وحتى نقلها للوحاته من العاصمة فيينا إلى الريف النمساوي. كم تذكِّره هذه الرواية بفيلم شاهده قبل سنة. عنوانه «البنت ذات القرط اللؤلؤي»، فيلم مأخوذ من رواية تحمل الاسم ذاته، ويتناول حياة الهولندي جوهانز فيرمير، الذي رسم لوحة بنفس الاسم أيضاً، فثمة تقاطع ممتع بين الروايتين الرائعتين. أسند رأسه قليلاً على زجاج النافذة البارد، متتبعاً قطيع الكلمات، وما كاد يفعل حتى غفا لعشر دقائق أو أقل، كان القطار قد تحرك خلالها. أفاق فجأة، فوجد أمامه عجوزاً إنجليزية جلست في المقعد المقابل له. تبسّمت له وأكملت تصفّح مجلة ديكور منزلي باهتمام بالغ بعد أن قاطعها استيقاظه مفزوعاً. ردّ على ابتسامتها وهو يمسح بيده على وجهه ثم راح يتأمل الطبيعة الخضراء، وبيوت القرميد والبقر والخراف، وهي تمرّ أمامه مثل شريط سينمائي سريع.

تذكر صديقه الحميم سعيد، الذي اتصل به، ليطمئن عليه، ثلاث مرات خلال ما يقارب أحد عشر شهراً قضاها في بريطانيا. فكر في المبادرة بأن يباغته هو بمكالمة من بلاد الفرنجة، كما يسميها دائماً. بحث عن جواله في جيب الجينز، فلم يجده، فتح حقيبته، وهو يفكر أين وضع الجوال، لكنه عثر عليه أخيراً، لا توجد أسماء كثيرة في «الفون بوك». العم هانك، والشابة الفرنسية ليندا، وزميلة مدرسة اللغة، الفتاة المكسيكية سنتيا، والمحاسب الشاب نيل الذي يشرف على مكتب خدمات الطباعة والبحوث، إضافة إلى سعيد، صديق الطفولة والشباب المتهتك والمجنون، في الرياض.

حين ضرب الرقم، ووضع السماعة في أذنه لم يأت صوت الرنين

المعتاد، بل كان صوت أغنية فتكت بقلبه الضعيف، أغنية دمرت كل ما فعله خلال عام، كي يخرج من مأساته العجيبة، مسحت كل العالم الذي تآلف معه، ورمت بكل جبروت مدينته الصغيرة «غريت يارموث» إلى عمق البحر. كأنما دفعت هذه الأغنية المباغتة بتلك المدينة المسالمة، ببناياتها العتيقة وكنائسها وحاناتها وكورنيشها الرملي الأبيض، ومدينة الألعاب فيها وناسها الطيبين، دفعت بكل ذلك إلى بحر الشمال، كأنما فجأة غرقت المدينة الآمنة الصغيرة بأكملها، تماماً كما أغرقها البحر بطوفانه مطلع عام 1953م، غامراً البيوت الآمنة وأهلها النائمين، أو كأنما جندياً ألمانياً نازياً أشعل المدينة بقذائفه من البوارج الحربية الطاحنة.

لم يقفل فهد الخط، ولم يتمنَ أن يرد سعيد على مكالمته، حتى انتهاء الأغنية الحزينة:

«تقوى الهجر، وش لي بقى عندك تدور لي عذر...

لا تعتذر.

تقوى الهجر... ما نجبره من عافنا ما ينجبر... لا تعتذر.

راح الصبر، لا تعنّى لي وتمر، وتبغى الصبر،

وين الصبر؟

جرحي عميق والقلب في دمه غريق،

وتبغى الصبر؟! ويلاه من وين الصبر؟!

مهما تقول لا تعتذر»

ما أقسى أن يصحو الغريب على لغته! أن تغسل لهجته عروقه، وأن يهجم الماضي كوحوش الغاب صوب طريدة عزلاء وهشة هي الغربة، حيث لا تطير المدينة فحسب، بل حتى اللغة والناس والطمأنينة،

والذكريات والأغنيات، فطارت بغتةً سيلين ديون وحطَّ مكانها خالد عبد الرحمن، طار صوتها الرائع، وكلماتها التي أعادت الحياة إلى قلبه: «عندما تهاتفني، عندما أسمعك تتنفَّس، أنال جناحين لأطير، أشعر بأنني حي» حتى الطفل الذي يشبهه في الفيديو كليب، ذاك الطفل الذي يتحكم عن بعد بطائرة صغيرة، طار قسراً وحلَّ مكانه طفل آخر، طفل حزين، مسلوب تماماً، ولا يملك أن يطيِّر مجرد ريشة.

شعر فهد بحنين مفرط يضغط على رقبته ويستدرّ مآقي عينيه. وتملكه، في الوقت ذاته، خوف ورعب من رجال سمان ذوي لحى طويلة سوداء، يراهم دائماً في الليل وهم يأتون برماح مسنونة يخزون بها وسادته ويثقبونها، فينبثق ريش أبيض يطير حتى يسد أنفاسه فيصحو وجلاً كأنه أصيب باختناق.

وضع الجوال على طاولة عربة القطار، وأحاط رأسه بكلتا يديه، مسنداً مرفقيه على الطاولة، وأجهش بالبكاء. جسده الضئيل يرتجف بهستيريا غريبة. أرعب منظره العجوز الانجليزية أمامه، وجعلها تندفع تجاهه وهي تلمس ذراعه برقةٍ وتردّد، وهي تسأله: هل أنت بخير؟ قال لها: نعم، أنا بخير، وقد خجل من نفسه، فهرب بعينين دامعتين صوب النافذة الزجاجية.

-1-

لم تكن طرفة الصميتان تحب الكتب كثيراً، رغم أنها تقرأ قصصاً بوليسية وروايات رومانسية. كانت تحب الأغنيات والرقص أكثر. تحب صوت خالد عبد الرحمن وحزنه، وكذلك تحب شوكولا سنيكرز وفريق

الهلال، ومهووسة بأشكال الإكسسوارات النسائية، وبالجنس أيضاً، يوم ذاك كان الوقت ضحى من أيار العام الماضي، وقد وقف فهد بسيارته ينتظرها أمام مكتبة جرير في طريق الملك عبدالله، حين خرجت بخطوتها المطمئنة البطيئة، تحمل كيساً أحمر وحقيبة يد، صعدت إلى سيارته الصغيرة، وكالعادة حذرته بألا يتحرك حتى تكمل جلستها المريحة على المقعد المجاور، وتغفو يدها الرقيقة تحت يده، أدار المفتاح وسألها كالعادة: وين؟

لم يكن لديها وقت كافٍ، إذ ستعود بعد ساعة إلى الأكاديمية، فسألته: «ناخذ قهوة من ستار بوكس؟». أجاب: «حلو، بس فكرت قهوة جافا كافيه أحلى». أجابت وهي ترفع عباءتها إلى أعلى رأسها: «زي ما تحب حبيبي!». لكنه عاد ووافق على مقترحها، ولم يوافق على أن يأخذا القهوة وهما يتجولان بالسيارة في صباح الرياض.

أخذ فهد الطريق شمالاً إلى إشارة تقاطع الملك عبد العزيز، واستدار عائداً نحو إشارة شارع العليا، ثم استدار متخذاً طريق الخدمة. حتى إذا بلغ مقهى «ستار بكس» بحي الورود انعطف إلى اليمين، تجاه باب قسم العائلات. لم يكن ثمة أحد هذا الصباح سوى سيارة فان هيونداي يجلس في داخلها سائق أندونيسي، ركن سيارته بجواره، وأطفأ المحرك، ترددت طرفة وسألت:

- ما زلت عند رأيك؟

- كيف؟

- مو أحسن ناخذ قهوة في السيارة ونمشي؟

أجاب وهو يسحب مفتاح السيارة من عنق المقود:

- أحسن نجلس، حتى أقدر أشوفك.

التفتت جهة السائق الإندونيسي:

- ما أدري، بصراحة وقت الضحى يخوّف!

فتح بابه وهو يردد بثقة:

- ما عليك، ما فيه إلا الخير.

نزل وتبعته بهدوء، وهي تحمل بيدها الكيس الأحمر وحقيبة اليد المزينة بتطريز فرسان يحملون دروعاً واقية، دخلا من باب تتأرجح عليه لوحة: للعائلات فقط. كانت رائحة القهوة المنعشة تملأ المكان. انفرج الباب الزجاجي، وهي تنظر بعينيها الواسعتين والهةً نحو وجهه، وما أن انغلق الباب ببطء، حتى مدّت سبابتها نحو فمه، لتلمسه ثم تُدخِل إصبعها من تحت غطاء وجهها، وتقبّله: «وربي عسل!» فابتسم وهو يحلم بكنزها السري المخبوء تحت الغطاء الأسود. ألقى نظرة على الغرف الخشبية المعزولة بأبواب مرنة، واختار أقصاها، دفع بابها وأفسح لحبيبته، فمرّت ملتصقة به وهي تنظر نحوه بشغف. سألها: «كابتشينو؟». أجابت: «أي شي من يد حبيبي حلو».

وقف فهد أمام العامل الفلبيني، بينما كان عامل سعودي شاب يدير له ظهره وهو يغسل إناء الحليب ببخار حار. طلب كابتشينو كبير، وشوكولا ساخنة وما كاد ينظر نحو حلقات الدونات وأقراص الكوكيز خلف الزجاج، حتى أحس بهواء يلفحه من الخلف، لم يعرف، هل انفتح الباب الخارجي لقسم العائلات؟ أم هو هواء ملاك عجوز ومتربّص؟ أم رائحة صلاة الجمعة؟ أم رائحة سواك رطب؟ أم رائحة دهن العود الكمبودي؟ أم رائحة بخور شرقي في ليلة جمعة بحفل زواج؟ ربما هي رائحة هذه الأشياء كلها وقد انتهكت حواسه. حتماً لم تكن رائحة جسد أنثى تسبقها رائحة عطرها.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام.

ما أن التفت نحوه حتى ارتجفت يده وهو يشير إلى قرص كوكيز مزين بقطع شوكولا، لمح وجهه المحدِّق نحوه، ومشلحه الحليبي الخفيف المقصَّب، ولحيته المسبوكة بعناية، لم يقل شيئاً سوى «السلام عليكم ورحمة الله» وترك الباقي لرعب فهد وخوفه، فهو كافٍ تماماً بأن يفضحه. كان كثعلب مراوغ فاجأ الطريدة بنظرات عينيه، انخلع قلب فهد، وبدأت يده المرتجفة تفضحه، بينما الشيخ يحدق منتظراً أن يسقط دون أسئلة إضافية ويقول له: نعم، ليست زوجتي ولا أختي ولا أمي، ليست من محارمي، إنها صديقتي. بل سأكون صادقاً وصريحاً معك، هي حبيبتي وعشيقتي وجئنا هنا كي نشرب الكابتشينو والشوكولا الساخنة، وتواسيني بموت أمي التي جعلني رحيلها وحيداً، لست متأكداً، يا شيخ، إن كنت سأقبّلها اليوم، أم سنؤجل ذلك حتى يخف الحزن عن قلبي المكلوم؟ لكنها قد تواسيني باحتضاني والمسح على رأسي، وربما تهبني قبلات خفيفة.

- كيف حالك يا أخي، «قاطعه صوته الرخيم».

- الحمد لله.

- الاسم الكريم؟

- فهد.

- والنعم!

- والنعم بحالك.

- فهد، معك أحد؟

- نعم، وأشار فهد بارتباك نحو الكشك الأخير في العمق.

- من هي؟

ها هو يصوّب رمحه نحو عينيّ فهد ويقتلعهما. بينما تذكر فهد كل حالات الهروب التي حدثت وقرأ عنها في الصحف، رجل أربعيني حاول التسلل من نافذة الدور الرابع فسقط متهشماً، وشاب هرب بفتاته وقاد سيارته برعونة فارتطما بجدار إسمنتي مسلح وماتا، ورجلان مع امرأتين عاكسا الطريق هاربين وارتطما بسيارة مسرعة ومات الأربعة. قصة في تبوك، وأخرى في الشرقية، وثالثة في حائل و... وهذه المرة ستكتب الصحف فتاة ستار بكس تنتحر بأن رمت نفسها في سيل السيارات الهادرة في طريق الملك عبد الله، حتى عجنتها العجلات بعباءتها السوداء وطار حذاءاها الجميلان.

- من التي معك؟
- زوجتي!

لم يستطع إلا أن يكذب، كانت الكذبة عارية تماماً، يقسم فهد لنفسه أن الشيخ رأى عريها، حتى أن ثمة ابتسامة صغيرة تشكلت حول عينيه، إذ قال:

- ليست زوجتك يا ولدي فهد، قل لي ولا تخف، نحن نستر على الناس، ونعدل سلوكهم فقط.

تذكّر أن رئيس الهيئة قال في حوار نشرته جريدة عكاظ، بأنهم يسترون على أكثر من 90% من قضايا الخلوة غير الشرعية. هل سيكون فهد وطرفة ضمن هذه التسعين بالمائة؟ وجهه يفيض سماحة وحنو وطمأنة وثقة، وجسده الفارع يشبه رجلاً يقف مع ابنه على حافة المسبح، ويقنعه أن يغطس بجرأة، فهو بجواره وسينقذه إن لزم الأمر.

- ليست زوجتي، هي صديقتي! هكذا قرر فجأة أن لا يغطس فحسب، بل أن يتجرد من لباس السباحة ويهجم على سطح الماء.

- لا تخف، تعال معي، هي مجرد إجراءات بسيطة، وتذهب في أمان الله.

- ولكن هي، كيف أتركها لوحدها؟

لم يكد يكمل الجملة حتى سار أمامه مردِّداً: «لا تهتم، لا تهتم هذا شغلنا»، فقابلهما رجل قصير وسمين، بلا مشلح، وله عينا نسر. أضاف الشيخ: «اذهب معه يا ولدي». شدَّ الآخر على معصمه بقبضة حديدية، فأدرك في هذه اللحظة تحديداً، أن اليوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من أيار هو يوم قيامته، فلكل إنسان في هذه المدينة يوم قيامته الخاص، إما أن يموت فوراً، أو يعبر عتبته بسلام وينجو، أو يبقى يتذكّره كوصمة عار في وجهه أينما ذهب.

تركهما الشيخ ذاهباً إلى حيث تجلس طرفة بسلام، وتخرج وردة حمراء وضعتها داخل الكيس. كانت تشمها منتظرة كوب الكابتشينو، منتظرة أن تقلب بطريقتها الخاصة، وبلهوها المذهل، أسبوعاً أسود عاشه فهد منذ موت أمه، ومحاولات نقلها من إسعاف مستشفى الملك خالد إلى قسم التشريح الجنائي في مستشفى الرياض المركزي. لن تغسل طرفة بضحكتها وتعليقاتها الفاحشة حزنه، بل سيتسلق نمل أسود كريه جسدها الغض، سيدخل في تجاويف قلبها الحي، سيموت قلبها وحبها وحياتها، وستموت الأغنيات والرقص الخليجي الناعم، وسيكون رباط القماش حول وركيها حبل مشنقة.

حين خرج فهد من باب قسم العائلات للمقهى، كانت الشمس الصفراء قد بدأت تصير أكثر قسوة. والشرطي النحيل ببنطلونه الفضفاض وحزامه المتدلي بثقل جراب المسدس يقف منتظراً عند باب سيارة «الجيمس». فتح أحد البابين الخلفيين، وأشار إليه بأن يقفز إلى المرتبة الثالثة في الخلف، صعد الشرطي ثم الرجل القصير السمين الذي مال

جذعه نحو فهد وهو يفتح كيساً تحت وجهه: «حط أغراضك هنا، كل ما في جيوبك!». سأل بسذاجة: «ليه؟» وحين لمح سخطه أضاف: «الشيخ قال لي مجرد إجراءات سريعة عند السيارة، وأنتم الآن أركبتموني السيارة، إلى أين سنذهب؟»

حادثه كما لو كان يحادث طفلاً يتأبّى دخول الصف الأول ابتدائي. وضع الكيس أمامه، بينما نظر الشرطي نحوه بازدراء وصاح بصوته النحيل: «نفذ يا ولد!» أخرج محفظته ومفاتيحه ووضعها في الكيس. قال ببرود دون أن ينظر تجاهه: «جوالك!»

«اللعنة!» قال لنفسه، ماذا سيفعل لو أنهم فتحوا جهاز الجوال، وفتشوا الأسماء والرسائل والوسائط ومقاطع البلوتوث و... و... لماذا لم يطلب الذهاب إلى الحمّام في المقهى كي يرمي به في بالوعة الكرسي. كيف فات عليه أن هذا الجهاز الملعون سيدمره، أخرجه من جيبه، وحاول أن يسحب شريحة الذاكرة على الأقل. كان يخفي يديه خلف مسند المرتبة الفاصلة، لكن الرجل ضبطه وخطف الجهاز من يده بقوة مباغتة، ثم وضعه في الكيس. فتح بطاقة الأحوال وقرأ الاسم: «فهد سليمان السفيلاوي، والنعم!» قال بسخرية وتشفٍ. فتح محفظته ووجد صورة أبيه الأربعيني قبيل رحيله: هذا أبي رحمة الله عليه! فتح جهاز جواله وتوقف عند كلمة السر، ناوله القلم من جيبه ودفتر ضبط الحالات معه، وقال: سجل كلمة السر! أجاب فهد بحزم: لا!

لم ينفعل كما ظن، ولم يصفعه أو أن يسلط عليه الشرطي النحيل، بل قال ببساطة شديدة: ما هي مشكلة، الأمر يخصّك. خرجت طرفة خلف الشيخ وهي تتعثر بعباءتها وتبكي وتتوسل. كان فهد من وراء الزجاج يرى يديها اللتين قبّلهما مراراً، وهي ترفعهما أمام الشيخ كما لو

كانت تتوسل. بقيت تنتظر نصف ساعة أمام مقهى ستار بكس حتى بعد مغادرة سيارة الهيئة، وكلما مرّت سيارة فارهة تمهلت ونظر سائقها الشاب بفضول، بينما استدار بعض مرتادي المقهى أمام الزجاج من الداخل كي يتسلوا بالموقف. كما لو كانوا يشاهدون مقطعاً من الحياة الطبيعية في قناة ديسكفري. اللبؤة بين الأحراش تتبع طريدتها الغافلة. تحرك قوائمها ببطء شديد حتى لا تثير صوت خشخشة العشب. هكذا حرك الشيخ قوائمه بهدوء وثقة وهو يقود الفريسة إلى فخّها.

وضع فهد رأسه بين يديه وهو يتنهد قائلاً: لا حول ولا قوة إلا بالله، وردّد بيقين ورعشة: يا رب، يا رب تسترا نهنه الرجل القصير ذو العينين النسريتين والبقعة البنية على جبينه: تعرفون الله بعد أن ترتكبون المعصية! وأضاف يتلو دونما خشوع: (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون). قال فهد بصوت يحمل رائحة بكاء قادم: «استروا علينا الله يستر عليكم، استروا عليها على الأقل!» هكذا تحوّل فجأةً من واثق ومطمئن إلى مرتبك وحائر ومهزوم، في بلد يزرع الخوف والحيرة. ربما أرهقه بكاء طرفة، وماذا يمكن أن يفعل أخوها عبدالله، الذي قاوم ببسالة رغبتها في الالتحاق بأكاديمية العلوم الصحيّة، حتى استسلم أخيراً لعنادها الطويل؟ ماذا ستفعل أمها المغلوبة على أمرها؟ كيف ستنام صغيرتها سارة الليلة؟ أي حضن سيعوض سارة دفء حضن أمها؟ وأي حضن سيعوضني أنا؟ أي برودة وصقيع؟ أي جحيم سيفتح أبوابه لي منذ اللحظة؟

هكذا ظل فهد السفيلاوي يهجس طول الطريق.

-2-

كان الشيخ ذو المشلح الحليبي وهو يسلِّم على فهد بسكينة وأدب رفيعين، يشبه تماماً الرجل الذي وشوش في أذن أبيه سليمان، قبل خمسة وعشرين عاماً؛ حينما صعد الباب الخلفي لسيارة جيمس الهيئة مرّ لوهلةٍ أمام عينيه مشهد أبيه حينما صعد جيب أمن المباحث في سوق الجردة ببريدة.

كان صباحاً معتدل الطقس في الثالث من تشرين الثاني لعام 1979. كان الهواء العذب يغسل وجوه الباعة القرويين المنتشرين في السوق، وقد لمح أبوه رجلين بثوبين شتويين أسودين، أحدهما ملثم بشماغه، والآخر يلبس معطفاً أسود ونظارة داكنة، وقد اقترب منه هذا الأخير، هامساً في أذنه أمام المشترين بأنه يريده للحظة. فأوصى جاره ابن قناص على صناديق الكوسة والطماطم، ومشى معهما. ولم يعد إلى صناديقه مرة أخرى. كانت الرحلة مضنية، والرعب الذي خضَّ قلبه وهو في العشرينات قد خفَّ بعد أن تجاوز الصدمة الأولى. وقد جلس أمام ضابط تحقيق أجرى معه تحقيقاً، مباشراً وصادماً، عن دوره مع الجماعة السلفية المحتسبة، التي وصل طموحها إلى قلب نظام الحكم في البلد، كان الأب سليمان برائحة خضار طازجة مجلوبة من حقول خب المريدسية، وبكمين مشمرين، وبشماغ منسوف للخلف على طريقة سائقي الشاحنات. يجلس بقلق ويجيب عن الأسئلة بصدق ووضوح. بينما كاتب التحقيق المجاور للضابط يدوِّن الأسئلة والإجابات.

كم كان مضحكاً، أن يقول للضابط إنه لم يعرف أن الجماعة، التي اقتحمت الحرم المكي قبل يومين، أصبحت مسلحة بعد أن انسحب منها. وأنه لا يعرف من الدنيا سوى صناديق الكوسة والطماطم واللوبيا، وسيارة الداتسون الوانيت. وأن علاقته بالجماعة منتهية منذ سنة. كان

التحقيق قد استغرق أكثر من ست ساعات متواصلة، فطلب أن يصلي الظهر. لكن الضابط المتجهم قال له هل تظن نفسك في نزهة؟ «لا يكون تظن أنك ستعود إلى بيت أمك بعد قليل!» حتماً لم يعد إلا بعد أربع سنوات، تنقل خلالها من بريدة إلى الرياض وجدة ومكة، دخل سجناً مؤقتاً بشارع المطار القديم بالرياض، ثم سجناً جديداً خارج مكة على طريق المدينة، عاشر خلالها أصدقاء عرف بعضهم من لقاءات الجماعة والرحلات الدعوية في قرى مكة، ولم يتعرف على الآخرين. كان هناك مشبب الجنوبي، وصلاح المصري، وبندر بن خلف، وضيف الله، وحرَّاس تتغير وردياتهم، لكن أعينهم المتجمدة كعيون الموتى لا تتغير. يشبهون غاسلي الموتى الذين يغسلون الجثث ببرود واعتياد، هكذا لا يعرفون حزنه، والأسى الذي أحدق به، والذاكرة الملعونة منذ أن رفض طلب الجد أن يكون كأخيه، ويتابع تعليمه في بريدة، مغامراً بالمجيء إلى منزل شعبي متهالك في حي أم سليم بالرياض. كم كانت أم سليم صغيرة وأليفة في السبعينيات! فالمسافة من الدوار إلى الحي القديم أمام مدرسة الجاحظ كانت طويلة، محفوفة بالباعة وبالتلاميذ. لم تكن الدراسة تروق له في معهد إمام الدعوة العلمي في الديرة، بل إن ألفية ابن مالك في النحو قد عصفت بعقله ودوَّخته، فتشجع على التمرد بعد أن لقنوه بأن الدراسة لدى مدارس الحكومة عمل غير شريف، ولابد أن يطلب العلم الشرعي الحقيقي على مشايخ وعلماء في سواري المساجد، وفي أروقة مكة أو المدينة.

تلك الظهيرة التي غادر فيها الأب سليمان سوق الجردة للمرة الأخيرة، كانت أمه في قرية المريدسية تضع دلة القهوة وبضع تمرات سكري أمام أبيه علي. ولم تتنبه، وهي تحذف شيلتها فوق رأسها وكتفيها، إلى ثوبها الأخضر المشجَّر إلا بعد أن جلست أمامه وسكبت الفنجان الأول،

فنبهها وهو يطيّر بقايا فنجان قهوته خلف ظهره تجاه شجرة التوت العجوز:

- ثوبك مقلوب يا مرة!

اضطربت الأم آنذاك، وهي تتفحص أكمامها وتردد «اللهم اجعله خير»!

في هذه اللحظة تحديداً، كان ولدهما سليمان في السوق يصغي إلى وشوشة رجل المباحث في أذنه، قبيل أن يغادره للمرة الأخيرة. وفي اليوم التالي جاء أخوه صالح يسأل عنه في السوق، فأخبره ابن قناص أن رجلين غريبين جاءا وتكلما معه ثم صحبهما ولم يعد. كانت زهور الكوسة ذات اللون الناري قد ذبلت في الصناديق بعد يومين، وذبل قلب الجد معها أيضاً.

وصل سليمان مقيداً إلى الرياض، بصحبة شرطي شاب. عاد ثانيةً إلى المدينة الملعونة التي دمرت حلمه الصغير بالدراسة والثراء، وأدخلته عالماً غريباً من الجماعات والأحزاب. كانت البداية بسيطة وهو يستغفر بعد صلاة العصر، وينصت إلى صوت الإمام الرخيم الذي يدعو من يرغب في المشاركة برحلة خلوية يوم الخميس القادم، إلى تسجيل اسمه لدى المؤذن. هكذا دخل اسمه لأول مرة في كشوف جماعة مسجد صغير بأم سليم، خرجوا إلى شعيب الحسي بسيارتين، وكان سليمان يركب مع إمام المسجد الشاب الخلوق من أهل البير في سيارته الفولفو، حين وصلوا نصبوا خيمة وطبخوا الغداء وجلسوا في حلقة ذكر، وأنصتوا إلى مختارات من الأحاديث النبوية الصحيحة، ثم لعبوا الكرة قليلاً، وعادوا في اليوم التالي، بعد شهرين من هذه النزهات تكفّل فاعل خير من جماعة المسجد برحلة عمرة إلى مكة، وبدأت رحلة سليمان الشائكة، حين قرَّر أن يترك المعهد العلمي وألفية ابن مالك البغيضة، فمر على صاحب محل الغاز واستقال من العمل، لأنه سيسافر في طلب العلم، فاستلم مائة وخمسين ريالاً، أجرة شهرين، وضعها في جيبه؛ ثم سافر معهم في ميكروباص صغير.

في الحرم، وبينما هو متجه إلى صحن الطواف بالكعبة، مر بجوار رواق يتجادل فيه شيخ مع تلاميذه، فانضم إليهم وسمع لأول مرة اسم الشيخ الألباني يتكرر مراراً، فبحث في المكتبات حول الحرم عن كتبه، قرأ الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وصفة صلاة النبي، لم يكن يفهم معنى السلفية المحتسبة، لكنه كان يخجل أن يسأل الإخوان عن ذلك. قرأ كثيراً وفهم قليلاً، تفحص «صحيح الترغيب والترهيب»، و «ضعيف الترغيب والترهيب»، وقرأ «الإسراء والمعراج»، كان يحب كتب ناصر الدين الألباني، ولم يتوقع أن يراه ذات يوم وجهاً لوجه.

دهشته كانت كبيرة، فغر فمه وجمد في مكانه، حين شاهد الشيخ الألباني على الطبيعة لأول مرة في الحرم المكي. دهشة تشبه دهشة ابنه فهد حين دخل معه في مصعد برج المملكة المغني راشد الفارس، بسمرته ومعطفه الأسود الطويل، ومدير أعماله يحادثه. كلاهما رأى نموذجه، فالأب قرأ كثيراً للشيخ الألباني وأحب أفكاره، والابن استمع للفارس وأحب أغنياته السريعة، التي حاول أن يفرض ذوقه فيها على حبيبته طرفة.

في المقعد الخلفي لسيارة الهيئة، كان فهد يتأمل السائقين المندفعين بسياراتهم في الطرقات، وهو يتذكر والده الذي استمرت التحقيقات معه طويلاً، حتى إذا ما ثبت أنه لم يستخدم السلاح عند الاستيلاء على الحرم. حين خلعوا ملابسه وتفحص أحدهم مقدمتي كتفيه، للتثبت من أن عقب البندقية البلجيكية لم تدك أياً من كتفيه، وتترك كدمة ما، حكم عليه بالسجن، وتم نقله إلى مقر سجن جديد بطريق المدينة تفوح من جدرانه رائحة الطلاء الجديد. كان مع رفاقه أول الضيوف الذي افتتحوا هذا المبنى العتيد.

كم تمنى فهد لو لم يترك له أبوه بعضاً من حياته، ولم يكشف له

بعض أوراقه السرِّية، واقتصرت حياته على طفولته العابرة، حين كان يأخذه وأخته لولوة وصديقه سعيد إلى ملاهي قلعة السندباد بالعليا، بجوار حديقة مكتبة الملك فهد العامة من ناحية الجنوب، فيدخلون في عمق الملاهي حيث سيارات التصادم، ليبدأ العراك العنيف بينهم، بينما الأب والأم يجلسان عند المدخل على كرسيين وطاولة بلاستيكية ذات مظلة مقلَّمة بالأخضر والأبيض، يشرب الأب قهوة تركية ويتصفح جريدة الشرق الأوسط، في حين تلاحق الأم بعينيها الجميلتين موديلات النساء في مجلة سيدتي الملونة، وما أن ينتهي الثلاثة من اللعب واللهاث حتى يصطفوا أمام الألعاب الإلكترونية، ويقذف كل منهم قطعة معدنية في رحم إحدى الآلات ويصيحون بصخب عالٍ، وحين يدعوهم أبوهم كانوا يتبعونه كقطط صغيرة لاهية، إذ يدلفون خلفه إلى مطعم شتورة اللبناني، ويتناولون العشاء الذي لا يأكلون منه سوى شرائح البطاطس المقلية، حيث يغمسونها بالكاتشب، بينما الأب يطلب طبقه المفضل، صحن الحمص بقطع اللحمة المقلية، والأم لا تأكل سوى أطباق السلطات والخضراوات، وتحاول أن تجعل الصغار يأكلون قطع الدجاج المشوية في طبق شيش طاووق، متروك بينهم، لا يأكل منه سوى سعيد بأصابعه ذات الأظافر المتسخة.

ترك الأب جزءاً من حياته السرية لابنه لسبب وحيد، وهو وجله من أن ينخرط ابنه بنشاط إحدى الجماعات المتطرفة، وأن لا يتوقف الأمر، مثلما فعل الأب في مراهقته، على توزيع المنشورات في صحن الحرم المكي في أواخر رمضان للعام 1399هـ. بل قد يحمل سلاحاً أو يلف جسده بحزام ناسف، أو قنبلة موقوتة. كان الأب خائفاً وقد بلغ خوفه حد الوسوسة، إذ ترك له بعض أشيائه قبل أن يرحل، موصياً زوجته بأن تسلمه الأمانة حينما يكبر، كأنما كان يخشى الموت فجأة وهو في ذروة شبابه.

هكذا وقعت بين يدي فهد كتب والده القديمة: «إتحاف الجماعة بما جاء من أخبار الفتن وأشراط الساعة»، و «رفع الالتباس عن ملَّة إبراهيم عليه السلام»، وأوراق مكتوب عليها بخط يده المرتجفة بعض الذكريات واليوميات، ومسبحة صغيرة متسخة صنعت من نوى الزيتون. وقلم أزرق ناشف مزين بلاصق علاجي متسخ في موضع الأصابع التي تمسك به. صورة يظهر فيها الأب مع رجل بشعر طويل وهما يجلسان بمدرجات ملعب الملز في مباراة ما، صورة أخرى له وهو يجلس مع مجموعة شباب حول نار على تل رملي بالمعيزيلة قرب الرياض، صورة ثالثة وأخيرة بالأسود والأبيض يظهر فيها بجوار أبيه علي في شيخوخته غافلا عن العدسة، وبجواره الابن صالح.

يتذكر فهد أنه قبيل حادثة المقهى، ناولته أخته لولوة حقيبة جلدية سوداء قديمة متفسخة، طلبت الأم منها إحضارها، وسلمتها إليه كوصية من أبيه. أخذها وتفحَّصها في الطريق إلى شقة صديقه، فوجد داخلها أغراضاً شخصية وقديمة لأبيه، وقد أوصى بأن لا يتسلمها ابنه إلا إذا بلغ سن الشباب. لم يعرف لم تأخرت أمه إلى هذا السن، مطلع العشرين؟ ربما بسبب العلاقة الجافة بينها وبينه في السنوات الثلاث الأخيرة. كل ما يذكره أنه فتح الحقيبة بلهفة، لم يكن فيها نقود ولا كنز، بل مجرد يوميات ساذجة لأبيه، وسنواته في المعتقل، ووصاياه الموجّهة له.

- 3 -

تحركت سيارة «الجيمس» بشعار الهيئة على بابي السائق والراكب المجاور، وسارت عبر شارع فرعي في حي الورود، كي يختصر السائق زحام طريق الملك عبد الله، حتى إذا خرج إلى شارع العليا انعطف يميناً،

متوقفاً عند إشارة تقاطع الملك عبدالله مع العليا، فكَّر فهد كم مرة عبر هذا الطريق مع طرفة، يتأملان لوحة الإعلانات الضخمة عند زاوية وزارة الشؤون البلدية والقروية، كانا يضحكان بينما أصابعهما تعانق بعضها بعضاً بلذة عارمة: «هل تذكرين منزل عمَّتك المعروض للإيجار في حي الملك فهد؟» يقول لها وقد دخلاه ذات ليل وتمددا عاريين في صالته الخالية من الأثاث، كان الصدى العاري يردد صوتيهما وضحكاتهما وشهقاتهما: «تتذكر العشاء اللي أخذناه من مطعم صب وي وما أعجبني». كان يتلفت بحثاً عن طرفة: أين ذهبوا بها؟ وأين سيذهبون بي أيضاً؟ كان يهجس بقلق، تقطعه توجيهات الرجل ذو العينين النسريتين للسائق.

تجاوز السائق إشارة أسواق العويس أماماً، فلم ينعطف إلى حي الملك فهد، كانت الشوارع هادئة إلى حد كبير، لم يكن ثمة زحام كالعادة حول سوق الهرم للملابس، الذي يغري الناس ببضاعته الرخيصة والرديئة، كان يتنهد ويستغفر الله، لعل بعض تنهداته واستغفاره تجلبان شفقة الرجل ذي العينين النسريتين، لكن بلا فائدة، كان كجزار عيد الأضحى الذي يجر الضحية من قدمها، وهو يعضُّ مقبض سكينه المسنونة، ويسمع نكتة جديدة من زميله، هكذا كان يقوده إلى المجزرة دون أن يدري: «كلها شوية أوراق توقعها ثم تذهب في حالك!» هكذا قال له، وشجعه على التحدث ببساطة ووضوح، تنهَّد فهد وراح يلقي ببصره إلى الشارع، وهو يفكِّر بطرفة:

ماذا تفعلين الآن؟ وأين أنت؟ هل أقلّك الشيخ ذو المشلح الحليبي، الذي تفيض من عينيه سكينة ودفء، بسيارة زميله إلى الهيئة؟ أم إلى مؤسسة رعاية الفتيات؟ لا تصدقي شهامته المخادعة، وأن الأمر مجرد أوراق رسمية وتوقيع تعهد وتمضين إلى بيتك! سيقول لك أنهم سيسترون

عليك، لكنهم يكذبون، سيخدعك كما خدعني، سيسجنك أو يطلب أهلك لتسلمك! يا للفضيحة!

كيف يمكن أن تطير سكرة الحب فجأة، فيصبح العالم رمادياً؟ كيف تتحول ضحكات طرفة وتعليقاتها المجنونة وحبها للحياة إلى حزن طاغٍ... كيف؟ أين طارت سيارتهما المجنونة وهي تقلّك؟ هكذا سارت بها السيارة وهي في الخلف تنتفض كحمامة مذبوحة للتو، بابها الخلفي مقفل بزر الأمان، بحيث لا يمكن فتحه إلا من الخارج، بينما الشيخ ذو المشلح الحليبي يجلس في المقعد الأمامي، يروي الأحاديث عن فضل المرأة العفيفة المحصنة، القارّة في بيتها، كانت شهقاتها تقطع أحاديثه، بينما زميله السائق الملتحي ذو الشماغ الملثم، يقود السيارة بصمت وعجلة، كان فهد يتمنى أن يهاتفها كي يطمئن عليها، لكنهم صادروا جواله وأوراقه كلها.

كانت سيارة التويوتا الكامري الصغيرة البيضاء التي تقلّهم، تذوب في شوارع الرياض، فلا أحد حولها يدرك المأساة أبداً، عند الإشارة مثلاً ينظر سائقو السيارات نحوهم، مجرد فتاة وأبوها وأخوها، أو سيدة مع أخويها، أو ما شابه! لكن لا أحد يظن مجرد ظن، أنهما صيادان محترفان وطريدة، وحشان وفريسة! انعطفت السيارة يميناً من إشارة تويوتا، عبر طريق الإمام، لتمرّ بجوار جمعية المعوقين، كانت الإشارات الحمراء تزيد القلب المرهف رجفة، قلب العاشقة والأم التي تسير إلى المذبحة، تتخيَّل أنهما سيقودانها إلى دار رعاية الفتيات، وأن السيارة المخبولة ستجتاز شارع التحلية وشارع الثلاثين وطريق مكة، ثم تهبط من النفق المجاور لوزارة الداخلية، وأخيراً عند إشارة رئاسة تعليم البنات، تنعطف السيارة يساراً، ثم تدخل في شارع فرعي جهة اليمين وتمر قرب مكتب الإشراف التعليمي النسوي، وسط الرياض، ثم من وراء الكتل الخرسانية المعترضة، يشير الشيخ إلى جهة اليسار، لتقف أخيراً أمام مؤسسة رعاية الفتيات،

وترى في عقلها المشوش أن الشيخ الوقور يترجل من السيارة، ويعدِّل حافة مشلحه المقصَّب فوق كتفيه العريضين، يمسِّد لحيته الكثة، ويشير إلى الحارس والجندي عند البوابة، فيقبلان مهرولين نحوه متسللين من بين رجال ينتظرون أمام الباب، كانت طرفة تفكر بصمت يشبه الغيبوبة، ماذا سيفعلان بي؟ تتخيل كيف يناولهما الدفتر الكبير الذي زينت في إحدى ورقاته بصمة إبهامها، ليوقع الحارس بالقلم متسلما الغنيمة، ثم ينزلونها إلى البوابة حيث الحارسة الضخمة التي تتسلمها من معصمها الرقيق، وتسير بها إلى موظفة سمراء تسجِّل معلوماتها وتحفظ ملفها، ثم تتسلم منها كل أغراضها الشخصية، وحقيبة اليد الصغيرة ذات الفرسان المهزومين، وكيس الوردة الحمراء، وهاتفها المحمول الذي يزدحم برسائل اللهفة، ووسائط متنوعة كانت تتسلمها من صديقتيها ندى، وفطّوم، أو طمطم كما تخزِّن اسمها في دفتر الأرقام بهاتفها المحمول، ثم تقودها الموظفة إلى غرفة التفتيش الذاتي، وتطلب منها أن تخلع ملابسها، فترفض، وتقول لها ببرود سجَّانة متأففة: اخلعي بنفسك حتى أفتشك وحدي، أو أجيب الحارسات يفتشونك معي وبالقوة. ثم تخلع طرفة تنورتها وهي تبكي بحسرة، وبلوزتها أيضاً، حتى تصبح عارية تماماً، وتفتح ساقيها قليلاً، كي تتأكد الموظفة أنها لا تخبئ شيئاً هناك، لترمي نحوها قميصاً خاصاً بالنزيلات، وتحفظ ملابسها وأغراضها في كيس تسجل عليه الرقم 201، وترمي به بنزق مع لفائف كثيرة، لتموت طرفة إلى الأبد، ويصبح اسمها: النزيلة 201، وتتحول إلى مجرَّد رقم صغير في غابة فوضى!

هكذا بقيت طرفة تتخيل مرعوبة في المقعد الخلفي، قبل أن تتوقف السيارة الصغيرة داخل موقف في مبنى الهيئة، كي ينزلها السائق الصامت بغضب، ويقودها إلى مكتب شبه فارغ، لا يوجد فيه سوى طاولة وكرسي،

بلا تلفون ولا أوراق أو ملفات. يغلق الباب، ثم يقفله، فتبقى ذاهلة تتأمل الجدران والسقف وتبكي.

قبل ذلك بنصف ساعة، كانت سيارة «الجيمس» قد توقفت أمام المبنى ذاته، وفتح الرجل ذو العينين النسريتين باب السيارة وهو يرمق فهداً، الذي بقي معه الشرطي والسائق. بعد هنيهة خرج مصطحباً رجلاً ضخم الجثة يغرق في كتلة شفتيه الضخمتين عود سواك، يلوكه كل فينه وهو يثرثر ويبصق، وينظر نحو فهد، أشار إلى السائق الذي أنزل معه كيس الأشياء الشخصية ووقف معهما، ثم تقدَّم الرجل الضخم وفتح الباب الخلفي، واقتاد فهد إلى المبنى، بينما تأرجح كيس الأغراض الشخصية في يده الأخرى.

حين جلس أمامهم، كانوا ثلاثة، ويخدمهم عامل إندونيسي يقدّم لهم الشاي. جاء الرجل الضخم ووقف أمام فهد وقال له: انهض. فزَّ مطيعاً وخائفاً. أضاف: ارفع يديك فوق! رفعهما كما لو كان عند تفتيش مطار أو جمرك، بدأت يداه تتحسسان جيوبه وجسده من الخلف والأمام حتى أنه تحسّس ما تحت خصيتيه. صاح الرجل ذو العينين النسريتين، وقد قام نحو فهد، وجذب يده اليسرى العالية: «ما هذا؟». خلع مسبحة أبيه التي تركها له، مسبحة صغيرة قام فهد بلفها دورتين حول معصمه منذ أسبوع، مسبحة من نوى الزيتون، محفوظة في حقيبة الأب منذ ما يقارب خمسة وعشرين عاماً.

قال له الأب في مذكراته، إنه احتفظ بهذه المسبحة كي يتذكر ليل السجن الطويل، والملل الذي يحيط به، والظلمة والوحدة والحزن، أراد أن يتذكر كيف كان يصرف الوقت في صنع مسبحة من نوى الزيتون، أو يربِّي الصراصير كي تتكاثر، ثم يعدمها جميعاً.

«إن تحتفظ يا ولدي بما يذكرك بالمأساة سيمنعك من أن تنساها، ومن ثم تتحاشى السبب الذي أوقعني في فخها، فكل ما عليك هو أن تحتفظ بها من بعدي، وتتذكر أن الأحزاب السياسية والجماعات الدينية، التي تقلق الحكومة، مصيرها إلى الزوال والفشل والمعاناة النفسية، فبينما زملاؤك يقتنصون الفرص والنجاح، تكون أنت أهدرت جذوة شبابك خلف أحلام ضائعة».

كان الأب قد عاش سنوات السجن حزيناً ليس بسبب اعتقاله، بل بسبب أمه نورة التي تمنت ذاك الصباح البعيد أن تدخل في قلب شجرة التوت الضخمة، وسط باحة البيت، علّ دودة قزٍ نشطة تحوّلها إلى خيط حرير رهيف لا يكاد يراه أحد، لا تراه النساء الشامتات، فلم يكن هناك أكثر قسوة من أن يقول أهل بريدة «ولدهم مسجون بقضية جهيمان!» كم كانت الجدة صارمة حين جاءت أمّ شاب خطب أصغر العمات، وهي تعتذر بخجل عن إتمام زواج ولدها من العمة الصغرى حصة:

- ما درينا أن ولدكم مسجون!
- مسجون بقضية سياسية، ما هو بقضية أخلاق ولا شرف، أو قلّ دين!

هكذا حسمت الجدة نورة الأمر، وهي توصي المرأة قبل أن تخرج من باب المنزل في حي القويع غرب بريده، بأن تقول للناس ولحريم القيل والقال، بأن «بيت السفيلاوي بيت شرف ومراجل!»

وحين أقفلت الجدة الباب خلف المرأة انهارت تبكي، وهي تلوم سليمان الذي جلب لهم العار والفضيحة، بينما كان الجد علي يتنهد قربها ويواسيها، بأن هذه أفكار حريم عاطلات، ما عندهن غير أكل لحوم الناس. ثم يضيف بصوت خافت ومكلوم: «أنا قلت من يوم ولادته إنه نقص!»

-4 -

لم يذهب الجد علي إلى بيت أهل زوجته بعد صلاة العشاء مباشرة، وقد بشروه بمولود ذكر، فقد بقي في المسجد الطيني الصغير مع الجماعة، يصلّون شطراً من الليل كي تزول الغمّة وينكشف الكرب، إذ خسف القمر ليلة الخامس عشر من شعبان لعام 1379 للهجرة. كم كان الجد حزيناً ومضطرباً ومتشائماً إذ يخسف القمر مع إطلالة جنينه، كم مرعب أن يأتي مولود مع غضب الرب، هو إذن مولود مشكوك بحياته ومستقبله: «هالمولود نقص!» هكذا ردد الجد طوال حياة ابنه سليمان، حتى أصبحت طفولته مليئة بالظلم والفجيعة، فعاش طوال عمره شاعراً بالذنب تجاه كل ما يحدث لعائلته.

في اليوم التالي لولادة سليمان قالت الجدة لزوجها: «تعوذ من إبليس، ولا تتطير مثل الجاهلية!» لكنها بعد أسبوع فقط، وهي في بيت أهلها في بريدة، صاحت بجزع، وولول كل من في البيت، حين قالوا إن أخاها الصغير إبراهيم أخذته الشرطة مع زملاء له من أمام قصر مهنا، وساقوهم إلى الرياض، وبقي هناك شهرين كاملين، ثم عاد ليجلد مع زملائه أمام الملأ. عندها فقط تأكدت الجدة أن ابنها سليمان كان فعلاً نذير شؤم على العائلتين، عائلتها وعائلة زوجها، فلم يكن الأمر يتوقف عند خسوف القمر، بل بدأ شؤمه من سجن أخيها ومرض والدها بسبب ذلك، وانتهى أخيراً بسجن سليمان نفسه عام 1979م وهو في العشرينات، بسبب قضية احتلال الحرم المكي.

كان بيت أهل الجدة في بريدة متفتحاً قليلاً، خلاف عائلة الجد في المريدسية، الذين قيل إنهم من شدة الوسوسة والهرطقة يغسلون الديك من الجنابة حين ينكح الدجاج كي يتطهّر، بينما والد الجدة كان من كبار

تجار العقيلات الذين وصلوا مصر والعراق وفلسطين في بدايات القرن، وقد سئم أخوها إبراهيم وزملاؤه في مطلع العشرين، من تشدد النواب الذين يحملون أغصان الشوحط الطويلة في الشوارع، ويلبسون العمائم البيضاء، يدعون للصلوات، ويحظرون تجمعات الشباب، وينكرون لبس الغترة البيضاء والعقال، وفتح مقهى للشاي والشيشة، ويمنعون الدراجات الهوائية التي يسمونها «حصان إبليس»، وحين يجدونها مع أحد الشباب، فإنهم يصادرونها منه. عندها قرر هؤلاء وعددهم تسعة عشر شاباً أن يسيروا في مظاهرة، تجاه قصر مهنا الذي يقيم فيه الحاكم ابن بتال، حاملين شاباً عابثاً يلقّب بـ «عكية»، ليقفوا أمام القصر وهم يصيحون بجرأة وجنون: «يسقط ابن بتال، يعيش الشباب، يسقط النواب، يعيش عكية»!

سبع سنوات مرَّت، أكلت الحصبة خلالها قلب أصغرهم، محمداً، فغاب بسنواته الأربع، حتى صار الجد يردِّد بفجاجة: «لو خيرني الموت بينهم، كنت طلبت أن يأخذ وجه البوم» مشيراً نحو أوسطهم سليمان، فلا يمتقع وجهه أبداً، إذ يعرف أهل المريدسية أن محمداً كان حبَّة قلب أبيه، والأكبر صالح ذراعه ولسانه وسنده، فلا أحد ينسى خصومة الجد مع مؤذن القرية عند تركيب مكبر صوت لأول مرة، وأصبح صوت ابن دخيل الله مثل الرعد حين يتنحنح بقوة وقت الفجر، فحاول الجد أن يحرِّض جماعة المسجد على نفي هذه البدعة، إذ البدعة ضلالة، والضلالة في النار. وبدأ يزيد بأن: «الساكت عن الحق شيطان أخرس». كان مكبر الصوت مثبت فوق سطح المسجد الطيني، وموجه صوب بيوت القرية ومزارعها، وقد تفرّق الرجال بعد صلاة الفجر، يخطون بتاقل صوب بيوتهم، يحلِّق النعاس فوق رؤوسهم، حيث الجد يقود ولديه صالح وسليمان مثل جروين دائخين، وما أن مدَّد ساقيه في غرفة القهوة مرتشفاً قهوة الصباح، حتى نام سليمان في الطرف حيث الدفء، في حين تسلل

صالح حاملاً بندقية صيد من نوع «ساكتون فئة 25»، كما هي عادته حين يباغت الطيور في أعشاشها لحظة انفلاق الضوء، لكنه مر من أمام مزرعة أبي راشد، متجاهلاً نداءات عصافير شجرة السدر الضخمة، وقد ثنى ماسورة البندقية، وأخرج من تحت لسانه رصاصة صغيرة مبتلّة، نفخها بقوة حتى طيَّر بقايا لعابه عنها، دفعها بإبهامه في الثقب، وأقام الماسورة مقترباً من جدار المسجد، ليصوب نحو مكبر الصوت لثوان، ثم همز الزناد وهو يردد بهمس: «الله أكبر»، فأصاب قلب مكبر الصوت، وكررها ثلاث مرات، فجاءت صلاة الظهر بلا رعد مخيف، وبلا بدعة تقود إلى نار جهنم!

مذ ذاك النهار، صار صالح بطلاً عائلياً ومنافحاً عن الدين، مما أكسبه حظوة وثقة كبيرة بنفسه وبأفعاله حتى لو كانت مخطئة ومجنونة، بينما سليمان لم يكن سوى كومة ملابس صيفية بالية، تتكوم قرب أمه العجوز، مرتبكاً ومتردداً، شاعراً بالغبن والظلم والازدراء؛ فما أن أنهى دراسة الابتدائية حتى هرب إلى الرياض كي يكمل دراسته، لم يذهب إلى بريده كما فعل صالح لسنوات، حين سكن عند أخواله، ودرس في المدرسة العلمية الأهلية ببريدة، أو مدرسة الإخوان كما يسمونها، قبل أن ينتقل الجد أخيراً بالجدة نورة وبناته الثلاث إلى حي القويع غرب بريدة، هاربين قبل أن يخسف الله بقرية المريدسية. فبعد مكبر الصوت والمصباح الأحمر المتدلي من خشب أثلة في سقف المسجد، لا يجوز البقاء بين قوم غيروا ما بأنفسهم، لأن الله سيغير ما هم فيه من نعمة، إما بالطاعون يعم القرية، أو زلزال يرجّها فيجعل عاليها أسفلها، أو ما شابه ذلك.

نضب ماء البئر، ومات النخل في حائط الجد، ثم مات الجد بعد ذلك بسنوات، وهو يشعر بالفخر أنه لا تأخذه في الحق لومة لائم، وأنه

خرج مجاهداً الفساد مع ثلاثة من أهل قريته، وصحبوا حشدا من أهالي بريدة، إلى الرياض في شتاء 1961 للوقوف أمام قصر ولي العهد، كي ينكروا عليه فتح مدرسة بنات في بريدة، ناصبين خيمة أمام البوابة قبل أن يتم طردهم. كم كان صالح فخوراً بأنه حارب البدع في قرية المريدسية في الستينيات! كم كان فخوراً وهو ينفث في أذن أبيه وشاية مؤذية، بأن جدّه لأمه يخفي مذياعاً في غرفته ببريدة، يسمع منه إذاعة صوت العرب!. لكن الجد علي السفيلاوي كان يفيض احتراماً كبيراً لوالد زوجته، فرغم حرقته الشديدة في أن ينكر عليه المذياع، وأنه بدعة وضلالة، وفسق، يصل إلى درجة أن يماثل وضع المرء عاهراً في غرفته، إلا أنه كتمها في نفسه، وأنكرها في قلبه فحسب.

ها هم أحفاد الجد!

ها هم يقودون حفيده إلى شرك المكيدة، في غرفة توقيف بمبنى الهيئة، ها هم يطلقون التهم نحوه كجياد مجنونة، ها هم يدمرون حياته بحقد وضغينة!

ربما لو كان الجد حياً، لفعل أكثر منهم، وربما جلد حفيده أمام الناس في شارع التحلية، لأنه خلا بامرأة أجنبية، وربما رأى جواز قتله بحد السيف!

كم كان فهد يتمنى جرأة خاله إبراهيم وصاحبه عكية، كي يصرخ في رجل الهيئة والشرطي النحيل الذي يتدلى حزامه ومسدسه مثل رأس طفل غريق، ويوقفهما بشجاعة، ثم ينزل من سيارتهما وهو ينتزع كيس أشيائه الخاصة منهما، ويقول لهما: متى ملكتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

أي حرية يا فهد – قال لنفسه- وأبوك ذاق مرارة السجن سنوات

طويلة؛ لأنه كان مجرد طائش حين وزَّع منشورات على المصلين بالحرم، هل كان يحلم أن يكون قائداً ضد الفساد وانهيار القيم والأخلاق في البلاد؟ هل كان يحلم أن يمنع الغناء والعزف؟ ويمنع ظهور النساء والمغنيات على شاشة التلفزيون؟ هل سيملأ ورفاقه الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً؟ أم كان يريد أن يقول لأبيه، ها أنا ذا يا أبي! ها أنا ذا الذي كنت تسخر منه وتتطير! جئت لأثبت لك أن الأمر أكبر من لعب العيال، وأكبر من مجرد بندقية صيد تافهة، يصيد بها الأطفال العصافير ويحرقون برصاصها الضعيف مكبر صوت في قرية نائية غرب بريدة كما فعل أخي البكر.

هل كنت يا أبي تريد أن تلفت انتباههم إليك؟ هل كنت؟ إذن لتذهب أنت وأبوك الخرف، بأفكاركم العتيقة والمتخلفة، فلن تزيدوا هذه البلاد إلا جهلاً على ما فيها من جهل!

آسف يا أبي على هذا الغضب، فقد أحزنني ضياع شبابك وأنت الذي علمتني فيما بعد قراءة الأدب والفنون، ومشاهدة أفلام والت ديزني، كنت ترعاني بالحب، ومعنا سعيد ابن صديقك مشبب الذي أعدم في مطلع القرن الهجري، سعيد الذي حين يعلو صوت المأساة في داخله ينفرط ضحكاً وضجيجاً سافراً داعراً في شارع التحلية!

-5-

مؤلمة تلك اللحظة البعيدة، عندما دفعوا بأبي سعيد إلى الزنزانة، إذ لم يتعرف سليمان السفيلاوي على ملامح صديقه، رغم أنهما تقابلا في المزرعة قبل عام، وقد تسلما المنشورات السرّية، ولكنه عندما دخل

الزنزانة كان ممزق الثياب، أشعث الشعر وأغبر الوجه، حافياً ومنهكاً حد الإعياء، ارتمى نائماً لمدة خمس ساعات كقتيل. حاول سليمان أن يوقظه لصلاة المغرب، لكنه لم يستيقظ، فكان يقلبه على جنبه كجثة. كان سليمان يفكر بعد سنوات من المعتقل، ما الذي جعل أبا سعيد يغرر بزوجته الحامل وأمها، ليأخذهما من جنوب البلاد إلى رحلة الكارثة والحرب الخاسرة في الحرم؟ لم يكن الأب سليمان يخبر طفله الصغير فهد شيئاً، كان يقول إن أبا سعيد مسافر بعيداً، وقد أوصانا أن نرعى ولده ونحافظ عليه، فكل صباح جمعة يتهيأ مبكراً للصلاة، فيركب فهد بجواره في سيارة الكابريس العنابي التي يقودها إلى حي الجرادية جنوب المستشفى المركزي، ثم يتوقف في شارع ضيّق، ويأمر فهد بأن ينزل ويطرق باباً حديدياً صغيراً تعلوه مظلة أسمنتية، فيخمد فجأة ضجيج المكيف الصحراوي المنتصب على ماسورتين في الشارع، ينفتح الباب بعدها، ويخرج سعيد بشماغه المتجعد، ووجهه الناعس رغم آثار قطرات الماء عليه، يركب معهما إلى العليا، ليصلّوا في جامع شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قرب البيت، وبعد الصلاة يقف الأب سليمان أمام باعة المساويك الأفغان، فيشتري سواكاً طويلاً يقصّه أثلاثاً، يهذب طرف كل واحد منها، ثم يناول سعيداً واحداً، وفهداً آخر، ويلوك الثالث في فمه صامتاً سائراً نحو سيارته، بينما الصغيران يهرولان خلفه مثل قطين أليفين، يقود السيارة إلى طريق العروبة المجاور، وقبيل إشارة ليلى الأخيلية يتوقف أمام محل «ألبان زمان» فيشتري قنينة لبن طازج خمسة لترات، وكذلك حليباً طازجاً، ثم يدخل تموينات السليمانية ليأخذ جريدة الشرق الأوسط، بينما يأخذ الصغيران علبتي بيبسي كولا باردتين، مغمورين بسعادة وارفة.

يحمل كل منهما قنينة، ويضع الأب جريدته تحت إبطه، ويصعدون

إلى الطابق الثاني من البيت المؤجر الصغير، وبعد الغداء يتمدد الصغيران، فهد وسعيد، في غرفة فهد يشاهدان أفلام «ليدي» و«سالي» و«فلونه»، وأحياناً يشاهدان فيلم «الرجل الحديدي» رغم أن فهداً يغافل صديقه وينقل الوسادة من تحت رأسه إلى وجهه ليخبئ عينيه خوفاً من منظر الديناصورات، التي يخشى أن تهجم عليه من وراء الشاشة، وقبيل المغرب يأخذهما الأب مع الأم والأخت الصغيرة لولوة إلى قلعة السندباد بجوار مكتبة الملك فهد، أو حديقة المرح على طريق الملك فهد السريع، حيث يضعون أقمشة صوفية تحت مؤخراتهم وهم يتزحلقون بسرعة رهيبة نحو الأسفل، من على «الزحليقة» المتموجة الطويلة، ثم يصعدون وهم يلهثون، خاصة لولوة التي تعاني من نوبات ربو شديدة، تجعل العائلة كلها تداوم على الذهاب إلى مستشفى الأطفال بالسليمانية، حيث يكون الأب دائخاً، ويزداد دوران رأسه مع نواح الأطفال المرضى المنتظرين هناك فوق كراسٍ بلاستيكية، حتى إذا ما خرجت لولوة من غرفة الأكسجين، هرول مسرعاً كي لا يوقفه فهد عند بائع المأكولات الخفيفة والألعاب قرب الباب الزجاجي الكبير.

حين يكون الأب مشغولاً، أو يريد لقاء أحد أصدقائه فإنه يقترح أن يضع العائلة عند مدخل «ملاهي الخيمة» المخصصة للنساء والأطفال فقط، ويذهب ساعتين أو أكثر، كم كره فهد هذه الملاهي بمبناها الواسع ودهاليزها الغامضة، بعدما فقد أمه لأكثر من نصف ساعة، وما أن وجدته وهي تجذب لولوة خلفها، حتى أمسكت بأذنه بشراسة وهي تسأله بغضب: «وين كنت يا بهلول؟» تلك اللحظات التي تاه فيها، شعر أنه سيعيش بعيداً عن أهله، ستخطفه امرأة سمراء وتهرب به، سيعيش في منزل مظلم لا يرى فيه الشمس، كم كان هو ولولوة أخته يرتجفان من «البلدية الذين يسرقون العيال»، حين يشاهد عمال النظافة أو البلدية

يغمض عينيه حتى يعبروا من أمامه، كانت أمه تقول لهما: «الزيود يسرقونكم»، كان يظن في صغره بأن «الزيود» هم الرجال الذين يلبسون الرداء البنجابي، ظنهم الأفغان أو الباكستانيين، وحين كبر عرف بأنهم اليمنيون! كلما أوقف أبوه سيارته أمام محل التموينات، ونزل وحده، كان هو وأخته يختبئان أسفل المقاعد في الخلف، يتكومان في موضع الأقدام، كي لا يراهما اللصوص!

هل كان خوفه مبرراً منذ الخامسة حين يسمع أهزوجة غبية تقول: «ماما وبابا حبّوني، راحوا جدة وخلوني». كان يشعر أنهما فعلا سيتخليان عنهما فجأة، ويزداد خوفه حين يخرجان ليلاً، ويتركانهما مع آسية، الخادمة الاندونيسية. كان لا يخرجان حتى ينام الصغيران، ولكن كم هي مؤلمة لحظة الصحو المباغتة لأحدهما! يعطش فهد قرابة العاشرة أو الحادية عشرة، فيمشي دائخاً لا يكاد يفتح عينيه إلا قليلاً، كي لا يطير النوم، يفتح عينيه بما يسمح برؤية الطريق عبر الصالة إلى البرَّادة الصغيرة بالمطبخ، حين يعود يقوده قلقه إلى أن يفتح باب غرفتهما دون أن يطرقه، فلا يجدهما داخلها، هل كان حدسه آنذاك يشير إلى أنه سيفتقدهما فعلاً، في زمن مبكر، وخلال وقت قياسي، يطير الأب فجأة فيشعر بالتيه الحقيقي، تغرورق عيناه الصغيرتان أمام الرجال المعزين، فيكره حنانهم المؤقت وهم يمسحون بشفقة على رأسه، هو ابن الخامسة عشرة آنذاك، سن الحاجة الشديدة لأب حقيقي مثل سليمان، ليس مجرد أب يأمر وينهي، بل صديق حميم يجد ملاذه في حضنه، ما أقسى اللحظة حين ذهب معهم إلى مقبرة النسيم، في سيارة الجنائز التي تسير بصمت مهيب، منطلقة من جامع الراجحي على طريق الدائري الشرقي، مخترقة الشرق تجاه سور المقبرة الطويل، كانت الدمعة تتحشرج في صدره وعمّه يقرّب رأسه إليه ويقول: «أنت اليوم رجل البيت»! فيشهق بغتة ليمسح على

رأسه: «تعوَّذ من الشيطان يا فهد». ما أقساها من لحظة حين يحيط بك رجال لا تعرف أغلبهم وهم يواسونك وحدك! يضع أحدهم وهو أغباهم ورقة خمسمائة ريال في جيبك العلوي، هل هي ثمن الفقيد؟ ما أقسى لحظة عودة فهد مع عمه وولده ياسر، ومعه مشلح أبيه البنِّي الذي كان يغطي جنازته فوق النعش! ما أقسى أن يدخل البيت فتى الخامسة عشرة فيجد أمه وأخته لولوة تبكيان معاً، فلا يكاد يراهما ولا يميزها من سيل الدمع الذي غشا عينيه، وأغرق قلبه تماماً في حزن مبكر وطاغ. كم من ليلة بعدها نام فهد وهو يحتضن مشلح أبيه ويشم رائحته طول الليل حتى يغرق الدمع ملابسه فينام عند الفجر، بعد أن يحكي مع نفسه وينهنه بصوت مسموع!

«أنا لم أشبع منك يا أبي، فكيف تذهب وتحقق نبوءة الأهزوجة السخيفة؟! لم تركتني وحيداً عارياً؟! وأنت نفسك لم تعش أبداً يا أبي، مجرد طفولة منبوذة، ثم شباب سجن واغتراب، وأخيراً رجولة أنكرها عليك أهلك، فلم تجد من يرحب بنسب «خريج سجون»، حتى أوقعك الحظ أخيراً، مع تلك السيدة الأردنية الجليلة «سها» أمي، لكن الحظ ملعون لا يكاد يفرج عن أسنانه في ابتسامة خادعة، حتى يطير في غمضة عين! أنا أفتقدك يا أبي الآن أكثر من أي وقت مضى، أفتقدك في شبابي أكثر، أفتقدك حتى في قلب الليل حين أتهيأ للنوم، فأشعر بغربة ووحشة وبكاء طويل، ليل لا آخر له!

هل تعرف يا أبي معنى أن يخرج فتى الخامسة عشرة إلى ممر زهير رستم، ويجلس على عتبة البيت ينتظرك كل عصر؟! هل تعرف مدى نكسته وبكائه العالي حين يرى سيارتك الكابريس العنابي واقفة أمام الباب، لم تتحرك منذ أسبوع؟! أقسم أنك لو تعرف مدى رجفة قلبي

ونهنهة شهقاتي وأنا ألتف حول سيارتك مثل جرو سجين يبحث عن أمل نجاته في المراتب المظلمة للسيارة لخرجت فوراً من قبرك، وهرولت من مقبرة النسيم أشعث الرأس، مترب الكفن، تقطع الطرقات كمجنون، لتعانقني بشدة وأنت تجذب رأسي الصغير صوب صدرك وتبكي معتذراً: «لن أفعلها مرة أخرى يا فهد! أقسم لن أموت مرة أخرى بهذه الطريقة السخيفة!»

كم يجرحني صديقي سعيد حين يقول لي: «أنت محظوظ؛ لأنك رأيت والدك وعشت معه طفولتك، بينما أنا ولدت فلم أجده»!

هل تعرف يا سعيد معنى النظر إذا كنت ولدت أصلاً أعمى؟ طبعاً لا، لأنك لم ترَ أصلاً، وتبدأ فهم العالم من حولك من خلال حواسك الأخرى، لكن أن تفقد نظرك وأنت في الخامسة عشرة، يعني أنك خبرت الدنيا ومتعة النظر إليها، ثم فجأة صار كل شيء سديمي أبيض كالحليب! هكذا أشعر يا صديقي! هكذا كنت أرى أبي في كل ناحية، في شوارع الرياض كلها، وفي المحلات، أسمع ضحكته النادرة، بقيت سنوات أفزع صباحاً وكأنما يده تحط على رأسي ليوقظني بهدوء وسكينة: «فهد، يا الله المدرسة!»

أنت يا أبي عرفت السعادة قليلاً، حين عشت مع أمي سها لعقد ونصف من السنوات، ثم مضى حلمك بعيداً وغادرت مبكراً، وأنا أيضاً يا أبي عرفت السعادة للحظات حين وضَعَت طرفة رأسي في حضنها لأول مرة، فشعرت بالدفء يملؤني، لكنهم كانوا أسرع من أن يتركوا نبتة فرح تورق في هذه البلاد، هكذا قفز، حراس الفضيلة المشوهة، حراس الهواء السجين، وقطفوا فرحتي في سنتها الأولى، أترى ما معنى أن يأتي رجال أشداء عابسون ويقتحمون خلوتك النادرة مع حبيبتك؟ فقط لأنك جلست معها لتشرب قهوة، أو لتسمع صوتها في اللحظة التي ترى فيها عينيها وفمها؟ إنها لحظة لا توصف يا أبي!

- 6 -

حين دخل فهد مقهى الشلال في ليل صيفي، بحث عن سعيد في مكانهما المعتاد، آخر المقاعد شرقاً، حيث لا توجد ضجة التلفزيونات، وحيث الهواء حر إلى حد ما، فلم يجده، وعلى بعد مقاعد قليله وجده ساهماً، يسحب نَفَساً من فم الشيشة ثم يرفع رأسه نحو السماء وهو ينفث الدخان بصمت. عاجله فهد بمرح: «عم سعيد وين وصل؟»

لم يكن سعيد مهيأ للمرح والضحك، أجاب كما لو كان شخص آخر يجرّ الكلام من جوفه بصعوبة: «أفكر يا فهد بحياتي الغريبة، أفكر بحياة بلا طفولة، بأيام بلا طعم».

«يا شيخ خاف ربك، كل أمورك جيدة، ويكفي أنك حر، لا أم تطارد وراك، ولا أب!»

«ليت لي أباً يطاردني، أنقله من طبيب الباطنية بمستشفى عبدالعزيز، إلى طبيب العيون بمستشفى خالد، ليت لي أباً أراعيه وأسهر على راحته وهو شيخ، تعرف أحياناً يعتقد الناس أن فقد الأب في مرحلة الطفولة أو المراهقة مؤلم أكثر».

«طبعاً مؤلم أكثر لأنك عرفته وخبرته، لأنك ستراه في كل مكان، أنت لا تتخيل يا سعيد كيف أرى أبي في كل الشوارع، في طريق العروبة، أراه يدخل في أسواق بندة، ويقف ينتظر مع الآباء أمام مدرسة الأحنف بن قيس، ويدخل معي محل فيديو الماسة الزرقاء، و...»

قاطعه سعيد وهو يشير بيده إلى أحد عمال المقهى الذي مرّ مسرعاً دون أن ينتبه إليه: «آسف فهد، كلامك غير صحيح، المؤلم أن تظهر إلى الدنيا بلا أب، تظهر وقدّامك زوج أمٍّ، وعليك أن تدعوه أبي».

صمت قليلاً، وأرخى رأسه العاري إلى الخلف، كمن يستعيد الأيام: «أمي لم تعد تصدق رجلاً في العالم، كل الرجال في نظرها مخادعون، دائماً تراني كاذباً ومنافقاً، فأبي مشبب رحمه الله كذب عليها، حين كانت حاملاً بي في شهرها الخامس، تخيل، جاء إليها وقال بأنه سيأخذها وأمها إلى مكة، للعمرة، مسكينة جدتي، كانت فرحانة وهي تحلم بزيارة الحرم بعد ربع قرن من حجتها مع جدي الذي رحل قبل عشرة أعوام من مولدي، لم تكن أمي عيده تظن أن أبي سيفعلها في فجر الأول من محرم للقرن الجديد 1400 للهجرة، كنت جنيناً قد أكون أحس، أسمع ما يدور في الحرم، ربما سمعت طلقة الرصاصة الأولى التي قتلت محسن، الذي يعدونه أول شهيد مع الإخوان، كانت أمي وجدتي مع نساء أخريات في الخلوة، وإحداهن تقنعهن بأن المهدي سيملأ الدنيا عدلاً، وأن جيش الظالمين سينطلق من تبوك كما في الأحاديث والأثر، وسيخسف الله بهم الأرض، وينصر المهدي وجيشه، ثم سيخرج إلى المدينة ويتبعه خلق كثير يبايعونه، ويصلي هناك، ثم ينطلق إلى دمشق، ويؤم المصلين بعد نزول المسيح عيسى بن مريم. هكذا غسلوا رؤوسهن الصغيرة».

وقف العامل أمامهما، فطلب فهد معسلاً بالتفاح، وإبريق شاي ملقماً، وطلب سعيد جمراً بعد أن تحوّل جمر شيشته إلى رماد فوق غطاء القصدير المخرم في ثقوب صغيرة:

«كانت علامات الساعة عند أبي وجماعته كثيرة، من بينها أن الفرعون سيمتلك ذهب الأرض، وقد كان ابن الطيب والوزير السابق رشاد فرعون قد استثمر في قرية المهد، بين جدة والمدينة المنورة، حيث الذهب، فيما أصبح اسمه مهد الذهب لاحقاً وقد استثمرته الحكومة فيما بعد، طبعاً في نظرهم هو الفرعون، وقد حصد الذهب من أرض الحجاز!

شفت فهد كيف أبوي وجماعته ساذجين، كيف كانوا يفبركون الواقع حسب هواهم، حتى يصنعوا أسطورتهم المضحكة؟»

أجاب فهد: «فعلاً حكايات تشبه الأساطير»

واصل سعيد وهو يجرِّب أن ينفخ في ليّ الشيشة، حيث وضع عامل آخر جمرتين متوهجتين: «لا يمكن أنسى أيامي الأولى يا فهد، تخيّل رحم أمي كان سجن داخل سجن آخر ستنقل إليه بين مكة والمدينة، داخل سجن أكبر وهو البلد نفسها، داخل سجن هذا الكوكب اللعين، أحياناً فعلاً أستغرب. أبي، وقبل سنين من الحادثة، كان يتردَّد على جامع الرويل في البطيحاء بجوار البطحاء، كان الخطيب ذاك الوقت هو المهدي نفسه، وكان يلتقي بهم في دار العلم وراء قصر الأميرة العنود بشارع الخزان، وهم طبعاً ما كانوا من جماعة الإخوان أو القطبيين مثل ما يسمونهم، كانوا تابعين لأفكار جماعة حسن البنا، يعني ما كانوا يتبنون الخروج على الإمام، كان يمكن أن يطلق عليهم اسم جناح الحمائم، خلافاً للصقور الذين يؤمنون بالعنف والقوة والسلاح طيب ليه خرج أبوي فجأة على الإمام، وحمل السلاح، وبحث عن حلم مسروق، وش كان يبغى؟ ما أدري!

كانَ سعيد يحكي، ويكاد ينشج، بينما هما جالسان في مقهى الشلال، ووسط قرقرة الشيشة كان يحدث نفسه: «أبوي ضيّع كل شيء، النجاح والطموح والبيت والحياة، وركض وراء سراب صنعته له مخيلة مريضة». التفت نحو فهد، ومشروع ابتسامة صغيرة ترتسم فوق شاربه الخفيف: «تعرف فهد، لو كان يسمعني لقال إنك أنت المريض، وأنت التافه، وأنت الذي يركض خلف شهواته دون هدف، نعم قد يكون كلامه صحيحاً لو قال ذلك، أنا أصلاً غير راض عن حياتي، لكن هو الذي صنعها بهذا

الشكل، هو من خلق مستقبلي هذا، عشت مع نسوان: أمي وجدتي. اكتسبت مهاراتي الأولى ونظرتي الأولى إلى العالم، بينما كان حضرته قد شبع موتاً. سنوات طويلة جعل أمي تبكي في ليل الوحدة، وقد تتذكر كيف جعلها تدخل السجن وهي لم تر جندياً واحداً في حياتها، وكذلك جدتي، طبعاً جدتي كرهته جداً، وقد خدعها في آخر عمرها وأدخلها المعتقل، يمكن حتى كرهتنا أنا وأمي، مع أن مالنا دخل في ها الورطة!»

أجاب فهد مواسياً: «سعيد أنت الآن متفوق، أنهيت دراستك وتعمل في وظيفة معقولة، ألا يكفي هذا؟ يا شيخ احمد ربك».

ارتشف من كأس الشاي الثقيل بيده اليمنى، بينما كانت يده اليسرى تقبض على لي الشيشة، وابتسم قائلا: هناك أشياء يصعب تعويضها يا فهد، أنت عشت مع أب كل طفولتك، يعني أحسست بالأمان، أنا لم أحس بذلك، بعد أشهر حاول أخوالي أن يزوجوا أمي عيده، وبدأت مرحلة جديدة من الحياة المؤلمة.

مر بجوارهما بائع بنغالي يعرض عليهما أكياس صغيرة من الفستق واللوز، رفع سعيد يده بإشارة الرفض، وهو يستطرد: «تعرف يا فهد، يوم من الأيام أعرّفك على زميل عمل، اسمه راشد، في الأربعين تقريباً، قارئ ممتاز، هو أول من شجّعني على القراءة عن الجماعات الإسلامية، يا أخي بعد ما قرأت تمنيت بجد أن أبي كان صوفياً، ليته كان ضمن جماعة التبليغ، التي لا تهش ولا تنش في نظرهم، بس يتأمل العالم والملكوت من حوله، ممكن يقول البعض أن عقيدتهم باطلة، طيب ما الصواب إذن؟ شهر السلاح في بيت الطمأنينة؟ قتل المصلين أم الجنود أم النساء أم الحمام؟ ماذا أراد أبي؟ تعرف ماذا يقولون ويحلمون، لأنهم أصلاً بشر تقودهم مجرد أضغاث أحلام، يقولون كنا سنعتصم في الحرم ونبايع

المهدي المنتظر، وفي اليوم الثالث حين يتحرك جيش الكفار الظالمين من تبوك يخسف الله به، دون أن نقتل أحداً في الحرم!»

أجاب فهد مبتسماً، وهو يحرك الجمر الذي رقّد على رأس الشيشة ذي الرماد الكامد: «تصدّق، فعلاً كانوا يرون أن القاعدة في تبوك، وهي جيش الكفار في نظرهم، ستتحرك نحو مكة لتقاتلهم، ثم سيخسف الله بهم الأرض في الطريق!»

أطلق سعيد ضحكة صغيرة تغالب دمعة محتجزة.

-7-

حين دخل العم مشبب إلى العنبر الذي كان فيه الأب سليمان بمكة، قص عليه بعض ما حدث يوم احتلال الحرم المكي، لم يكن يرى أنه احتلال، بل يرى أنه الطريقة الوحيدة والمكان المناسب لمبايعة المهدي المنتظر، فقد كان دخولهم بالأسلحة غريباً شيئاً ما، كانت البداية قبيل الفجر أن يحمل رجالهم جثث أربع نساء محمولات على نعوش مغطاة بأغطية خشبية، لم يكن جثمان المرأة في الحرم المكي يغطى بعباءة مثلاً، كي لا يتبين جسدها أمام المصلين، بل توضع بنعش ذي غطاء خشبي مغلق، فقد كانت عائشة أول من استخدم هذا النعش المقبب، واستخدمه الإخوان وسيلة لإخفاء السلاح. كان أول فجر في القرن الجديد يزحف ببطء، والجماعة يحملون النعوش بطريقة اعتيادية باردة، والسلاح المخبأ مع ذخيرته، يكاد يستيقظ بشهوة نحو الأجساد، قرب الإمام وقرب أستار الكعبة اصطفت النعوش الخشبية، انطلق الإمام السبيّل يقرأ كعادته بترتيل هادئ ومطمئن، قراءته تفلق الفجر، وتخدِّر الحمام المكّي الذي يتمطى بسعادة فوق الرخام الأبيض، وما أن أنجز ركعتي الفجر، ذلك الفجر

الجديد للسنة الجديدة، حتى قام من خلفه أكثر من عشرة رجال بعضهم يرتدي مشالح بنّية، يخبئون تحتها مسدساتهم، أخذ أحدهم المايكرفون الذي يبث الصلاة على الهواء مباشرة عبر الإذاعة، فالتقطه الإمام منه للصلاة على جنازة، فسلّ الآخر خنجره، وشهره في وجه الإمام الذي صاح به: «اتق الله!»، فتراجع. بعد الصلاة تسلل الإمام إلى غرفته قرب الصفا، بينما رُفعت أغطية النعوش، ووُزّعت البنادق البلجيكية على أفراد الجماعة، الذين توزّع بعضهم على أبواب الحرم، يقفلونها واحداً تلو الآخر. وعند باب صغير اعترض أحد الحرس بملابسه المدنية: لماذا تقفلون الأبواب؟ صرخ في وجهه محسن: «ما هو شغلك!». تشاكسا وأخرج الشاب مسدسه وصوب، فطارت الرصاصة كرسول موت يختار فريسته، طارت الرصاصة ليس لهدفها، بل عبرت بأزيز نافذ وشرس وهي تشرخ هواء الفجر البارد، حتى اصطدمت بالغطاء النحاسي المقبب لمسمار مغروس في صفيح الباب الذي يغلف الخشب، كانت رنّة الرصاصة الطائشة شرسة وعنيفة وهي تصطدم وتعود خاطفة نحو صدر الشاب الملتحي، فتصرعه كأول شهداء المعركة.. هكذا يعدون قتلاهم: شهداء. كان صوت الطلقة الأولى قد وصل إلى أسماع المصلين وأفراد الجماعة، عندها بدأت شرارة الفتنة.

سقط القتيل الأول، وهو يتخبط قليلاً قبل أن تخمد جثته، لم يكن الباب الأخير قد أغلق، فهرب من هرب قبيل أن يقفل أفراد الجماعة الباب، بينما سيارتا وايت صهريج تتراجعان للخلف جهة شيب الماء عند المدخل الخارجي لخلوات الحرم، أحد الصهريجين يحمل الأسلحة والذخيرة، والآخر يحمل صفائح معبأة بالتمر، وأكياس الإقط.

كان يحيط بالحرم خلوات صغيرة، كل غرفة صغيرة مربعة لا تتجاوز

مساحتها تسعة أمتار، ولها باب حديدي، يبدأ بطول متر من الأرض على شكل صفيح مصمت، بعد ذلك يصبح قضبانا حديدية كما في السجون، حتى لا يتخذ زوار الحرم والمتعبدين هذه الخلوات مكاناً للسكن والنوم، وكي تتيح هذه الأبواب للعابر أن يرى من في الخلوة، فقام شباب الجماعة بتخزين الأسلحة والذخائر والتمر والإقط في هذه الخلوات الصغيرة.

صاح الخطيب في جنبات الحرم، فضجّت جبال مكة ورددت وراءه: أخواني في الله، قال المصطفى - صلى الله عليه وسلم- إن الله سبحانه يبعث في آخر الزمان من يعيد الأمة إلى صوابها، يبعث في آخر الزمان المهدي المنتظر، محمد بن عبد الله، كي يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت ظلماً وجورا. ثم فجأة يخطف قائد الجماعة منه الميكرفون ويوجه الأفراد: سيف.. سيف.. البوابة الشمالية! ثم يعود الخطيب يزف خبر عودة المهدي في بداية قرن هجري جديد، ويدعو المصلين إلى مبايعته بين الركن والمقام. فيخطف القائد الميكرفون ثانيةً: يا إخوان عليكم بجنود الحكومة! هكذا ظهر صوت الخطيب والقائد متداخلين في فجر بعيد، هربت فيه أسراب الحمام المكّي، وأفئدتها ترتجف، إذ يصعد القُنَّاص إلى المنارات العالية.

كان عيد قنّاصاً بارعاً، ظل في الأيام التالية يلتقط أي جندي يقتحم باحة الحرم أو يهبط بمظلته من الأعلى. لم يزل سليمان يتذكر كيف كانا معاً في ساجر، وهو يلقم بندقيته رصاصة ويتهيأ لصيد طائر يسبح في الهواء، وما أن يقترب من غصن الشجرة كي يحط عليه، حتى تئز الرصاصة لتسكن قلبه الصغير، فيهوى جثة خامدة. كان عيد يقول لسليمان: «الرجل البواردي هو الذي يلتقط الهدف وهو يطير، الهدف المتحرك، وليس الساكن أو الجامد، فالهدف الساكن لا فخر فيه! هذا هدف تصيده النسوان!».

أيضاً، حتى الهدف المتحرك في الحياة، مغرٍ وعصي على الكسب، فكل امرئ يستطيع أن يحوز الهدف الساكن المتاح للناس جميعاً، لكن ليس الكل يملك أن يخطف الهدف العابر، واللحظة العابرة فيجعلها لحظة متمكنة في حياته.

في المعتقل يتذكر شاب مصري اسمه صلاح، كان بين جماعة مصريين معتمرين، بقوا أياماً حتى جاءت تلكم اللحظة، إذ عاشوها بتأثر وانفعال، كانوا يسمعون عن الجهاد في سبيل الله، لكنهم لم يعيشوا هذا الشعور، فكانت اللحظة شديدة التأثير، لدرجة أن بعضهم من شدة الانفعال والتأثر التقط السلاح وبدأ يطارد الجنود والحراس، ويصرعهم بالرصاص..

ومن الذين أثارتهم اللحظة، كان شاب يدعى عبد الله، لم تسنح له فرصة دخول الحرم المكي، لكنه كان ضمن الجماعة ويسكن في ضواحي مكة، فأخذ سيارة ورشّاشاً وانطلق إلى ساجر، كي يحرّض الجماعة هناك، ويقودهم إلى احتلال الحرم النبوي في المدينة، كي يجذب انتباه العالم إلى هدف آخر غير الحرم المكي، ويخفف الحصار عن زملائه هناك في مكة، فطاردته سيارات الشرطة والجيش. حاولت أن تجعله يستسلم ويلقي سلاحه، لكنه استدار نحوهم، وصار يرش مطر الرصاص صوبهم، فأمطروه بدورهم حتى فض الرصاص جدار الزجاج الخلفي لسيارة الوانيت، وتسللت رصاصات متعاقبة لتنغرز في لحم عنقه وعصبه حتى تدلى رأسه على عجلة القيادة كثمرة ضخمة اكتمل نضجها.

كانت الأيام بطيئة والجماعة يتساقطون واحداً بعد الآخر، طائرات الهليوكوبتر كانت تقصف من الأعلى، بينما فرق الشرطة والحرس الوطني يصوبون من عمارة الأشراف، كان القائد في الأيام الأخيرة يختبئ خلف مقام إسماعيل، ظهره إلى الكعبة وبندقيته الخفيفة مصوبة تجاه عمارة

الأشراف، كان يصرخ بجماعته ويطلب تزويده ببندقية بلجيكية، كي يصل رصاصها إلى هدف أبعد، لكن المكان كان قد ضاق بهم، وتكاثر عليهم الرصاص بعد عشرة أيام من الحصار.

في الأيام الأخيرة حاولت قوات الشرطة أن تدخل الدبابات من جهة المسعى، فما كان من الجماعة إلا استثمار بنزين الوقود في سيارات الصهاريج، وبدأوا يسكبونها في قلال الماء الفخارية المخصصة لشرب ماء زمزم، ثم يقفلونها بقطع قماش يشعلونها ويقذفون بها صوب المجنزرات، كي تنفجر كقنابل مولوتوف..

ثمة قصف كثيف متتالٍ جعلهم يهبطون من مكان عالٍ إلى مكان أقل علواً... وهكذا كانت المدافع تقصف المنارات العالية التي يتحصَّن فيها القَنَّاصون، حتى أن المنارة كانت تهتز من شدة القصف، فبدأ القَنَّاصون يهبطون إلى السطح، بينما أغلب الجثث الملقاة على السطوح كانت منفلشة الرؤوس، فالرصاص قد هتك الجماجم، وخلط الدم بالدماغ على بلاط السطوح. ومن نجا منهم هبط إلى الدور الثاني ثم حاول الفرار، أو الاستسلام، وأخيراً تسلل معظمهم إلى الأقبية، حتى جاءت لحظة خنقهم بالغاز والقنابل المسيلة للدموع، فخرج مَن خرج منهم أشعث أغبر ممزق الثياب زائغ البصر، كانت صورهم تملأ الجرائد، وهم جالسون، بعضهم شعره غزير ومتسخ، وبعضهم الآخر أصلع خافض الرأس، كان الصوت الرخيم للمذيع حسين نجار يعلق على ذلتهم وخسارتهم.

كان الأب سليمان يقص في أيامه الأخيرة بعض الأحداث على صغيريه فهد ولولوة، فاحتفظ فهد بكل التفاصيل، وحين كان يتحدث إلى صديقه ذات يوم، نهض سعيد من مكانه وقال له: «سأريك بعض مأساتي!»

عاد وهو يضم إلى صدره قصاصة جريدة، فسأل فهداً:

- تعرف ما هذه الصفحة؟

- لا.

- شوف فهد، عندي قصاصة قديمة من جريدة الجزيرة، يوم عشرين محرم 1400هـ، فيها صورة المتمردين وبينهم رجال الشرطة يوزعون عليهم الماء، ويربطون جراح بعضهم.

سكت سعيد ونظر نحو النافذة المفتوحة، وقد صدح من خلالها صوت المؤذن لصلاة المغرب، فأضاف بحزن:

- كان أبوي مشبب بينهم، ولا أعرف من وضع على وجهه دائرة بقلم أحمر.

- يمكن أمي، أو أحد أخوالي.

- كيف حصلت عليها سعيد؟

- كانت عند واحد من أخوالي فسرقتها دون علمه!

- 8 -

أحياناً يشعر فهد بالأسى لأنه وحيد بلا شقيق، لكن وجود سعيد في حياته جعلها أكثر دفئاً، خاصة بعد أن سكنا معاً في شقة المصيف، على الدائري الشمالي، كان يزوره أكثر من مرة أسبوعياً، يخرجان معاً إلى مقهى الشلال على طريق الدمام، أو إلى مقهى «قف» في حي صلاح الدين، بعد أن يمارسا رياضة المشي حول سور وزارة التربية والتعليم، وهما يخطفان بصرهما بلذة تجاه البنات اللواتي يخفين بناطيل الجينز تحت عباءاتهن التي يشاغبها الهواء الخفيف، وقد يرمي سعيد بالون

اختبار تجاه إحداهن، وهي كلمة غزل ليرى تفاعلها أو تجاهلها، فيقرِّر بعدها المواصلة أو التوقف، كان فهد يضحك بخجل وهو صامت، وأحيانا يلتفت إلى الخلف ليرى ردَّة فعل البنت القادمة من اتجاه معاكس لسيرهما، ومن بين مَن اصطادهن سعيد في الممشى، كانت البنت الصغيرة نهى، رغم أنها كانت تسير بصحبة أختها وأخيها، وأختها تحولت إلى صديقة مؤقتة لفهد. وقد اكتشف سعيد أنها تحتاج إلى صعود جبال ونزولها كي يقابلها، حيث دائماً يكون معها الجيش كله.

أحياناً، حين يتفق فهد وسعيد على اللقاء، يتوافق ذلك مع وقت صلاة مغرب أو عشاء، حيث تغلق المقاهي أبوابها، فيحددان اللقاء في بهو فندق صلاح الدين بشارع الملك عبد العزيز، ولو كان لهما مزاج في تذكر أيام الطفولة فإنهما يتجهان إلى مطعم أبو بصيل قرب فندق صلاح الدين، ويطلبان رغيفي تميس وطبقي فول أو قلابة.

وإذا لم تكن لسعيد رغبة في الخروج، فإنه يقترح أن يجلب فهد معه فطائر من بيت الفطيرة الدمشقية، أو طبق حمص بالزيت، وطبق فلافل مشكلة من محل «حمص أبو زكي»، فيسهران حتى منتصف الليل، ثم يعود فهد دائخاً وحزيناً إلى البيت، حدث ذلك مراراً بعد وفاة أبيه، كان بحاجة إلى ما ينسيه ما حدث؛ لأن موت أبيه كان جرحاً عميقاً يشبه الخيانة، كأنما خانه حينما اختفى فجأة من حياته، وتركه وحيداً مع أمه وأخته الصغيرة لولوة، ما زال يذكر ذاك المساء المؤلم حين جاء عمِّه وولده ياسر ومعهما الخال إبراهيم، خال أبيه وعمِّه، كان جالساً في المجلس الصغير المطلة نافذته على الحوش الجانبي، مسترخياً تحت ضوء أباجورة خضراء، يراجع مادة الكيمياء، وما أن رن الجرس الذي تعوّد صمته، فلا يكسره سوى العامل البنغالي في تموينات السليمانية

الذي يحضر طلبات المنازل، حتى فتح نافذة غرفة الطعام المطلة على الشارع، فلم يرَ سوى ضوء أحمر لمؤخرة سيارة تقف بجوار الباب، وحين هم بالنزول كانت لولوة تعترضه وجلة: «مَنْ؟»

أجاب وهو ينزل الدرج المغطى بالموكيت الأسود الرخيص: «ما أدري!» فتح الباب وكانوا ثلاثتهم يصافحونه، وخاله يعتذر بلباقة «نعتذر الحقيقة أننا جئنا دون موعد ولا اتصال!» أجاب فهد مجاملاً: «بيتكم يا خال وما يحتاج مواعيد ولا اتصال».

حدّق ياسر في بوستر لوحة تجريدية لـ «بول كلي» تمثل صياد سمك فوق قارب، ثم نظر نحو والده وهو يقول: «رسوم الأحياء ما تجوز، ولا يجوز تعظيمها وتعليقها على الجدران!» كان فهد يود أن يصرخ في وجهه، وما دخلك أيها القذر؟ أهو منزلك أم منزلنا؟ وبينما كان عمِّه يهز رأسه موافقاً، التقط الخال الحديث بدهاء: «ما علينا، هذا ما هو موضوعنا يا ياسر»، وأضاف: «أنت تعرف يا فهد أن الظفر ما يطلع من اللحم، وأنكم جزء منا يا ولدي، وعمك هو أقرب الناس لك ولأختك». كانت المروحة في السقف تقذف بالهواء الثقيل ببطء شديد، والكلمات تطير بسكون وهي تحط فوق أذنيّ فهد تارة، وتحلق تارة من نافذة المجلس نحو الحوش الخارجي.

يتذكر فهد كيف كان ابن عمِّه ياسر يمسّد بأصابعه الطويلة لحيته المنفلقة إلى شطرين، وهو يرمقه من طرف عينه وراء نظارته الطبية، تاركاً شماغه المتراخي للوراء يظهر نصف طاقيته البيضاء، ومتباهياً بطقم أقلام ملونة في جيبه، كم كان يود لو جاء بلباس الطب الأبيض، ولا مانع أن يحضر سماعته التي يعلقها على رقبته ويضعها في جيب لباسه العلوي.

كان في السنة الرابعة في كلية الطب بجامعة الملك سعود، إذ كان

التحاقه بالكلية دافعاً للعم كي يترك منزله بحي البشر ببريدة، وينتقل إلى العيش بحي القدس شرق الرياض منذ سنوات، وما إن وطأت قدما ياسر بلاط الكلية حتى تعرَّف على شباب متدينين في كلية الطب، وتكاتف معهم، كي يبدؤوا رحلة احتساب الأجر عند الله تعالى، والصراع مع عميد الكلية لمنع اختلاط الطلبة بالطالبات في المعامل بمستشفى الملك خالد. كانوا يكتبون الشكاوى الواحدة تلو الأخرى، يرسلونها عبر الفاكس لمدير الجامعة مرة، وللإمارة مرة أخرى، ولوزارة الداخلية مرة ثالثة، وأحياناً يرفعون الأمر إلى الملك ويحرضون الناس عبر مواقع الإنترنت الإسلامية.

لم يكن يريد دراسة الطب، لكن أباه أرغمه على ذلك، كي يتباهى به أمام الناس، وبعد أن أمضى السنة الأولى، كان يخطط أن يتحوَّل إلى دراسة العقيدة في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، واستفتى شيخاً متشدِّداً في ذلك، فلم يقل له إن عليه أن يتعلَّم الطب وينفع به الأمة، بل قال له أنه علم دنيوي لا ينفع، ولا يشمله الله بالعلم الشرعي الذي تحثُّ عليه آيات القرآن.

- وهناك أيضاً اختلاط يا شيخ! قال ياسر ذلك كي يضمن أن يدفعه شيخه أكثر إلى الخروج من علوم الكفَّار وأذنابهم. لكن الشيخ صمت قليلاً، ثم باغته بأن أصرَّ على أن يبقى في الطب كي يجاهد الاختلاط، لأنه مفسدة.

- الجهاد يا ولدي أنواع، قال له، وجهادك مع زملائك ضد الاختلاط والفساد أعظم أنواع الجهاد، عليك أن تجاهد العلمانيين المنافقين أينما وجدتهم، فكما تعرف أن من أسباب سقوط المجتمعات والدول هو الفساد الأخلاقي.

هكذا بقي ياسر في الطب يحرِّض زملاءه الطلاب ضد أنظمة

الجامعة، يدخلون مجموعات على عميد كلية الطب وأحياناً يتقدَّمون بالشكوى ضد الكلية وعميدها إلى مدير الجامعة نفسه، ولو لزم الأمر لقاموا مع آخرين خارج الجامعة بإرسال البرقيات إلى الملك وولي العهد، يحذِّرون من مشكلات الاختلاط في الجامعة خلال الدراسة، في المعامل وخلال دروس التشريح، وفي غرف العمليات وفي ممرات المستشفى، وفي جلسات الاستراحة، هكذا كان يجاهد كما اقترح شيخه، منصرفاً عن دراسة الطب، مجتهداً في توزيع الكتيبات الصغيرة وأشرطة الكاسيت التي تحذِّر الفتاة المسلمة من خطر الاختلاط، وعرض الفتاوى التي تحرِّمه، وتنذر بخطورته على الأمة.

سعيد كان يعرفه، ويلتقيه أحياناً في كلية العلوم في محاضرات الأحياء، وقد رآه أكثر من مرة يقود طلاباً خلفه في بهو العمادة بالجامعة، يهرولون نحو المصاعد للوصول إلى مدير الجامعة.

«أحياناً أفكِّر كيف ينجح في تخصص صعب مثل الطب وهو مشغول بالشكاوى والبيانات؟» كان فهد يسأل.

فابتسم سعيد ببرود وهو يقفز نحو غلاية الماء في ركن المطبخ المفتوح في شقته وقد سمع صوت غليان الماء، وفرقعة انطفاء زرها الأوتوماتيكي، ليبدأ في صنع كوبين من الشاي: «تعرف أن عندهم دكاترة من نفس التيار المتشدد، يضبطون درجاتهم حتى لو كانوا لا يستحقون؟ وسمعت ألعن من هذا، تخيل عندهم زملاء متطرفون يعملون في قسم الحاسب، يدخلون على سجلات الطلاب، وعندهم رصد الدرجات والنجاح والرسوب».

- تساءل فهد بدهشة: «يعني كيف؟

- أبداً، هؤلاء يحولون درجة المادة من (f) إلى (d) أو أكثر، لأن في

ذلك أجر مساعدة المجاهدين المشغولين عن دروسهم بدفع الفساد والفتنة ومحاربة العلمانيين بالجامعة». ثم ضحك، وصاح وهو يحرِّك معلقة الشاي: «وتحيا الأمة العربية!» وأضاف وهو قادم بكأسي الشاي: «ومعها الأمة الإسلامية!»

بعد أشهر كانا في شقة المصيف يقلِّبان الصحف، فقرأ فهد في جريدة الرياض خبراً مطولاً، عن فرض زي موحَّد لعمل السعوديات في المرافق الصحية، ومنع الطبيبات والصيدلانيات والممرضات من لبس بنطلون الجينز، ووجوب تغطية شعر الرأس كاملاً، ومنع لبس الذهب والإكسسوارات وطلاء الأظافر ومساحيق التجميل، ووجوب ارتداء حذاء بقاعدة مطاطية لا يصدر صوتاً خلال المشي! ولا يزيد ارتفاع الكعب عن 5سم! كان فهد يقرأ التفاصيل بصوت عالٍ على سعيد، وهما يستعيدان جهاد ياسر، أو الطبيب المجاهد في سبيل الله، الذي يجاهد مع حزبه في كلية الطب:

- كل شيء ممكن أفهمه إلا حكاية القاعدة المطاطية هذي!
- حتى ما يطلع صوت أثناء المشي!. أجاب سعيد بحذق ودراية.
- طيب أنا عارف! لكن وإذا طلع صوت؟ وش ممكن يصير؟
- يا أخي الصوت يثير الانتباه إلى جسد أنثى يتحرك بغواية!
- ما فهمت!
- يعني من يسمع الصوت حتى لو ما شاف زول الطبيبة، يصير يتخيلها، أردافها، صدرها يهتز، وبعدين يشتهي. وضحك سعيد بشدة.
- يعني حتى صوت الكعب صار عورة بعد؟
- طبعاً، لأنه يثير الفتنة!

بينما كان سعيد يغمس في عمق أحد الكوبين كيس شاي ليبتون صغير:

- تعرف فهد، أحياناً أحس أننا محظوظون أننا عشنا هذا الزمان، وفي هذا المكان تحديداً، لأن هذه المسائل الغريبة ممكن تخلق عندنا فن ودراما سوداء مرَّة، لكن للأسف حتى الفنَّ أيضاً مُحارب وممنوع هنا!

أطلق فهد ضحكة عالية، على غير عادته، وهو يقول: «تخيَّل كل طبيبة وصيدلانية تحط في شنطتها مسطرة صغيرة، وكلما حصّلت جزمة لها قاعدة مطاطية، طلّعت المسطرة تقيس الكعب المطاطي حتى تتأكد أنه ما يزيد عن خمسة سنتيمترات!»

أجاب سعيد بجدية أكبر: «لا، المصيبة تخيَّل أن مخالفة التعليمات ممكن تسبّب فصل الموظفة! يعني ممكن طقطقات كعب طبيبة على رخام ممر مستشفى يدخلها في قائمة العاطلين عن العمل! يا الله على ها البلد!»

بعد صمت قليل، صاح فهد: «عندي فكرة!»

- هات يا أبو الأفكار!

- ليه ما يفرشوا ممرات المستشفى موكيت!: حتى ما يطلع صوت لكعب الطبيبات والممرضات.

شهق سعيد بسخرية: «أقسم بالله إنك أعظم عبقري، وأعظم من كل المجاهدين في المستشفيات»، ثم رشف من كأسه، وأضاف «ليه ما تسجل فكرتك براءة اختراع؟».

- 9 -

«حبيبتي، لا تفوتك صفحة خمسة من جريدة الرياض»

ضغط زر الإرسال، وبعد نصف ساعة، بينما النوم بدأ يتسلل إلى عينيه ببطء، شهق جواله برنة خفيفة، وبقي يومض، وكانت ضحكتها تغسل الليل الساكن، أخبرته أن رسالته كانت رابع رسالة تصلها عن قرار فرض الزي الموحد للعاملات في المرافق الصحية، كانت كل الرسائل من صديقاتها في أكاديمية العلوم الصحية، تسخر من فكرة الحذاء والجينز والإكسسوارات، تخيلت طرفة بعض الطالبات اللاتي يلبسن الجينز خلال الدراسة، ويخبئنه تحت العباءة، التي فوقها عباءة ثانية.

سميرة، أو سمير كما يسمينها الطالبات، تهرول من بيت أهلها في حي شبرا، بعباءة محتشمة فوق الرأس، وحين ينطلق السائق الفلسطيني بحافلته الصغيرة بطريق الملك فهد، تخلع العباءة وتضعها داخل حقيبتها الواسعة، لتظهر عباءة فوق الكتف، مطرَّزة على الذراعين بلون فضي فاقع، تلتمع خرزاته الموشاة فوق سواد العباءة، وتنتشر لوحة أخرى على ظهرها وفوق مؤخرتها، ثم ترتدي النظارة الشمسية الكبيرة، ذات اللون الوردي، جالسة في المقعد الأخير بالحافلة، وهي تلقي ببصرها على السيارات المتاخمة في الطريق.

سميرة، الشابة العشرينية، منذ اليوم الأول بدأت تسير في ممرات الأكاديمية بجينز كحلي، وقميص أبيض برسم عين كبيرة فوق نهديها الصغيرين، خطواتها واسعة ورجالية، لا تكفّ عن ملاحقة الطالبات الناعمات بجلودهن السمر، حين رأت طرفة لأول مرة، تسمَّرت أمامها وجعلت تحدِّق فيها وهما جالستان على مقعدين في الممر، كانت سميرة تضع مخدَّة المقعد فوق حضنها، وطرفها بين فخذيها المفتوحين، وتدير

القلم في فمها بطريقة مكشوفة، لم تكن طرفة تعرف إن كانت تنظر نحوها أم نحو النافذة خلفها، فالنظارة الشمسية تخفي عينيها تماماً عن الأخريات، لم تكن وحدها في الأكاديمية بل أن ثمّة خمس بنات، أو «بويات» كما يسمونهن، يلبسن الجينز والقميص الفضفاض، وحذاء رياضي، ونظارات شمسية، ويتجولن في الساحة يعاكسن البنات، إحداهن تضع يديها في جيبي البنطلون، تخطو بطريقة رجالية واثقة، بينما تشبك بذراعها بنت بيضاء ناعمة، تلقي برأسها أحياناً على كتفها، وتعيش في عالم آخر، لا تحس بنظرات الأخريات، ولا تعليقاتهن الماجنة، تدخلان الحمامات معاً، حيث لا تخفي الجدران المكشوفة من الأعلى لهاث أنفاسهن الساخنة.

المشهد كان مريعاً حين اشتبكت إحداهن مع حبيبتها، وتبادلن الكلمات القذرة والاتهامات، وقد اكتشفت البنت أن «بويتها» قد عاكست فتاة صغيرة استجابت لها، لم يكن الموقف مضحكاً لطرفة وصديقتها نهى، بل كان غريباً ومؤلماً، فلم تملك إلا أن تتجاهلت تغزّل سميرة بها، وبعينيها، وهي تحاول معها في لحظة تفرّدها بها تحت الدرج، متوسلة بأن تجرِّب معها لدقائق، فقط حضن وعناق، وإن راق لها الأمر فستقوم بتقبيلها لدقائق، لكن طرفة أجابتها وهي تركض صاعدة الدرج بخوف بأنها لا تستطيع أن تفعل: «أكره البنات!» تركتها سميرة تغيب في الطابق الثاني، ولكنها لم تفقد الأمل.

قالت طرفة وهي تستعرض قرارات الصحة، بأنها أصلاً لن تعمل ممرضة، فأخوتها عارضوا الفكرة بشدة، وقرروا بأن تعمل في مختبر أو صيدلية، ثم ضحكت بشدة وهي تقص حكاية ابنة عم نهى، التي تعمل صيدلانية في مستشفى حكومي.

كان وقت الظهيرة، حين وقف بدوي بشاربين كثين ومعقوفين، وهو يحمل طفلته الصغيرة شعثاء الشعر، حمراء الخدين بفعل الحرارة العالية، جلبت الصيدلانية الأدوية ووضعتها فوق الورقة على الطاولة، مسكن الحرارة فيفادول، مضاد حيوي أجمانتين، وشريط تحميلات عند اللزوم، وبدأت تكتب عليها التعليمات، أخذت قارورة المضاد الحيوي، وأشارت بالقلم فوق مستوى المسحوق الأبيض داخل القارورة، وقالت بأن عليه أن يضيف ماء نظيف إلى هذا الحد، ثم يرجّ القارورة، كانت يدها البيضاء تهصر القارورة بشدة، وتهزّها أمامه وهي تقول: «ترجّها بقوة» كانت نظرات البدوي الثاقبة تلتهمها، أخذ كيس العلاج ومشى خطوات قليلة، حتى توقف وأنزل صغيرته على الأرض، ساحباً قارورة المضاد الحيوي من الكيس، عائداً نحو فتحة الصيدلية، وحينما مشى نحوها كانت تراقبه، إذ لاحظت أن عموده الضخم يحمل ثوبه كخيمة، كسهم سينطلق، خجلت وأغضت بصرها، سألها مرتبكاً، وقد رفع القارورة أمامها: «أحط الماء في هذي، ولا في قارورة ثانية!» أجابت بهز رأسها، وهربت إلى الرفوف الخلفية للصيدلية.

ضحكت طرفة بصخب: «تخيَّل، معقول هذا مجتمع، هذول بشر؟»، ثم تضيف بنبرة حزينة: «والله بجد إحباط، يعنى الناس محرومين جنس إلى هذي الدرجة؟»

قاطعها فهد: «يعني شلون؟ لا تقولي قراراتهم صحيحة؟»

أجابت وقد خبا صوتها قليلاً: «لا، حبيبي، أنت تعرف موقفي أصلاً، لكن ما أقدر أتخيل مستقبلي في العمل!»

قال لها بأن المشرّع الذي سن قرارات الصحة، لو فكّر بطريقة أخرى، ووضع قوانين صارمة ضد من يتحرّش بالنساء، تصل إلى السجن

لسنوات، لتردد هذا البدوي ألف مرة، قبل أن يشهر سهمه نحوها، لكن العقاب دائماً ضد المرأة المسكينة، لأنها هي التي استفزت عمود خيمته.

لم يكن فهد يثق تماماً بتصرفات حبيبته، رغم أنها تعبد عينيه كما تقول دائماً في رسائلها، إلا أنه يشك حينما تتصل ويسمع صخب زميلاتها في الأكاديمية وضحكاتهن الماجنة، إحداهن تسأل: «وين طرفة؟» تجيب الأخرى: «هناك ترضع!» فيضحكن بصخب وجنون، تضحك طرفة بدورها، وتزعق فيهن طالبةً أن يصمتن كي تسمعه، ثم تشرح له: «ترضع، يعني تتكلّم بالموبايل!» يسمع صوت إحداهن تحاول أن تسمعه صوتها بنكتة أو سخرية، ثم تحاول أن تغري طرفة بأن تعطيها فرصة لتسلِّم على حبيبها، كانت تقول له إنهن بدورهن يحاولن أن يجعلنها تحكي مع عشاقهن، لكنها ترفض بتاتاً. لم يقتنع بأنها لا تتحدث مع أحد غيره، خاصة أن صديقاتها يوحين لها بأن تعيش «فري» وببساطة ومتعة: «الدنيا ما تسوى تعقيدك!»

كم توقَّف متعثراً بشكوكه حتى كاد أن يصرخ فيها، وقد أرسلت له: «ابعتلك طلقة حب، وقذيفة أشواق، وعبوة حنين، وسيارة مفخخة بالورد والياسمين...»، ثم أضافت في ذيل الرسالة: «بالله قل لي رأيك بالمسج»، ثم أخبرته بأنها رسالة من سائق الحافلة الفلسطيني إلى إحدى صديقاتها داخل الحافلة التي تسير من السويدي إلى المغرزات، كان يسأل كيف يرسل السائق الفلسطيني رسالة كهذه إلا إذا كانت علاقة حب تربطه بصديقتها أشواق، تلعثمت وقالت بلؤم: «تصدّق ما فكرت مثلك؟»، وبعد أن أرسلت له رسالة وسائط كانت خلالها تتأمل من نافذة الحافلة بنظارتها الشمسية وترفع كل فينة شعرها المكشوف بيدها اليمنى وتردد بحزن مع عبدالله رويشد: «الله لو لي عمر ثاني، والله لأعيشك مرتين»، فسألها كيف تصورين مقطعاً كهذا وأنتِ في الحافلة؟ هل رآك الفلسطيني مهند

والحافلة تتحرك في شوارع الرياض؟ فأقسمت أن بينهن وبين السائق ستارة مغلقة، لكن بعض الطالبات الشقيّات يحببن التحرش به، فيفتحن الستارة أحياناً ويحكين معه، مع أنه بقي محترماً جداً ومؤدباً.

كان فهد يغتاظ في البدء حين تتحدث عنه بهذه الطريقة، ويصيبه القلق حين تحكي له عن مغامرات سميرة، أو سمير «البويه»، وزميلاتها، لكنه أحس في لحظات أنه يأخذ العلاقة على محمل الجد، في مجتمع جاد ومأزوم من الخارج، ولاهٍ وساخر من الداخل، وليس أكثر سخرية من أن تخبط سميرة بيدها على مؤخرة طرفة لحظة مرّت بجوارها، لتلتفت بغضب: «خير؟». تهزّ الأخرى يدها وحاجبيها بدهشة، كأنها لم تفعل شيئاً مؤذياً. أضافت طرفة بحنق: «قلت لك، ما أحب حركات البنات السخيفة!» وأمالت فمها باستهجان: «تحرشات سخيفة بجد!» تفوهت سميرة ساخرة: «والله لو كنت محاصرتك تحت درج، ولاّ في حمام!»

الحياة في الرياض إذن، تجمع نقيضين، لا أحد يهتم بحالتك، فقرك وجوعك، معاناتك وحزنك، وفي الوقت ذاته، يظن الكل بأنك سهل ومباح لأن يفعل بك غيرك ما يشاء!

- 10 -

خبطات سها على باب الصالة الداخلي جعلت ابنها فهد يستأذن ضيوفه، ناولته صينية القهوة والفناجين والتمر، وهي تهمس: «من؟» حين أخبرها سألت: «شو بيريدوا؟» هز رأسه جاهلاً بأمر زيارتهم، وحين سكب أول فنجان لخال أبيه، أو خاله كما يسميه، تناوله قائلاً: «عشت يا ولدي!»

تحدث طويلاً عن الستر وحفظ النساء وكرامتهن وسد حاجتهن، حتى وصل أخيراً إلى ذروة الكلام التي تشير إلى أن بقاء الأرملة لوحدها

مضر لها. قاطعه فهد: «لكن، أنا وأختي، معها يا خال». تابع قائلاً: «أختك يا فهد صغيرة وهي تحتاج لرعاية وانتباه، وأنت ستتزوج في النهاية»

هل سمع الخال شيئاً، هل اشتكت أمه لأحد، وطار الكلام كما هي عادة أهل بريدة، يطيّرون الكلام بدل الحمام، فسمع شكواها أو أحلامها، كأنما كان في بعض كلام الخال بعض غموض لم يتبين للصبي فهد المنصت بأدب قبيل الجملة الصدمة!

لا أحد يدرك هول الصدمة، فكانت الجملة الأخيرة التي نطقها الخال إبراهيم تشبه قذيفة تدك فجأة جدار مكتبة هادئة تماماً، تشبه بركاناً دمر وجه الأرض الساكن فجأة، زلزالاً بأعلى درجات ريختر نفض البيت الصغير الحزين المتواضع، أو تشبه قفزة سمك قرش مباغتة وهي تشق سطح الماء الصامت، أو ماذا يمكن أن يقال عن فجاجة الجملة تلك، أن يأتي العم ذو الزوجتين، لينقذ وحدة أم فهد، السيدة الأرملة سها، ويحمي طفليها من الضياع والفساد!

- عمّك أسلم من الغريب، ليحفظ الأسرة وابنة أخيه من دخول الأجناب لبيتكم!

- هكذا إذن!

- ما أظن يا خال!

- ما هو سهل تستبدل أمي ذكرى أبوي بأحد، مهما كان! أضاف فهد بحدّة.

حين خرج ثلاثتهم، تسلل فهد إلى غرفته، وأغلق بابها، وبكى حتى هدأت روحه.

كان حزيناً وساهماً، تطوف هواجسه فوق رأسه المسترخي فوق

كرسي الطاولة، ويحدث روحه كشيخ وقف على أنقاض منزله المحترق، يتذكر أيامه الجميلة:

في الصباح الباكر توقظني أمي لأذهب إلى المدرسة، بينما تغط لولوة الصغيرة في نومها، كنت أجلس في الصالة ناعساً، وأبي يتناول إفطاره بيضة مقلية وصحن عسل وادي النحل. فيروز التي اكتشفها أبي من خلال نبيل هواملة، زميله الفلسطيني في شركة توزيع الصحف، يأتي صوتها من المطبخ كل صباح: «أنا عندي حنين ما بعرف لمين، ليلية بيخطفني من بين السهرانين». كم كانت تقلقني فيروز وأنا في السابعة، حين تكون أمي قبالة مجلى المطبخ، فاتحةً نافذة المطبخ الشمالية، حيث هواء آذار يدفع صوت فيروز خفيضاً منساباً وحزينا: «نسّم علينا الهوى من مفرق الوادي، يا هوى دخل الهوى خذني على بلادي!» كنتُ أظن أنني سأعود يوماً من المدرسة فلا أجد أمي، خاصة حين رحل أهلها إلى عمّان، وقت أن طُرد الأردنيون والفلسطينيون واليمنيون من السعودية، فقد كان بيان الأردن بأن الحرب على العراق هي حرب على الأمة العربية، بيان نحس تسبّب في طرد أهلي، فلم أرهم إلا قبل سنوات قليلة، كانت أمي حزينة يتملكها صمت طويل وعينان ذابلتان، لكنها تغسل حزنها ووحدتها بالأغنيات، والخروج ليلاً مع أبي إلى المقاهي والمطاعم، يأخذوننا معهم ليالي الخميس والجمعة، بينما يذهبان وحدهما بقية ليالي الأسبوع بعد أن ننام.

هل ستبقى فيروز تسكب صوتها فوق جدران بيتنا؟ وهل ستعلو رائحة القهوة التركية التي يدمن أبي وأمي شربها؟ وهل ستفوح رائحة أنابيب ألوان الزيت من غرفتي وأنا أرسم بورتريه لولوة وهي في الثالثة وفمها ملوث بالآيسكريم؟ وهل ستعزف أختي لولوة على بيانو صغير جلبه أبي من رحلته إلى دبي؟ وهل ستبقى لوحات بول كلي وغوستاف

كليمت على جدران الصالة والمجلس؟ هل ستبقى الحياة في ردهات دورنا العلوي في العليا، تلكم الحياة التي صنعها أبي؟ أم سيحتل عمِّي بيتنا بحجة الستر على الأرملة المسكينة واليتيمين الصغيرين؟ سيأتي بملامح الموت معه، ستموت فيروز، وسيختنق صوتها تماماً، ويحضر بدلاً عنها الشيخ الحذيفي يتلو سورة الكهف. ستختفي القهوة التركية وتتلاشى رائحتها أمام القهوة العربية وأكياس تمر السكري المكنوز، وسيتلف البيانو الصغير وتطير أصابعه البيضاء والسوداء في صندوق النفاية الضخم في طرف شارع سيدة الرؤساء، وستموت أختي الصغيرة، وتفقأ عينيها اللاهيتين فوق قماش اللوحة التي رسمتها، لكن الآيسكريم سيبقى شاهداً حول فمها، وسيقطع رأس دميتها القطنية لأنها حرام، وستعدم أشرطة الفيديو كلها، فتذهب «فلونة» و«سالي» إلى حال سبيلهما، فماذا أراد خالي إبراهيم ذاك المساء الحزين؟ هل كان صادقاً حين جاء يعرض فكرة زواج عمِّي من أمي؟ هل كان سيكفِّر عن سوءته حين شارك في تظاهرة أمام قصر ابن بتّال في الخمسينيات ضد النواب وأهل الدين والتقوى، ويثبت لأقاربه في القصيم أنها غلطة شاب مراهق؟

حلّ الليل، فخرج فهد محبطاً وحزيناً تغشى عينيه غمامة دمع مالح، سار إلى طريق العروبة، انعطف بجوار مطعم بيتزاهت، كم يخيفه المرور قرب جهاز الدينمو الذي تختبئ خلفه قطة سوداء، كان لا يحب القطط أبداً، يشعر بقشعريرة تسري في جسده حين يلمحها تختبئ وعيناها تحدقان به، وما أن يتجاوز المطعم وتموينات السليمانية ومحطة البنزين، حتى يتوقف عند مقهى «طريقتي» فيدلف متحسساً طريقه في خفوت أضواء الداخل، يطلب قهوة تركية مرَّة ويتأمل حياته التي تسارعت بطريقة مخيفة بعد سن العاشرة. حين خرج من المقهى لم يعد إلى البيت، بل ظل يتجول في الشوارع بلا هدف، أنهى شارع ليلى الأخيلية حتى أقصاه

شمالاً، ثم انعطف يساراً حتى وصل إلى شارع العليا، وعاد باتجاه برج المملكة الذي بدأت تظهر ملامحه شامخاً ومخيفاً. مر بجوار قصر الأحذية الذي كان مغلقاً، ثم دخل يساراً. حين دخل البيت ومرَّ بجوار حوض الورد الصغير، أسفل الدرجات الأربع عند المدخل، الذي زرعه مع أبيه قبل سنة، تذكر عمّه حينما دخل وهو يتهكم على الورد: «بدلها ازرعوا شيء ينفع، كوسه، طماط!» لم تكن أمام عينيه سوى قرية المريدسية، وكل شيء له علاقة بالجمال لا يعني شيئاً لهؤلاء القرويين، ما معنى أن تنظر إلى شيء دون أن تأكله؟! هكذا هو منطقهم! وما معنى أن تبقى امرأة أرملة أو طليقه داخل بيت دون أن يأكلها أو ينكحها رجل؟!

حينما دلف فهد إلى البيت، وبينما كان يصعد الدرج خافضاً بصره فاجأته أمه وهي تجلس على الدرجة العليا الأخيرة وتنتظره، لم يخبرها بشيء مما قالوه: «أبداً كانوا يسألون عن الورث وسيارة أبوي، إذا كنا نبيعها أو لا». انصرفت إلى غرفتها دون أن تقول شيئاً، أحس أنها أدركت كذبته وربما كانت تتنصت عليهم خلف العازل الخشبي، فهي تفعل ذلك كثيراً، وقد فاجأت صغيريها مراراً بأنها تعرف ما يدور بينهما، وتضحك عليهما فيدهشان لمعرفتها بذلك، بأن الغزالة تنقل ما يقولانه، فيجب ألا يكذبا عليها أبداً: «بلى سأكذب يا أمي، أما الغزالة فقد قتلتها منذ مات أبي!» هكذا قال لنفسه وهو يذهب إلى غرفته الكئيبة.

حتماً كان محرجاً لها أن تقول له: «أنت كذاب، جاؤوا يخطبونني»، ولعله أيضاً أكثر حرجاً له أن يقول لها ذلك، كانت أمه خجولة ومترددة، ويسهل إقناعها والتأثير عليها. حينما خطبها والده قبل خمسة عشر عاماً، فهي تدرس في المتوسطة الثالثة بشارع الخزان، ولم تكمل دراستها، فأبوها محمد مطر، المحاسب القديم في الرئاسة العامة لتعليم البنات، ركَّز جهده على تعليم أولاده الذكور الثلاثة، وكم كانت الفرصة رائعة أن

يزوِّجها مبكراً لشاب سعودي! فهي مولودة في المستشفى المركزي بالرياض، وهو صرف أكثر من ثلاثين عاماً في هذه المدينة التي طردته أخيراً في نهاية 1990 ليعود غريباً إلى عمَّان، وقد تحوَّل شاربه إلى ندف ثلج أبيض، ذلك الشارب الذي داعب بشعراته القاسية خدي فهد وهو يحمله قبيل سفرهم بأيام، كانت ضحكته عالية ودودة، وهو يشاور فهداً في سنته الخامسة إن كان سيسافر معهم إلى الأردن؟

جده محمد مطر، كان يعرف الرياض القديمة أكثر من أهلها، يعرف حدودها القديمة من الديرة إلى دخنة، يستطيع أن يصف شوارعها كما لو كان ينقل من خريطة، من شارع العطايف إلى شارع السويلم، فشارع الظهيرة، حتى المحلات القديمة الشهيرة التي يعرفها ويحدد مواقعها، محل بيت الرياضة الفالح، ومكتبة الدخيل واستديو الهدا، يتذكر البطحاء جيداً ويرشد أبا فهد أحياناً إلى تفاصيل لا يفهمها، يحدثه عن البطحاء وعماراتها الشهيرة، عن أول عمارة هناك، وأول محل تسجيلات إسلامية، وعن شارع الوزير ابن سليمان. ما أبهى ضحكة الجد الأردني حين يروي لصهره عن النوَّاب في شارع الوزير زمن الستينيات! وقد جاء غريباً عن المدينة وتقاليدها. كيف كانوا يهزون العصي في وجوه الغرباء الذين يلبسون البنطال وهم يدعونهم: الصلاة... صل يا أبو مقص! كانت الساقان داخل البنطال في نظرهم تشبه شفرتي المقص!

أما الجدة أم عصام فهي امرأة هادئة، بيضاء وسمينة، حينما تكمل صعود درج الدور العلوي الذي تسكن فيه ابنتها سها، تتوقف هنيهة في بسطة الدرج الأخيرة وهي تلهث وتناول حقيبتها لابنتها: «دخيلك سها، امسكي». كم كان فهد يحبُّ رغيف الزعتر الذي تصنعه جدته أم عصام بطريقتها الفريدة! وهي تقول له لن تشرب معه بيبسي، فاختر ماء أو شاياً أو حليباً. حين يتلكأ كانت تأخذه في حضنها الوثير الرخو، وتقص عليه

حكاية الأرنب الذي لا يسمع كلام أمه، فينهمك في سماع الحكاية من جديد وهو يلوك الرغيف دون أي مشروب. كم افتقدهما حينما غادرا الرياض، بل كان الفقدان جارحاً ومضاعفاً حينما غادروا بعدهما بأيام إلى بريدة، كان منهكاً لفقد جديه الحنونين، وبيته أيضاً، بعدما قرر أبوه أن يغادر الرياض وقد سقط صاروخ عراقي من فئة سكود على مدارس نجد الأهلية، وآخر على مبنى الأحوال المدنية، ولعل الثالث حينما كانوا خارجين في شارع الثلاثين بالعليا. وقد أوقف الأب سيارته قرب مطعم أبو كمال، منتظرين أن ينتهي طلب العشاء، فصاحت صفارة الإنذار كطفل يبكي بحسرة، كانت الأم سها ترتجف وهي تسأل زوجها بقلق أين نختبئ؟ في حين كان سليمان يحاول أن يجعل الموقف مضحكاً ويخفف رعبها وبكاء الصغيرين، وما هي لحظات حتى سمعوا صوت رجة عنيفة، عرفوا فيما بعد أن الصاروخ سقط على مبنى مفروشات قطان وأنعم، بطريق الملك عبدالعزيز، قرب القاعدة الجوية التي كان يستهدفها صاروخ سكود الروسي.

بعدها اضطر الأب أن يطلب إجازة من عمله، فلا فائدة من البقاء هنا أمام الرعب الذي يطوّق عنق الأم والطفلين، خصوصاً حينما يذهب إلى العمل فلا يعود إلا مع أذان العصر، لم يكن شيئاً يعزي وحدتهم ومصارعتهم للمجهول، فلا أهل هنا، ولا أصدقاء، ليس سوى تلك الكمامات البغيضة، التي صرف عليها الأب مرتب شهر كامل، ولن تنقذ حياة الأم والطفلين من الموت والدمار، كان يتذكر حيرة أبيه وهو يسأل أمه حين يطالعان التعليمات على شاشة القناة السعودية الأولى، أين نختبئ في هذا الدور العلوي؟ فلا قبو فيه، ولا بيت درج يتبعه، نحن نصيبنا الدرج الطويل، بينما بيت هذا الدرج يخص الدور الأرضي، ما فائدة إحكام إطارات النوافذ بالأشرطة اللاصقة وإغلاقها حذر الكيماوي الذي قد يرسله صدام حسين إلينا، فيملأ سماء الرياض ويتسلل إلى أنوفنا،

ويملؤونا فنتمدد مثل خراف منتفخة، أو مثل جثث ضحايا حلبجه المنثورة في الطرقات؟ وما جدوى السراج بفتيلته المترجرجة حين يضئ الحلكة؟ أنموت وفي ظلام أيضاً؟ كم أصاب فهد ذعر هائل، وانقبض قلبه الصغير حين جرَّب الأب أن يشعل السراج بضوئه الضعيف الواهن، وقد أطفأ جميع الأنوار في البيت، فصار يشعر بالضيق كل ليل، ويبكي، حتى أخذه أبوه ذات مساء مع أنين صفارات الإنذار إلى السطح، كي يريه أضواء صواريخ الباتريوت الأمريكية المضادة، وهي تتخاطف في ظلمة سماء الرياض كالألعاب النارية، كان الأب يضحك، لكن الصغير فهد كان يبكي وهو يدفن رأسه على صدر أبيه.

الجزء الثاني

نعل يخرج من الظلام

«لو كان عليّ أن أتخلى عن ولعي بالفنون،

لما تخصصت في غير العواء»

إميل سيوران: مقايسات المرارة

-11-

لم تكن بريدة مكاناً مألوفاً للصغير فهد، رغم عيشه لأشهر وقت حرب الخليج مطلع التسعينيات، ورغم حياة أبيه فيها زمناً، حيث قص عليه قبيل موته حكاياته المبكرة هناك، حينما أرغمه جده أن يتعلم في المدرسة الأهلية، فقاوم مراراً هذه الرغبة. لكنه وافق أخيراً، فهي فرصة للهرب من قرية المريدسية. فقرأ «بلوغ المرام» لفترة قصيرة على الشيخ الدويش، قال عن هذا الشيخ إنه كان شخصية رائعة ولديه حافظة مذهلة، إذ يقرأ على يديه القرآن أكثر من طالب في وقت واحد، يسمعهما في اللحظة ذاتها، ويصوّب أخطاء اللفظ والتجويد لكليهما مع أن كلا منهما يقرأ في سورة مختلفة، حتى حين قابل الشيخ الألباني الذي يعود إلى الكتاب بجواره كل فينة كي يستشهد خلال حديثه، كان الدويش يسعفه حين ينقب ذاكرته كحاسوب، رحمه الله! مات شاباً في مقتبل عمره.

عند المغرب كان الأب سليمان يتعلم الفرائض على الشيخ الكليلي، وهو إمام مسجد قريب من منزل صديقه العليطي، وحين زاره أول مرة،

جلس أمامه مرتبكاً، فنظر الشيخ نحو سليمان شزراً وبعين ثاقبة، ثم باغته:

- درست عند الحكومة؟

- نعم!

نظر إليه ملياً، وتفحص وجهه جيداً، وهو يستعد أن يقذف في ملامحه الطفولية أول سهم قاتل، كي يوقعه صريعاً:

- الأرض تدور؟

- نعم يا شيخ. «أجاب سليمان بثقة وصدق»

- لا حول ولا قوة إلا بالله! قال الشيخ، ثم قام وسحب كتاباً ناوله إياه وهو يقول: «اقرأ هذا الكتاب يا بني ثم تعال». قرأ عنوان الكتاب «الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة» للشيخ حمود التويجري، قرأه خلال أيام، وفهم أنه يناقش علماء الفلك الكفرة الذين يرون كروية الأرض ودورانها، ويفندها.

الشيخ لم يطرد سليمان كما كان يتوقع، بل تعاطف معه، وأحس بأن عليه الأخذ بيده من الضلال والتيه، إلى طريق الصواب والحق، فالأرض مسطحة كما يقول الرب في كتابه، ولا تدور حول نفسها ولا حول الشمس، كما تقول نظريات الكفرة والملحدين! بل إن الشمس هي التي تدور حول الأرض!

أحب سليمان هذه الأفكار، لكنه تجاوزها سريعاً. وجد أن السلفيين في بريدة مجرد حنابلة متمذهبين، كان يحس بأن عليه ألا يرتبط بمذهب ولا بطريقة، فوجد هدفه لدى الإخوان السلفيين المحتسبين في الرياض، عاش معهم أياماً صعبة من الجوع والحاجة، وعانى خلال ليالي الشتاء الطويلة في الرياض، وحتى حين رافق قائد حركة السلفيين إلى بريدة وزار

مدرسته القديمة، فزار أهله في حي القويع ليوم واحد، ثم نام عدداً من الليالي التالية في أحد فصول المدرسة، كان يشعر بالفخر وهو يرى نظرات الحسد والغيرة لدى أقرانه في بريدة، وقد صار يتحرك بحس قيادي مدرب، ويحلم أخيراً أن يكتسب الثقة بنفسه المتهالكة.

كان ذلك اللقاء الأخير بين جماعة إخوان بريدة وبين السلفيين المحتسبين الذين واصلوا الطريق إلى الحرم. كان ثمة ود وحوار بين الجماعتين، قبل أن ينقلب إلى عداوة وبغضاء، إذ بدأ الأمر يتحول شيئاً فشيئا إلى المطالبة بتغيير الحياة والفساد والمنكر بالأيدي، والتخلص من قيد المذاهب، حيث كان الأهل في بريدة تابعين للمذهب الحنبلي، فقد كانت أقسى هزيمة للحنابلة حين حاور بعضهم شيخاً ظاهرياً في مكة، فأوقفهم بحجته ومنطقه، وقد كان سليمان آنذاك شاهداً عليها. منذ ذلك الوقت اكتشف أن الحياة والأفكار قد تكون في مكان آخر غير بريدة.

عاد الأب بأسرته الصغيرة فجر أحد الأيام إلى بريدة هرباً من صواريخ روسية لا تعرف أحداً، قد تدك بيته ببساطة، خاصة أنه بعد تورطه بالمعتقل صار يؤمن بحكمة أبيه بأنه «نقص»! وقال لزوجته ماذا يمنع أن تتخلى الصواريخ الطائشة العمياء عن القاعدة الجوية وعن القصور الضخمة والمحصّنة في المعذر، وتحطّ على دور علوي مؤجر في العليا، يسكنه أب مقرود وأم حزينة بدأت تتخلى عنها السعادة مبكراً، وطفلين مثل قطين أليفين لا يعرفان من الحياة غير شاشة صغيرة تروي حكايات بعيدة وحالمة ومؤثرة؟

في بيت العم أبي أيوب، البيت الكبير في حي البشر ببريدة زمن التسعينيات، أقامت الأسرة أكثر من شهر تقريباً، كان أبناء العم ثلاثة، أكبرهم ياسر ذو العاشرة، بينما فهد كان في السادسة وأخته لولوة في

الثالثة، كم كان منزلهم مختلفاً! واسعاً جداً، له باحة يلعب فيها الأولاد الكرة، وفي زاوية البيت كان محل تموينات صغير، يبيع الآيسكريم، وفي ناحية معزولة من مبنى البيت توجد غرفة للضيوف مجاورة لغرفة النساء، كانت مخصصة لأهل الرياض، سليمان وأسرته. كم كانت سها ترتجف حين تفتقد ابنها فهد لأكثر من ساعة، ربما لأنه طفل صغير وأبيض وبشعر يميل إلى حمرة لافتة، كانت تخشى عليه من الشارع والحارة، ومن أبناء العم.

حين كان الصغار يقفون أمام مغسلة اليدين العالية، كان ياسر يمارس لعباً لا يفهمه فهد، أو يفهمه لكن يستلذه أو يتجاهله، فياسر يحاول أن يحمله من الخلف ويرفعه، كي يرى وجهه في المرآة وهو يضحك بصخب ومتعة، لم يكن مجرد لعب ولهو طفولة، فبينما ينام العم والأب قبيل صلاة العصر، قاده ياسر ذات ظهيرة، وصعد به السطح بحجة أن «نطيِّر الحمام» كان يضحك حين يقول له فهد بهلع: «أخاف!» في البداية كان يظن بأنه يخاف منه، بينما كان يخاف من الحمام والقطط، وكل الحيوانات الأليفة، يشير ياسر من وراء شبك عشّ الحمام إلى المخفق: «ذيك أم صدر شفتها؟ هذي قطيفي، والواقفة هناك قلابي، وجنبها رقّاصي»، يضيف: «شف فرخها داخل المخفق»، صاح فهد وهو يتراجع عن الشبك: «وين؟ ما أشوف!»، عاد ياسر نحوه وقد رمى غترته البيضاء المتسخة على الأرض، وهو يقول له: «أنت قزم ما تطول»، وصار يشده من الخلف ويرفع قدميه الصغيرتين بحذائيه الرياضيين، كي يبدو أطول قليلاً، ويرى الفرخ الصغير ذا الزغب، بدأ الخوف يغزو قلب فهد الصغير ليس من الحمام فحسب، بل من حمامة ابن عمه التي بدأت تستيقظ بجنون وتحتك بشهوة، هكذا صمت فهد ونزل بسرعة وجلاً ومرتبكاً.

لم تكن أمه نائمة كما ظن، بل وضعت غطاء رأسها وجلال صلاتها

على جسدها ووقفت بالباب المفضي إلى الباحة، وما أن شعرت به يدخل إلى الغرفة التي ينام فيها أبوه حتى تسللت وراءه، وأشارت نحوه بيدها بأن يخرج، فخرج نحوها وقادته إلى غرفة النساء الخالية، وبدأت تستجوبه: «وين كنت؟» فكذب عليها أول مرة، قائلاً بأنه كان في مجلس الرجال ينتظر ضيف عمِّه، لكنها نظرت ملياً صوب ثوبه الصوفي الأخضر، لم ينتبه إلى مرمى بصرها حين فاجأته، وهي تسأل: «كنت مع مين في السطح؟». ثم انهار الصغير فهد أمامها بغتة وبكي وقص عليها ما حدث، كان يشعر بالذنب وتجلده الخطيئة، حين التقطت أمه ريشة بيضاء صغيرة عالقة في أسفل ثوبه الصوفي.

- 12 -

عصر اليوم التالي لزيارة العم، وبينما كانت لولوة مستلقية على ظهرها وهي تشاهد مسلسل سالي الكرتوني، كان فهد في مجلس الرجال قد نثر كتبه الدراسية، مستعداً لاختبارات نهاية العام؛ تسللت أمه بخفَّة كي لا تقطع تركيزه، واضعةً إبريق الشاي قربه على الطاولة، وقبل أن تخرج دعاها كي تجلس قليلاً، لم يعرف كيف يقول لها ما حدث، ربما ستشعر هي بالذنب لأنها جعلته حزيناً ومتورطاً في مشاكلها، وربما لا تكترث إطلاقاً، وربما تنفعل على ما حولها. لا يدري كيف ستكون ردة فعلها خاصة وهي تعاني نوبات ضيق تنفس منذ أن رحل والده قبل ثلاثة أشهر.

- تعرفين ليه جاء عمِّي وخالي أمس؟
- كذبت عليَّ يا فهد؟ قلبي يقول إنك تخبئ شيئاً!

بدأ يحكي لها ما كانا يدبران، وكيف أصبح الستر عليها واجباً شرعياً

كما لو كانا يشهدان على علاقات سرية تربطها برجال غرباء، كأنما أحد قال إنه يرى رجالاً يدخلون منزل الأرملة وقت الظهيرة حينما يكون طفلاها في مدرستيهما! ران عليها صمت طويل ومهيب، كما لو كانت تسترجع تاريخها أو حوادثها، كانت تفكر بشرود أثار ابنها فهداً كثيراً، وبدأت وساوس تحيط بقلبه وتلكزه كحمار واقف لا يتحرك: «هل كان ثمة شيء يربطها برجل آخر غير أبي؟» هل كانت حزينة وصامتة في السنوات الأخيرة لأنها تعيش تناقضاً حاداً بين أبي وبين الآخر؟ هل يعقل أن يكون عمِّي إمام المسجد قد علق بقلبها وعلقت بقلبه قبل سنوات، حين أقمنا في منزلهم في بريدة، هاربين من جنون الحرب؟»

رفع فهد رأسه إلى السقف: «لا، أعوذ بالله من الشك والظن»

بكت سها فجأة بعد دقيقة صمت وشرود، وهي تلومهم كيف يفكرون بذلك، وتربة زوجها لم تجف بعد، كيف يمكن أن تنسى ابتسامته ومداعبته وضحكته؟ كيف تنسى صوته وهو يقرأ عليها قصائد أبي تمام والمتنبي، وقصائد محمود درويش، خاصة «أحمد العربي» و«مديح الظل العالي» اللتين حفظهما من شريط كاسيت أهداه إياه الفلسطيني نبيل هواملة؟ كيف ينسون أساءتهم له منذ ولادته وحتى موته، ويريدون أيضاً الإساءة له حتى بعد موته؟

حين خرج سليمان من المعتقل وذهب مع أبيه وأخيه وخاله إبراهيم إلى بريدة، وانتهى عيد الفطر، دبروا له وظيفة مراسل في شركة مقاولات صغيرة، وركض والده علي السفيلاوي إلى كل البيوت التي يعرفها ويثق برجالها وصداقتهم، كي يخطب لابنه سليمان سريعاً لئلا ينساق من جديد وراء حلم تافه، ويورط العائلة أكثر مما ورطها من قبل، لم يكن يخشى سجنه كثيراً، ولا حتى موته، لكنه يخشى الفضيحة التي جعلت أحد رجال

بريدة يسخر منه ذات يوم، في مجلس مكتظ، حتى خرج منه ولم يجلس مع رجال قط. لم تستجب له البيوت، قليل منهم يجابهه بالواقع والسجن الذي أقام فيه العريس المنتظر، وأن هؤلاء البشر لا يتخلصون من أفكارهم التي تجري منهم مجرى الدم، «فلا نريد أن يبقى أولادنا أيتاماً بلا عائل!». هكذا يردد بعضهم، بينما من هم أكثر لباقة، وحرصاً على مشاعر الأب علي يقولون له ببساطة وكذب مفضوح: «البنت فايته»

هكذا ترك سليمان أهله ومدينته المخاتلة إلى الأبد، حينما شعر بإحباط والده وقلقه على شرف العائلة، قرر أن يريحه من مسؤولية وجوده بينهم، واستأذنه كي يبحث عن رزقه في مكان آخر. هكذا عاد إلى الرياض كي يعمل سائقاً في شركة توزيع صحف، حيث تخصص في توزيع صحف الجهات الحكومية. لم تكن شوارع الرياض واسعة كما الآن، لكنه رغم ذاك يصرف كل يومه بالتجوال بين عدد من الجهات الحكومية، ويضطر أحياناً أن ينتظر عند هذا المبنى أو ذاك، حيث لا يكون الحارس متواجداً كي يستلم كميات ست صحف يومية منه، فيقضي دقائق معدودة في قراءة صحيفة أو أخرى، بينما صوت أم كلثوم يتمطى بطيئاً ورائقاً داخل السيارة في صباح الرياض الباكر. أحيانا ينزل مع حارس جازاني متوسط العمر في جهة ما، فيكشف له ما يدور في هذه الوزارة أو تلك المؤسسة، كيف يتصارع الموظفون على الجرائد ويقوم الوزير بتوزيعها بنفسه بالقسط بينهم. كان يضحك الحارس بأسنانه الصفراء وشماغه البرتقالي المتجعد: «الوزير والوكيل تاركين مصالح الناس ويشتغلوا مفرقين جرايد!» ثم ينصرف إلى موقد الإبريق في غرفته ليصنع الشاي له ولسليمان وهو يقول: «الجماعة دوامهم الساعة اثنا عشر الظهر»

أكثر من مرة يقف سليمان أمام مكتب الرئاسة العامة لتعليم البنات

قرب مبنى التلفزيون، ينتظر أحدهم كي يفتح باب البناية، فيرى رجلاً متوسط العمر يلبس بذلة أنيقة دون ربطة عنق، شعره خفيف، وشاربه كثّ، ويخالط شقرته بياض قليل، يثبت نظارتيه فوق عينيه، وهو يجلس على ورقة على حوض شجرة سدر عتيقة، معه كيس ورقي صغير تنتشر من داخله رائحة فلافل مقلية، ويتصفح جريدة الشرق الأوسط باهتمام. في البداية ظن سليمان أنه مجرد مراجع جاء باكراً بمعاملة معقدة، لكنه بعد شهر كامل تأكد أنه موظف هنا، نزل من سيارة التوزيع وهو يحمل بعض الجرائد، وصافحه سائلاً إن كان موظفاً هنا؟ أجابه الرجل بلهجة ودودة، نعم، وبأنه متعاقد مع الرئاسة منذ عشرين عاماً، يعمل محاسباً فيها ويمسك دفاتر اليومية والأستاذ وبنود الصرف في الرئاسة، ويشرف أحياناً على شباب سعوديين مبتدئين؛ ثم سأل سليمان عن عمله وشهاداته، أخبره أنه موظف توزيع صحف، وهو يحب عمله الصباحي؛ لأنه ابن أسرة فلاحين يحبون الاستيقاظ والعمل مبكراً.

في اليوم التالي، قال له إنه هو أيضاً ابن قرية فلسطينية، هاجر منها مع أهله صغيراً، ليدرس المحاسبة في الجامعة الأردنية بعمّان، ثم تعاقدت الرئاسة معه قبل أكثر من عشرين عاماً.

- من أيّ مدينة حضرتك؟

- من القصيم. أجاب سليمان.

- عندنا ثلاثة من القصيم، واحد من البكيرية واثنين من بريدة.

دهش سليمان منه، فهو يعرف الناس جيداً، ويعرف البلد ويعدد العائلات المعروفة ورجالاتهم، ويذكر أحداث الرياض وتطوراتها، كان هذا الرجل الغريب يمثل ذاكرة مدينة أو شاهد على ما حدث في هذه المدينة. بعد أيام دعا الرجل موزع الصحف سليمان إلى المكتب كي

يشرب قهوته، ثم يواصل جولاته الصباحية، دخل متردِّداً خجلاً وسأله إن كان يشرب القهوة التركية، وهو يعتذر لأنه لا توجد لديه قهوة عربية، فالقهوجي الذي يصنعها لا يأتي إلا التاسعة صباحاً. شكره سليمان واعتذر عن القهوة، فصنع له كأس شاي، وتحدثا قليلاً عن كل شيء، كان الموظف الأردني المتعاقد يوزع أولاده وابنته الوحيدة على مدارسهم، ثم يضطر أن يأتي إلى العمل في وقت باكر جداً، كي يراجع قوائم الحسابات والمصروفات الحكومية بهدوء قبل ضجيج الموظفين الشباب وصخبهم؛ ابنه عصام كان يدرس القانون بالجامعة الأردنية، وسها ابنته تدرس في المتوسطة، أما التوأم عمَّار ونبيل فيدرسان في المتوسطة معاً. بعد أيام أقنع هذا الرجل الشاب سليمان بأن يواصل دراسته ليلاً: «ما شاء الله عندكم مدارس ليلية مجانية»، فانطلق سليمان يدرس في ثانوية الفاروق الليلية، وبدأ يزداد إعجابه بشخصية هذا الرجل الأردني الودود، حتى جاء يوم انقطع فيه عن رؤيته بعد أن تم تعميد بعض الوزارات ومؤسسات الحكومة بصناديق للصحف والبريد، فأصبح الموزع سليمان يضع الصحف باكراً جداً ثم يمضي.

ذات صباح، لحق به أبو عصام قبيل مغادرته، وعاتبه على غيابه وعدم السؤال، ثم أصبحا أكثر من صديقين، حتى رأى سليمان ذات صباح، بأن يفاتحه بخطبة ابنته، فما كان من الرجل الأردني إلا أن رحّب، وأشاد بعصاميته وثقته بنفسه. لكن سليمان أحس فيما بعد بأنه تعجَّل كثيراً، إذ وقف حائراً أمام أمرين، الأول: هو إخبار هذا السيد الفاضل بأمر سجنه وانتمائه الديني سابقاً، والثاني، بأن يخطر أهله، وإن كان يرى ليس لأحد سلطة عليه في قراره.

- لم تسأل عني أبا عصام؟
- شو هالحكي، معرفتي بك ستة أشهر ورجولتك بتكفي!

صمت سليمان قليلاً، وهو في غرفة الطعام بمنزل أبي عصام بشارع الخزان:

- فيه إشي بدك تحكي عنه، أنا ما بعرفه؟

تحدث سليمان متلعثماً، وقصَّ عليه حكايته مع الجماعة السلفية المحتسبة قبل سبع سنوات، ودخوله السجن أربع سنوات، ثم خروجه وعودته لأهله، وبحثه عن عمل مناسب، حتى جاء إلى الرياض.

«السجن ما يعيب الرجال، يهمني سليمان شو صار وكيف عمّ بيفكر، ما يهمني كيف كان!»».

تنفَّس سليمان الصعداء، ورأى الفتاة الأردنية سها بوجهها الضحوك وغمازتيها الساحرتين، بلهجتها المختلطة بين لهجة أهلها، ولهجة سعودية تعلمتها من المدارس على مدى تسعة أعوام، لم تكن ملامح سليمان، ولا حديثه المثقف تكشف بأنه موزع صحف أو عامل أو ذو تعليم متدنٍ، فقد كان أنيقاً حليقاً، شاربه خفيف مقصوص بعناية، بنظارتين طبيتين دائريتين، شفافتين، متوسط الطول وبوجه حنطي مطمئن. ومنذ اللحظة الأولى علق قلبه بها وأحبها كثيراً، لم تكن مجرد زوجة، بل أم وعشيقة وصديقة، نظرته نحوها لم تتغير طول عشرتهما.

حدث ما لم يكن متوقعاً حين جاء أخوه، إمام المسجد، بعد خمسة عشر عاماً، لينكح زوجته، وهو الذي أرسل تهديداً له، حين علم بزواجه من أجنبية، إن تزوج منها سيفرغ في رأسه ثلاث «فشق» من بندقيته «الشوزن»، هكذا قال له. سيأخذ بندقية الصيد ويطيِّر دماغ أخيه، لأنه جلب لهم النحس والفضيحة والأمور الرديئة، وهاهو يكملها بزواج من أجنبية مشرَّدة لا يعرف لها أصل ولا فصل!

لم يتوقف الأمر عند مجرد التهديد، بل قاد معه بعض رجال بريدة إلى الرياض، وقابل رئيس شركة توزيع الصحف في مقرها بالملز، وطالبه

بأن يضغط على أخيه المغرر به من قطعة أردني وافد، لا يُعرف أصله ولا فصله، ويخيِّره بين أن يطلِّق زوجته أو يفصله من عمله. هكذا ظنوا أنهم حفروا له الحفرة الأخيرة، لكنهم دون أن يدركوا، أنهم خلقوا فرصة كبيرة لسائق شاب مغمور ضمن طاقم ضخم من سائقين سودانيين ومصريين، فرئيس الشركة طلب مقابلته، وتعرف عليه جيداً، لأن سليمان حين يتحدث بهدوء يمتلك منطقاً وحجة وحسن حديث، تعلم بعضه أثناء الدراسة على بعض المشايخ، ثم أكمل التعلّم في المعتقل، قال له سليمان كل ما مرّ به من صعوبات وأزمات، وأخبره أن هذا الرجل الأردني الذي يحاربونه الآن، هو من قاده إلى أن يكتشف ذاته من جديد، وهو من أقنعه بأن يعود إلى مقعد الدراسة من جديد.

من مقاعد المدرسة الليلية، ودراسة القسم الأدبي في الثانوية، إلى الانتساب في قسم الإدارة العامة بجامعة الملك عبدالعزيز، إلى مغادرة سيارة النقل الصغيرة، والعمل كمحاسب في الشركة، ثم رئيس قسم المحاسبة، وأخيراً مدير قسم توزيع الكتب بالشركة، لم يقف بجواره أبو عصام فحسب، بل حتى الزوجة الحنون سها، التي أراحته من هم الصغيرين، وهي تهيئ له حقيبة السفر إلى جدة أيام الاختبارات، فيأخذهم جميعاً إلى شقة أهلها في شارع الخزان، قرب جامع الجوهرة، حيث يتحرَّر فهد قليلاً من الجلوس الطويل في البيت، ويتسلى بالكرة في مدخل العمارة الواسع، مع رامي ومحمد المصريين، مستمتعاً بلحظات مداعبة جده أبي عصام، الذي يلبس جلابية نصف كم، وطاقية مخرّمة فوق رأسه، ويرفع فهد فوق كتفيه، بينما الصغير يشد على شعر جده، ويذهبان إلى سوبرماركت «نسمه» أسفل العمارة. كان يرى الناس من الأعلى، ويشعر بالزهو حين يرى رامياً ومحمداً وهما يصرخان ويقفزان حوله، ويبدوان أصغر.

أحياناً تذعن سها لطلب أبويها بأن يأخذا فهداً معهما، فيقفز في المقعد الخلفي لسيارة الكابريس، عابثاً بالكلب الدمية على التابلوه الخلفي، وحينما يصلون إلى محلات بيع المأكولات الفلسطينية والأردنية بالسليمانية، ينتقي أبو عصام زيتوناً أردنياً أخضر طازجاً، ومكدوساً، وجبنة بيضاء مالحة، ويجعل الصغير فهد يتذوقها جميعاً كي يقرر هل هي جيدة أم لا، وهو يغالب ضحكاته العالية مع الأم والبائع. حينما يلحظون تكشيرة وجه الصغير مع المذاق المالح أو الحامض.

كانت سها مصدومة من جرأتهم، وجرأة الخال إبراهيم الذي رافقهم لموضوع كهذا! بل تبنى الفكرة رغم أن الفجيعة والصدمة بالرحيل المباغت لزوجها لم تزل بعد. مع أن فهد اطمأن لموقف أمه الرافض، إلا أنه يعرف لؤم عمه، ومازال يتذكَّر أيام العزاء الأولى، حين كان عمه يداوم على زيارتهم ويمسح على رأسه ويحتضنه، ويتبسط ويتواضع بالحديث الحميم مع أبي عصام، ويظهر تقديراً مفتعلاً، إذ يقسم ألا يأخذ فنجان قهوة قبل أبي عصام. بل إنه يفتح إناء التمر ويحلف عليه بأن يأخذ تمرة، ويتحدث عن التجارة الحرَّة في السعودية، ودخول الشركاء الأجانب كمؤثرين في القطاع الخاص، ويسأل عن فرص التجارة والمشاريع الجديدة في الأردن. هل يجهز فخاً جديداً؟ هل أراد مسح صورته القديمة وتشدده ومعارضة أخيه، كي يتقرّب من أبي عصام أكثر، ويصبح الطريق سالكاً لطلب يد ابنته سها؟

- 13 -

تربته لم تجف!

بل لن تجف أبداً في قلب صغيره فهد، حتى حين يتمدد وحيداً على

سريره بمدينته الصغيرة التي لجأ إليها، مدينة «غريت يارموث» النائمة على بحر الشمال، سيبقى يسترجع ما حدث قبل ست سنوات، فلم يكن الأمر سهلاً على الفتى ذي الخمس عشرة سنة، لم يكن سهلاً أن ينسى ذاك الصباح، في خميس صيفي من العام ألفين، فأبوه سيسافر إلى القصيم ليومين فحسب، لأمر يتعلق بتوقيع أوراق بالمحكمة تخص تركة الجد. كان فهد قد استيقظ باكراً قبله، وهو يأمل بفرصة أخيرة، بأن يغيّر الأب رأيه فيأخذه معه، رغم أنه أقنعه ليلة البارحة بأن بقاءه مع أمه وأخته أهم، ونفحه بورقة خمسين ريالاً دسَّها في جيبه العلوي وهو يبتسم: «إذا رجعت نطلع الثمامة حتى تتعلم تسوق السيارة!» جذب فهد رأس والده وقبّله بامتنان.

رشف فنجاني قهوة وهو واقف، رافضاً دعوة زوجته سها بأن يتناول الفطور الذي أعدته، قال لها بأن عليه اللحاق بكتابة العدل الثانية ببريدة قبل الظهر، ناولته حقيبة قماش ذات سحَّاب، بداخلها حافظتي قهوة وشاي، مع ساندويتش جبن بالمربي مغلَّفة بنايلون شفَّاف، جعلها في موضع القدمين للمقعد المجاور له، ثم تحرَّكت سيارته الكابرس العنَّابية في ممر زهير رستم، فوقف فهد يشيّعه متأملاً مصباحين أحمرين خلفيين، وقد داس أبوه على الكابح متمهلاً قبيل شارع سيدة الرؤساء، كي ينعطف يساراً إلى طريق العليا، ومن إشارة العروبة يساراً مجاوراً العليا مول، ثم ينطلق يميناً في الطريق إلى القصيم. أقفل فهد الباب وعاد إلى صالة البيت، وبينما كان منهمكاً يبحث في التلفزيون عن قناة مسلِّية، شهقت أمه: «أبوك نسى شنطته!» اتصلت به، فعاد مستديراً من فوق جسر قوى الأمن. انتظره فهد على عتبة الباب وبجواره الحقيبة السامسونايت، وحين توقفت السيارة فتح فهد الباب الخلفي ووضع الحقيبة، وقال ممازحاً أباه: «الحمد لله على السلامة يبه!» ضحك، وطلب منه ماءً، ناولته أمه قارورة

مياه معدنية جديدة، وحين نزل الدرج مسرعاً، صاحت به: «فهد تعال!» وناولته كأس ماء من البراد في المطبخ. ناوله الكأس البارد، فشرب ونظراته ساهمة: «انتبه لنفسك أبوي، ولأمك وأختك!» قال ذلك قبل أن يتحرك.

هذه كلماته الأخيرة. سافر متعجلاً موعد كتابة العدل، لكنه لم يصل بعد، بعد ساعة طلبته سها كعادتها على جواله، فكانت عبارة: «إن الهاتف المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن، نرجو الاتصال في وقت لاحق» ممطوطة، ثقيلة ومخيفة، بعد عشر دقائق حاولت من جديد، وهكذا ظلت المحاولات تتكرر حتى قبيل الظهر، فاتصل فهد مذعوراً بصديقه سعيد وطلب منه أن يأتي حالاً، ركب معه مرتبكاً وقلقاً، سأله: «وين؟» قال فهد بانفعال: «نمسك الطريق نفتِّش عن أبوي!» تردَّد سعيد قليلاً، وأجرى اتصالاً لدقائق، واقترح أن يسألا بعض أقسام الإسعاف في المستشفيات الكبرى، ليعرفا ما إذا حدث له مكروه لا سمح الله. سارت سيارة سعيد الهوندا سيفيك متهادية إلى طريق الملك فهد، ومنه إلى شارع الخزان، ثم يساراً إلى شارع العصَّارات، وتجاوزا إشارة بوابة المستشفى المركزي، ثم توقفا تحت الجسر المؤدي إلى شارع عسير، حيث الشجر هاجعاً كالأحجار، نزل فهد مرتجفاً يسبقه سعيد نحو مدخل الإسعاف، وسألا موظف شاب في كاونتر الاستقبال، فأشار إلى قسم آخر خارجي يختص بالحوادث، كان موظف سوداني أمامه كأس شاي ورقي تفيض منه ورقة ليبتون، وهو مسترخ ويتثاءب بحدَّة، في تلك الظهيرة الصيفية، سألاه، ففتح ببرود شديد دفتراً مجلداً كبيراً، وقلَّب الصفحات حتى توقف عند صفحة اليوم، ومرَّر أصبعه على الحوادث لهذا الصباح، وكأنه يستعرض قائمة وجبات مطعم، ثم قال لهما: «اسمه غير موجود!» لاحظ أنهما لم يتحرَّكا من أمامه، أعاد النظر وسأل عن نوع سيارته؟ فأخبره فهد، ووضع السوداني أصبعه أمام حادث في الصباح على طريق القصيم لسيارة

كابريس حمراء! وضج دم فهد، وتحوَّل إلى ماء ساخن انساب على قدميه، وقد قال: أحمر أو عنّابي؟ أجاب: «مكتوب أحمر!»

سأل سعيد عن اسم الشخص، فأدار الدفتر المجلد ليريهما مكان الاسم، وقد سجل: «مجهول!» ثم تحت بند وضع الحالة كان مدوناً: إصابة! وقد شطبت بقلم أحمر وسجل بجوارها كلمة: وفاة!

حين وقعت عينا فهد على كلمة «وفاة» تجمد لسانه، كأنما كان قطعة خشب غص بها، قال له وهو يقاوم انهياره: «طيب كيف نتأكد من الشخص هذا؟» أجاب وهو يطلق تثاؤباً ممطوطاً، ويتحدث بصوت غير واضح: «شوف الرقم هذا، وممكن تتأكدوا من الثلاجة!»

كم كان مرعباً أن يغامر المراهقان، بالذهاب إلى ثلاجة الموتى، وهما يحملان رقماً ما، وليكن الرقم 67 مثلاً، فينظر حارس الثلاجة إلى الرقم، ثم يتجه إلى أحد الأدراج ويسحبه كما لو كان سيخرج قطعة غيار سيارة، أو سيخرج ملفاً من أرشيف حكومي، ثم يفك شريحة حبل معقود عند رأس الجثة، الجثة المعقود طرفاها كما لو كانت قطعة حلوى عيد، ثم يرخي القماش ويزيحه شيئاً فشيئاً، كي يظهر شعر ملتصق يشبه شعر مومياء، ويسفر عن وجه نائم بسكون وطمأنينة، ويسأل برعونة: «هذا تبعكم؟»

لم يذهبا وقد أصاب قدميهما الشلل، كيف نرى أبانا الذي نعبد ضحكته وبسمته وسخريته وقد صار جثة تالفة، كيف؟ هكذا فكرا، فلم يكن أباً لفهد فحسب، بل حتى سعيد كان يعده أباه الذي لم يتربَّ على يد أحد سواه.

خرجا يجرَّان قدميهما بخدر، وكاد فهد أن يسقط وهو يتعثر بأحد باعة الرصيف، مرّت بجوارهما سيارة إسعاف بيضاء دون أن تشعل أبواقها المعتادة، فقط ضوء كامد يلوِّح في ظهيرة كئيبة، امرأتان افترشتا الرصيف

المقابل لمدخل قسم الحوادث، امرأة وحيدة تجلس تستظل بشجيرة قرب سور حديدي للمستشفى وتلقم صغيرها ثديها من وراء عباءتها، شاب يقود رجلاً عجوزاً يحرِّك عصاه على الرصيف ببطء شديد، وشاب يخرج من باب الحوادث وخلفه ممرضة فلبينية تقود حامل المغذِّي بجواره، وهما متجهان إلى بوابة الإسعاف.

«لا إله إلا الله، إن شاء الله ما هو الوالد، مجرد تشابه سيارات!»

كان سعيد يعزي فهداً، أو ربما يفتِّش لهما معاً عن ثقب ضوء صغير في الحلكة، وقد أضاف:

«بعدين، فيه فرق في اللون، بين الأحمر والعنَّابي، أكيد مجرَّد تشابه!»

فجأة انهار فهد وهو يبكي بجنون، نظراته زائغة بين الناس والسيارات أمامه: «مات أبوي، مات يا ناس أبوي مات» فاحتضنه سعيد وهو يعاتبه بشدة: «تعوَّذ من الشيطان! عيب عليك، أولا ما تأكدنا هو ولا أحد غيره، الشيء الثاني أنت رجل ومفروض تظهر رجولتك في الشدائد، وتهوِّن الأمر على بيتك، على أمك وأختك»

أركبه في السيارة، وجلس في مقعده مفكراً وهو يردِّد: «لا حول ولا قوة إلا بالله»

قبيل ذهابه إلى الجامع والمغسلة، لحقت به أمه وغرست في جيبه قارورة صغيرة من دهن عود معتَّق، قائلةً له بأن أباه كان يحب هذا النوع، ويستخدمه حينما كانا يذهبان معه إلى صلاة الجمعة، هو وسعيد. حين أدار فهد الغطاء وأخرج الأنبوبة الزجاجية الصغيرة من قارورة دهن العود بأصابعه الراجفة وقربه من أنفه، وقف أبوه أمامه فجأةً، وهو يسبقه وسعيد بخطوتين أو ثلاث، رائحته الزكية تضوع في سواري جامع محمد بن

عبد الوهاب بالعليا، ويختار مكاناً فسيحاً يكفي لأن يجلس فهد عن يمينه، وسعيد عن يساره!

بعد تكفينه أخرج فهد دهن العود وفكّر بأن يمسح على قماش الكفن بالأنبوبة الزجاجية الصغيرة، لكن خاله إبراهيم أخذ منه القارورة الصغيرة ورش منها قطرات داكنة على جثمانه. لم يصدق فهد أن أباه فعلها وأغمض عينيه للأبد، كم كان حزيناً! وقد تمنى أنه وافق وأخذه معه، كي يذهبا معاً إلى السماء: «ولكن من يضمن ذلك، قد أنجو وأتعذَّب أكثر، كم أتخيلني بجواره حين انحرفت سيارته الكابريس العنابي من أقصى يسار الطريق السريع إلى أقصى اليمين، ثم في لمح بصر هوت في العمق لتصطدم بقوة في شبك الطريق المانع لدخول الإبل، فقفز جسد أبي الذي لا يربط حزام الأمان أبداً، وارتطم بالأرض دون أي أثر سوى كدمة صغيرة في قفا رأسه، هل مات رعباً، أم أنه نزف لساعة قبل أن ينقذه أحد كما جاء في تقرير الحادث؟ لو كنت حيّاً بجواره لأنقذته ربما، لوقفت بجسد مغبر ودائخ من هول الارتطام على الإسفلت وفردت ذراعي أمام أول سيارة عابرة، كي تقف مرغمة، فننقل أبي إلى أقرب إسعاف وننقذه!»

-14-

بعد شهرين من رحيل أخيه، خطف العم رجله وسافر إلى عمّان، قابل أبا عصام وأغدق عليه الهدايا والابتسامة الزائفة، أكياس التمر السكري المكنوز، وعلب الكليجا القصيمي وقرص عقيل التي تملأ مؤخرة سيارته التويوتا لاند كروزر، كل هذا الجهد والطموح كي يفوز بسها متحجِّجاً بأنه هو الوحيد الذي يجب عليه حفظ بيت أخيه، وولديه

المراهقين، كان كلامه مقنعاً وودوداً ومؤثراً، إلى حد أنه أكل قلب أبي عصام وعقله، أو ربما ضعف هذا الآخر أمام المال!

العم أبو ياسر، أو كما يلقّبه جماعة المسجد بأبي أيوب، رغم أن ليس لديه ابن اسمه أيوب، لكن الجماعة تعارفوا على كنيته تلك، في ذلك المسجد الصغير في حي القدس شرق الرياض، كان سميناً، لكنه خفيف الحركة، له صوت جيد، ذقنه مصفوف بعناية فائقة، وثيابه دائماً نظيفة جداً، شماغه يبثُّ رائحة البخور ودهن العود في أي مكان يدلف فيه، يكفي أن تعانقه حتى تبقى الرائحة فيك أياماً، حين يدخل المسجد يحمل معه المبخرة فيسلمها إلى طرف الصف، وأحياناً يمرُّ بها بنفسه بكل تواضع على كل المصلين واحداً واحداً، لكنه في الوقت ذاته كان بارعاً وهو يتصيَّد أيَّ مصلٍ جديد كي يصافحه بعناية ودماثة ويرحب به، وأحياناً حينما يفرغ من الصلاة، ويدير جسمه السمين نحو صفِّ المصلِّين خلفه، يستغفر ويسبِّح بأصابعه، يتأملهم جيداً باحثاً عن فريسة جديدة، وما أن تقع عيناه على زائر جديد جاء ليصلي فإنه يرسل إليه ابتسامته الساحرة، أو هزَّة من رأسه على سبيل التحية، لدرجة تجعل المصلِّي يرتاب في نفسه وقيمتها، ويفكِّر هل يعرفني؟ أم أنه يظهر عليَّ سيماء الوقار والهيبة؟ ويكون في تلك اللحظة وقع في شرك خفي.

المصلُّون يأتون إلى مسجده الصغير من معظم أحياء شرق الرياض المجاورة، من أحياء الريان والمنار والروضة والخليج، فتمتلئ مواقف المسجد والشوارع المحيطة به بسيارات المصلين، يدَّعون أن صوته رائع، وترتيله يجلب الخشوع والدمع، ويتقاطرون في رمضان لأنه ينهي صلاة التراويح في خمس عشرة دقيقة، من لم يعرفه ويصلي وراءه، لا يستطيع أن يلحق به، حين ينهي قراءة الآيات فإنه يشبكها بنفَسٍ واحد مع الركعة:

إن الله سميع عليم الله أكبر! فلا يفصل الآية الأخيرة عن تكبيرة الركعة: الله أكبر! كان ينقر الصلاة كما لو كان غراباً فزعاً ينقر الأرض بعجلة قبل أن يحلِّق ثانية في السماء.

كثير ممن يلقبه بأبي أيوب، لا يعرف أن ليس له ولد اسمه أيوب، وأن أكبر أولاده يدعى ياسر، ولا أحد يدرك سر اكتسابه العلاقات الواسعة والنفوذ الكبير، ولا كيف يقنع كبار المشايخ والمفتين في البلد بأن يأتوا كي يصلُّوا وراءه، ويعلن عن محاضرة لأحدهم في مسجده، فيكسب سمعة كبيرة لأن هؤلاء منزَّهون في الأرض، ولا يخالط أحد الشك في صدقهم ونزاهتهم! كأنما جاءوا من السماء، أو كأنما يوحى إليهم! هكذا لا يملك أحد من جماعة المسجد أن يعترض على أبي أيوب، إن غاب عن فرض أو فرضين! أو إن استغل المسجد لتجارته في دهن العود والبخور!

من يدخل المسجد أول مرة تصفعه رائحة البخور الزكيَّة، لدرجة أن الكل يدعو له: «الله يجزاه خير!» يستخدم غرفة صغيرة في طرف سرحة المسجد، متَّصلة ببيته، بيت الإمام الذي قام بتأجيره والتكسب منه، تلك الغرفة الصغيرة صارت مستودعاً يحفظ فيه علب عيدان البخور الهندي الداكنة، وقوارير دهن العود، مع علب صغيرة فارغة، وجعل لهذه الغرفة باباً يطل على فناء المسجد، يفتحه كي يستقبل ضيوفه بعد كل صلاة، فيهب هذا قارورة صغيرة جداً فيها أقل من ربع تولة من دهن العود، بعد أن يمسح على ظهر كفِّ الضيف، ويملأ شماغه أو غترته برائحة البخور المنبعثة من الدخان الأبيض الزكي، وخلال ذلك يقدِّم له حارس المسجد البنغالي القهوة والتمر السكري المكنوز.

كانا، هو وحارس المسجد البنغالي، يتقنان صيد المصلِّين والإيقاع بهم، فبعد الهدايا المجانية يعرض على الزائر في يوم آخر بضاعته،

فيضطر هذا إلى شراء كمية أكبر من دهن العود، أو ربع كيلو أو أكثر من عيدان العود ذات الرائحة العطرة، التي راقت له، أو اقتناها خجلاً ومجاملة. وما يدهش ضيوفه هو كيف استطاع أن يعلِّم حارس المسجد البنغالي بأن يلبس ثوباً أبيض مكوياً، وغترة حمراء جديدة، وينسق لحيته الخفيفة تماماً كالسعوديين، بل إنه يتحدَّث مثلهم بذات اللهجة: «يا هلا والله! يا الله حيُّه! سمّ الفنجال! ذق هالتمرة الله يجزاك الجنة!»

كان أبو أيوب الذي يدعو كبار المشايخ إلى مسجده، قد تشرنقت علاقاته في كل أنحاء دار الدعوة والإرشاد، حتى صار يضمن كل سنة رحلة مجانية مدفوعة الثمن إلى الهند وشرق أوروبا، يسافر بحجة دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، لكنه هناك يؤمِّن كميات كبيرة من جرار دهن العود، وصناديق ملأى بعيدان ضخمة من البخور الجيد، من أجل تجارته في المسجد، إذ يقول لنفسه: «حج وبيع سباح!» كان يقضي شهراً كاملاً، وأحياناً يطول به المقام حسب الزوجة التي ينكحها هناك: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع!﴾. كان يردِّد دائماً أمام الآخرين، ويبرِّر لنفسه، بأنه يتزوج من شرق آسيا أو أوروبا الشرقية أو قرى الهند الفقيرة لسببين معاً، يحصِّن نفسه من كبائر الذنوب كالزنا، ويعلِّم المرأة الجاهلة بأمور الدين، طريقة الوضوء والصلاة والصيام وكل أركان الإسلام، كي تعلِّم الأخريات، وتعلِّم أيضاً الزوج الذي سينكحها من بعده. ثم حين تنتهي مهمة الدعوة يعود إلى مسجده في حي القدس بالرياض بعد أن يطلِّق زوجته الهندية أو الأوكرانية أو الفلبينية! كان يحرص على أن ينكح بكراً صغيرة، لأنها أسرع تعلُّماً من كبيرات السن، لكنه لا يقول إنها أشهى في المضاجعة، وأنها تعيد شبابه المفقود!

كان يعلِّمها كيف تستلقي وتفتح ساقيها، وتردِّد معه دعاء المضاجعة:

«بسم الله. اللهم جنبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا» يقول لها جالساً على ركبتيه قبل أن يلج فيها، ويعلمها طريقة الوضوء، فيستمتع وهو يقودها إلى كيفية غسل فرجها، فلا يملك نفسه حتى يدب فوقها من جديد! لم تكن اللحظات صعبة عليه وهو يقول لها: «لا حياء في الدين» ويشير إلى الجملة في كتابه المترجم إلى اللغة الهندية، فيقودها معه إلى الاستحمام كي تتعلَّم طريقة النظافة الحقيقية في الإسلام، بينما يداه لا تكفَّان عن مداعبة ثمرتي صدرها الناضجتين، وكأنه بستاني هندي يطمئن على محصول شجيرة المانجو!

لا يتورَّع أبو أيوب عن جمع زوجتين جديدتين هناك، كي يكون التعليم جماعياً، وينقل علمه سريعاً إلى أكبر عدد محتمل من الأزواج من بعده، ولكي يتعلَّم الرجال هناك بأن الإسلام يسمح بتعدد الزوجات، إذ يشير إلى ترجمة الآية التي تبيح ذلك. كم كان بارعاً وهو يقنع الداخلين الجدد والداخلات الجديدات إلى الإسلام! ويوزِّع الأنعام على الفقراء، ويعود إلى بيته في حي القدس، ليتباهى أمام أم ياسر، الزوجة الأولى، بأنه أسلم على يديه أكثر من مئة وعشرين رجلاً وامرأة هناك!

هكذا امتلك، خلال سنوات قليلة، سبعة عشر محلاً لبيع العود في الرياض، كانت سلسلة «أبو أيوب للعود والعطور الشرقية» تمتلك سحراً ومصداقية لدى الناس، ولم يعد حارس المسجد البنغالي وحده في المحل، بل استعان بعدد كبير من الموظفين الإندونيسيين ذوي اللحى الطويلة الخفيفة، بشعيراتها المتفرِّقة، والغتر البيضاء المضيئة فوق رؤوسهم، هؤلاء الذين لا يتخلَّصون من أعواد السواك في أفواههم إلا عند النوم!

- 15 -

أحياناً يسأل المرء، لم حرص أبو أيوب على أن ينكح أرملة أخيه؟ هل بسبب نقمته على أخيه؟ أم لأن هذا الأخ الراحل الذي لم يملك شيئاً من حطام هذه الدنيا سوى زوجة جميلة أحبته، كل ذلك جعله يحلم بأن يضمها إلى مقتنياته، لتكون هي النعجة المائة، في حكاية الأخوين الذي يملك أحدهما تسع وتسعين نعجة، ولم يهدأ له بال حتى استولى على نعجة أخيه الوحيدة، لتكون تمام المائة؟

ذات مساء صيفي، من العام التالي، صفَّق الصغيران فرحاً، وصاحا حين طرق بابهم الجد أبو عصام والجدة، جالبين معهما هدايا عمّان، مشيعين الضحكات في بيت حزين، لكن الضحك صار يخبو، وقد اكتشف الصغيران بأنهما جاءا كي يمهدا لهما ويقنعاهما، هو ولولوة، بأنهما سيكبران وسيتزوجان وينشغلان عن أمهما ببيتيهما وأولادهما، وهذه سنَّة الحياة، لذلك من حقها أن تشوف حياتها هي الآن، هكذا تسلل أبو أيوب مثل ذئب متخفٍ في رداء قط أليف، وقد حاول فيما بعد أن يصالحه بسيارة جديدة.

بعد شهر فقط أراد العم أن يدخل الملائكة إلى بيتهم الذي جعل منه أخوه -يرحمه الله- سكناً للشياطين والمردة الكافرين، فبدأت الحياة تتغير تدريجياً، وأصبحت الأم سها المسكونة بحزنها تضع مؤشر الراديو في المطبخ على إذاعة القرآن الكريم طوال اليوم، ثم اختفت أشرطة فيروز وأم كلثوم وخالد عبدالرحمن وأحلام، وظهرت أشرطة خطب دينية، فمرة يزعق شيخ، وهو يتحدث عن أهوال يوم القيامة والآثام التي يرتكبها الغافلون، من سماع الغيبة والنميمة والغناء، والنظر إلى ما حرم الله، والزنا واللواط والبغي والفحش، كيف كان يحكي عن الصراط، الذي هو أحر من

الجمر، وأدق من الشعر، أحدّ من السيف، أروغ من الثعلب، والجنة هناك والنار تحته، ولا يوجد طريق إلا على ظهره! ومرة أخرى يظهر شيخ آخر يتحدث عن الموت حين يضعونك في القبر ويأتي ملكان يحاكمانك، يأتي منكر ونكير، ثم يبكي ويبكي، وتبكي معه الأم والصغيرة لولوة.

بعد أشهر بدأ العم يقنع فهداً بأن يلتحق بكلية الشريعة وهو يضمن له نجاحاً متفوقاً على الدفعة، والظفر بوظيفة قاض أو كاتب عدل في المحكمة، لم يكن فهد يفكِّر بذلك رغم تأثير عمه الطاغي، فقد تعاظم كرهه له، حين أنزل صورة الأب الراحل عن جدار الصالة. كم كره ذلك، وقد أخذها إلى غرفته، هكذا أصبح فهد محصوراً داخل غرفته فقط، بعد أن كان البيت كله ملكه زمن أبيه، في البدء علق الصورة أمام سريره، لكن العم فاجأه ذات يوم في غرفته، وزعق به:

- أنت محتاج إعادة تربية! الصور لا تُعَظَّم يا آدمي! ما تفهم؟

أنزل الصورة ورمى بها على الأرض.

- لا أشوف صور في البيت بعد اليوم، الصور حرام، أنت ما تفهم! الملائكة ما تدخل بيت فيه صور! أعوذ بالله منك!

خرج، وتجمد فهد، وتخدَّرت أصابعه التي تمسك بالمسطرة ودفتر الإحياء مفتوحاً، قام والعبرة تفتل حبالها في صدره، رفع صورة أبيه مبتسماً، تلك التي التقطها في استديو زماني بشارع الثلاثين، وخلفه كتب مرسومة على رفّ، قبَّله وهو ينشج، ثم أخفاه خلف ثيابه داخل الخزانة، وحين ينام ليلاً، يخرجها بعد أن يقفل الباب جيداً، فيجلس يحكي مع أبيه، يعاتبه: لماذا خنتني يا أبي؟ ليس من حقك أن تهرب وتتركني وحيداً أصارع الحياة! وليس من حقك أن تسمح لهذا الآدمي أن يلعب بحياتي! أرأيت كيف لم يعد لك من بيتك سوى خزانة ملابسي؟ كل هذا بسبب

أخيك بكرشه ولحيته ورائحته التي تشبه رائحة الأموات، أحياناً أحس فعلاً أنه ميت، فرائحته حين يصعد درج البيت تشبه روائح الجثث، لا أدري، فقط أشم رائحة موتى يصعدون الدرج! بل إنني أحس أنك حيٌّ، وأنت خلف ثيابي، أكثر منه!

لم يكن سهلاً أن يقبل العم دخول صديق الأسرة سعيد إلى المنزل، فهذا الشاب الذي رباه سليمان، بتوصية زميله في السجن مشبب، وعاش معهم أياماً ممتعة، وسافر معهم إلى الشرقية والطائف أكثر من مرة، أصبح محظوراً عليه دخول البيت.

- ما أخاف على ولدك إلا من ها الجنوبي!

- يعني أبوه إرهابي من جماعة جهيمان، وهو من أهل صفر سبعة المنحلِّين، كيف يدخل البيت؟ لا وألقاه بعض المرات بالمجلس بفانيلة وسروال! ما بقى إلا هي! كان يزعق في قفا أم فهد وهي تقف صامتة أمام فرن المطبخ تصنع قهوته المرّة.

ذات مساء، لم تكن ليلة سها، العم عند زوجته الأولى أم ياسر، فهاتف سعيد فهداً كي يخرجا معاً إلى كلية اليمامة: «نشوف مسرحية ونغيِّر جو الدراسة»، وافق فهد، وأخبره أنه سينتظره عند مقهى طريقتي، هرباً من احتمالات أن يباغته عمّه أمام الباب، وهو يهمّ بركوب سيارة صديقه. لا يحب أن يجلب الغضب والفوضى والصراخ على أمه، أخبرها ووضع شماغه على كتفه ومشى مسرعاً وقت صلاة المغرب، وجد سعيداً جالساً في سيارته أمام المقهى، قبل أن يركب أشار بيده أنه سيحضر قهوة، هز سعيد رأسه موافقاً، حين حاول فهد أن يدفع الباب الزجاجي اكتشف أنه كان مقفلاً، نظر في الداخل حيث الأضواء الكابية، فلم يرَ أحداً، قرع بعقلة أصبعه الزجاج، ونبَّهه سعيد بشهقة خفيفة من منبه السيارة، مكبّراً

بيديه، علامةً على وقت الصلاة، وكانت اللوحة الصغيرة تتدلى فوق الباب من الداخل: «مغلق للصلاة!»

ركب فهد، فأخبره سعيد بأنه ذهب بالأمس إلى الكلية، ووجد هناك أكثر من مقهى ومطعم عند مدخل الجامعة، انطلقا باتجاه طريق القصيم، وحين اقتربا من جسر قوى الأمن اتخذ سعيد المسار الأيمن، ليستدير يساراً عائداً إلى الرياض، سالكاً طريق الخدمة، وعند ركن سور الكلية انعطف يميناً، ثم دخلا من البوابة الشمالية، ووجدا موقفاً بعيداً، رغم أن الوقت كان باكراً، سارا مشياً حتى كادا أن يقطعا باحة المدخل:

- ناخذ قهوة ولاّ شاي؟ سأل سعيد.

- امممم، فيه أمسية شعرية، يمكن تكون على نهايتها، خل نشوف بعضها.

- يا فهد أنا مالي نفس على شعر الحداثة، بعدين ما أفهم شيء منه!

- طيب نلقي نظرة، وفيه نصف ساعة قبل المسرحية، يكفينا نأخذ شاي أو قهوة، ولاّ؟

- ماشي.

دخلا القاعة نصف الممتلئة، وجدا مكاناً في المنتصف، جلسا بهدوء، وكان أمامهما أربعة شباب ملتحين، أحدهم شعره طويل يرتخي فوق كتفيه رغم أنه يخفيه تحت شماغه، وفي مقاعد الصفوف الأولى يجلس ثلاثة من الملتحين، يلبسون مشالح بنّية، همس سعيد:

- أبغى أحاول أفهم.

- ركّز وأكيد تفهم.

لم تكن الكلمات عسيرة وهي تخرج ببطء شديد ودقيق ومحكم

الإيقاع من فم الشاعر الستيني، إذ يحرّك يده اليمنى ويرمق الجمهور بنظارتيه الطبيتين، لهجته متقطّعة وهو يضغط على الكلمات لتخرج مسبوكة ومنضّدة، بعده قرأ الشاعر الأحدث سناً، حيث كان يتذكّر أيام المعتقل وعودته إلى بيته غريباً، وقبلات الأصدقاء والصديقات، الصديقات؟ يا للهول! قبلات الصديقات! وأمام هؤلاء وفي مدينة كالرياض؟ هكذا نطق الرجل الملتحي ذي المشلح البنّي، إذ تنقلب عيناه إلى بياضهما وهو يحاول أن يقاطع الشاعر: «هذا لا يجوز! هذا من إشاعة الفحشاء!». لكن الجمهور كان يصفّق بحماس، فبدأ الرجل المتشدِّد يردِّد: «حسبي الله ونعم الوكيل! حسبي الله ونعم الوكيل!». بينما بدأ أحد الشباب الأربعة، وهو مراهق بشعيرات متفرّقة، يتحدَّث بالجوال بصوت عال: «السلام عليكم!»، في محاولة للتشويش، بينما لكز فهد سعيداً وهو يشير:

- يبي يخرِّبون الأمسية، صدقني!

اقترب فهمس لفهد بسخرية مرَّة:

- إلا أخاف أنهم خربوا البلد من زمان!

الرجال ذوو المشالح البنّية الداكنة، والشمغ الحاسرة عن طواقي بعضهم التي بدا نصفها ظاهراً، كل فينة تتجه نحوهم مجموعة مراهقين بشعيرات قليلة على الفودين، يتسلمون رؤوسهم ويقبّلونها في محاولة قطع التركيز على الشعراء ولفت الانتباه لهم، وما أن انتهت الأمسية حتى حاولوا الصعود إلى المنصة، ونصح الشعراء الفاسقين الضالين كما يرونهم، وهدايتهم إلى سواء السبيل! لكن رجال الأمن والسلامة، بملابسهم ذات اللون السماوي، اعترضوا طريقهم بلباقة، وطلبوا منهم الهدوء، بينما تم إخراج الشاعرين من كواليس المسرح الخلفية، فمرت الأمسية بسلام!

خرج فهد من الأمسية وتبعه سعيد، أخذ فهد قهوة سوداء سادة، وسعيد كأس شاي، وجدا طاولة فارغة وجلسا، واضعين كأسيهما الورقيين، بينما رائحة أصابع البطاطس المقلية تملأ المكان، كان الشباب المتشددون يتجمهرون أمام المدخل، يتحلَّقون حول الرجال ذوي المشالح، قال سعيد وهو يهزأ:

- ما تحس أنهم لاعبين ملتفين حول المدرِّب بين الشوطين!
- هم لاعبين بالبلد بجد، أحس أن الليلة ما راح تعدِّي على خير!

قال سعيد وهو يعصر كيس شاي ليبتون حول معلقة بلاستيكية، دون أن يكترث:

- لا، ما أظن عندهم غير الكلام، صدِّقني.
- غلطان سعيد، يتهيأ لك.
- بعد الإرهاب، فقدوا قيمتهم عند الناس.

كان الهواء الشمالي البارد قد جعل القهوة تبرد سريعاً، مع أن فهد يشرب القهوة الأمريكية السوداء حتى لو كانت باردة، بعد رشفة قصيرة:

- صدقني هم ما يتهون! مثل الجراد، يا أخي هم عندنا في المدرسة، يجرّون الطلبة، إما في جماعة التوعية الإسلامية؛ أو جماعة المنتدى الإسلامي.

همس سعيد وهو يهصر الكأس الورقي في يده بقوة:

- طيب، تعرف معنى ها الجماعتين؟
- كلهم إرهابيين!

ضحك بشدة، وهو يغمز:

- لا تكون تكفيري، وتكفّرهم كلهم! ثم أضاف: «جماعة التوعية إخوان، والمنتدى سرورية!»

- يا عم بلا سرورية بلا بطيخ، صدقني سعيد هم أبعد خلق الله عن السرور والانبساط، يا أخي دائماً وجوههم عابسة، كأن كل العالم خطأ وهم وحدهم صح!

- لا، اسمع فهد، سرور مالها علاقة بالفرح، أنا قريت عنهم كثير في النت، طبعاً سمّوهم السروريين، نسبة إلى محمد سرور زين العابدين، من الإخوان السوريين، هرب من هناك وجاء للسعودية، ونشر دعوته عندكم، في بريدة، حتى كوَّن طلاب شباب، صاروا مدرسين ومشايخ، وهكذا فرَّخ عدد من الأتباع، سمّوهم الأحزاب الثانية بالسروريين، وهم بالمناسبة منشقين عن الإخوان المسلمين، يعني بينهم خلاف.

- ما أظن بين ها الأشكال خلافات، كلهم نفس الطينة.

- بالعكس، بينهم صراعات وضرب تحت الحزام، شف جماعة التوعية، وجماعة المنتدى بالمدرسة، لو دقّقت تلقى بينهم منافسة خفية، وأحياناً تكون معلنة، الطلاب يعتقدون أن كل مدرس يبغى يزيد طلاب جماعته، لكن الحقيقة هو يزيد جماعة الحزب.

قام سعيد عجلاً: «فهد شكل المقاعد راحت علينا!» ولحق به الآخر مسرعاً، دخلا قاعة المسرح الضخمة، وكان الجمهور قد احتشد للمسرحية، فلم يجدا مكاناً إلا في المقاعد الخلفية العلوية، وما أن أظلمت الصالة، وانفرج ستار المسرح عن لائحة عرض بلاستيكية بيضاء يعرض عليها اسم المسرحية وأسماء المؤلف والممثلين والمخرج، وصحب ذلك صوت موسيقي خافت، حتى تطاير في فضاء القاعة نعل كثير، نعل يخرج من الظلام ويخبط لائحة العرض المضيئة، تبعتها أحذية كثيرة، حتى قام شخص في الظلام صارخاً: «أغلقوا مزامير الشيطان! هذا لا يجوز!» نهض معه اثنان واتجهوا إلى الدرجات الثلاث، صاعدين إلى

خشبة المسرح، بعض الجمهور ظن في البدء أن هذا جزء من مسرحية «وسطي بلا وسطية» التي تعالج الوسطية في الإسلام، خصوصاً أن المسرح الحديث يجعل المشاهد جزءاً من النص المسرحي، لكن أضواء الصالة أشعلت، وحاول رجال الأمن اعتراض المخربين الذين حاولوا الصعود نحو ديكور العرض، كي يمزقوا صور النساء، ثم صعد من الجانب الأيسر آخرون، وبدأ التخريب في ديكور المسرحية، كلما منع رجال الأمن بعضهم، قفز من الناحية البعيدة أحدهم وكسَّر ما تقع يده عليه، حتى أن بعضاً منهم، ممن لديه شعيرات صغيرة تشبه شعر العانة، كان ينتزع لمبات النجف تحت جدار المنصة، ويخبط بها من يعترضه، أحدهم يشبه ابن العم، ياسر، إلى حد كبير، كان هائجاً وفمه مفتوح يصب اللعنات والكلمات البذيئة. كان فهد يتفرَّج بدهشة، المتطرفون يكسِّرون اللوحات، وبعضهم اشتبك مع الممثلين، وقفز مشاهدو العرض رافضين سلوك هؤلاء، في الصفوف الخلفية ناقد أمريكي، جاء ليتحدث خلال المهرجان عن الشعر الأمريكي المعاصر، كان مذهولاً وعيناه تتنقلان بين خشبة العرض، وبين الصالة العلوية حيث بعض النساء الحاضرات في قسمهن المخصص المعزول عن الرجال قد بدأن يصرخن. كانت مسرحية حقيقية تعرض على مسرح الحياة، بدأت الكراسي ترتفع بين الطرفين، وقواعد اللمبات تطوِّح كسيوف في معركة إسلامية، واللكمات تتخاطف في مشهد محزن، بينما الأمريكي يتابع المشهد بكاميرا جواله. وبعد مرور ساعة من الصراع الحي، وصعوبة السيطرة على الهائجين، أطلق أحد رجال الأمن طلقتين ناريتين نحو الأعلى، فتدافع الحضور مذعورين نحو بوابة الخروج!

تلفَّت فهد بحثاً عن سعيد فلم يجده، جلس في الأعلى بين صفين من المقاعد منتظراً أن تهدأ الضوضاء، وبعد دقائق انسلَّ من الباب، فرأى

أحدهم مقبوضاً عليه بين رجلي أمن، وهم يسوقونه عنوة إلى سيارة أمن، ثم أتبعوه بآخر تم اقتياده، وكثير منهم هرب مع صوت الطلقتين، في الخارج كان يقف ثلاثة شبان، أحدهم يرتدي لباساً رياضياً، وشعراً معقوصاً بربطة مطاطية من الخلف، كان صوته عالياً ومنفعلاً: «يا أخي وش يبون؟ ما يحبون المسرح لا يحضرون!» أجاب الآخر وكان جيب ثوبه ممزقاً: «مسرحية خارج المدينة، وما تركونا في حالنا، ومقاهي خارج المدينة ولاحقونا فيها! يعني وين نروح بجد؟ الله يلعنهم ها لخفافيش!»

في الخارج كان فهد يبحث عن سعيد بعينين زائغتين، تفقَّد المقهى في الخارج ووجد الطاولات يجلس عليها شباب يتبادلون جهاز جوال يعرض مشاهد من الهجوم على مسرح الكلية، قال أحدهم: «أرسله لي بلوتوث الآن!» أجاب أحد الذين يتأملون المشهد: «لحظة، أحط له عنوان!» صاح الثالث ساخراً: «غزوة اليمامة أحلى عنوان!» كان يلمِّح إلى غزواتهم التي يربطونها دوماً بالمكان: غزوة منهاتن، غزوة الحمراء، غزوة غرناطة، غزوة بدر الرياض...

يدٌ تقبض على ذراع فهد بغتة، فيلتفت مذعوراً، وإذا بسعيد يضحك بمرارة وشقاوة: «هاه.. خفت يا جبان!» ثم أمسك به فهد وقاده: «تعال نطلع من هنا، المكان مكتوم!» قال سعيد وهما يتجهان إلى السيارة: «كل ها لفضا والجو العليل ومكتوم؟ يا أخي لا تكفر بالنعمة!» ثم أطلق ضحكاته وهو يسخر بصوت عالٍ، وبلغة فصحى: «ما بِكَ يا عكرمة؟ هل تترك الأمر لقريش وأذنابهم؟»

بعدما ركبا السيارة، قال سعيد إنه تلقى رسالة جوال من زميله في العمل راشد: «هذا راشد قلت لك عليه، شجعني على قراءة تاريخ هذي الجماعات، إنسان غريب وغامض، دائما ساهم، وتظن أنه ما هو معك،

بس مجرّد ما يحكي تكتشف أنه كان مركّز معك تمام» سارا إلى مقهى المسافر، المقهى الشعبي القديم، المنزوي داخل محطة بنزين على طريق القصيم، والذي يقصده الطلاب والعاطلون وسائقو الشاحنات، عند المدخل لوَّح بيده شخصٌ وحيد في الزاوية البعيدة، بلحية يخالطها بياض قليل، وصلع خفيف في مقدمة الرأس، حيث وضع شماغه وعقاله بجواره على الأرض، وأمسك بليّ الشيشة العالية، صافحه سعيد وقدَّمه إلى فهد، فابتسم حتى ضاقت عيناه أكثر. طلب سعيد معسل تفاح وإبريق شاي تلقيمة، وقد كانت ملامحه قد تبدلت تماماً، وزالت عن وجهه البشاشة والضحكات والسخرية، بدا حزيناً وهو يحرِّك الجمرات الصغيرة فوق رأس المعسل، فسأله راشد: «مزاجك اليوم ضارب! سلامات!» حكى سعيد له ما حدث في المسرح، بينما راشد يصغي بعينيه الضيقتين، وما أن انتهى سعيد وساد الصمت، نفخ راشد دخاناً أبيض كثيفاً، وسعل قليلاً ثم قال: «شوف يا سعيد، هؤلاء لم يأتوا من الفراغ، هؤلاء نحن وأجدادنا من صنعهم، منذ أن كبرت شوكتهم قبل موقعة السبلة التي قضت عليهم آنذاك، وحتى التفجيرات والمواجهات المسلَّحة في السنوات الأخيرة، مروراً باقتحام الحرم المكِّي، وما يسمى بالجهاد الأفغاني! أو ما يسمونه بالصحوة، أو النكبة»، قاطعه سعيد مصححاً بأنه ليس المجتمع فحسب من صنعهم. هزَّ راشد رأسه موافقاً ومؤكداً بأن المجتمع والحكومة وأميركا والعالم بأسره كان له دور في تغذيتهم وتناسلهم هكذا، نعم هناك من يسمّنهم ثم يتورط بهم، سحب راشد قليلاً من ليّ الشيشة ونفخ عالياً، وهو يضيف: «يا أخي هذولا سرطان، كل ما ظن الناس أن خلاياه استأصلت، نمت فجأة خلية جديدة»

ظل راشد يفضفض بحسرة، ويلعن كل ما حوله، حتى بلغت حسرته الحلقوم، وحشرجت دمعة مؤجلة في صدره، حينما بدأ يتحدث عن

زوجته التي هجرته منذ سنوات، وقد أفتى لها أحدهم، بإنه إذا كان زوجها لا يصلي في المسجد، فلا يجوز البقاء معه تحت سقف واحد!

- هدّوا سقفي يا جماعة، ودمروا بيتي وعائلتي!

في طريق العودة كان فهد مأخوذاً بشخصية راشد، الذي بلغت فيه النقمة حدّ أن صار يتحدث دون أن يتلفّت! غيَّر سعيد دفّة الحديث، وحدثه عن استعدادات مباراة النهائي! تحدثا عن مباراة الهلال مع الإتحاد، قال سعيد بضحكات حزينة ومألوفة ومكتومة:

- يا أخي ما فيه إلا الملعب، هو المكان الوحيد الذي ما يدخله أبو لحية.

-16-

مساء قاتم وبطيء، جلس فهد في غرفته التي أصبحت هي منزله، دقات على بابه، جعلته يصيح بنزق: «نعم؟» سألت لولوة بصوت متوسل: «أدخل؟» دخلت وهي تحمل صحيفة بيضاء وأقلام تلوين مائية: «أعرفها هذه الصغيرة اللئيمة، تكون في منتهى الأدب حين تريد شيئاً» فكَّر، بينما قالت بشيء من الدعابة التي افتقداها في البيت: «يا أحلى أخو وفنان وخطاط في العالم» وحين لم يجب، أضافت: «شكل أبو الشباب مقفل!» أجاب فهد وهو منكبٌّ على طاولة الكتابة، ناثراً كتبه: «خلصينا لولو؟». أخذت صحيفتها وفردتها على الأرض، وبدأ هو يكتب لها حديثاً نبوياً، مع معاني الكلمات، بينما جاءت له بقهوة أمريكية سوداء، وقطعة كيك فانيلا، وحين أنهى الخط بألوان سوداء وحمراء، وسجل اسمها في أسفل الصحيفة، جلس يشرب قهوته مع قطعة الكيك، وسألها إن كانت ترغب في لعب المونوبولي، قالت «تعال نلعب في

الصالة!» أجاب: «ما أحب أي مكان في هذا البيت إلا غرفتي!» واستطرد: «حتى غرفتي كرهتها!»

لم تكن لولوة عنيدة رغم أنها تفعل ما تريد، لا تصارع أحداً، توافق بسهولة ظاهرياً بينما في داخلها تقوم بعكس ما يريده الآخرون منها، حين احتل العم بيتهم بصفته زوجاً، وفرض شروطه تدريجياً، وبدأ يتدخل حتى في لبس لولوة، فلم تعد تلبس الجينز رغم أنها في الثالثة عشرة، بل أصبحت لا تكتفي بلبس العباءة المعتادة، وإنما فرض العم عليها أن تلبس عباءة سوداء بلا زينة ونقوش، وألا تكون فوق الكتف: «ما تشوفين صدرها يا آدمية!». كان يقول للأم سها كي يفرض عليها لبس عباءتها فوق رأسها، وبعد أشهر قال إن يديها بيضاوين جداً، وتثير انتباه الرجال وفتنتهم، فأحضر لها قفازين أسودين، حاولت الأم أن تعترض، لكنها ضعفت وهي تشعر أن الرجل الذي دخل البيت سيفرض حتماً قوانينه عليهم، وستكون الكلمة كلمته وحده فحسب، وعلى الجميع تنفيذ أوامره، كان يتدخل حتى في مظهر فهد، وينهاه عن إطالة شعره، بل بالغ في طلبه بأن يحلق شعر رأسه بدرجة الصفر، الأمر الذي لم يعتد عليه أيام أبيه!

لا يتذكر فهد أن تدخَّل أبوه في مظهره، أو طلب منه أن يفعل شيئاً ما، سوى عندما أخذه قبل وفاته بأشهر قليلة، إلى مكتب الأحوال المدنية بشارع الوشم، كي يستخرج له بطاقة أحوال شخصية، قال بطريقة رائعة ومؤثرة: «ودك تخفف شعرك عشان الصورة؟» أجابه موافقاً بسعادة، كم كانت اللحظة رائعة والصغير يخرج مع أبيه من بوابة مكتب الأحوال تحت الجسر الطويل، بعدما صلّيا الظهر في المسجد الصغير على الشارع، وكان يضع بطاقته في جيبه، بينما الأب يداعب رأسه بيده مبتسماً، قائلاً بأسلوب المراهقين: «أحلى يا رجّال!» كان فعلاً أحس أنه صار رجلاً،

خاصة حين وضع البطاقة داخل محفظة نقوده، وتباهى بها في الغد أمام زملائه في الصف الثالث متوسط.

دخلت لولوة إلى غرفته وهي تحمل لعبة المونوبولي، فردتها على الأرض، ورتبت الصكوك وبطاقات الحظ في أماكنها، ووزعت النقود عليهما، وأودعت الباقي في البنك بجوارها، ثم قالت إنها ستبدأ أولاً، فأخذت زهرتي الأرقام وقذفتهما في الهواء، وبدأت تتحرك وتعد النقود، وفهد يطاردها ويطارد هواجسه التي لا تنتهي.

حين دخل العم من باب البيت طارت الحياة والمتعة من النوافذ، فاختفى جهاز استقبال القنوات الفضائية، وبقيت قنوات السعودية الأولى والثانية والإخبارية والرياضية، حتى لعبة البلاي ستيشن يرى أنها ملهية ومضيعة للوقت، فأخفوها عنه، كي يستمتع فيها الصغيران، خلال ليلة أم ياسر أو أم معاذ، فهناك ليلتان للبهجة وليلة للكآبة حين يدخل البيت، ها هو بغتة يدخل البيت ويطل برأسه وكرشه وحاجبيه المعقودين كنمرود: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ما تفهمون!» طلب أن نرمي بهذه المصيبة في القمامة، أجابه فهد: «هذي لعبة للتسلية!»

- لعب قمار وميسر! هذا تسميه تسلية والعياذ بالله؟
- لكن يا عم هذي ما فيها فلوس! مجرد لعب!
- حتى ولو، هذي من ضلال الشيطان وملهية عن العبادة، وما لها فائدة.

لمّ الصغيران اللعبة حين غادر هائجاً كثور، عرف فهد بأنه سينتقم منهما بأمهما المغلوبة، التي تعاني منذ ثلاث سنوات من مرض غريب، وتوقفت عن الذهاب إلى المستشفى بعد وفاة زوجها، إذ كانت تذهب معه مرة كل أسبوع إلى مستشفى التخصصي، ولم تأخذ طفليها معها سوى مرة واحدة، جلسا في استراحة الانتظار حتى شعرا بالملل، ثم صار

يلهوان في حديقة المستشفى، فغضب الأب لحظة ذاك، وقررا أن يبقيهما في البيت مع الخادمة.

سمع فهد عمَّه وهو يدمدم بخفوت، كي لا يصل صوته إلى الصغيرين، كان فهد ينظر في عيني لولوة، فلا يعرف إن كانت سمعته أم لا؟ وإذا سمعت، فهل فهمت ما يقول أم لا:

- أنتِ ما تخافين الله!

ثم أضاف وهو ينفض يديه في وجهها الكريم:

- كيف تتركينهم مع بعض، والمصطفى يقول فرقوا بينهم بالمضاجع.
- يا ابن الحلال ما ناموا مع بعض، النوم كل واحد في غرفته!
- ولو، هم مراهقين وما يتركون منفردين مع بعض. ثم أضاف متسائلاً:
- هي الشاة تسلم لو تركت مع الذيب؟

صاح عقل فهد بصمت: اللعنة عليك يا عم، أي شاة وأي ذئب! حتى أختي الوحيدة ستخنقها داخل سور وهمي، حتى أختي اليتيمة ستتدخل في طفولتها، ستجعلنا نعيش مثل ذئابك وبهائمك تضحكون على الناس بدراستكم ومؤهلاتكم، بينما الخراب ينخر في دواخلكم!

- ابشر، ما يصير إلا الخير.

أقفلت أمي الموضوع، وعلا صوت انسكاب فنجان القهوة من الدلة، بينما العم يهلل ويحوقل، ويدعو أن يحفظ الله لهذه البلاد أمنها ورغدها، ثم بدأ يتحدث عن القرية التي يأتيها رزقها من كل مكان، ففسقت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف والفقر.

خرجت لولوة إلى غرفتها بصمت، مكسورة القلب، بعدما أقفلت باب غرفة شقيقها، وعاد فهد إلى كتبه لكنه لم يستطع أن يركِّز أو يفهم

شيئاً. كل ما يذكره من تلك الليلة البعيدة أن أمه أيقظته وقد كانت قلقة وخائفة عليه، فقد كان نائماً على الأرض بين السرير وخزانة الملابس، كان قبيل نومه قد جلس قبالة باب الخزانة التي فيها ثيابه المعلّقة كجثث مشنوقة بجوار حائط، وخلفها يبتسم أبوه ببلاهة، كان يحكي له عمّا حدث، ويتذكر أغنية كان يغنيها لأبيه في مساءات بعيدة حين يكون مزاجه رائقاً: «مساء الخير والإحساس والطيبة، مساء ما يليق إلا بأحبابي!» كان فهد يغني وحده ليلاً في غرفته وقد أعياه البكاء، وهو يشك إن كان أبوه المختبئ خلف ثيابه يسمعه أم لا، لكنه كان متأكداً أنه لم يفعل كما في السنوات البعيدة، حين يأخذه بين ذراعيه وهو يغنّي، فيكمل الأغنية على صدره!

- لا، لم يضعني على صدره ذاك المساء!»

- بل نمت غارقاً بالدمع والحزن والحنين إلى طفولة ماتت، حتى أيقظتني أمي مذعورة!

-17-

ذات ليل صيفي بعيد، كان الأب سليمان منهمكاً بسرواله الصيفي وفانيلته الخفيفة بأكمام قصيرة، وشعره الفوضوي، ولحيته غير المرتبة، حيث كان مقرفصاً أمام فتحة الماء لخرطوم النظافة المعطوب بالحمام، وهو يحاول أن يفك المحبس كي يركب بديلاً عنه، وصوته يأتي عالياً مصحوباً بالصدى الذي يتركه السيراميك:

- فهد.. هات شنطة العدّة.

فيأتي فهد بسنواته الست وهو يجر حقيبته الخضراء بصعوبة، تلك التي وضع فيها كتبه وألوانه الأولى، في روضة الزهور، قبل أن تتحول

تلك الحقيبة إلى مخزن صغير لعدة السباكة والكهرباء التي يحتاج إليها الأب، ناوله الحقيبة وجلس مقرفصاً عند باب الحمام، مسنداً وجهه بيديه الصغيرتين، سأله فجأة ببراءة:

- بابا أنت حرامي؟

ارتطم مقبض الزرادية على أرضية سيراميك الحمام، والأب يلتفت إلى صغيره:

- لا يا بابا، ليه؟
- بس، أسأل!
- من قال لك؟
- فيصل ولد عمتي حصة. ثم أضاف:
- يقول لي أبوك حرامي، عشان حطوك بالسجن! ابتسم الأب حين سأل من جديد:
- ليه حطوك بالسجن؟
- لأن...! ثم صمت قليلاً:
- إذا كبرت أقول لك.
- أنا كبير.. حتى شف! فز فهد واقفاً، كي يرى طوله.

ترك الأب شغله، وخرج من الحمام وهو يحمله على ذراعه اليمنى ويقبّله، ويصيح: «يا حبّي لك الله يلعن إبليسك!»، ويردد بصوت عال واحتفالي: «والله كبير بعقلك يا فهّودي». ثم أجلسه على الكنبة، وحاول أن يشرح له أنه أخطأ فعاقبوه كي لا يعود إلى ذلك، وحين سأله الصغير: «من هم؟» قال: «الحكومة!».

- يعني وشو الحكومة؟

- يعني، مثلاً، لو أنت أخطيت وكسرت التحفة التي اشترت أمك قبل شهر، أو لو أخذت المكوى وأحرقت فستان أمك الجديد، أكيد أمك تعاقبك؟ صح؟

- يعني أمي هي الحكومة؟ ضحك الأب بشدة، وهو يصرخ بزوجته سهَا التي تحضّر القهوة في المطبخ:

- تعالي شوفي مجنون العائلة الصغير!».

قاطع فهد ضحكته وسخريته بنزق وغضب:

- طيب أنت كسرت شيء؟ وأنت صغير؟ ثم حطوك بالسجن؟

فجأة، تجمدت كفّ الأب وهي على عنق صغيره، واحتقنت عيناه فقام وغادر إلى الحمام من جديد، وأغلق الباب خلفه، فسمع الصغير آنذاك صوتاً ملتبساً، هل كان انسكاب الماء في المغسلة أم نشيجه، وأخذ يتذكر فهد كل ذلك الآن، يشعر أن أباه يود لو قال، إنه كسر قلبه وقلب أمه وأبيه، الجدّ الذي كان يرى أن الإخلاص للحكومة هو من الإيمان بالله، وطاعة ولي الأمر واجبة، والخروج عليه هو شر فعلة قد يرتكبها الإنسان في حياته، كان الأب يبكي بمرارة أمام مرآة مغسلة الحمام، هل كان يبكي حين يستعيد أيامه القديمة في السجن، والحزن في نظرات أبيه حين يزوره في السنوات الثلاث الأخيرة؟ أم يبكي حزنه الخاص حين خرج من السجن إلى سجن هذه البلاد الكئيبة، وقد فشل مرتين في أن ينتحر ويضع حداً أخيراً لحياته. لكن زواجه واستقراره ومتعة الطفلين، جعلته يعيد النظر في الحياة من جديد.

لم يكن فهد حدثاً عادياً في حياته، بل كان شغب طفولته المبكرة يسليه ويمتعه كثيراً، كان يخشى عليه من أفكاره الكبيرة التي تسبق عمره، لم ينسَ لحظة أن عاد به من مدرسة الأحنف بن قيس الابتدائية ظهراً،

حين فاجأه بسؤال وهو يستدير بسيارته في نهاية طريق العروبة:

- بابا، السعودية من زمان من احتلها؟

ضحك بجذل، بينما صوت صغيره الناحل بحنق:

- لا تضحك بابا. أجاب مبتسماً:
- هذا سؤال سياسي يا فهودي!
- سأل الصغير: يعني شلون؟

أوضح الأب وهو يتحرك من إشارة تقاطع ليلى الأخيلية مع العروبة، عائداً إلى البيت:

- يعني سؤال صعب. ثم شرح له: شوف، كان فيه أول قبائل.

قاطعه فهد:

- شلون يعني قبائل؟

أجاب الأب بتردّد:

- قبائل يعني ناس عايشين مع بعض، في الرياض والقصيم وحائل، ثم جاء الملك عبدالعزيز... صمت الأب بغتة دون أن يضيف «واحتلها!»

صاح فهد حينما مرّا أمام محلات الألعاب: يا ليت أصير ملك. ثم مدَّ يده أمامه فجأة كإشارة عسكرية: أقول لهم هدّوا المدارس!

انفرط الأب ضحكاً، ثم سأله:

- بابا، لو أنت ملك، وش تطلب؟ صمت الأب قليلاً، ثم قال:
- يمكن أستقيل!
- كيف يعني؟
- يعني أقول ما أبغى أصير ملك.

- ليه بابا، تقدر تطلب لعبة «العائلة».

ليس أجمل من لحظات الطفولة البعيدة، كان الأب يأخذ صغيره فهد إلى ألعاب قلعة السندباد جنوب حديقة مكتبة الملك فهد، ويلعب معه سيارات التصادم، كم كانْ يضحك بصخب طفولي حين يميل عقاله من أثر اصطدم سيارة فهد الصغيرة بسيارته، كان فهودي، كما يسميه أبوه، قد أختار السيارة الحمراء، ويقول بأنها قوية وسريعة؛ لا شيء يدمر لحظة سعادتهما سوى وجود سها، التي تحاول أحياناً أن توقف كرمه وجنونه الطفولي مع ابنه، بحجة أنه يمعن في دلاله، ويخرِّب سلوكه مع الناس أيضاً، وقد استمرت حتى بعد وفاته تلومه في قبره أنه لم يحسن تربية ابنه، وأنه دمَّره حين لم يمنع عنه أي شيء يريده. مرة قال فنان تشكيلي سوداني اسمه كمال، قابله الأب في محل الفنون الجميلة بشارع الثلاثين بالعليا، كانت لوحاته بألوانها الإفريقية الحارقة، قد خطفت عيني الصغير فهد، وسلبت عقله، فأشار السوداني إلى الصغير الذي يشير إلى لوحاته، بأن «روح فنان كبير تنام في أعماقه، يجب إيقاظها»

صدَّق الأب الأسطورة أو الكذبة المجنونة، واقتنى له كراريس وألواناً خشبية وزيتية، بينما كانت الأم تصاب بالحنق والغيظ، وهي تردد بأن ذلك سيلهيه عن دروسه! كما أن رائحة الزيت ستجلب نوبة الربو عند لولوة، كم افتقد فهد أباه، كم كانت الصدمة مرعبة، وقد شعر بأنه صار عارياً، وحين تزوجت سها من عمّه لتكون الزوجة الثالثة، أحس بأنه ليس عارياً فحسب، بل صار عارياً وفي الشارع أيضاً. وليت الأمر توقف عند ذلك، بل كان مثل جلاد يلهب حيوانه الصغير بالسوط أينما وجده. كم كان جارحاً أن يحل مكان أبيه رجل كذوب ومنافق، يتذكر أنه أصيب عند الطفولة بصدمات ثلاث، الأولى: هي سفر جدته وجده إلى عمّان، وفقد

حرية شقة الخزان ومتعتها، والثانية: حكاية ياسر حين أغراه بفرجة الحمام في سطح بيتهم في بريدة، والثالثة: هي انتقاله من روضة واحة الزهور الأهلية، وقد أنهى التمهيدي، إلى مدرسة الأحنف بن قيس الحكومية، وقسوة المدرسين هناك، وكيف تولى مدرِّس القرآن، ضرب أصابع يده اليسرى بمسطرة ثقيلة تشبه مساطر الخياطين، كي لا يكتب بها بعد اليوم، فهي يد الشيطان والنجاسة، ولا يحل له أن يكتب بها آية قرآنية أو حديثا شريفا. وقد أصيب في مراهقته بصدمات أخرى، أشدّها رحيل أبيه إلى الأبد، والثانية: زواج أمه بعد عام من رحيل أبيه، وزواجها من عمّه المنافق بحجة المحافظة على ذرية أخيه. ولم يعرف أن الصدمات الأشد ستأتي في مستهل شبابه، قبيل أن يطير على طائرة «البريتش ميدلاند» إلى لندن، ومنها إلى مدينة صغيرة تدعى «غريت يارموث».

كان عمّه يحرِّض أمه المغلوبة على أمرها، وربما كان ذلك مقابل أن يولج فيها آخر الليل ويمتّعها، عليها أن تترصد ابنها وتنهره كي يوقف مصيبة الزيت التي ورطه فيها المرحوم، هل كان الأب وحده من ورطه، أم أن الأب تورط بعد نصيحة عابرة من فنان سوداني عابر؟ كان فهد يفكِّر طويلاً حين يتمدد على سريره: «كيف يمكن أن أكون فناناً تشكيلياً يا أبي وقد خنتني وتركتني وحيداً؟ كيف يا أستاذ كمال ورطتني وورطت أبي معي في نبوءتك؟ لو تعرف كيف تتفتح مسامي وشعيرات أنفي الصغير حينما أشم رائحة الزيت، فكم هو مدوِّخ وقاتل؛ كم تغيظني براعة هؤلاء الفنانين الذين أحبهم وأنساب في صيحات ألوانهم! هل تعرفون وأنتم ترسمون بدعة وخيلاء، أنني توصلت إلى أن أمزق صفحة الكراسة إلى مزق صغيرة جداً، الواحدة بحجم طابع البريد، كي لا تعثر عليها أمي فتغضب وهي تحذر هياج عمّي، كنت أرسم على المزق الصغيرة شجرة أو طيراً، أحب الطيور حين تحلِّق في السماء بمتعة

نادرة، لكنني أكرهها كثيراً، أخشى اقترابها منّي، وأخاف أن ألمسها، أكره ريشها كثيراً، لدرجة أنني أتقيأ حين أرى ريشة ضالة وهي تعوم على سطح ماء! أشعر بأنها تعبر فوق لساني فعلاً، ويتسلل طرفها المحرشف إلى أقصى حلقومي، فأكاد أغص بها، كما لو كانت شعرة عالقة، إذ أوشك أحياناً بأن أتقيأ فعلاً.

-18 -

عصر اليوم التالي أخبر فهد أمه بأنه سيذهب مع سعيد إلى الملعب، حاولت أن تقنعه بأن يشاهد المباراة في التلفزيون، ثم بدأت تردد الموال الطويل، بأنه لن يتفوق في دراسته، ولن يحقق نسبة عالية كي يلتحق بكلية محترمة: «شوف ياسر، في الطب، ويكره يصير دكتور». حين رأت أنه هبط الدرج مسرعاً، وهو يلعن في داخله ياسراً وأبا ياسر، جاء صوتها من الصالة: «لا تتأخر»، مشى إلى مقهى طريقتي، وهو يلبس ثوبه وقبعة فريقه المفضل، حين انعطف من شارع العروبة؛ لم يلمح سيارة سعيد الهوندا، دخل المقهى، وراح يتصفح جريدة الرياضية. قرأ مناوشات وتحديات بين مدربي الفريقين، ورئيسي الناديين وتصريحات بعض أعضاء الشرف. صاح جواله بموسيقى أغنية فيروز «تذكر آخر مرة شفتك»، كان المتصل سعيداً يقول بأنه في الطريق، بعد دقائق لمح فهد السيارة عبر زجاج المقهى، فخرج وركب.

تأخرا كثيراً، وقد امتلأ الملعب بالجماهير، دخلا ولم يجدا مكاناً إلا في الزاوية الجنوبية، بطرف مدرجات جمهور الهلال، عند صعودهما الدرج كانت مكبرات الصوت تضج بالملعب بأغنية وطنية: «من على الرمضاء مشى حافي القدم يستاهلك.. ومن سقى غرسك عرق دمع ودم

يستاهلك» والجماهير تهتز طرباً، وتردد: «يستاهلك»، بينما سعيد يصعد الدرج ركضاً، ويغني ساخراً مبتهجاً بصوت مسموع: «ومن سقى أرضك قرف قتل ودم يستاهلك» فلكزه فهد وقد مرّا بجوار جنود أعلى الدرج، وحين جلسا يلتقطان أنفاسهما لاهثين:

- مجنون أنت، المكان ملغم بالعسكر والمباحث.

- يا رجال ما حولك أحدا ثم رفع يديه مبتهجاً صائحاً: ابتسم نحن في درّة الملاعب!

- شكل أبوك احتل الحرم، وأنت ستحتل الملعب! همس فهد في أذنه.

كان الجنود في الأسفل يصطفون، وأعضاء الفرقة الموسيقية يجلسون في منطقة قريبة خلف المرمى. قائد الفرقة يتفقد الأعضاء ويوزع عليهم التعليمات تجهيزاً لمعزوفة السلام الوطني عند دخول الملك إلى الملعب بين الشوطين.

قبالة البوابة الخلفية لمستشفى الحمادي، كان بيت مهند، زميله فى المرحلة المتوسطة، حيث اقترح ذات ليل، وهما يلعبان البلاي ستيشن، بأن يذهب معهما، هو وأخوه الأكبر إلى الملعب لحضور المباراة فى الغد، فاستأذن فهد أباه الذي وافق على مضض، مع أنه كان متردداً فى الذهاب معه، لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة، ونفحه بمائة ريال حتى لا يحتاج إلى أحد: «انتبه لنفسك، ولا تضيع عن زميلك مهند» وقبل بداية المباراة بنصف ساعة لاحظ الثلاثة أن أعداداً من الجماهير ركضت نحو طرف المدرج المطل على بوابة الدخول، كى يطلّوا برؤوسهم إلى اللاعبين وهم يدلفون مضمار ملعب الملز، فاقترح منصور، الأخ الأكبر لمهند، بأن يذهبوا كى يروا اللاعبين عن قرب وعلى الطبيعة، ففرح الصغيران وركضا بشغب، كان الزحام رهيباً، حيث الكل يسعى إلى أن

يتسلل للوصول إلى حافة المدرج ويمسك بالحاجز الإسمنتى القصير، كي يستطيع أن يرى. كان منصور خلفهما يسوقهما ويدفعهما إلى الأمام، وحين وصلوا أخيراً، كادت أن تنقطع أنفاسهم بسبب الضغط وانعدام الهواء، وما أن هبط الدعيع والجابر أمام صيحات المعجبين، حتى شعر فهد أن منصوراً يلتصق به بطريقة مؤذية، وحين شعر به مكتملاً خلفه حاول أن يتفاداه، وينزاح قليلاً إلى اليسار، ففوجئ بآخر يصطدم به أيضاً، نظر مذعوراً خلفه، فكان رجلاً ملثماً بشماغ لم تظهر منه سوى عينيه، فاستدار وسحب مهنداً معه وهو يقول : «خلاص!»

أعادت إليه تلك الحادثة طفولته مع الريشة، فشعر بذنب كبير بذهابه إلى الملعب مع شخص لا يعرفه جيداً، ولم يأخذ معه أباه. كم يذكره ذلك بموقف زميله العراقى «موفق» حينما كانا يصعدان فوق الطاولات فى الممر أمام الفصول المدرسية، ويشاهدان المباراة خلال الفسحة من سترة الممر فى الطابق الثانى للمدرسة، كان «موفق» يقترب منه كثيراً، فيفهم فهد رغبته ويتراجع قليلاً إلى الخلف، كى يفسح له مكاناً، فيتسلل مثل قطة حمراء أليفة بينه وبين الجدار، فيلتصق به فهد من الخلف، ويضحكان، قبل أن يباغتهما «ناصر» عريف الفصل، ويصعد الطاولة كى يضايقهما، ويجذب «موفق» من كتفه نحوه: «من هنا تقدر تشوف أحسن!»

كان «موفق» يسايره خوفاً من أن ينتقم منه.

انطلقت المباراة، وكانت الجماهير تضج بصوت واحد، وتحولت مدرجات الملعب إلى سفينة عملاقة ومجنونة، أحس فهد، فجأة، بأن الملعب سفينة تتحرَّك وتتماوج ببطء، حتى كاد أن يدوخ بسبب سيرها البطيء! مع كل لعبة كان يزعق شاب بدوي أمامهما بشعره الطويل والشال الأزرق الذي يحيط به عنقه وكتفيه، بينما ثلاثة في الجوار قد

تحولت الأرض من تحتهم إلى بحيرة من قشور حب الفصفص، وفي غمرة تأمل فهد أواخر الشوط الأول للمحيطين به زعق الجميع وقفزوا بصخب وصراخ، فقفز مع سعيد رغم أنه لم يرَ كيف دخلت الكرة المرمى، لكنه رأى لاعبي الهلال يجرون خلف سامي الجابر، كانت لحظات سعادة غامرة.

عيناه مرفوعتان إلى الأعلى، حيث الأضواء الكاشفة تبدد الظلام، أضواء مثبتة على حواف المظلة البيضاوية الضخمة العالية فوق المدرجات، حيث يطير الحمام فوق رؤوس الجماهير، ويحوم حول الأضواء القوية، ثم يحطّ بجوارها فوق عارضات حديدية شاهقة، فتنفلت كل فينة ريشة وتتأرجح ببطء، وتتماوج بهدوء، حتى تنساق نظرات فهد وراءها، إلى أن تستقر بين الحشد، أو فوق كتف أحدهم، دون أن يكترث لها!

في استراحة ما بين الشوطين، سأل فهد سعيداً إذا كان يريد شيئاً من الكافيتريا، وحين نزل الدرج وخرج، فوجئ بزحام شديد حول منضدة الكاونتر العالية للكافيتريا، والزعيق يضيع مع البائعين البنغاليين التائهين. تردد وجلاً، فإن عاد إلى سعيد دون أن يجلب له ماءً وحب فصفص، فسيكون ذلك سيئاً، خاصة إذا كان تبريره منصباً على وجود الزحام: «سعيد ليس مجرد صديق»، كان يفكّر، «بل هو أخ، إن لم يكن هو الجدار الأخير الذي أستند إليه بعد أبي، كما كان أبي هو جداره الوحيد الذي استند إليه، تنفيذاً لوصية أبيه مشبب». تساءل: «ماذا سأفعل إذن بين هؤلاء؟» اقترب متردّدا، أمامه رجل يضع طفله فوق منضدة الكاونتر ويصيح بالبائع البنغالي دونما فائدة، في الجهة المقابلة من الكاونتر المستدير كحذوة حصان، أربعة شباب، أحدهم كان يلبس باروكة شعر طويل ومجعّد، وآخر يرتدي قميص لاعب برشلونة

الأسباني، البرازيلي رونالدينيو، والآخران يصيحان بالبائع الذي كان يناول المشترين قوارير الماء، وعلب عصير الربيع، ويعد النقود ببلاهة، وبعدما دخل أحد البائعين في المستودع الصغير الخلفي، وبقي الآخر، تشجّع الذي يرتدي قميص رونالدينيو، وقفز حاجز الكاونتر العالي، والتقط أربع قوارير من الكرتون المفتوح أمام دهشة البائع، فصاح به ذو الباروكة: «هات الكرتون كله»، فخطف الكرتون ووضعه أمام زملائه وسط صيحات تشجيع، فهرب البائع الوحيد، قبيل أن تصيبه قارورة ماء، ولعنات عالية: «يا بنغالي يا حيوان!»

عاد فهد دون ماء ولا حبّ فصفص، وصعد الدرج ليجد الفرقة الموسيقية داخل الملعب قد تهيأت، ومكبرات الصوت تبث الأغاني الوطنية الحماسية، فجأة خمدت المكبرات، وأعلن المذيع الداخلي عن وصول الملك، فلوّح بيده، وهاجت الجماهير بالصفير الصاخب، وانطلق النشيد الوطني مع هتافات الجمهور واللاعبين.

عند الدخول قام الحراس عند البوابات بالتفتيش الدقيق، وحين عاد فهد من فوضى الكافيتريا قام الجندي الحارس بوجهه النحيل الصارم، بتحسس جيوبه ملياً، وقد أمسك بمحفظته الشخصية طالباً أن يخرجها، ثم بدأ يفتش جيوبها واحداً واحداً، قبل أن يعيدها إليه، وسأله عن كوبون التذكرة فأخرجه من جيبه العلوي، وأشار بيده صامتاً حتى يدخل.

لماذا دائماً وجوه العسكر بدوية حانقة، أو قروية جامدة لا تحمل أي تعبير، لا بالغضب ولا بالسأم ولا بالمرح، كأن وجوههم ألواح مصمتة، وهل هم هكذا دائماً، حتى في بيوتهم، كيف يقابلون زوجاتهم؟ وهل يحتضنون أطفالهم مثل خلق الله؟ كم كان الأب سليمان يهرب مذعوراً حينما يقابل أحدهم، فحين توقفت سيارة زميله، أمام سوق التميمي في

طريق الملك فهد، ونزل، ووقف يحادث زميله من شباك السيارة المفتوح، حتى سمع مكبّر الصوت لدورية المرور، وهو يصيح بغتة، وضوء الدورية الأحمر والأزرق يصفع ملامحه، فقطع جملته وهرب مهرولاً بطريقة مضحكة، كان وجهه مخطوفاً ومرعوباً بشكل يجلب الرثاء! كأنما لم يتخلص من لوعة سنوات المعتقل، ومن خوفه من السجانين، بل يشعر أنه كلما كبر عمره زاد خوفه وقلقه وارتباكه لمجرد مرأى رجل يرتدي بزة عسكرية، حتى ولو كان برتبة متواضعة.

انتهت المباراة وقد كان فهد قلقاً لتأخره عن العودة إلى المنزل، بينما أحب سعيد أن يشاهد مراسم تسليم كأس البطولة، تحسس فهد جيبيه منتشلاً جواله، حتى فوجئ بخمسة اتصالات من أمه، ورسالتين، قرأ في إحداهما: «عمِّك جاء للبيت، ويسأل عنك وين راح، ومع مين راح، يخلي لي إياك يا بني لا تتأخر»

-19-

لم يحدث أن أهانه أبوه. حتى مجرد الكلام يحاول أن لا يجعله مباشراً وقت انفعاله، كذلك أمه لم تشده من أذنه سوى في تلك اللحظة الجارحة، وقت نزوله من سطح بيت عمّه بحي البشر ببريدة، فقد هصرت أذنه وقد ضبطت ريشة بيضاء ملتصقة بطرف ثوبه الشتوي الأخضر، أما ما عدا ذلك فقد كان أبوه يتابع دراسته، ويحرص على أن لا يضايقه ويهينه أحد، حتى ولو كان كلاماً ساخراً وجارحاً أمام زملائه الطلاب. كم كانت صدمته كبيرة، حين اكتشف أثر الضرب على أصابع فهودي، من مدرس القرآن، فأصطحبه في الظهيرة ذاتها، وعاد معه إلى المدرسة، فلم يجد سوى المدرس المناوب، فهدد بأن يتقدم بشكوى إلى إدارة التعليم غداً،

وأن يفضح المدرسة في الصحافة، ما لم يعتذر المدرس ويتعهد خطياً، بألا يفعلها مرة أخرى.

كان يقول لزوجته سها، بأنه لا يريد أن يؤذي أحد ابنه فهداً، ولا حتى أن يعنّفه، كي لا ينمو مدمراً من الداخل، لكن هذا لم يحدث دائماً، فقد كان يجلس على مضض بعد أن قبضت زوجة العم، أم ياسر على الثلاثة، ياسر وفهد وفيصل ابن العمة حصة، وهم صاعدين فوق طاولة المطبخ، يقذفون البيض على الأرض حتى أصبحت أرضية المطبخ صفراء لزجة، قبضت على فهد وفيصل، بينما هرب ياسر إلى الشارع، فملأت أعينهم ملحاً ناعماً، حتى علا بكاؤهما في صالة البيت، أخذتهما العمة حصة وغسلت أعينهم بالماء وهي تعنفهم، بينما كانت سها، المرأة الغريبة، صامتة لا تحرك ساكناً، فعدا فهد راكضاً إلى أبيه في مجلس الرجال ونام في حضنه وهو يقاوم شهقاته: «العجوز هناك حطت في عيوني ملح!»» ضحك العم بصخب وهو يقول ساخراً: «أزين لك حتى تشوف مضبوط!» بينما كان أبوه سليمان يغلي ويصطخب، وفخذه التي يتكوم فوقها صغيره لا تكف عن الهزهزة باضطراب وقلق وانفعال.

عاد فهد من الملعب وقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة، وعلى كتفيه شال أزرق، وما أن فتح باب السور في الأسفل، ودخل حتى وجد العم جالساً على الدرج الداخلي للبيت، نظر نحوه بقسوة فتجمد فهد في مكانه مصدوماً، كان متوجساً وخائفاً. كانا مثل قطين حذرين يتقابلان قرب قمامة، يدوران حول بعضهما بعضاً، يفز فروهما واقفاً كشوك، ويتأهبان لمعركة غير متعادلة. ودون أن ينظر تجاهه، جاء صوته ثقيلاً منتصف الليل: «وين كنت يا السفلة؟»

- كنت مع زميلي.

- مع الداشر صفر سبعة؟

- سعيد بن مشبب، زميلي، ولد صديق أبوي.

- سافل وداشر ولد مجرم. ثم أضاف: وين كنتم؟

- في الملعب.

- يعني مع الدشير والسقيط والحثالة؟

فجأة لمع في ذهن فهد مشهد التكريم والمنصة فأجاب:

- حتى الملك كان هناك.

فزّ من مكانه، ورفع فهد ذراعه كي يتقي يده المجنونة، فأمسك بيده القوية معصم فهد المرفوع، بينما تسللت يده الأخرى الخشنة وهي تهصر شحمة أذن فهد وتشدّها بعنف وحقد، وهو يكز على أسنانه بغضب مكتوم: «يا حيوان لا تثيرني، ترى ضيعت وقتي وتجارتي بينك وبين أمك المريضة!» ثم قبض بيده الأخرى شعر فهد وشده إليه فكانت رائحة فمه نتنه وهو يصرخ به: «أقسم بالله إذا شفتك يوم راكب مع ها الجنوبي أني لأسجنك أنت وياه! فهمت؟»

ثم دفعه إلى الدرج الطويل. وصعد فهد يحشر نوبة بكاء عارمة في صدره، ورغبة شديدة في الهرب من البيت، لم يعد يحتمل العيش تحت شروط العم ولعنته، فمنذ أن وهبه أبو عصام ورقة زواج تسمح له بأن يدخل البيت، وهو متحكم ومتسلط يدير البيت بطريقته وأفكاره. فكّر فهد بأبيه الذي جنح وانساق مع الجماعة السلفية المحتسبة، وعارض الحكومة ووزع منشورات ممنوعة تبشر بحياة جديدة، وتحرض على قتال حكومة الطاغوت، ففقد من شبابه أربع سنوات أو أكثر في السجن، لكنه تحول بطريقة المجربين إلى حياة مختلفة، استوعب أن للحياة طرقاً كثيرة للعيش، قرأ

كثيراً وتفتح ذهنه. ولو لم يغادر أهله ويعش تجربته، ويتحمل قراراته، لما استطاع أن يعرف الدنيا ويختبر الحياة. ظل فهد يفكر طوال تلك الليلة بأن يهرب ويختبر الحياة كما فعل أبوه، قال لنفسه: «سأختبر الحياة بطريقتي، أنا لست لولوة كي أبقى تحت أمرة عمي وأوهامه، بل أنا رجل، نعم أنا في السادسة عشرة، ومعي بطاقة أحوال شخصية، وسأحصل على تصريح قيادة سيارة قريباً، وأستطيع أن أدبّر أموري بعيداً عن هذا الحيوان!».

كعادته، بقي فهد يلوم نفسه على موقفه مع عمه قبل قليل: «قامتي تتجاوز عمي السمين، فحين مد يده نحوي لِمَ لم أمسك بها بقوة وأنهره، وحين شد رقبتي من الشال، لِمَ لم أنزع الشال من على رقبتي وألفه حول رقبته ثم أشده حتى تنتفض لحيته ويهتز كرشه الكبير، فيرفع يديه مستسلماً، وأرى جحوظ عينيه وانسدال لسانه الرخو، فأدفع به من فوق الدرجات الثلاث، حتى يخبط رأسه السمين حافة حوض الورد، وهو ينتفض ساعة وتطير روحه إلى جهنم!»

كان فهد يجلس قرب خزانه الملابس، ويسمع صوت أبيه المخنوق خلف ثيابه، دائماً يحس أن صوت الموتى يكون مخنوقا مثل صوت يأتي من عمق ماء مصحوباً بالفقاعات، كان صوت الأب الميت يلومه: «ثم ماذا يا صغيري فهد؟ ستقتل عمّك، وسيأخذونك إلى السجن لسنوات حتى يبلغ أصغر أبناء عمك رشده، ثم يحكم عليك بالقتل، ستقف في ساحة الصفاة أمام السياف الأسود، الذي يسلُّ سيفه الطويل فيقذف برأسك مثل كرة تتدحرج، ستموت وتترك أمك وأختك متحسرتين على فقدي وفقدك معاً!»

انقلب فهد على جانبه الأيسر، وتحدث في أعماقه مع أبيه:

«لا فرق يا أبي، حتى لو لم أقتل عمّي، ويقتلونني بسببه، فإنني

سأهرب، سأترك البيت، سآخذ صورتك وأعلقها على جدار بيت آخر دون خوف، سأرتب لوحاتي وحامل اللوحة وسط الصالة، سأملأ فضاء البيت برائحة الزيت كما كنت تتذكر وتحب تلك الرائحة، سأنقلب على رائحة دهن العود والبخور التي ملأ بهما عمي بيتنا، حتى أحسست أنني أعيش في مغسلة موتى ملحقة بجامع، أو حتى في مقبرة!

يا الله يا أبي، سأعيد القنوات الفضائية إلى البيت، سأشاهد أخبار التاسعة على قناة الجزيرة كما كنت تفعل، سأتابع تقارير قناة العربية، وأستمتع بفيلم الأسبوع، سيغسل صوت فيروز حجرات قلبي، وجدران البيت الذي سأعيش فيه، كما كنت تفعل وأمي في الصباح الباكر. هل تعرف يا أبي، حتى أمي بعدك تغيرت، فقط سنتين وتغيرت أمي، نسيت فيروز وركوة القهوة التركية، تلك الركوة أصبحت مقلوبة ومهملة في أحد أدراج المطبخ المهجورة، وقد تستخدمها لعمّي كمبولة حين يشيخ، ويصبح عاجزاً عن الذهاب إلى الحمام! هكذا انتشرت في البيت أشرطة دينية تفرض علينا أن نبكي ونتفاعل معها، لا أعرف يا أبي كيف استطاع هذا النمرود أن يجعل أختي أيضاً تحفظ الأناشيد الدينية والخرافات الساذجة.

أحياناً، أسأل نفسي، لماذا أصبحت يا فهد غريباً في بيتك وبيت أبيك، كل شيء تغيّر إلى حد كبير، حياتنا انقلبت تماماً، طفولة لولوة أجهضت، وصارت الآن امرأة تحلم أن تكون زوجة صغيرة وداعية، بعد أن كانت تحلم أن تصبح مذيعة، هل تذكر هدية ميلادها السابعة، حين ذهبت معك إلى تويز آر أص، وجلبتَ لها جهاز تسجيل وردي، بأصابع بيانو، وجهاز مايكرفون، كيف كانت تشعله وسط الصالة، وتطلب أنت منا أن ننصت لها، فمرة تغني لنا: «حبيتك تا نسيت النوم يا خوفي تنساني»، ومرة تقرأ لنا موجز النشرة المخترعة من عندها، كيف كنت تضحك

بجذل وأنت تصفق لها أحياناً، حتى تزداد هي جنوناً وفذلكة أمامنا. كل هذا مات يا أبي، هي الآن تحلم أن تكون غاسلة موتى، أو داعية تطوف الأنحاء والجلسات والتجمعات النسائية وتدعوهن في محاضرات إسلامية إلى الخوف من الله، وعذاب القبر، ودفع المنكرات التي تأتي من الضالين والضالات، وتدعو إلى تنظيمات بين النساء، أحياناً أتخيل أنها قد تلتحق بتنظيمات إسلامية حركية، بل أشعر لو أن الإرهابيين غيروا الإستراتيجية التي يعملون بها، وأدخلوا المرأة معهم كشريك ومنفذ لمشروعهم، قد تكون هي عنصراً حماسياً معهم، وقد تضع حول نفسها حزاماً تفجر به ما ترى أنه منكر، كي تصبح شهيدة تطير فوراً إلى الجنة.

هل تفعل لولوة الأميرة ذلك؟

لا، ليس إلى هذا الحد! لا أظن أن يقودها طموحها إلى الموت!».

-20 -

الصورة الأولى: زوج وزوجته، يفترشان بساطاً بلاستيكياً بجوار السيارة البيضاء الصغيرة، بينهما يجلس طفل في الثانية من عمره، ويعبث بقرقوش بلاستيكي، وأمه تطلق شعرها الأحمر المضيء، بينما يسرق أبوه بسمة ضائعة خلال لهاثه، بعدما عاد راكضاً كي يتخذ مكانه بجوار زوجته وطفله، وقد وضع الكاميرا فوق صندوق ثم ضبط مؤقت التصويرا خلف الصورة مكتوب بخط ناعم: سليمان وسها - شاطئ نصف القمر بالمنطقة الشرقية 1986م.

الصورة الثانية: قارب يتحرك بالدعاسات، يتسع لشخصين بالغين فقط، حيث يرتدي الزوج وزوجته وطفليه سترات الغرق الصفراء،

المنفوخة بالهواء والمحيطة بصدورهم، ويبدو من اللقطة أن الزوج منهمكٌ بالقيادة، وهو يضغط بقدميه على الدواسات، وبجواره زوجته تحتضن طفلتها ذات السنة الواحدة، بينما يحيط الأب طفله بذراعه، ويظهر خوف الطفل كأنما يريد البكاء، أو أنه بالكاد توقف عن البكاء، وقد بدت على فمه بقايا آيسكريم الكاكاو. على ظهر الصورة: سليمان وسها وفهد ولولو- كورنيش جدة 1989م.

الصورة الثالثة: طفلة جميلة في الرابعة تجلس أمام تورته كبيرة، وعليها أربع شمعات، بجوارها طفل ضاحك يحيط رقبتها بذراعه، بينما آخر تحركت يده كأنما سيمسك شمعة أو سيطفئها، وخلفهم أطفال يضحكون بشغب ومرح، وخلف الصورة: لولو 4 سنوات، فهد 7 سنوات، سعيد، عيد ميلاد لولو- فن تايم طريق الملك فهد.

الصورة الرابعة: طفل يجلس خائفاً فوق حصان السيسي الصغير، واضعاً يديه أمامه بوجل على ظهر الحصان، ومحاولاً النظر بعينين دامعتين تجاه الكاميرا. على ظهر الصورة: فهد في الثمامة بالرياض 1990م.

الصورة الخامسة: عريس يسدل غترته خجلاً، ويتزين بمشلح أبيض له قصب وزري سميك، بجواره عروس تلبس الكوشه، دون أن ترفع عن وجهها غطاء الدانتيل الأبيض المطرّز بالورد، خلف الصورة: زواج سليمان وسها- 6 يناير 1984م، عقبال مئة عام.

الصورة السادسة: طفل على فراش أبيض، يقف بجواره طفل آخر يحمل باقة زهر، ويضحكان معاً لعدسة الكاميرا، خلف الصورة: سعيد بعد العملية، وفهد، مستشفى الملك عبدالعزيز 1992م. بخط أخضر ركيك: ذكريات الزائدة الدودية.

الصورة السابعة: ثلاثة صبيان يقفون بخجل، أحدهم أمال رأسه

بخفر، وأمامهم طاولات مدرسية، وخلفهم جدار مزين بورق أزرق وزهور، وجزء من خزائن أرضية تحت نافذة طويلة. مكتوب خلف الصورة: فهد في الوسط، موفق العراقي يمين، وزياد القزم يسار، ثاني متوسط، فصل 2/2.

الصورة الثامنة: طفل فوق كرسي عال بحزام، على يمينه رجل بشارب مقصوص بعناية، وتخالط حمرة شعره بياض خفيف، وهو يرخي ابتسامة جميلة، عن يساره امرأة بحجاب، تضحك وهي تضع في فم الصغير إصبع بطاطس مقلية مغمس في طرفها كاتشب، وعلى ظهر الصورة: فهد مع جده أبي عصام، وجدته أم عصام- مطعم أبو كمال - شارع الثلاثين بالعليا.

الصورة التاسعة: زوج وزوجته وطفلاهما، وشاب وسيم يلبس جاكيت وربطة عنق، بجواره آخر بصدر مفتوح، ورجل عجوز بشارب أبيض، خلف الصورة: سليمان وسها وفهد ولولو وعصام وكمال وأبو عصام- مطعم الشام- عمان 1995م.

الصورة العاشرة: صغيرة مقاسها 4×6 لطفل بعينين متطلعتين، وشعر أحمر مقصوص من الأمام، ومقاومة لكبح ابتسامة ستتراخى. خلف الصورة: فهد بن سليمان السفيلاوي 1992م.

هذه الصورة الأخيرة يتذكرها فهد جيداً، ويتذكر كيف كان أبوه والمصور اليمني في استديو زماني بشارع الثلاثين، يضحكان معاً لحماس الطفل، وكتم أنفاسه أمام العدسة، كي يقاوم الضحكة ليبدو رجلاً، فالرجل لا يضحك.

بعد هذه الصورة تحديداً، أمسك سليمان بيد صغيره فهد وسارا بامتداد شارع الثلاثين، فدخلا محلاً لبيع اللوحات التشكيلية، أحب سليمان

إحداها، وبقي يجادل البائع طويلاً على ثمنها، ثم خرجا دون أن يقتنيها.

صور تتبع صوراً، وذكريات تستيقظ في الألبوم الذي يحتفظ به فهد في درج خزانة ملابسه، كان يشعر أنه هو ذكرياته وتاريخه الشخصي، بل حياته بأكملها، لا شيء يعيده إلى الماضي الجميل سوى هذا الألبوم، والأغنيات التي تجلب له مواقف ارتبطت بها، كانت تلك الصور تعادل عنده الحياة نفسها، لا يعرف ماذا سيحدث له لو افتقدها ذات يوم، هل يضع حداً لحياته؟ أينتحر مثلاً؟ ماذا سيفعل وقد أصبح فجأة مخلوقاً بلا ماضٍ؟ وهل الماضي يوجد في الصور فحسب؟ أليست الذاكرة تقود حتماً إلى الماضي؟ هذا صحيح، لكنه يجزم أن الذاكرة تحتاج إلى تحفيز كي تستيقظ خلاياها، تحتاج إلى جلاد كما لو كانت حصان عربة يصعد مرتفعاً!

بعد ليالٍ من حادثة الملعب، كان يسترخي على سريره، مستجلباً أيام طفولته المبكرة، حتى قادته الذكريات، والحنين الثقيل، إلى ملامح أبيه، وتذكّر صورتهما معاً، حيث يشدُّ رأسه نحوه مداعباً أمام عربة الآيسكريم بالثمامة، ففزع بغتة وفتح باب الخزانة، ثم سحب الدرج، فتَّش عن ألبوم الصور فلم يجده، ربما أخذته الأم أو لولو للتأمل في أيام لن تعود، نبش أدراج التسريحة، وأدرج الكوميدينو، دون جدوى، أصيب بخبل ولوثة، تذكر أنه وضعه ذات يوم فوق خزانة الملابس وتحت الحقيبة الكبيرة، صعد على سلم صغير ورفع الحقيبة فطار غبار هائل وملأ عينيه، قفز دفعة واحدة من على السلم وسقط على مؤخرته، كاد أن يبكي حين وقف أمام مغسلة الحمام، كي يغسل وجه وعينيه، خرج قاصداً أمه، فوجد لولوة في الصالة: «لولو وين الألبوم؟».

سألت ببرود وهي تكتب واجب المدرسة:

- أي ألبوم؟

- ألبومي، ألبوم الصور في درجي، من أخذه؟

لم تجب، فقط رفعت كتفيها وزمت حاجبيها بإنكار، دخل على أمه وكانت في الحمام، انتظر، وحين خرجت وهي تحيط رأسها المبتل بمنشفة بيضاء، هاجمها بالسؤال عن الألبوم، أجابت بأنها لا تعلم عنه شيئاً، فتش كل أنحاء البيت مثل ذئب جريح، في داخله ذئاب تتربص وتعوي، كان يبكي أباه وأمه وأخته ونفسه، وأصدقاءه، وفصله وبيته، كان ببساطة شديدة يبكي حياته التي طارت فجأة، فلم يعد يعرف من هو؟ ما اسمه؟ من أين جاء؟ إلى أين سيمضي؟ أين سيقطن؟ من هؤلاء الذين يتجولون حوله؟

في اليوم التالي بينما كان فهد يفتِّش برميل القمامة الأصفر، دون أن يعثر على شيء عاد إلى الداخل، وجلس حزيناً مطرقاً على درج المدخل المفروش بأنجيلة خضراء صناعية، كان ينظر عالياً تجاه نافذة الجار حيث الحمام يطير ويحط عليها، يتلفت، يميناً نحو السور، ثم يساراً تجاه شبكة السلة المعلَّقة على ماسورة الحمَّام الطويلة، تلك الشبكة التي تنافس مع أبيه على إدخال كرة السلة فيها، وأحياناً هو وسعيد حين يكون الأب نائماً عصراً، بعد ذلك هبط ببصره إلى الجهة اليسرى التي لا يذهب نحوها أحد، حيث الجدار الصغير الفاصل عن الدور الأرضي للجار، فلمح ورقة صغير منكفئة، كأنما طيَّرها هواء نادر، حدَّق فيها ملياً ثم قام والتقطها، كم كانت اللحظة قاتلة وهو يقلبها من الجهة الثانية، كانت عينا سعيد وهو يحرِّك يده في عيد ميلاد لولوة، كانت قطعة صغيرة ممزقة من الصورة الكاملة، بحث عن بقايا أخرى، فوجد قطعة أخرى من وجه أبيه خجلاً وهو يلبس مشلحه الأبيض يوم زواجه، بحث فلم يجد غير هاتين القطعتين، إذنا أحدهم مزَّق صور الألبوم وأتلفها كلها،

وأخرجها معه إلى الشارع، والممزقتان الصغيرتان تسللتا من الرزم الممزقة من الصور كلها.

صعد كمجنون وهو يبكي ويصرخ: «من الملعون، الكلب ابن الكلب اللي شقَّق صور الألبوم؟»

فزعت أمه مرعوبة وهي تبسمل وتحاول تهدئته، بينما صار يركض في جنبات الصالة على غير هدى، ويبكي بحسرة: «يا ويلي ويلاه! يلعن أبوكم وأبو من جمعكم!» كان لا يشعر بشيء من حوله، بل لا يرى شيئاً أمامه، لا يعرف كيف جاءته قوة هائلة وهو يمزق جيب قميصه البيتي، ثم يركل الحاجز الخشبي بقدمه حتى يهتز، ثم رمى نفسه من الدرج صائحاً: «أبغى أموت!» كانت أمه ولولوة تركضان خلفه، وهما تحاولان إيقافه، ناولت الصغيرة أمها ماءً أصفر تطفر منه رائحة الزعفران المقروء فيه، بدأت ترش على وجهه وهي تبسمل عليه، كانت تظن أن جنِّيا تخطَّفه، وهو الذي دحرجه من الدرج.

في اليوم التالي علم فهد أن عمَّه طلب من لولوة أن تمزق الصور في دفاترها، فهي حرام وتدخل صاحبها النار، ولا تجعل الملائكة تدخل البيت، قال لها إن المصطفى يقول: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة)، وحذَّرها من عقوبة المصورين: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)، ثم تبسّط معها في الكلام حتى عرف مكان ألبوم الصور ومزقها واحدة واحدة، هكذا طاش صواب فهد وقرر أن يترك البيت.

بدأ يأخذ أغراضه شيئاً فشيئاً إلى شقة سعيد،المستأجرة، وحين لاحظ أن سعيد يوصيه بأن يبقى بجوار أمه وأخته، أخبره فهد بأنه سيذهب إلى أي مكان آخر إذا لم يرغب هو باستضافته، فأذعن له حتى جاء اليوم الذي قال لأمه:

- أكرهك! وأكره رجلك الملعون! حتى هالبيت صرت أكرهه! ما له طعم بعد أبوي!

- رجلي هو عمّك، غصب عنّك. ثم أضافت: والبيت ما تدخله الملائكة إذا فيه كلب أو صورة.. بعدين ما نحتاج صور تذكّرنا بشيء.

وهو يلتقط كراس اسكتشات جديد كان قد نسيه من قبل:

- خير.. وإذا مزّق الصور بتدخل الملائكة يعني؟ ثم أضاف وهو يهبط من الدرج مهرولا كذئب: مفروض أول يطلع الكلب من البيت قبل ما تطلع الصور؟!

الجزء الثالث

غابة أشجار المطاط

«جوّعني

لأكون لبوة الضجران في وحشة الدغل الليلي

لأناغشَ سطحكَ النافرَ بحدّة أسناني»

عقل عويط: سراح القتيل

-21-

هدأت سرعة القطار قرب بلدة «بيشوبس ستورتفورد» وصعد بعض الركاب، ليمر مدقق التذاكر بآلته اليدوية الصغيرة التي يختم بها اليوم والتاريخ على تذاكر المسافرين الجدد. عرضت العجوز على فهد علكا، فتناوله، وشكرها، بعد أن هدأت ذاكرته قليلا. نظر من خلال النافذة إلى المقاعد الخشبية الفارغة على الرصيف، والشرطي الذي يقف ممسكا بكلب ضخم.

سار القطار من جديد، وركضت ذاكرة فهد خلفه لاهثةً ومجنونة، حيث يفكّر بأنه ليس سهلاً أن تتمرَّد وتغامر في حياتك، لكنك إن لم تفعل في مراهقتك وشبابك، فلن تفعلها أبداً طول حياتك، هكذا كان الأمر بالنسبة إليه، لم يعد ثمَّة شيء يستحق أن يحافظ عليه، وهو لن يتمرَّد كأبيه، لن يفعل مثله، ويصطدم بالحكومة والمجتمع، بل يكاد أن يحمل السلاح، لولا أن انسحب ببطء متخذاً من جامع الإمام تركي طريقاً أول للهروب من جماعة السلفيين المحتسبة، فصار ينصت بعد مغرب كل يوم إلى أحاديث ومحاضرات الشيخ الضرير، حتى سقط من حساباتهم.

كم كانت لحظة القرار مؤلمة وقاتلة! وهو ينسحب من بيت أهله إلى الأبد، حتى وإن لم يكن بشكل دائم، فمجرد أن ينام ليلة، ليلتين فأكثر، في مكان آخر، كان أمراً حزيناً لأمه المريضة، ماذا ستفعل ليلاً؟ هل ستغسل لولوة جبينها بكأس ماء يتحلل في عمقه زعفران الآيات القرآنية المكتوبة على ورقة بيضاء؟ هل ستشرب ثلاث جرعات قصيرة، وتسترخي برأسها المعصوب على وسادتها كي تستجدي النوم؟ هل ستأخذ منوماً كي تنام مثل قتيل؟

رغم أن فهداً يعرف سعيداً جيداً، وقد خرجا معاً مراراً، تسكعا في شارع التحلية وفي برج الفيصلية، طاردا فتيات لعوبات يسحبن الغواية خلفهن مثل كلب لاهث، كانا يلاحقان غوايتهن مسحورين، كأطفال الطيور الملونة أو الفراشات، كانا مأخوذين بنظرة ساحرة خلف نقاب، بعينين مرسومتين بكحل وظل مجنون، بضحكات وتدافع بالأكتاف بينهن، ويتمايلن بغنج وشهوة، ويؤشرن نحوهما بخبث. كان سعيد يتحول إلى كائن آخر حين يشاهد عبثهن، يكاد يلتصق بأجسادهن المحبوكة بالعباءات، حالما يجد فرصة أو مكاناً لائذاً، لم يكن يكترث للباعة الهنود أو الفلبينيين، بينما يتحاشى نظرات الباعة العرب، اللبنانيين والسوريين والمصريين، لكنه حين يرى رجلاً سعودياً تقوده زوجته فإنه لا يرتكب شيئاً من جنونه نهائياً، وإنما يتحول إلى مجنون ومتهوِّر حين ينفرد بإحداهن، فاندفع، ذات ليل، مثل نمر بري نحو طريدتين واحتضنهما معاً قرب المصعد وقت أن ضحكتا له، قبل أن تخبط إحداهما حقيبة يدها على رأسه، فعاد إلى فهد ضاحكاً لاهثاً، وهو يقول: «الملعونة هي اللي رقمتني!»

لم يكن فهد يفعل مثل جنونه أبداً، قد ينساق وجلاً خلف إحداهن، لكنها لو نظرت نحوه شزراً فإنه سيعود أدراجه متعثراً كأرنب بيتي صغير، وكان سعيد يقول عنه دائما: «مشكلتك أنك تأخذ الحياة بجدية، مع أنها

ما تستاهل!» وما يدهش حقاً، تلكم الثقافة والاطلاع الواسع لدى سعيد، وهذا الجنون خلف الشهوة في الوقت ذاته، وحين يسأله فهد عن هذا التعارض، كان يجيب بضحكة: «ما فيه تعارض، كلها ثقافة!»

كانت إحداهن مميزة، لكنه لا يحبها؛ لأن خروجها من البيت يحتاج إلى جيوش الروم، كما يقول، فلا تستطيع أن تخرج إلا بصحبة أهلها كلهم، فكان يتهرّب منها، حتى وجد فهد في صوتها وسوالفها بعض العزاء لمصائبه، فجعلت تتصل به يومياً على هاتف الشقة، أو الوكر، كما يسميها سعيد، ثم أخذت رقم هاتفه المحمول، وجاء يوم خرج فيه جيش الروم بعدته وعتاده الضخم، وواعدته في برج المملكة عصراً، ظل ينظر قلقاً في محل «زهور الربيع» حتى وقفت أمامه وصافحته مرتبكة، بينما زاد ارتباكه وقد أسبلت عينيها المنقبتين، كانت ترتعش كمجنونة، وحين تركها بعد دقائق، اعترفت له بأنها كادت أن تحتضنه: «يا حبي لعيونك!» ثم أضافت «ولا عاد شاربك الذهبي»، فضحك وهو يسأل: «ذهبي ولاّ أحمر؟» كان سعيد يقول: إن البنت التي لا تخرج معك من المكالمة الثانية لا تستحق إضاعة الوقت عليها: «يا أخي الحب بزنس!» ثم يضيف جملته الشهيرة: «هل تعتقد أن التاجر يضع ماله في مشروع قد يبقى شهراً كاملاً بلا أرباح؟» فيضحك فهد وهو يجيب: «طبعاً لا!»

كانت الأرباح في نظر سعيد، مسك يد وهصرها وتقبيلها أحياناً، خبط لاءٍ على مؤخرة، عناق متلهف، قبلة عميقة وطويلة، وحتى آخر المشوار، أما أن تسمي الشهقات واللهاث في السماعة أرباحاً فهذا كلام فاضي ولا يستحق العناء، تعرف ليش؟ لأن ممكن تتفرج على فيلم وتخلص نفسك بنفسك أصرف لك من خداع نفسك، وإنهاء لذتك على مجرد صوت لاهث ومتأوه!

لم يجب فهد على اتصالات أمه ولولوة، لكنه رفع سماعة تلفون

الشقة وفوجئ بأمه تبكي، وتلومه لأنه أهملها وأخته معها، فكان يتنهد بعمق وحسرة، ويقول بقسوة: «أنتِ اخترتِ من ينفعك!» ثم يضيف: «كل ما فعله عمّي كان هدفه طردي من البيت، وفعلت ما يرضيه، بعدين يمكن فيه أحد غيره له مصلحة أني أترك البيت!» أجابت وسط بكائها الحزين: «يا عيب الشوم عليك يا فهد، أنا بضل أمك، ولولو أختك»

لم تنهِ المكالمة إلا بعد أن أقنعته بأن يزورها في الأيام التي لا يتواجد فيها عمّه، خاصة أن مرضها أصبح مقلقاً، وقد اصطادته بجملة مؤثرة: «يا بني ما حد عارف قديش بيعيش!» كم جرحته عبارتها تلك، فقرر أن يزورها في الليالي التي يضاجع فيها عمّه إحدى زوجتيه الأخريين، وأحياناً تحلف عليه بأن ينام عندها، فيجامل رغم أنه أحب حياة الوكر العظيم، فكل ما هو ممنوع ومحرم في مملكة العمّ، مباح ومتوافر في وكر سعيد، لا قنوات فضائية هنا، ولا مجلات ملونة ولا جرائد يومية، ولا صور إطلاقاً، ولا موسيقى ولا أغنيات ولا كمبيوتر ولا إنترنت، بينما كل ذلك وأكثر متوافر هناك.

كانت تقضي معظم وقتها في فراشها، ولم تعد تنام في غرفتها إلا إذا جاء زوجها إلى البيت، فمعظم يومها تنام في غرفة الطعام المجاورة للمطبخ، وبجوار وسادتها مظروف صغير بداخله أوراق مثنية فيها آيات مكتوبة بالزعفران الأصفر، تأخذ منها ورقة، ودون أن تفتحها تغمسها فوراً في كأس الماء حتى يتلون وتشرب، ثم تغسل صدرها وبطنها و تقرأ على رئتيها المنتفضتين كطيرين، كانت تتضرع إلى الله: «اللهم رب الناس، اذهب الباس، اشفِ أنت الشافي، لا شفاءً إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما». كانت قد تحولت نظرتها إلى الحياة، وأصبحت أكثر تدينا، هل المرض جعلها تفعل ذلك؟ أم الزوج الجديد، إمام المسجد، الذي قلب

الحياة في هذا البيت؟ حيث لم يكن زواجه ستراً على زوجة أخيه، ولا حفاظاً على صغيري أخيه، ولا مجرد شهوة عابرة، بل قد يكون احتساباً للأجر بأن يجعل هذا البيت مؤمناً، بعد أن كان منفلتاً وضالاً وفاسقاً. سأل فهد: «وش تحسِّين؟» أجابت: «أمراض حريم يا بني، ما تشغل بالك، بس خليك قريب مني!»

ذات عصر، وضعت لولوة إبريق شاي بالنعناع أمام أخيها وأمها، في غرفة الطعام ذات المساند المشغولة بالصوف الملوّن، صب لها كأس شاي، فطلبت منه أن يحضر لها من على طاولة التسريحة بغرفتها دفتر الأرقام، كي يتصل بمحل الصيانة والتبريد، حتى يأخذ العامل جهاز تكييف الصالة الذي أصبح ينفخ هواءً ساخناً: «يمكن يحتاج تعبئة فريون!» قال لها قبل أن يتجه إلى غرفتها، وبينما كان يفتّش على التسريحة والكومودينو عن دفتر الأرقام الهاتفية، لمح كتيباً دينياً صغيراً، من تلك النوعيات التي توزع مجاناً مع أشرطة الكاسيت في المساجد وصالات الانتظار، شاهد على غلافه اللامع لوحة أغصان شجر وسماء غاربة، وقرأ عنوانه: أثر الرقية والأعشاب في معالجة السرطان!. تصفحه على عجل، وقرأ بعض أسطر المقدمة التي تشير إلى أن علاج أخطر أمراض العصر، وهو السرطان، يكمن في الدعاء والآيات والقراءة والنفث على النفس، ويستشهد بحالات إنسانية آمنت بالله وتوكلت عليه، وتركت اختراعات الأطباء وكذبهم، حتى أن طبيب إحدى الحالات، وهو طبيب أمريكي، أصيب بدهشة عظيمة حين أظهرت الصور المقطعية خلو الجسم تماماً من الخلايا السرطانية، وحين سأل المريض: أين عولج؟ أشار المريض، مبتسماً بإيمان، إلى السماء. أقفل فهد الكتيب سريعاً، وعاد بدفتر الأرقام فاتصل بمحلّ الصيانة الذي وعد أن يمر غداً عصراً؛ لأن سيارة الوانيت ليست متوافرة الآن.

حين يغادر البيت، تحتضنه أمه وتغرس في جيبه العلوي مائتي ريال أو خمسمائة، فيقبل رأسها، وتدعو أن يحميه الله من شياطين الإنس والجن، وحين اعترض على قبول هديتها، بعد أول زيارة منذ مغادرة البيت، قائلاً بأنه لا يريد صدقات من أحد، عنفته بشدة، وهي تقول له بأنه مالك، فمال أبيك يرحمه الله هو مالك.

في الشقة، يقضي ساعات طويلة أمام شاشة الإنترنت، منذ عمله مشرفاً على قسم التشكيل والفنون بموقع كانون، يستقبل المواد ويراجع مقالات المنتدى والردود، حتى أنه لم يعد يهتم بمكالمات نهى، وقد رآها في المرة الثانية في محل «بيير مون» ببرج المملكة، فصافحته سريعاً وهي تكشف عن وجهها الصغير المصبوغ، وناولته هدية ملفوفة بورق ليموني، وضعتها له داخل كيس، وقرأ في ورقة الإهداء: «حبيبي، لعيونك الرائعة وفمك وشاربك الأحمر الخفيف، أهدي عطري وأنوثتي»، فتح الورق في الشقة، بينما سعيد يضحك بشدة، وهو يصيح بصخب: «العن أبو الرومانسية». أخرج عطر جيفنتشي، ورش منه تجاه سعيد وهو يضحك.

-22-

نهى صغيرة ولعوب، ليس فهد هو الأول ولا الأخير، ليس وحده فحسب، بل تجمع حولها رجالاً تغسل بأصواتهم الخشنة ومشاغباتهم الموحية ليلها الطويل، أما أمها التي تحاول أن تغير قنوات الشوتايم كلما دخلت نهى عليها الغرفة، فهي وجلة جداً على بناتها، تتذكر نهى بأن أمها ذات الشخصية القوية تنهرها بألا تركب حصاناً في المتنزهات، أو حتى دراجة هوائية، وألا تقفز وتلعب بعنف، كي لا تفقد عذريتها، كانت تقول

لها : «البنت عود كبريت!» حين كبرت وفهمت الرسالة المضمرة، كانت تقول لنفسها تحت بطانية شتاء الرياض القارس: «كيف كبريت، من يشعلني؟ ومتى؟»

ما زالت نهى تتذكر لحظات طفولتها المبكرة، كانت تختبئ تحت الشرشف، وترسل يدها الصغيرة هناك، تداعب بخدر لذيذ، لم تكن تشعر بأي متعة، بل كان مجرد هوس باكتشاف هذا السر الدفين، هذا الجرح المخبوء، ذات يوم دخلت أمها فجأة، فأخرجت يدها من هناك بارتباك، فسألتها: «وش تسوين؟» كانت قد اصطادت ارتباك الصغيرة نهى وفزعها، تلك التي أجابت برعب: «ولا شيء!»

لم تتأكد الأم آنذاك مما تعمل، لكنها بدأت تنصحها بأن من العيب أن تلعب بنفسها: «إذا وضعتِ يدك هناك فلن تنجبي أطفالاً!» كم كان مضحكاً أن تنصح الأم بألا تفعل صغيرتها ذلك كي لا تفقد الأمومة، وماذا في ذلك؟ ما الأمومة أصلاً لطفلة السابعة؟ في المرة التالية كانت تعبث بيدها، وتحرك حوله لسببين، لم تكن المتعة دافعها، وإنما رغبة الاكتشاف أولاً، وثانياً لأن طراوته تروق لها، جدرانه الصغيرة الناعمة جداً وملمسه الحريري، كان رائعاً، بل إنها كانت تشم يدها حين تخرجها، فتطير إلى دماغها الصغير رائحة نفاذة، ليست رائحة عطر، وليست رائحة جلدها، بل رائحة مختلفة، تشبه رائحة تفاحة خضراء آخذة في التعفن!. في تلك اللحظة فاجأتها أمها وهي في وضع مكشوف دونما غطاء، فسألتها وقد اقتربت منها، فتلعثمت، مبررةً ذلك بأنها كانت تقيس لباسها الداخلي الجديد، حتى فوجئت بيد الأم حارقة وثقيلة تحط على وجهها.

رغم أن نهى لا تخرج من بيتها إلا نادراً جداً، ورغم أنها محاطة بجدران أربعة، إلا أن كل أصدقائها هم من الرجال، فهي لا تخرج نهائياً

إلا بصحبة أمها وجيش أخوتها وأخواتها، لا يمكن أن تدعها أمّها تذهب مع الصغار فقط، بصحبة السائق، ولا مع أي من أقاربها طبعاً، الشخص الوحيد الذي يمكن أن تذهب معه دون أن تصطحبها أمها هو: أبوها. كان خروجها مع أبيها هو لحظة تمرد مجنونة بالنسبة لها، فعندما خرجت مع صديقها مثلاً، وهي أيضاً حالات نادرة، فالأم تأخذها إلى بيت الجدة، الأم تأخذها إلى الجامعة، الأم تأخذها إلى موعد الطبيب، وهكذا. لدرجة أن نهى باتت تشفق على أمها أحياناً، بسبب انشغالها بها، وإهمالها لأبيها، وأحياناً تقول لنفسها: «رائع أنها فعلت ذلك بي، وإلا لكنت ضاجعت العديد من الأصدقاء الذين عرفتهم، صحيح أنني ضاجعت ثلاثة منهم حتى الآن، لكن في التلفون فحسب، لذلك أظن لو أن أمي غفلت عني جزءاً من اليوم، لفعلت الكثير...»

كان لا بد أن تتخلص من أختها التي تشاركها الغرفة والحمام، فسعت لأن تجعلها تطيش وتنفعل، فاستخدمت لعبة خوفها من الظلام، وصارت تخمد الضوء باكراً، حتى ترتجف الأخت ذعراً، وتتخاصمان، حتى اضطرت نادية أخيراً لنقل كتبها وفراشها إلى غرفة الأخوة والأخوات الأصغر سناً، فأصبحت الغرفة الصغيرة مملكة غرامياتها السرِّية، ففي الصف الأول الثانوي، اصطادها شاب صغير يكبرها بسنتين، فبلغت الذروة معه وهي مستثارة بالصوت والآهات فحسب، كما يحدث في الأفلام، كانت نهى تستغرب أن أمها لم تسمعها آنذاك، وقد تنبهت أخيراً، بأن تقفل باب غرفتها أولاً، ثم احتياطاً تدخل الحمام وتغلقه خلفها، كم كان محرجاً أن سألها أحد أصدقائها، وقد سمع الصدى المتردد من جدران السيراميك: «أنتِ في الحمام؟» أجابت: «نعم»، وشرحت له أن العازل الحراري داخل جدران الغرفة يجعل صوته غير واضح خلافاً للحمام، ولم يكتشف هو ذلك إنما كانت تحاول أن تحمي صوتها من

طيور آذان أمها التي تحلق في الأنحاء كخفافيش في الظلام!

كانت أمها تذكرها دوماً أن البنت مثل عود الكبريت، لا يمكن أن تُستخدم إلا مرة واحدة، وتعني بذلك أن تحافظ على عذريتها، وقد أرعبها أن عبثها بأصابعها قد يطول إلى ما لا يحمد عقباه، وقد ازداد خوفها من لعبها مع أبناء خالتها لعبة الغميضة في الظلام، كانت تشعر أنهم يحتضنون بعضهم بعضاً حين يمسك أحدهم الآخر، مسكينة تلكم الأم حقاً، كم كانت تلك اللحظة مؤنسة حقاً، حينما كانت نهى نائمة أو بمعنى أدق، كانت تفتعل النوم على بطنها، بينما ابن خالتها سامر، متمدد بجوارها يتسلّى بلعبة «القيم بوي»، ثم يحذف اليد خلفها، ويدعي أنه يحاول أن يجلبها وهو يمس مؤخرتها الصغيرة بشيئه، تتذكر نهى: «كم كان مغفلاً، لو قام وتمدد مباشرة لاستسلمت بهدرء ودونما ضجة، وقذف بلعبته الثمينة إلى الشيطان»

عرفت نهى صديقاً اكتشفت أنه شاذ، وما أقلقها أكثر هو أنه لم يكتشف هو ذلك بنفسه، أو ربما كان متردداً، أو يعمل بطريقتين مع النساء والرجال، أحياناً يتلفظ بكلمات لا يمكن أن يقولها رجل: «ههه، أحد يرفعني!» كانت تحس أن كلمات مشابهة قد تأبى رجولة أي شاب أن يطلقها مراراً، ولعل أصعب الحالات، كانت حين أرسلت له صورة صدرها عبر وسائط الجوال، وتوسلت بأن يرسل عضوه، فوجئت أنه أرسل صورة مؤخرته وقد التقطها داخل حمام مطعم وجبات سريعة!

وحتى حين تحدث عن علاقته بصديقته السابقة، قال لها عن حركات جنسية غريبة، قد لا يرضى بها إلا من عنده ميول مثلية، قال لها بأنها تداعبه هناك، في الخلف، ويستمتع وهو يصف حالته: «واو، شيء يدوّخ!» حتى حين يقول: واااو، فإنه يقولها بطريقة أنثوية مخجلة.

حين أرسلت نهى إلى فهد صورة عضوها الوردي الصغير، كانت احتفظت بالصورة في جهاز اللاب توب، قبل أن ترسلها إليه عبر الوسائط، وفي يوم كانت تتصفح مع أختها نادية ملف الصور، حيث الأزياء الجديدة، فهما تتهيئان لحضور زواج ابنة الخالة، كان جهاز اللاب توب فوق الكرسي الدوار في غرفتها، وكانت أختها منهمكة تتحدث عن بنات المدرسة، فأدارت الكرسي بخفة قبل أن تلمح الوردي العاري، كانت نبضات قلبها تعالت وتغيَّر وجهها، وهي تتخيَّل أن أختها رأته، مع أنها ليست متأكدة بأنها لم تره، ماذا ستقول عنها؟ إما أنه يخصها، ولا سبب لحفظه إلا أن تكون قد أرسلته إلى أحد ما، أو أنه لغيرها، وهذه كارثة أخرى، تعني أن عندها ميول مثلية!

- 23 -

لم يستمر فهد مع نهى فتاة «ببير مون» أو فتاة ورق القمر طويلاً، فقد كان سعيد صادقاً في رأيه، إذ يصعب أن تنتظر الخلاص من جيش الروم المسلَّح، ومن السهل أن تنصرف إلى فتاة أكثر نضجاً، وأكثر سهولة في الحديث واللقاء، وقد كان فهد ذات مساء في زيارة برج الفيصلية، الذي ينظم فيه معرض تشكيلي جماعي، داخل بهو السوق، بحيث يُسمح للنساء المتجولات بين المحلات بأن يقفن أمام اللوحات أيضاً. كان ينظر في لوحة جميلة اسمها «بنات المطر»، يظهر فيها بشكل تجريدي عدد من البنات القرويات اللاهيات تحت رشاش المطر، وفوجئ بسيدة في نهاية الثلاثينات تقف بجواره وهي تحدق باللوحة ذاتها. ارتبك وخطا إلى اللوحة المجاورة، فوجدها تتأمل اللوحة ذاتها بعينيها المنقبتين، سألته بجرأة: «الأخ فنان؟» أجاب: «نعم» فناقشته عن لوحة بنات المطر، ولِمَ

ركَّز الفنان على اللون الأزرق مع أن المطر يجلب الفرح والمتعة؟ كان يتكلَّم مرتبكاً ووجلاً، يتلفت حوله خوفاً من أن يهبط من سماء البرج أحدهم معتمراً مشلحه السلك الخفيف، ولم يكن يتوقع أن موته سيكون في زمن لاحق. في صباح كئيب، في مقهى ستار بكس حيث يجلس مع حبيبته طرفة، وحيث يقودونه إلى حتفه، وإدانته ليس بخلوة غير شرعية فحسب، بل بتأثيره على البنت المغلوبة بادعاء العطف عليها والسحر والشعوذة.

كانت ثريا تحدثه عن اللوحة بحس مجرِّب، لثغتها الحجازية لذيذة ومحببة، وغطاء رأسها ذي التطريز الياقوتي لافت، وعطرها يغمر أنفه وروحه، وروحها الشابة ترفرف بعشق، تلك التي لو لم تقل أنها أم لستة، وأن أكبرهم في عمره تقريباً، ولولا صوتها المتهدج قليلاً، لما استطاع أن يخمِّن أن عمرها في نهايات الثلاثينيات، تزوجت وهي صغيرة من رجل قصيمي، وتركت الحجاز الذي تهدل كحمامة كلما تذكرته: «أنت رقيق وناعم زي الحجز!»، فكل شيء جميل ورقيق ورائع في الحياة إنما أصله حجازي، أما الأشياء الرديئة والهمجية فهي للبدو، هكذا كانت ثريا تتعصَّب لأهل الحجاز، وهي لم تتحرَّج وهي تذكر عمرها، وتقول إنها حجازية، وعمرها ما يظهر عليها، عيونها شابة ومتلهفة للحياة: «عيون الحجازيات تنطق!»

بعد يومين رنَّت على جواله، وتذرعت بأن لديها اسكتشات للوحات تحلم أن تنفذها، وهي مجرد محاولات ربة بيت عاطلة، هكذا وصفتها وهي تفرط ضحكة تشبه صوت مرور سيارات سباق، ثم تمنت أن تتاح لها الفرصة لكي تناوله إياها، حتى تعرف رأيه فيها، فاتفقا بأن يأخذها منها يوم اثنين حين تذهب إلى عيادات الدكتور الشبلان، لمعالجة صغيرها الذي يعاني من صعوبة النطق، أوقف سيارته في الساحة الترابية المجاورة للعمارة، دخل المبنى وصعد إلى الدور الثاني متفحّصاً لوحات العيادات

ثم خرج، رنَّ عليها وقال أنه عاد إلى السيارة، ولن يصعد؛ لأن من الصعب رؤيتها هناك، جاءت تتهادى وهي تلبس حذاءً عالياً، كادت أن تسقط في الأرض غير المستوية وهي مقبلة نحو سيارته، فكتم ضحكة ملعونة، وما أن صعدت حتى لمح ارتباكها وارتجاف يدها، حين صافحها خلَّصت يدها من قبضته سريعاً، كانت ترخي شيلتها السوداء الناعمة المكويَّة بعناية فوق عينيها المنقبتين، كانت خجلة جداً، فلم ير فهد شيئاً منها سوى يدها وخاتماً ذهبياً أبيض. لم تمكث معه سوى ثلاث دقائق، وقالت إنها مرتبكة ثم سلَّمته مظروفاً كبيراً ومضت.

في المرة التالية قالت: «أشوفك في أسواق العثيم قدَّام سوق عتيقة، أول ما تدخل خذ يمين، فيه مكتبة صغيرة جنب السلم المتحرك، أكون فيها قبل صلاة العشاء». بعد المغرب أخذ جولة في السوق، صعد السلم الكهربائي المتحرِّك، كان الأطفال يركضون نحو ألعاب الملاهي، ويضعون حول معاصمهم أساور خضراء تسمح لهم اللعب طول اليوم. عاد إلى المكتبة وتصفح الكتب، معظمها كتب إسلامية، التقط كتاب الشيخ القرني فقرأ على الغلاف (الكتاب الذي بيع منه مليون نسخة)، أعاده وبحث عن كتب شعر أو روايات مترجمة، أحسَّ بأنفاس قريبة منه، ورائحة عطر نسائي نفاذة تطوِّق عنقه، التفت فرأى فتاةً تضع لثاماً على فمها بيدها البيضاء الناعمة، رمقته بعينين مرسومتين بعناية فائقة، ومظللة بلون وردي خفيف، يتناسب مع حقيبة يدها الوردية الموشاة بخرز ناعم مرصوص. لكزته، بغتةً ثريا من الجهة الثانية، لم ينتبه إلى دخولها، فقالت وهي تكزُّ على أسنانها: «حولك معجبات ما شاء الله...» ناولته كيساً ورقياً ملوَّناً وهي تتلفت حذراً. في السيارة وجد في قلب الكيس الملوَّن علبة ملفوفة بورق هدايا، وفضَّها سريعاً ومتشوِّقاً، فكانت قارورة عطر حلاقة رخيص. ضحك. بعد أيام، وبينما كان ينظِّف سيارته، أخذ الكيس الملوَّن

كي يجمع فيه النفاية، فوجد بطاقة عليها طيف رجل وامرأة يتعانقان وخلفهما بحر وشمس غاربة، وقرأ خلفها: «أحبك يا فهد، لكن أخشى أن ترفض حبِّي لك وجنوني بك، لأنني أكبر منك، يمكن بعمر أمك!»

شعر فهد بالندم حين تجاهلها لأسابيع، دائماً يتحجج بأنه مشغول، وأن الدراسة تأخذ وقته، وأن أصدقاءه لا يتركونه في حاله، فتضحك في رسالة جوَّال: «ههههه... أصدقاؤك أم صديقاتك الصغيرات، أعترف، شوف أعرف أن عندك صديقات، لكن عطني فقط مساحة صغيرة من وقتك!» حين تشعر أنه ليس مهتماً بها، تدخل معه في حديث الفن التشكيلي، وتسأله عن الاسكتشات، وهل راقت له، فيجيب بتهذيب وخجل، أن الفكرة مباشرة تماماً، وغالباً معظم الأفكار رومانسية وعاطفية جداً.

- 24 -

في المرة الثالثة، طلبت منه أن يجلسا لوقت أطول، بمعنى أن تخرج معه في سيارته ويتجولان قليلاً، قالت إن الأمر سهل: «أطلع لك من بوابة المستشفى مع صلاة العشاء، ثم نروح لأي مكان، أو نتمشّى بالسيارة!» كان متردِّدا ومضطرباً، ضحك سعيد بصخب وهو يسمعه يحاول التملص، وحين أقفل الجوال أطلق ضحكة مجنونة وهو يقول: «مشكلة القروي إذا أحب عجوزاً، يا عم هذي في مقام أمك!»

ابتسم فهد وقد تورَّد وجهه، أخذ قارورة عطر جيفنشي الصغيرة، سكب منها بضع قطرات في بطن كفّه، ثم فرك يديه ببعضهما بعضا، استعار سيارة سعيد، وركب وإذا برنين الرسائل يهاجم جوَّاله، توجه نحو الطريق الدائري الشرقي، لم يعرف موقع مستشفى الإيمان، وخجل أن

يسألها، فاتصل بخدمة الاستعلامات، وأخذ الرقم، ردَّ موظف سوداني ووصف الطريق بشكل خاطئ، قال له أعرف أنه في الجنوب وليس في الشرق، ثم ناول السماعة لموظف شاب وصف له الطريق بدقَّة، قبل الموعد بعشر دقائق كان فهد هناك، مرَّ ببوابة المعهد الصحي ذات القباب الشراعية، وقد ظن أنها هي بوابة المستشفى، قال لنفسه: «سأفحص المكان، وأكتشف حي خنشليلة في الدقائق المتبقية». كان المصلُّون قد تقاطروا إلى مسجد مجاور للمستشفى، بينما شعر هو بأن مثانته تكاد أن تنفجر، بحث عن مسجد آخر، كان مسجداً ضخماً في الجهة المقابلة للمستشفى، تجمَّع عند باب حمَّاماته عمَّال باكستانيون وإندونيسيون وسودانيون، تجاوز عاملاً سودانياً كان قد رفع ثوبه قليلاً حذر البلل، وهو يكرع الماء من كفِّه تحت صنبور البرَّادة الضخمة، فتنساب القطرات في خيط طويل أسفل ذراعه حتى تقطرت من كوعه الأسود.

دخل من باب الحمَّام الرئيس ووقف أمام الأبواب السبعة للحمَّامات، خرج عامل باكستاني من أحدها ودخل بعده، صدمته رائحة غائط قوية، تجاهل الأمر وأطلق مثانته بقوَّة وتنفس براحة، عصره جيداً، وكان الميكرفون العالي يقيم الصلاة، خرج وتوضأ من الصنابير الخارجية، ثم ركب السيارة وقصد المستشفى، رنَّ الجوال وكانت تقول إنها تحتاج إلى عشر دقائق فقط لتكون عند الباب الخارجي.

وقف عند البوابة ذات القباب الشراعية، وسألته: «وينك؟ أنا عند البوابة!»

- التفتي يمين!»

لكن ذات العباءة المطرزة الواقفة لم تلتفت، فقد كانت أخرى، سألها: «البوابة هي أم القباب، تشبه خيام؟»

- لا، أنت عند بوابة المعهد الصحي، أمش قدَّام!

أدار المحرِّك ووجدها بعينين منقيتين، صعدت بجواره: «هلا! ضايقوني الشباب دول!»

أخرجت قارورة عطر كبيرة من حقيبتها وظلت ترش لثوان، على صدرها ويديها، ثم أعادت القارورة، وتناولت يده بين كفَّيها، كانت يدها ناعمة ذات تجاعيد خفيفة وأظافر طويلة، غير معتنى بها، لم تصبغ أظافرها بطلاء أحمر أو فضي، كانت أصابعه مستديرة في شكل حلقة، بينما تدخل هي إبهامها وسطها مراراً وتخرجه بخبث، حتى يسمع آهاتها.

تجاسر، فمد يده نحو صدرها، كانت مشدَّات الصدر من النوع الصلب، الذي لا يعرف ما تخفيه تحتها، إن كان متهدلاً أم صلباً، لم يظن أنه كان صلباً، وإلا ما وضعت هذه المشدَّات القميئة!

كانت في أواخر الثلاثينات، قالت إن أولادي جاءوا في زمن مبكر، تزوجت في السادسة عشرة، وها أنا معي ستة! أكبرهم في الجامعة! يمكن في سنك أو أكبر!

ضحكت بطريقتها الحجازية: «بس والله ترى مو كبيرة!» كانت تلثغ حين تنطق الراء، بطريقة محببة وبغنج. سألت: «تبغى تشوفني؟ طب أدخل في حارة مظلمة».

رفعت الغطاء وأدارت وجهها ناحية الزجاج على يمينها أولاً، وهزَّت شعرها القصير جداً، مخللة أصابعها فيه، كانت تشبه غلاماً متوهج الشهوة! ثم التفت نحو فهد وحدّقت فيه بعينين شبقتين، كانت عيناها تشبهان عيني أهل جاوه، يسيل منهما عسل الرغبة، وتقولان كلاماً كثيراً، بينما شفتاها مكتنزتان بطريقة كبيرة، كأنهما تدخران الشوق لسنين، مصبوغتان بأحمر الشفاه. الشوارع كانت مظلمة شيئاً ما، لكن السيارات القليلة تقابلهما عند كل منعطف داخل الحارة: «خلاص أغطِّي؟»

وضعت الغطاء على وجهها، وقالت: «أنا أخاف من خنشليلة، يمكن يعرفوني!»

أضافت: «أبغى أشوف وجهك كامل!»، فالتفت فهد نحوها والتقت أعينهما لبرهة، ووجدها تتأوه بشبق، مثل قطط شباط. مدَّت ساقها في المسافة الصغيرة بينهما، ثم رفعت قماش القطيفة الأحمر إلى الأعلى، وكأنما تحرِّض صغيرها، العاشق الوجل، بأن يمدَّ يده، ولا يخاف، سحبت يده ووضعتها على ساقها، فصدمت فهداً بنعومتها، ناعمة كالزجاج، ورخوة كالقطن، فتجرأ وربت ربلة ساقها وهصرها مراراً، ثم رفعت القماش قليلاً فوق الركبة، وأخذت يده من جديد إلى فخذها الساخن، كان رخواً مثل كائن بحري لدن وغامض، أرادت أن يتسلل أكثر، لكنه تمنَّع قليلاً، وتمهل.

- ما يضايقك أن أمك أردنية؟

- لا أبداً، أنتِ يضايقك؟ «قالها ضاحكاً»

- بالعكس، طالع أبيض وحلو، وكلامك يجنن!

مرَّا في آخر شارع البطحاء، وتوقفا عند إشارة الدائري الجنوبي أسفل الجسر، رأت لوحة نيون وردية، وأشارت: «شقق مفروشة! إيش رأيك؟»

- لا، ما أضمن!

- يلعنك يا حيوان، مفروض أنا أخاف مو أنت!

أمرته ثريا بأن يدخل مرة أخرى إلى الحارة المظلمة، فدخل ووجدها تعالج شيئاً في الأسفل، ثم قادت يده، فوجدها فجأة أمام الخندق، كانت يده لا شعوريا تشبه أرنباً بريّاً صغيراً وأعمى، لم يتعلَّم بعد أن يعثر على جحره، وبدأ يشتمُّ رائحة الرطوبة العطرة، ثم يتسلل داخل الجحر المظلم الصغير،

كان ضيقاً بشكل يدعو إلى الدهشة، كأنه مقفل النهاية، يبدأ ميسراً وناعماً، ثم لا يلبث أن يضيق بشكل مؤلم، كانت الآهة عالية ومفزعة، فخاف أن ينتبه عابر أو سيارة، خاصة وأن جذعه بات يميل جهتها بشكل واضح.

قالت إنها تحب الجنس، بل تعبده!

- ما عندي في البيت إلا واحد حيوان ما يقدِّر!
- فكرتِ كيف وفين تنزلين؟ «سألها قلقاً»
- لا، فكرت إني معك وبس.

كانت في منتصف العمر، على مشارف الأربعين تقريباً، لكنها مهووسة بشكل مخيف، لا تفكِّر بعقل أبداً، بل بعاطفة وربما شهوة و(مزاج) كما تسميه. قال لها كما لو كان رجلاً ناضجاً: عليك بالتفكير جيداً، حتى لا تنكشفي وينهار بيتك! قالت له كمراهقة مجنونة وهي تمسِّد ظهر كفه:

- أحسن! ينهار وأكون معك ولك وبس!
- يعني ممكن أوصلك لحد البيت؟
- لا، ممكن أطلع مع ليموزين، مع أن رائحة العطر فوّاحة مرّة!

وأضافت: ممكن يفهم سائق الليموزين بالغلط إني بنت ليل.

توقف فهد عند باب مشغل نسائي، ولمح في البعد سيارة مطفأة الأنوار وبداخلها رجل ينتظر، كما لو كان يراقب شيئاً ما. قال لها: «انزلي عند المشغل، أدخلي لحظة، وبعد ما أمشي، تطلعي وتأخذي سيارة ليموزين!»

نزلت وقاد سيارة صديقه متنفساً الصعداء، وبعد نصف ساعة اتصل بها، قالت له بأنها ركبت مع ليموزين شاب سعودي، وأرعبته كمية العطر

التي تفوح من جسدها، فنفحها رقم جواله، وقال لها إنه في الخدمة. ضحك فهد حين قال: «طيب ليه تأخذي رقمه؟» أجابت بأنه مجرد كرت تعارف وعمل: «الراجل يكسب رزقه من الركاب، ليه بتغار عليَّ؟»

أجاب فهد برعونة: «لا»

بعد يومين لم يجب عن اتصالاتها المتكررة، فأرسلت له رسالة تهدده بأنها ستتحدث مع شاب الليموزين، وتمنحه فرصة ليغازلها، وبعد أن أجاب فهد على اتصالها في اليوم الثالث، قالت إنه قال إنها أحلى من البنات الصغيرات، وهو على استعداد أن يمرَّ عليها ويأخذها بسيارة مرسيدس فياجرا، ويسكنها في شقته الخاصة! سأل فهد بغضب موارب: «يعني هذا مستواك؟»

- لا، بس كنت أبغاك تغار!
- أغار شو؟ أغار لأنك بدّك تكوني بنت ليل؟ «قالها غاضباً»

بكت وأقفلت السماعة في وجهه.

كان فهد إذا غضب يتكلَّم بلهجة أمه. حتى أمه تفعل ذلك، حين تنفعل عليه، زمن طفولته، كانت لهجتها تتحول إلى لهجة فلسطينية أردنية، تشبه لهجة أهل الضفة.

- 25 -

أرسل لها أنه ليس مستعداً للقاء، خاصة أن اليوم أربعاء، ونهاية الأسبوع تجعل سيارات الهيئة تطوف في شوارع الرياض كأفاعٍ مسمومة، قال لها إن ثمة خوف يحاصرني، فقالت إنه أصلاً متردِّد إزاء العلاقة بها، تصر دائماً على أن كونها قد شارفت الأربعين، يجعله وهو شاب عشريني

لا يهتم بها، مع أنه استمتع بلقائها الأخير، وتعلّم منها الأبجدية الأولى. غفل عن هاتفه المحمول، ثم وجد ثلاث مكالمات لم يرد عليها، ورسالتين لم ينتبه لهما، شرح لها أنه حاول الاتصال بها على مدى ساعة، وكان هاتفها مقفلاً، أجابت: بأنها كانت في الحمام تستحم، وتخشى أن يفتح أحد أولادها أو بناتها صندوق الرسائل: «ويشوف البلاوي!»

- هاه.. إيش قلت؟ أطلع؟

- وين؟

- ياشين استعباطك يا فهد. ثم أضافت:

- مو قلت لك من أسبوع أني معزومة على زواج في السويدي! تجي تاخدني من هناك؟

- أوكي، أحتاج نصف ساعة على الأقل.

- أووه كثير مرة! أنت فين داحين؟

- في المصيف، شمال.

أدار سيارة صديقه، وانطلق سريعاً، وأخرج قارورة عطر صغيرة كانت في الدرج الجانبي، سكب منها في راحة كفّه، ومسح عنقه وخلف أذنيه، ثم انطلق متَّخذاً طريق الملك فهد، كانت الثامنة تماماً، مما يعني أنه اتخذ الطريق الخطأ في ساعة الذروة، حيث السيارات تنساب بطيئة كالنهر، رن هاتفه وسألته:

- فهد، أطلع داحين؟

- لا، شوي لما يبقى نصف المسافة على الأقل.

رنَّت بعد خمس دقائق، ثم مرة ثالثة:

- أنت فين؟

نظر نحو ناطحة السحاب بجواره:

- عذَيت الفيصلية.

ثم قال لها أن تخرج إلى المشغل ذاته، بعد أن انتظرت أكثر من سبع دقائق مع سائق الليموزين البنغالي، رنَّت، وقالت فيما يشبه التعليمات:

- شوف، انتظرك عند سوق الهرم على الدائري.

حين انتهى طريق الملك فهد جنوباً، اتخذ فهد الدائري الجنوبي متجهاً نحو الشرق، وتجاوز المخرج الأول، ثم انحرف يميناً من مخرج الحائر والبطحاء، عند الإشارة أسفل الجسر، قالت بأنها تركت سوق الهرم على الدائري الجنوبي، ودخلت من طريق مستشفى الإيمان صوب الشمال، وقبل نهايته، أكدت له:

- شوف على يسارك، تلاقي مشغل أستناك فيه.

قفز على المطبَّات الاصطناعية دون أن ينتبه، ولمح على الجانب المقابل من الطريق سيارة دورية شرطة، تومض وهي مسرعة، استدار من نهاية الطريق، وتوقف عند مشغل «عالم الأحلام» ثم اتصل، ولم تجب إلاّ بعد خمس رنَّات، قالت على عجل: «لحظة، شوي واطلع لك!»

نظر إلى اليمين، حيث عامل بنغالي يجلس على حافة الرصيف أمام البقالة المجاورة للمشغل، تماسك ونظر يساراً، فلمح دورية الشرطة تقف أمام سيارة نقل، خرجت ثريا وصعدت مسرعة، حدَّقت فيه، كانت عيناها كحيلتين، ولم يتبين درجة لون الظل فوق جفنيها بسبب النقاب الهابط قليلاً: «ليه تأخرت كدا؟» وتناولت يده بحنان. كانت يدها ساخنة، ورقيقة الجلد، لدرجة أن جلدها الحريري الرخو يكاد ينخلع حين يدعكه بإبهامه.

انطلق إلى الدائري الجنوبي، واضطر إلى أن يسلك اليمين، فالطريق

لا يستمر أماماً، بل أن ثمة طريقين فحسب: إما اليمين نحو طريق البطحاء والزحام المذهل في طريق العودة عند إشارة الجسر، أو طريق اليسار حيث محلات الزينة وقطع الغيار والحي الجديد برائحة المجاري الطافحة. سلك فهد الطريق يميناً وقالت وهي تنظر في الطريق المقابل: «لا ترجع، شوف الزحمة كيف!» فاجأه النفق فانعطف يميناً، ثم دار مرة أخرى ودلف في الحي ذاته، فمر بجوار مشغل «عالم الأحلام» ثم قرر أن يسلك هذه المرة اليسار نحو الحي الجديد، كي يستدير من أسفل الجسر وينطلق في الدائري الجنوبي صوب الغرب، حيث قاعة «شمعة الأماكن». في الحي الجديد كانت ثمة أراض خالية من العمران وطبقات ظلام شفيف تنتشر رغم الرائحة النتنة التي تتسلل من فتحات التكييف، سألتْ بليونة: «فهد..أكشف؟» هز رأسه موافقاً، فكَّت غطاء رأسها من الخلف بصعوبة، ثم نظرت نحوه كما لو كانت غلاماً شهوانياً ضالاً، اقتربت في الظلام والسيارة تتهادى قليلاً، ولامست شفتيه بقبلة سريعة ووجلة، فقد انتهى الشارع المظلم، وظهرت السيارات فجأة، فقرر فهد بأن يعود إلى الدائري، ليستدير من أسفل الجسر وينطلق صوب الغرب:

- والله ماني عارفة أنا فين! ثم أضافت:

- أهم شي أبعدني عن خنشليلة!

أخذت يده ووضعتها في مفرق صدرها اللدن الساخن: «شوف الحرارة كيف!» كانت الحفر الصغيرة في الشارع مملوءة بمياه قذرة، ذات رائحة حادّة، وكان فهد يحاول أن يتفاداها في العتمة الخفيفة.

في الطريق الدائري كانت السيارات تتسابق بجنون، حاول أن يبقى في المسار الأوسط في الطريق الدائري، تجنباً لمضايقات السيارات المجنونة في اليسار، أو احتمالات دخول سيارات جديدة من المداخل

على اليمين، خصوصاً أنه لا يقود السيارة بمهارة بعد، فضلاً عن أن السيارات في الرياض تتحرَّك بفوضى، تشبه نملاً أعمى يتعارك حول فتات طعام. قالت: «تحبني؟» هزَّ رأسه: «طبعاً، وأشتهيك بعد!» صدحت بجنون أربعينية صبيانية: «آآآآه». كانت أصبعها الوسطى تعبث بين أصابعه، وكلما سرق نظرة سريعة نحوها وجدها تحدِّق فيه بنهم! فتسأله: «تتزوج أردنية ولاّ سورية؟» فيضحك بقوة، ثم تعرض عليها أن تزوجه ابنتها في الصف الثاني ثانوي.

تذكرت زوجها، وتعكَّر مزاجها فجأة، فقالت بأنه ابن كلب، يضربها!

- ما في أحد يضرب بدون سبب!
- طب أنا أقول لك موقف وأنت أحكم! وهذي آخر علقة ذقتها من الواطي! من عشرين سنة أحاول فيه يشتري لنا بيت، مو لي أنا، لأولاده إذا كان يهتم بأولاده أصلاً، وكان يرفض كل مرة ويسألني إيش ناقصك؟ مرة قرَّرت أتصل بصديقه المخلص وأطلب منه بأن يقنعه ويساعده يشتري لنا بيت، بس بشرط ما يقول له إني اتصلت! قلت له كذا مرة: أمانة ما تقول إني اتصلت وطلبت منك! عاهدني، لكن للأسف كذب وأخبره بأمر المكالمة، فرجع إلى البيت مثل الثور الهائج، دخل إلى غرفتي وأخرج أولادي منها، ثم قفل الباب، وجلدني بالعقال حتى بكيت!

قال لها فهد بجرأة:

- أنتِ غلطانة إنك تدّخلي صديقه بالموضوع، لو ما قدرتِ أنتِ تقنعيه، خلاص ما فيه فايدة!
- طبعاً الموضوع ما انتهى عند كدا!
- معذرة لو قاطعتك، هذا مخرج 25 أطلع من هنا؟

سكتتْ، فالتفت نحوها ووجدها تأكله بنظراتها:

- خلاص ح تسيبني بسرعة فهودي؟

ثم أضافت بعدما نظرت في ساعتها المقلَّدة على ماركة شارير:

- أقول لك، خلينا نتأكد من المكان الأول، ثم نلف، أبغى أشوفه وأذوقه كمان!» قالت ذلك وقد امتدت يدها نحو حضنه، فانكمش مثل قط.

أخذ المخرج يميناً، ثم انعطف بعد الإشارة ناحية اليسار، كان الحي مجرَّد استراحات مضيئة، وسيارات كثيرة، وأطفال متجمهرين عند البوابات، وبائعات ألعاب أطفال ومكسرات ومشروبات غازية داخل ثلاجات بلاستيكية زرقاء وبرتقالية مملوءة بالثلج. واصلت قائلة: «بعد كدا اتصلت على هاتف زوجي في العمل، ثم رد صاحبه القذر، فلما سمعت صوته قلت صدق إنك عبد قليل خاتمة! وقفلت الخط في وجهه. بعد ما رجع زوجي ضربني مرة ثانية! بالله عليك فيه أحد يضرب زوجته عشان صاحبه؟»

حاول فهد هذه المرة أن يتفادى غضبها فأجاب: «ما أعرف، ما جربت الزواج!» ضربته على صدره وهي تقول بلثغتها الجميلة: «يا مغروري أنت، بجد دلوع وناعم مررة! إنت زي الحجز، ناعمين وبيحبوا المرأة ويقدّروها!»

قبل أن ينتهي الطريق المتفرع وهو ينحدر صوب الجنوب، التفت فهد يميناً فرأى لوحة نيون بلون الزهر مكتوب عليها: «شمعة الأماكن!»، أشار إليها: «شوفي هناك الموقع». قالت إن عليه أن يخرج من منطقة الاستراحات هذه، كي يتجولا في أحد الأحياء الجديدة، حتى تصل صديقتها إلى الحفل، فهي لا تعرف أحداً غيرها في هذه المناسبة.

اتخذ فهد طريقاً ضيقاً بين مجموعة سيارات مصطفة، كان خائفاً من أن يصطدم بإحداها، توقفت أمامه سيارة هوندا، وفتح صندوق العفش الخلفي، ثم انفتحت الأبواب ونزلت امرأتان من المقعد الخلفي، بينما نزل شاب سمين من المقعد الأمامي وصار ينقل حافظات الطعام البيضاء، كانت تبدو ثقيلة فحين يحملها ينحني ويمشي بها، كي يضعها عند باب النساء في الاستراحة، أقفل غطاء الصندوق الخلفي للسيارة، ثم تحرّك ومشى فهد خلفه حتى الطريق الدائري، فكان عليه أن يصعد الرصيف ويهبط في الطريق، ففعل، ثم قطع الطريق نحو أقصى اليسار ولم يتوقف عند الإشارة، بل أخذ خط اليسار واستدار، داخلاً في حي حديث، بناياته متوسطة المستوى، لكن شوارعه واسعة شيئاً ما، كانت يدها تمتد في العتمة نحو حضنه، وتتحسس بشبق، شهقت بطريقة مثيرة، بينما أنفاسه كانت مضطربة وسريعة، ثم استأذنته وهي تدير رأسها بخوف إلى الخلف، فرفعت المتكأ المتحرك بينهما، ومدّت جذعها نحوه، كانت تقص شريط المطاط، وتدخل الغابة البكر، لم يستطع فهد القيادة فتوقف في نهاية الطريق، قبالة سور قديم من البلك، كان متردداً، فهل يطفئ نور السيارة وهو وسط الشارع الداخلي؟ أم أن ذلك قد يعرضه للخطر من سيارة مندفعة في الظلام؟ جعل النور مشعلاً وانتظر أن يلمح أي نور قادم من أحد الجانبين أو من الخلف، كانت يده اليمنى قد تجرأت وبدأت تتحسس نعومة مملكة طاغية اللذة. رنَّ هاتفه المحمول في جيبه فتأففت ثريا وخرجت من الغابة وهي تقول إنها أكثر من مرة أكدت عليه بأن يقفل جواله أول ما يركب بجوارها! ثم أضافت بحنق: «شكلك تخاف من ماما! وكمان أردنية ملسونة!» ضحك فهد بحماس وهو يربت على فخذها،

طالع الرقم فوجد اسم سعيد، قال لنفسه: «هذا وقته يا لئيم؟»، وهمس تجاهها: «ما عليك!»، ثم واصل التجول في الشوارع الهادئة، قالت بلذة: «ارجع مرة ثانية للشارع ذاك قدّام السور!» لكنه وجد شارعاً واسعاً، شبه مظلم، أوقف سيارته بجوار سور رخامي عالٍ، ثم أطفأ الأنوار، دون أن يطفئ المحرك، تسلقت ثريا حاجز غابة أشجار المطاط من جديد، واندفعت مثل نمرة هائجة في الغابة وهي تلاحق فريسة صيد، فتلتهمها، كانت هذه المرة أكثر حرفة وهدوءاً، لم يغمض عينيه هذه المرة، بل كان يراقب وقد مرَّ بهما مسرعاً عامل هندي على دراجة نارية، ثم مرّت سيارة مسرعة دون أن يلتفت سائقها نحوهما. فجأة جاءت سيارة من خلفهما تماماً وهي تتهادى، أمسك فهد بشعرها المقصوص كغلام، وأوقفها بقوة كي لا تنهض، وقال لها بخوف وحدَّة: «لا تتحركي!»، تيبس جسدها مثل قطٍ ذكر يتحفز لمهاجمة قط آخر. هدأها: «لا تخافي، بس لا ترفعي رأسك الآن!»، توقف جذعها وأصبح بارداً كجثة. تجاوزه السائق ذو اللحية الكثَّة، بسيارته الفورد كراون فيكتوريا القديمة الزرقاء، وقد ابتعد جهة يمين الشارع، ثم انعطف يساراً معترضاً أمام سيارتهما، وتوقف لوهلة بعد أن همز زر الريموت كنترول لفتح باب المنزل الأوتوماتيكي، كان هو صاحب البيت الذي وقف فهد وثريا بجوار جداره الرخامي.

ما أن صعدت سيارته المرتفع الإسمنتي قبالة باب الكراج، ودخلت إلى حوش منزله، إذ بفهد يراقب أثر نور سيارته الخلفي الأحمر منعكساً على الجدار قبل أن يقفل باب الكراج، حتى أضاء فهد أنوار سيارته ومشى. سألته: «خلّصت؟» قال: «لا، المسألة تحتاج مزاج وهدوء، مو قلق وخوف!» ثم سألها: «هاه، كيف؟» أطلقت ضحكة داعرة وهي تقول: «كريم كراميل!»

دخل شارع عائشة المزدحم ليلاً، ثم اجتاز إشارة الدائري، عائداً إلى

مجموعة الاستراحات في الجهة المقابلة، ومرَّ بالبائعات العجائز السود اللواتي يرفعن أمامهما علب البيبسي كولا والسفن أب، بينما يخفين وراء عيونهن الفائضات وراء النقاب حزن سنين طويلة من الكد والشقاء. توقفت سيارة كامري بوكس بيضاء أمامه، ونزلت فتاتان سوداوان وهما تحدِّقان بهما، قالت ثريا الحجازية: «يا الله شكل الحارة دي كلها سود!»، قاطعها فهد مازحاً: «أنتِ اللي شكلك عنصرية!»، لكنها أجابت بحدِّة: «روح يا شيخ بلا عنصرية وبلا شعارات سخيفة!» ضحك خجلاً بسبب سلاطتها، بينما غنَّى بصوت هامس، تلكم الأغنية التي يسمعها في بيت جده أبي عصام: «من نَفَس الثوار الأحمر!» قاطعته:

﴿وفضلنا بعضكم على بعض درجات﴾ وأضافت: «الله، رب العالمين قالها مو أنا»

بحثت ثريا للمرة الثالثة عن شريط، فعثرت على شريط قديم، نفخت عليه كي تنظفه من الغبار، ودسته في الجهاز، ثم فجأة توقف فهد أمام باب الاستراحة الخاص بالنساء، حيث يرابط الحارس الصعيدي الذي يلبس جلابية بلون سماوي، ويرخي رأسه ذا العمامة فوق عصا خيزران، يلاحق به الأطفال الذين يحاولون المرور من أمامه إلى قسم النساء. قالت: «ما أقدر أنزل قبل ما أتأكد أن صديقتي وصلت فعلاً!»، همزت أزرار هاتفها، وتحدَّثت وهي تشير إليه بيدها اليسرى بأن يخفض صوت جهاز التسجيل، ويبدو أن زميلتها سألتها فأجابت: «أنا قدامي ربع ساعة بس حتى أوصل الحفل!» كانت تكذب عليها ولم تقل أنها تقف الآن أمام الباب، قالت له دعنا نأخذ جولة سريعة. أجاب: «الخروج صعب من هذه المنطقة المزدحمة، أعتقد ما يمنع تدخلي وتنتظري!» أحسَّت أنه يريد التخلص منها، وقالت بصوت مهزوم ومتعثر شيئاً ما: «كمان ما سحبت

لي المبلغ من الصراف! مو قلت لك أختي جاية من جدة، وأحتاج أطلع وأصرف معها!»

لم يكن فهد يحمل في جيبه أكثر من مائة ريال، رغم توفر المال في حسابه البنكي كان جيداً، إلا أنه شعر بغصّة صغيرة، بأن تستغله سيدة في عمر أمه، صحيح أنها محتاجة -قال لنفسه- لكن ليس لطيفاً أن تشحذ منه بهذه الفجاجة، أدار سيارته وأوقفها بجوار سيارة هيونداي فان ينتظر داخلها سائق اندونيسي، أخذ يدها المتغضنة وقبّلها فيما يشبه الاعتذار، قال لها سأوفر لك المبلغ في المرة القادمة، وقبل أن تصل أختك.

حين استعدت ثريا لفتح الباب بشكل منهزم، قال لها: لحظة حتى أضعك أمام الباب تماماً، كان يريد أن يكفِّر عن خذلانها، عندما لم يوفر لها مالاً، ولم يجد مكاناً يجلسان فيه بشكل هادئ، وتراه بطريقة جيدة: «أبغى أشوفك قدامي، في السيارة أشوفك طول الوقت على جنب! وأنت مشغول بالطريق!»، لم يفهم معنى أن ترغب رؤيته بشكل جيد، فكَّر أن يستضيفها في شقة سعيد، لكنه تردَّد مراراً، كان يخشى أن تحدث مصيبة ما، فيورط صديقه الحميم بشكلٍ مؤذٍ.

قاد سيارة صديقه إلى حي المصيف، قال لابد أن آخذ كأس موكا ساخنة، فتوقف عند «يوم القهوة» في طريق الملك فهد، معظم الجلسات كانت مشغولة، دخل إلى الحمام وغسل وجهه ونظر نحو عينيه في المرآة، ثم تمضمض مراراً، وجلس أخيراً وحده في ركن بعيد محاذي للطريق، ورفع يده حين لمحه النادل الفلبيني.

قالت له مرة: «كنت حجازية مدللة من أهلي، حتى شاءت الظروف أن أتزوج هذا القصيمي! بخل ووساخة، يا أخي هذا الآدمي ما يتنظف، ما يتعطر، الظاهر ما يعرف إن فيه اكتشاف اسمه: عطر! أنا على العكس منه،

كنت دائماً نظيفة متعطرة، أهتم بنفسي وملابسي حتى الآن، وبعد نصف دستة أطفال! مرة اتصلت بشيخ وسألته، قلت له أنا لا أطيق العيش معه، ولا أعاشره نهائياً! سألني الشيخ: نهائيا؟ قلت: يا شيخ كل شهرين أو أكثر! وأنا أحتاج لرجل دائم وحنون! فاقترح الشيخ ببساطة أن أطلب الانفصال عنه، كيف أطلب الطلاق وأنا بلا وظيفة، وكمان وراي ستة بزوره! قال إيش؟ قال لأن فيه خوف عليك من الفتنة والخطيئة!»

أضافت بِوَلَه: «الآن يا فهد أنا معك، أشتهيك، جعلتك تقيس حيواني وتتأكد من سخائه ورطوبته وضيقه، أعرف إنك لن تتزوجني، وأنت شاب صغير، وأنا أصلاً متزوجة وأم لستة أكبرهم يصغرك بسنة فقط، كنت تتذكَّر أنني قلت لك في البداية أنني لست من بنات السهر في الاستراحات في أطراف الرياض، ولست من بنات الشقق المفروشة، وأنني أخشى أن أضعف أمامك، أمام وسامتك وشبابك، لكنني الآن على استعداد أن أفتح لك قلبي وساقيّ وكل شيء، أجعلك تضربني حتى تدوخ!»

سأل فهد وهما في السيارة أمام محل عصائر المانجو: «طيب وفدوى؟»

اضطربت: «أرجوك لا تتحدث عنها أبداً، بجد صرت أغار منها، حين قلت لك عنها في البداية، فلأنني كنت أبحث عن الدفء، وليس من السهل أن تتعرف المرأة هنا على رجل، كما تتعرف على امرأة، فكان أن تعرفت عليها في إحدى مناسبات الزواج في جدة، كانت تقود الفرقة، سمراء صوتها قوي وحنون، كم تأسرني وهي تغني:

يا منيتي
يا سلا خاطري
وأنا أحبك يا سلام

ألا ليه الجفا.. ليه تهجرني وأنا أحبك، أحبك، أحبك يا سلام».

غنّت ثريا بصوتها المتحشرج، وغنى فهد معها في تلك الليلة، ضحكت وهي تقول: «كأنك عشت في زواجات وسمعت الطقاقات وحفظت كلمات أغانيهم»، قال لها بأن الأغنية معروفة وقديمة، غنّاها عبدالمحسن المهنا، وأحلام وأصالة. أشارت إلى أن صوته حلو، قبل أن تتابع:

«غنت فدوى بصوتها وهي تنظر نحوي متألقة، فابتسمت لها وابتسمت هي بدورها! من هنا بدأت علاقتي بها، طبعاً كان معي أخواتي الثلاث، ويعتبرنني ملتزمة دينياً وشديدة، خاصة أنني عشت معظم عمري في الرياض، ومع شايب قصيمي، فكان من الصعب أن أقترب منها وأكلمها أو أحصل على رقم جوالها، لكن كانت نظراتها نحوي تشجعني على الابتسام، كانت تنظر وهي تغني نحو أجساد النساء الراقصات، ثم ترمي بصرها خلسةً نحوي، فأبتسم، وتبتسم»

تأوهت ثريا وهي تعترف: «سألنني أخواتي عن رأيي فقلت إن غناءها يجنن! صوتها رائع وقوي ومعبِّر، وتختار أغنيات حزينة وعاشقة، لكنني لم أقل لهن إن وجهها طفولي، ويدها التي تضرب الطار رائعة، أتمنى لو تضربني في مؤخرتي! كنت أتمنى أن أضمها إلى صدري طويلاً، وأشمُّ أنفاسها.. أوووه يا فدوى! يا ويلي عليك!»

التفتت نحوه وهي تزمُّ شفتيها: «تعرف فهودي؟ أتمنى أجلس معك ومعها بنفس الوقت وفي مكان واحد، غرفة فندق أو استراحة أو أي مكان بجدران أربعة، أدهشته أمنيتها فعلاً، كان يفكِّر إن كانت تحب الرجل فقط، أم هي امرأة مثلية، أم هي مزدوجة؟ كانت تريد فهداً وهي تصهل مثل فرس يتحفز، ثم تتمنى في اللحظة ذاتها أن تمنح فدوى مجرد ليلة: «أتمنى أشوفها قدامي وهي تدخن وتنفث الدخان في وجهي، أحب

صوتها ووجهها وجسدها، أتمنى لو أحضنها وأبكي على صدرها، وأذوقها كلها!»

وضع فهد كأس الموكا على طاولة المقهى، وقد توقفت هواجسه دون أن تقاطعه شاشة العربية التي تبث أخبار الأسهم السعودية، ثم خرج.

-27-

كانت فدوى شابة في أواخر العشرينيات، لها ملامح صبي، تعلّقت ثريا بعينيها وسمرتها، وأحبت صدرها المتماسك: «حلو وأنثوي» قالت لفهد، وأضافت أنها لاحقتها حتى سمحت لها أخيراً أن تلتقيا في مقهى على الكورنيش بجدة: «طلبت معسل بالعنب وقالت لي أطلب لك معسل، فاعتذرت منها، وقلت أنا ما أدخن مع أنني أتمنى، أخرجت من حقيبتها الفضّية علبة مارلبورو أبيض، ومدّت لي سيجارة، تردّدت، إنما غمزة عينها وابتسامتها الآسرة جعلتني آخذ السيجارة دون شعور، لكنها عادت وأخذتها منِّي ووضعتها في فمها، وأشعلت من ولاعتها الفضِّية بحركة سريعة، ثم نفثت الدخان رقيقاً نحو وجهي»

كانت عينا فدوى ساهمتين وهي تناولها السيجارة، رأت ثريا أحمر الشفاه على السيجارة، فوضعتها في فمها بمتعة، وهي تشعر بدوخة عندما تتذوق عقب السيجارة بعد فم فدوى، سحبت الدخان فملأ صدرها فسعلت بشدّة، ووضعت رأسها على الطاولة، حتى هلكت فدوى من الضحك ودمعت عيناها، ثم قامت وجلست بجوارها وقرّبت رأسها إلى صدرها: « شممت رائحة دوَّختني، كانت تمسِّد رأسي وتقول شكلك كبرتِ على هذي الحركات» نظرت نحو فهد وهي تكاد تبكي: «وهل

عليَّ أن أفقد متعة حياتي المتبقية فقط لأنني بلغت السابعة والثلاثين» ثم أضافت: «ما تتخيل المجازفة قدّام أخواتي وأهلي وأنا أدخل المقهى، والخوف وأنا أمسح وجهي بمنديل معطّر بماء الوَرد، وأرش عطر شرقي ثقيل حتى تزول الرائحة!»

كانت تفتقد الحنان والدفء؟! لم تكن تبحث عن علاقات مع نساء، لكنها تحتاج إلى حنان وحب وضم: «ماذا أفعل مع رجل حياته في الاستراحات والمعسل والزملاء والقنوات الفضائية، أدوِّر على رجل ثاني؟ قلت لنفسي يا ثريا على الأقل ما ترتكبين الحرام!» سأل فهد: «كيف؟ أي حرام!؟»، نظرت من نافذة السيارة بجوارها صوب قط أبيض سمين يقفز من صندوق نفاية ويركض، بينما يخرج يمني من غرفته لابساً الوزرة وفانيلة علاقي، ويرمي نحو القطة ببقايا عظام قفص صدري لدجاجة.

واصلت: «أنت تعرف حبيبي فهد أن العلاقة مع رجل أجنبي تعتبر زنا، وأنا علاقتي فيك ما وصلت إلى هذا الحد، لكنني خائفة وأنت عارف أنني ضعيفة أمامك، من أول يوم قابلتك في معرض اللوحات في الفيصلية، وأنا أحلم فيك، وأشتهيك، لم أستطع أن أتمالك نفسي حين سألتك عن لوحة بنات المطر واللون الأزرق، تتذكر؟ كانت عيناي المنقبتان تتوسلان عينيك أن تناولني رقمك، وأن أحدد معك موعداً كي أختلي فيه معك، احتفظت ببطاقة العمل خاصتك في صدري، صحيح أنني وضعتها في حقيبتي اليدوية، لكنني حين مشيت وابتعدت أخرجتها دون أن ينتبه أطفالي ووضعتها في صدري، هل أردت أن أخفيها عن زوجي وولدي الأكبر الذي يفتِّش حقيبتي وجوالي دائماً، أم أردت أن تتأمل زهرتي صدري، كي تحتفل بمعرض لوحاتي السرِّية، أنا يا فهد أخاف الحرام، لكنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي أمامك، لمسة يدك الناعمة، حرارة صدري وجسمي، آآآه.. والله جسمي نار»

طفولة مرحة، وشباب متفجِّر في الحجاز، في بيت العائلة الكبير بجدة، كانت مدللة من قبل أبيها الراحل، وفي الثاني الثانوي كانت تكره مادة الرياضيات، لكن مدرسة المادة أستاذة عواطف كانت ترسل نحوها نظرات حنان وإعجاب، فسايرتها ثريا، ونجحت في الرياضيات بتفوق رغم أنها لا تعرف شيئاً. في المتوسطة كانت تهتم بابن عمها، وأخوها تزوج ابنة عمها، وظنت هي أنها ستتزوج ابن عمها، كانت تدخل إلى بيتهم المجاور، وتقوم بكيِّ ملابسه حين يتجهز للسفر إلى القاهرة، لكنها فقدت الأمل ووافقت على الزواج من زوجها، كانت بداية حياتها ممتعة: «أعترف أنه كان وسيماً، وكان يغرقني بالهدايا في بداية زواجنا، لكن كل شيء انكسر تماماً بعد سنة واحدة، وأذكر حين قررت تركه سريعاً، وذهبت إلى أهلي في جدة جاءت كلمة أمي التي ترددها لي ولجميع أخواتي: «اللي ما يقتل يقوِّي يا بنتي!»

في بيت شعبي متواضع، بحي الصالحية شرق الرياض، زمن الثمانينيات، بيت يقطنه أهل زوجها، على مقربة من دوار الصالحية، بعد محطة البنزين يميناً، كان زوجها نائماً في المقلَّط، وقت صلاة الجمعة، وعليه أن ينهض ليصلي مع أخوته في الجامع، بينما ثريا تلبي أمر أمه بأن تفرش سفرة الطعام في المقلَّط، وأن توقظ زوجها، الذي فتح عينيه بصعوبة ثم عاد إلى النوم، وحين أيقظته ثالث مرة، قعد على فراشه مقطباً، وأرسل كفه الضخمة نحوها، فرنَّت أذنها الناعمة وهبطت دمعة متعثرة مصحوبة بدهشة وحزن وبكاء مكتوم! كانت أول مرة يمدُّ يده نحوها، ولم تكن الأخيرة.

توقفت ثريا وهمهمت نحو فهد: «ليتني عرفتك قبل عشر سنوات، أيام عنفواني ورغبة انتقامي منه، كنت خنته وضاجعتك متى ما أردت!»

تزوجت قبل ابن عمها بسنة، وحين وضعت ابنها البكر عند أهلها في جدة، وبينما كانت تقضي الأربعين يوماً، راحت تتأمل من نافذة منزلهم في الدور الثاني زفة حبيبها ابن عمها. كانت تضحك وهي تذكر المشهد: «كنت أنظر من الشبّاك زي المسلسلات وأبكي بحسرة، وطفلي البكر يبكي في فراشه! تخيلت؟»

بقيت ثريا سنوات طويلة شبه مهجورة في الفراش، كانت تظن أن حياتها جيدة ومستقرة وآمنة، لكنها اكتشفت من إحدى الجارات ومن زوجة أحد زملائه، أنهما تفعلانها أكثر من مرة في اليوم الواحد، قالت إحداهما أن زوجها حين يعود منهكاً من العمل، لا ينام العصر إلا بواحد، وقالت الأخرى أنه يوقظها ليلاً من غرق النوم كي يستمتع! كانت ثريا تنظر إليهما وتسأل نفسها: ما الذي يميزهما عني، سمرتهما أم قبحهما؟. رغم قولها ذلك، إلا أنها صارت تعيش زمن عدم الثقة بنفسها، وبدأت تستعيد ثقتها شيئاً فشيئاً، مع الشاب المراهق فهد، قبل أن يهجرها بدوره نهائياً.

قالت له ذات مرة: «لا تظن أنني أقول لك معاناتي وهجره لي حتى أبرّر خيانتي له! أو حتى تتعاطف معي! لا أبداً يا فهد، يمكن ما تصدق إننا من عشر سنوات هجرنا بعضنا، ما بيننا أي شيء مما يحدث بين الأزواج! ابنتي الصغيرة عمرها 6سنوات جاءت بمزاج مني، كنت أبغى طفلاً أو طفلة، فدخلت عليه متعطرة مع إنه ما يستأهل! وفعلها آخر مرة!»

- 28 -

وقته يتبدد بين قسم التشكيل في منتدى كانون الإلكتروني، والمعارض التشكيلية، وبين أمه المتعبة، وشقيقته المنطوية على نفسها في بيتهم بالعليا، لا ترى أحداً ولا يراها أحد، تصرف وقتها بين العناية بأمها

وبين كتب المتوسطة، وكتابة أناشيد إسلامية مبتكرة. كانت لولوة تتسلى بتركيب أهازيج، وترفع صوتها منشدة كي تحس بوجود أحد في البيت، وهي تنتظر أن يأتي فهد كي تخرج معه في سيارته الجديدة إلى محل «كون زون» كي تشتري آيسكريم توفي، لم يكن عمهما يعرف بذلك، فقد كانا يقتنصان عشر دقائق كي يخرجا إلى محل قريب في شارع العليا، أو العروبة، قبل أن يأتي العم، وأيضاً حتى لا يتأخرا على أمهما التي شاخت في سنتين بشكل محرج: «أمي فيها شيء؟»، لكن لولوة لم تكن تجيب مراراً، تتهرب باختلاق موضوع جديد: «شفت وش سوّى عمِّي؟» حاصرها مرة وهما يقفان بانتظار فطائر الجبنة واللبنة، أمام مطعم الفطيرة الدمشقية بشارع ليلى الأخيلية، قال لها: «طردتوني من البيت، وتخبّون عني كل شيء، حتى مرض أمي!»

أخبرته أن لدى أمهما ورم في القولون منذ أربعة أشهر: «الظاهر أنه حميد»

صاح فيها بغضب: «الظاهر؟ كيف يعني الظاهر؟ اسمعي لولو، لازم أفهم، حميد أو خبيث؟»

أخبرته بالتدريج، ظهر مؤخراً أنه خبيث، لكن حسب كلام الطبيب أنه في بداياته، والشفاء منه وارد بإذن الله، لكن العم قال لها إن الشفاء من الله، حتى ياسر الطبيب قال بأن العلاج مؤلم ومدمر نفسياً، وعلاج الرقية والأعشاب أنفع وأجدى.

بعد كل صلاة مغرب، يفتح الباب ويدخل بسمنته وحوقلته، تهرب القطة من مدخل البيت تلحق بها صغارها، ثم يصعد الدرجات الطويلة يسبقه لهاثه العالي، يصوِّت بأنفاس متقطعة باحثاً عن لولوة، ثم تجهِّز كأس ماء تكون قد غمست في قاعه ورقة فرخ حجازي مصطبغة بالزعفران، ينفث فيه لدقائق، ثم يجلس بجوار سها، يسقيها من الكأس

ثلاث جرعات، ويبدأ ينفث عليها وهو يمسك مقدم رأسها بيده اليمنى، يشدُّ عليه بعنف ويقرأ من الآيات القرآنية وهو ينفث على وجهها وصدرها، حتى تتنهد بعد طول انتظار وتدفع يده بقوة، فقد آلمها بيده الشديدة، وما أن ينتهي حتى تتراخى وتذبل عيناها ثم تنام بهدوء الموتى، كأنما تركض مسافات بعيدة خلال القراءة على جسدها، وما أن يتوقف تشعر كأنها تبحث عن أول كرسي في حديقة عامة، ثم تتمدد عليه لتنام.

بعدما أخذا الفطائر عائدين إلى البيت رنَّت نغمة الرسائل في جوال فهد: «أحبك يا حلا الشام كله»، مثل شجرة، ينمو ضميره متألماً حتى ترتعش أطرافه، وهو يتذكَّر كيف غررت به ثريا، وجعلته يقود سيارته إلى شقة غريبة وقذرة، فترمي حقيبة اليد الصغيرة المبرقشة، كجلد الأفعى، فوق كنبة الصالة وتعانقه، وتدفن وجهها في صدره، ثم ترفعه تجاهه وتنظر نحوه بعينيها الضيقتين الجاويتين، نظرة هائمة وذابلة، لتقترب من فمه وتتناوله، ورغم أنه كان يستجيب، إلا أنه كان متوتراً وخائفاً، شيئاً فشيئاً ذهبت إلى غابته، وافتتحت شريط غابة المطاط وغابت هناك، وحين تعبت، جذبته من شعره إلى صدرها فاستجاب كرضيع، كانت تقوده كفتى مازوشي يحتاج إلى القمع كي يسير، أدخلت وجهه بين ساقيها وهي تتأوه، لكنه في لحظة حاسمة قفز كقط استشعر الخطر، وهرب إلى المطبخ فاتحاً صنبور الماء فوق المجلى، كان خيط الماء طويلاً وله صوت عالٍ حين يقرع قاع حوض الزنك، ليغيب صوت غرغرة الماء في فمه، وهو يرفع رأسه ثم يقذف الماء دفعة واحدة، ويبصق وكأنما يكاد يستخرج أمعاءه، لم تفهم ثريا تلك اللحظة ما يحدث، لكنه أشار إليها بأن يذهبا الآن.

حينما استرخى في الصالة بشقة سعيد، كانت رائحته لم تزل في أنفه،

لم تكن رائحة نتنة، أبداً بل كانت رائحة دهن عود، كاد أن يتقيأ وهو يستعيد تلك الرائحة، كأنها كانت رائحة دهن العود الداكن الذي رشّه عمُّه على كفن أبيه الأبيض، أحسّ حين غرس رأسه تحت وطأة قبضتها المستبدة بين رجليها كي يحرِّك لسانه عنوة، كأنه يقترب من جثمان أبيه، الرائحة ذاتها. هل كان في تلك اللحظة يريد أن ينكح جثة ما؟ هل هذا الأمر الذي جعله ليومين لا يقبل على الطعام، أمام دهشة سعيد؟ قال سعيد:

«يا رجّال ما قدامها إلا العافية إن شاء الله».

كان يظن أنه أضرب عن الطعام بسبب مرض أمه وهزالها الأخير.

طوال يومين كان فهد لا يفارق رائحة الزيت، يهصر الإصبع الأسود ثم يحرك الريشة القاسية فوقه ساهياً، ويصبغ اللوحة بالأسود المجرد، ثم فجأة يداهمها بالأحمر، ويرسم طيراً صغيراً محلِّقاً في الركن العلوي الأيسر، يكاد أن يخرج من حافة اللوحة إلى سقف الصالة ويطير، وحين سأله سعيد عمّا إذا كان يريد شيئاً من الخارج، ناوله إصبعاً مهصوراً، وفارغاً من اللون الأبيض، وأخبره أنه متوافر في مكتبة المكتبة بشارع العليا، أو في أي فرع من مكتبات جرير، ثم عاد إلى اللوحة يرسم على حافتها السفلى مجموعة من الأيدي، مجرد أيدٍ مرفوعة تجاه الأعلى، لا أحد يعرف إن كانت تشير إلى السماء، أم تشهد على شيء، أم تهدد أحداً، أم تستجدي الطائر الصغير في رأس اللوحة الأيسر. وعند الفجر، وبينما كان سعيد يغط في نومه، كانت اللوحة قد جفت قليلاً، ففتح فهد أنبوبة صغيرة من اللون الأبيض، وانتقى ريشة صغيرة مقاسها 1 ملم، مدببة ومبرومة الطرف، نهل برقة متناهية من اللون الأبيض الخاص، وبدأ يرسم في وسط اللوحة، بالضبط في بؤرة سوادها العارم، خطوطاً رهيفة جداً، متلاصقة ومنحنية كسيوف، للوهلة الأولى كان يوحي أنه يرسم جريد

نخل طائر ومنثن، لكنه بعد ساعة من الانكفاء على اللوحة، وفي صمت المدينة المقيتة، بدأت تظهر معالم ريشة صغيرة متأرجحة في قلب اللوحة، كأنها ريشة طائر ساقطة من سماء عالية، في مدينة صامتة إلى حد السأم، كأنها تتأرجح بين ناطحتي سحاب، لكن تلك الريشة أكبر حجما من ناطحة سحاب، فعدسة الفنان تلتصق بها تماماً، بينما تجعل الناطحات الضخمة مجرد خلفية بعيدة للمشهد ذاته.

كان يرسم بدقة وإتقان، ويتمدد في ذاكرته مشهد قديم في بيت عمته هيلة في بريدة، بحي التغيرة، وفي غرفة القهوة تحديداً عند موقد النار، ذات ليل شتوي بارد، بينما كان يلعب، مع فيصل ابن عمته حصة، وابنتي عمته هيلة: شريفة ولطيفة، حيث تأمرهم الكبرى شريفة بأن يضعوا أيديهم جميعاً على الأرض، ثم ترفع هي يديها فجأة: طارت السيارة، فيبقي الجميع أيديهم على الأرض وهم متيقظون، ويرددون بحذر وريبة: ما طارت، ومن يخطئ منهم فيرفع يديه قائلاً: طارت! يخرج من اللعبة، حتى تُخرِجهم جميعاً:

- طارت أمي نورة!
- ما طارت.
- طارت البسّة!
- ما طارت.
- طارت الحمامة!
- طارت. ويرفع الجميع أيديهم معاً، في حين يتردَّد فهد قليلاً قبل أن يرفع يديه!
- فهد، اطلع برّا «تصيح شريفة»

- والله ما أطلع! «صاح بغضب»

- أنت ما رفعت يديك بسرعة.

- الحمام ما يطير! «قال متأرجحاً»

- الحمام يطير يا غبي! «قالت لطيفة ضاحكةً»

- خلاص مسامح فهد، نكمّل. «قال فيصل متعاطفاً مع فهد»

فكَّرت شريفة قليلاً، ثم صاحت بغتة:

- طارت النخلة!

- ما طارت.

- طارت المهفة.

- ما طارت.

- طارت الريشة.

- طارت. «قال فهد»

- ما طارت. «صاح كلٌّ من فيصل ولطيفة»

بدأ الصغار يتجادلون في ليل هادئ، لا يكسره سوى صرير صراصير النخلة العالية في الباحة، شريفة تقول إن الريشة لا تطير، وفهد يعترض بصخب وغضب، قائلاً بأن الريشة تطير، يصرخ فيصل ولطيفة: «لا، لا، خطأ. الريشة ما تطير، الحمام هو اللي يطير»

هل يطير الحمام؟ كان فهد في شقة صديقه بحي المصيف يتأمل لوحته ويتذكَّر، يفرد جناحي ذاكرته ويطير، حيث الحمام القطيفي في حوش عمه ببريدة يدرج سريعاً على قوائمه الحمر، فيلاحقه ياسر أو فيصل. كان يركض سريعاً خافقاً بجناحين معطوبين، ثم ينكفئ على

صدره، ويعتدل على رجليه الحمراوين، مواصلاً اللهاث والنبش في الأرض الطينية اللزجة!

تذكَّر حكاية شعبية قديمة في بريدة، سمعها عندما كان طفلاً، عن نجار شاب تسكن معه أمه، في منزل ذي حوش فيه شجرة سدر ضخمة، تستند على حافة السور، ويستظل بها النجار الشاب طوال النهار يصنع الأبواب والنوافذ، حتى سئمت الأم من وجوده الدائم داخل البيت، الأمر الذي لا يسمح لها بمواعدة عشيقها، والاختلاء به، ففكرت مراراً بطريقة تجعل الابن يعمل خارج البيت، فجاءته ذات يوم بدهاء عجوز محنَّكة، تتململ وتشتكي بخجل من عصافير السدرة التي تكشف عورتها، وأن الحل للتخلص من هذه العصافير والطيور المتلصِّصة كلها هو قطع هذه الشجرة، فكان لها ما أرادت، وفقد ابنها الظل البارد، فخرج يعمل تحت شجرة بعيدة، وتخلَّصت من مرابطته في البيت، ليزورها عشيقها متى أرادت!

هل كانت الطيور، العصافير والحمام، تطير في بريدة قديماً، قبل أن ينتفوا قوادم أجنحتها؟ أم لم يعد ثمَّة هواء هناك، فلا شيء يطير، لا الطير ولا الريش، ولا الناس أيضاً؟

-29 -

بعدما تجاوز غبيرة، وفي الشارع العام بمنفوحة، أمام عمارة قديمة متهالكة في أسفلها دكاكين أوان منزلية، ومحلات البضاعة الرخيصة (أبو ريالين)، أوقف ياسر سيارته ثم عدَّل نظارتيه الطبيتين كي يهمز رقم الشيخ المصري: «السلام عليكم شيخ محمد». أجاب الشيخ محمد عبدالمعطي بصوت وقور، وأخبره أنه سينزل خلال دقائق. تأمل ياسر الطريق أمامه،

النساء البائعات على الرصيف، مصريات محجبات يتسوقن في الشارع العام، شابان مصريان ينتظران أمام محل عصير القصب، حافلات خط البلدة تركن على الطريق، عمال بنغاليون يحملون على أكتافهم سطولاً فيها ماء وأدوات غسيل السيارات، باكستانيون بملابسهم البنجابية يقودون دراجاتهم الهوائية بجوار الرصيف، هنود وأفغان وأطفال يصطفون أمام مخبز تميس أفغاني في الجهة المقابلة، شحاذة عجوز سوداء حدباء تطرق زجاج نافذة السيارة، فيشير ياسر بإبهامه إلى الأعلى، وتظهر حركة شفتيه قوله: «الله كريم!»

طرق على زجاج النافذة الأخرى، التفت متأففاً، فإذا بالشيخ المصري مبتسماً، كان وجهه مستديراً وأحمر، تحفّه لحية لونها ضارب إلى الحمرة، وعلى جبينه بقعة السجود الداكنة، وفوق رأسه يضع غترة بيضاء نظيفة جداً، ومكوية، وقد ارتفعت قليلاً، فبدت أسفل منها طاقية منخل مخرمة، بينما جيب صدره كان مفتوحاً، فقد نسي أن يزرّر ثوبه الأبيض، وقد فعل ذلك والسيارة تنطلق بهما خارجة من منفوحة القديمة، متجهين صوب العليا: «بيت الأردنية!» كما يسمي ياسر بيت امرأة أبيه الأخيرة.

اتخذ طريق الملك فهد السريع، متجاوزاً عتيقة ومتنزه سلام، صاعداً الجسر صوب الشمال، كان الشيخ المصري يتحدَّث عن الفساد في منفوحة، والعمالة البنغالية الذين يتاجرون بالمسكر والدعارة وكل الممنوعات: «حسبنا الله ونعم الوكيل!» قال وهو يخلل أصابعه في لحيته، بينما ياسر يوافق على كلامه. ثم غيَّر الحديث وسأل عن أبي أيوب، وصحته، وقال فيما يشبه الدعابة: «مش أحسن لو شفنا له وحده مصرية صغيرة وفرفوشة وبنت بلد يا شيخ ياسر!» وأضاف: «بدل التعب والبهدلة مع وحده عيّانه بحاجة لأولادها مش لجوزا!»، هزَّ ياسر رأسه موافقاً: «على رأيك يا شيخ!»

في البيت كانت لولوة تغيِّر فراش الإسفنج لأمها المريضة، في غرفة الطعام ذات المساند الخضراء، بينما كانت سها تمشي ببطء وذبول نحو المطبخ، ومنه إلى غرفة النوم ترتدي قميصاً بكمين طويلين، وتضع فوق رأسها غطاء أسود للرأس، ثم تلتف بجلال صلاة أزرق منقَّط، وتتوجه نحو القبلة رافعة يديها المنقوشتين بالحنَّاء، تدعو ربّها أن يلطف بها، أو أن يأخذها إلى جوار أبي فهد، الذي خرج ذات صباح ولم يعد. كلما تذكرت سليمان وأيامها وجولاتهما في ليل الرياض، عاجلتها الدمعة، وتململت الحشرجة في صدرها الصغير.

اصطفق باب الحديد أسفل الدرج، وتعالى سعال العم وتهليله وهو يصعد الدرجات، في يده جالون بلاستيكي من ماء زمزم، وضعه عند مدخل المطبخ الذي تفوح منه رائحة بيض مقلي. خاطب لولوة: «هذا ماء زمزم مقري فيه!» سكبت منه كأساً وناولت أمها التي جاءت تتهادى صوب غرفة الطعام، قبل أن يرن جرس الباب بدقائق، ليدخل منه الشيخ المصري محمد عبدالمعطي بصحبة ياسر وهما يصعدان الدرج، ويبقيان لخمس دقائق في مجلس الرجال، الوقت اللازم لكي تتخفَّر سها بجلال الصلاة، الذي وضع العم فوقه عباءتها السوداء.

جلس أمامها الشيخ المصري وهو يطمئنها بأن الله رؤوف بعباده، وأنه سبحانه سيشفيها مما ألمَّ بها، وكل فينة يسحب غترته البيضاء التي تنزلق إلى الخلف، ثم اقترب منها ووضع يده الثقيلة فوق رأسها وبدأ يقرأ سورة النجم: «والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى». يرتل ثم يدمدم ويقرأ في سرِّه، وينفث بقوة حتى يكاد غطاء وجهها يطير.

لم تكن سها تشعر براحة، بل كانت تتنهد في سرِّها، تقاوم يده الغليظة التي لم تكن وقفة طير بقائمتين خفيفتين، بل كانت حجراً تلقيه

طيور أبابيل من سماء عالية. ثقيلة يده، وأنفاسه اللاهثة تحمل رائحة بيض فاسد، لكنها تماسكت لمدة عشرين دقيقة، ثم خلط لها زيتاً مع حبة البركة السوداء، خلطهما بإبهامه الغليظة. مضى بعد أن دعا لها بالشفاء العاجل، وأخبرها أن مقاومتها وتجلدها لامتحان ربها هو تكفير عن الذنوب التي يرتكبها ابن آدم.

الجزء الرابع

رقصة الفيل الأخيرة

كنت أعلم منذ مدّة أن المأساة ستحل بنا ذات يوم،

غير أنني لم أعدّ نفسي لذلك.

إذ كيف يستعد المرء لنهاية العالم؟

آميلي نوثومب: بيوغرافيا الجوع

- 30 -

حارسان، أحدهما أصلع والآخر قصير القامة نحيلها، يرتديان ملابس أمن المنشآت الخاصة، ويقفان أمام البوابة رقم 3 لسوق لي مول، يتفحصّان الداخلات والداخلين إلى مجمع السوق من البوابة الزجاجية الإلكترونية. في الخارج كان فهد يبطئ سرعة سيارته دون أن يلتف يساراً حول الدوار الصغير قبالة المدخل، بل استمر في سيره بحذاء سور مدارس ابن خلدون، ثم توقف، ورنَّ على جوالها، بينما كانت طرفة تتجول في محل «ليدي سلكشن» المجاور للبوابة رقم 3، وقد أعادت إكسسوار قرطين إلى مكانهما، مقترحة أن يستدير على الدوار ويقف قبالة البوابة مباشرة، فقد أخذت احتياطها ودخلت من البوابة رقم 2 المطلة على طريق الملك عبدالعزيز، فالحارسان هنا مختلفان عن حارسي البوابة الأخرى.

طرفة، أو القرمزية، كما هو اسمها الذي تشارك فيه بقسم الفنون في منتدى كانون، كانت تعرفت عليه قبل سنتين، لكنهما لم يفكِّرا أن يقتربا أكثر من التفاعل في موضوعات المنتدى، ومن مجرد رسائل أيميل أو محادثات ماسنجر، ولم تكن المكالمة الهاتفية واردة رغم أهمية القرمزية

بصفتها عضو فاعل في المنتدى، ورغم لطف مشاركاتها وملاحظاتها الذكية، ورغم أنه راسلها على الخاص في بداية تسجيلها مقترحاً عليها أن تغيِّر توقيعها الظاهر أسفل مشاركاتها: (السويدي والفلوجة عينان في رأس الإرهاب) شارحاً بأن الموقع فني تشكيلي ولا يحتمل هذه القضايا الأمنية والسياسية، رغم كل هذا التراسل المتقطع لم يتحاورا حتى وجد منها ذات ليل طلب موافقة على استضافتها في ماسنجره، فوافق، وفي غمرة نقاش ماسنجري ليلي، أرسلت له أيقونة هاتف محمول، فصمت لثوان متردِّداً بأن يكتب رقمه، حتى أرسلت له: «خلاص، بلاش!» لكنها كانت قد جذبت قدمه، فأرسل الرقم، لترد عليه بأيقونة وجه يغمز مبتسماً.

ثلاثينية بعينين واسعتين وغمازتين رائعتين حين تبتسم بخفر أو غواية، شفتان ممتلئتان ووجه دائري حنطي يميل إلى السمرة الخضراء، شعر أسود فاحم وناعم، كانت تجلده بهواء ساخن من سيشوار كهربائي لا يفارق غرفتها، يدها التي أدمنها فهد ناعمة وصغيرة وداكنة، ذات إبهام في منتهى الجمال، قال لها مرة أنه يحلم أن يرسم لوحة كلها إبهام يضاهي إبهامها البديع. حالما تمشي هادئةً وثقيلة كانت هالة مرح خفي تحلِّق فوق رأسها، يلمحها المحيطون بها، دون أن يكتشفوا خبايا الحزن العميق داخلها، الذي يتمثل في نوبات حزن وقلق تطفو حين تستعرض حياتها القصيرة، بعد زواجين فاشلين ورهبة مستديمة من فكرة الزواج، ثم ثلاث علاقات آخرها مع فهد، وفي كل علاقة كانت تقول، هذا هو حبيبي، هذا أجمل، أو هذا حبيبي، هذا أصدق! لكن هذا الحب أو الجنس يبدأ يخفت ويخبو ببطء بعد أشهر أو سنوات، حتى تجد نفسها مهملة، لتبدأ من جديد، وتتشرنق في حب رجل آخر.

كان فهد قد شاغبها وهو يقول لم تضعين في نافذة ماسنجرك صورة

فيل؟ لا تكوني في حجم فيل مثلاً؟ ويستثيرها بخبث، تبدأ معه لعبة التجزئة اللذيذة، في البدء مجرد عين كبيرة مرسومة بكحل وظل، ثم شفتان مكتنزتان، ثم أنف صغيرة، ثم قرط متدلٍ من شحمة أذنها، وأخيراً وجه رائع رغم أن معالجات برنامج الفوتوشوب قد مرّت على تضاريسه، بعدها أعادت الفيل الصغير، وقد قالت له في أول مكالمة مليئة بالضحكات والشغب، إنها تتمنى أن تركب فيلاً، فأجاب وقد أدخلته في جنون اللحظة، أما أنا فأتمنى أن أكون فيلاً. ضحكت لخبثه، وضحك لضحكها، هكذا مضت الساعات بالحديث الحميم لحظة، ثم بالجدل حول الفنانين والفنانات في المنتدى، وفي المعارض المتناثرة في أنحاء الرياض، في قاعة شدا أمام بندة العزيزية بالمربع، وفي صالة الشرقية شمال مستشفى التخصصي، وفي مركز فيصل بن فهد بمعهد العاصمة النموذجي، لكنها لم تكن ترسم على الزيت، وليست مهووسة بشراء اللوحات، رغم أنها أحبت عددا من اللوحات، لكنها لا تملك أصلاً مالاً فائضاً، فليس أمامها سوى أن تجمع صور هذه اللوحات من المنتدى وتحفظها داخل ملف خاص.

في البدء كان خائفاً ومتردِّدا، ثمة ما يشير إلى أن ثريا لن تتركه في حاله، لا تتوقف عن تهديده إذا لم يخلق فرصة لهما كي تنفرد به في مكان ما :»غريبة، أنا أعرف أن الشباب هم من يبتز البنات ويهددونهن، كيف هذي الآدمية تهددني؟» كان يفكِّر بينما تلك الرائحة لا تفارق أنفه، لحظة أن جذبت رأسه إلى حيوانها اليقظ بين رجليها، تتلذذ وهي تقول له بلثغة مجنونة: يا حيواااااان! منذ أن بدأ يتجاهلها لم تكف عن إغرائه مرة، وتهديده مرات أخرى، وثالثة تدعو بأن يريه الله ما فعله بها في أمه وأخته: «يا ليت كنت عندي...والله تشوفه تنجن، حيوان فاتح فمه»، و «حيوان يبكي وينتظر دلالك.. رد يا شامي رجيتك..لا تذلني يا دلع الرجال

كلهم»، و « ممكن أعرف مشتاق لي، لشوقي أنا، لحجازيتك». ثم تبدأ في التهديد: «يوم أشوفك في معرض، تخيل فضيحتك قدّام الضيوف» و « إذا ما ترد علي في يومين تحمَّل فضيحتك في النت، وفي موقعكم كانون». ثم تتحوّل إلى قديسة ومتدينة وهي تشحذ ربها: «يوم أشوفها في أختك آمين»، أما في لحظات تكون أقل جدية وهي تحاول أن تجعله يرد عليها، حتى لو برسالة قصيرة، فتكتب له بلهجة شامية، هي خليط بين لهجة اللبناني والسوري والأردني: «بلا شو لهدرجة مزعجة أنا، بلا هيدا حكي، أنا ما بحب هيك حركات». يقرأ فهد الرسالة فيضحك، وهو يقرؤها أمام سعيد، الذي يقول ساخراً: «والله العظيم مراهقة العجايز بجد مصيبة»

لم يكن أكثر سوءاً حين تحولت ثريا إلى وصف حيوانها بالماعون، كأن لحظة وقفته المرتعشة للتقيؤ أمام مجلى المطبخ كانت مبررة ولها سبب مقنع، أن يأكل مكرهاً، وبيد تلقمك قسراً، طعاماً باتئاً له رائحة تجلب الغثيان: «ما اشتاق فمك للماعون؟» ثم في لحظة نزق وغضب ترسل له: «لحست صحني ومسحت خشّمك، ومشيت، شوف فهد أنا ما أحب أظرك» يبتسم حين تخطئ، وتكتب الظاء بدلاً من الضاد.

رغم أن طرفة زميلة في المنتدى منذ سنتين، إلا أن الشكوك طاردته كغربان تنعق حين تحلق فوق جثة، هل هي مرسلة من قبل ثريا بهدف الانتقام؟ هل ثريا موجودة في المنتدى من قبل؟ هل هي ضمن آخر عشرة مسجلين جدد؟ حاول أن يستعرض أسماءهم المستعارة، لم يجد منها ما يشير إلى اسمها أو وصفها أو حجازيتها التي لا تكف عن التفاخر بها، ورغم ذلك سأل نفسه. ما الذي جعل طرفة تظهر في حياته الآن تحديداً، بعدما انسحب ببطء من لعنة ثريا؟ لماذا بدأت تراسله وتحاول معه بطريقة ما، رغم أنهما موجودان معاً منذ انطلاقة المنتدى؟

ما إن توقف أمام الحارسين ببذلتيهما السماويتين، عند البوابة رقم 3 لمركز لي مول، حتى لمح للمرة الأولى جسداً يمشي بثقة مفرطة، بهدوء قاتل وعظيم، مخفوراً بعباءة سوداء وحقيبة يد سوداء يتأرجح من طرف معلقها الجانبي دب أبيض صغير، فتحت باب السيارة وركبت بجواره: مساء الخير، قالت بخفر وعدَّلت جسدها وهي تسحب العباءة من أسفلها، وبعد أن تحركت السيارة نظرت نحوه بعينين مِنقبتين فاتنتين. سقط قلبه بغتة، ومدَّ أصابع يده اليمنى التي تشرنقت بأصابعها الخمرية اللون، وقد جعلت يده تنام بين يديها الطريتين، قالت له أدخل يمين، واتجه شمالاً داخل حي الوادي الجديد، حيث الظلمة الساترة، التي تجعل الكائنات تحلِّق بشغب وعذوبة، كان يسألها بضحكات: «كيف تعرفين حارات الشمال، وأنت ساكنة السويدي؟» ضحكت، وقالت أن أختها الكبرى أسماء تسميها «جوجل»، حتى أصبح كل أقاربها يطلقون عليها «جوجل» أو «طرفة جو»، حتى رجال العائلة وشبابها يعرفون أنها تعرف الحارات والشوارع والمحلات، فكأن خريطة مدينة كاملة، بكل بنيتها التحتيّة وبناياتها وأحيائها، تنام في رأسها الصغير.

-31-

صوتها هو ذاته، بل ربما أكثر نضجاً وموسيقى. كان وقت الظهيرة، حين رنَّ فهد لأول مرة، قلقاً ومتردداً، وبعد ثلاث رنات جاء صوتها ممطوطاً، كان صوت أنثى مكتملة، صوت أنثوي بامتياز، رائق وضاجّ بالغنج والرقة، حينما تتكلم كانت تشبه صوت ناي يخرج حزيناً في غابة نخيل مهجورة! صوتها كان قوياً منساباً يفجر شغاف أي قلب، لم يكن أبداً يشبه صوت ثريا المتحشرج الأمومي، أو صوت نهى غير المفهوم،

ولـم يكـن صـوتها فحسب، بـل دفؤهـا وصـدقها الجـارح، فمنـذ المكالمـة الثانية بدا فهد كأنه صديقها منذ الطفولة. حَكَتْ له كيف تزوجت ممثلاً مغموراً، ثم انفصلت عنه بعد سنتين من العناء والاختلاف، فوصلت حالته إلى انفصام حاد، وقد سافرت معه قبيل الطلاق إلى جدة، وحين نسي تناول دواءه، بدأ يركب الجمل والحصان على كورنيش جدة، يصرخ فيها بجنون: صورني! ثـم حين عـادا إلى غرفتهمـا في الفنـدق، لبس شـورت سباحة، وهو يدندن بمتعة كامنة: «يا ليت سوق الذهب يفرش حرير»، ثـم قطع الأغنية المعروفة، وقال لها وهو يشير من النافذة العالية إلى المسبح في الأسفل: «بروح أصيد سمك!»

كانت طرفة حميمة وضحوك إلى درجة مذهلة، خطفت قلب فهد، وأشعرته أنه قريب منها للغاية، لم تسأل عنه إلا بشكل نادر، بينما هي كشفت عن طفولتها في دخنة، ولـم تـذكر سـوى اسمها الأول، كان يريد اسم العائلة كي يطمئن أكثر، ورغم ترددها في البدء، إلا أنها ذكرت اسم عائلتها، وأوضحت بأن توافقها مع اسم عائلة أصحاب مركز تجاري هو مجرد تشابه، وقالت إن هؤلاء: «قبايلة»!.

جميلة كانت وهي تسند ذقنها بأصابعها، عيناها رائعتان، لا يمكن بأي حال مقارنتهما بعيني ثريا الضيقتين واللتين تشبهان أعين أهل جاوه، ولا صـوتها الحنـون الملائكـي الـذي يختلـف جـذرياً عـن صـوت ثريـا المتحشرج، ولا حتـى الموضـوعات التـي تطرقهـا، فطرفـة التـي تحكـي كشهرزاد عن حياتها وحياة أهلها وصديقاتها، قد ملأت قلب فهد وذاكرته في ظرف أسبوع فقط، بينما بقيت ثريا لأشهر طويلة تسأل عنه، وعن أمه الأردنية، ولا تعطي أي شيء عنها، تحفظها على حياتها يشبه تحفظ رجل، وربما محاولة اغتصابه كانت اللحظة الحاسمة في معايشته لها.

تحمس لرؤية هذا الصوت الملائكي، وفي مخيلته أن يذكي المقارنة بينهن، نهى وثريا وطرفة، فأي منهن الموناليزا خاصته؟ طرفة بعينيها الواسعتين ويدها الجميلة وهي تسند ذقنها بطريقة مغايرة لوجوه سلفادور دالي، التي تتكئ على أعواد وأغصان كي لا تسقط. وجه طرفة الذي كان يحمل حزن الملائكة، اليقظ والحنون والحزين معاً؟ أم نهى بنظرتها الرقيقة جداً، وهي تسرق اللحظات الصغيرة كي ترسل بصرها خلسة من بين أفراد جيش الروم المنهمك في مشيته العسكرية بالممشى لصق سور جامعة الأمير سلطان؟ أم وجه ثريا المأخوذ بفتنة وجه فهد والمتبتل لدرجة الرغبة في الالتهام؟

هذه الأسئلة هي ما حرضت فهد على مقابلة طرفة في مركز لي مول، كان يهيئ نفسه هذه المرة لموعد غرامي مختلف تماماً، امرأة مطلقة تقترب من عمره، لها الطموح نفسه وكذلك القفشات والإيماءات، كانت رسائل الجوال قربته إليها أكثر، جعلته يقفز المراحل المعتادة، كانت تسأل وتتمنى: «متى أشوف فيلي العزيز»، فيرد ساخراً بلؤم: «بخرطوم ولا من غير؟»

قاد سيارته الهيونداي إكسنت، خارجاً إلى الدائري الشمالي، متجها للمركز القريب من الشقة، هاتفها وقال بأنه خرج الآن، قالت: «إذا وصلت تعال من بوابة 3 لأنني سأدخل من بوابة 1 على الطريق الدائري، أوكي؟» ثم أضافت بهمس: «أحبك!» ورنَّ صوت قبلة مطبوعة على الجوال، فسألها كما عودته بشغب مذهل: «وين؟» أي هذه القبلة في أي مكان؟ فضحكت وقالت على فمك يا مجنوني الصغير! حين وصل اتصل، فلم تجب، وأرسلت له تخبره بأنها مع أخيها أيمن، وحالما تصل فإنها ستخابره. مرَّ بجوار جامع بحي الغدير يعلو من مآذنه ترتيل الإمام في الركعة الأولى لصلاة العشاء، فنزل ودخل، كانت رائحة غراء الباتيكس تغمر فضاء الجامع، ومزق السجاد الجديد متناثرة في الأنحاء، كان يشعر

بأن الصلاة قد تجعل ربه يحفظه من المآزق التي قد تعترضه!، كيف ينقذك ومن الخطيئة يا فالح؟ خرج من الجامع وركب سيارته بينما الرنين يتعالى من جواله:

- اسمع، لا تجيء من البوابة الرئيسية.

وقف، أطفأ مصابيح السيارة، كانت سيارات قليلة تقف أمام البوابة، اتخذ مكاناً قرب سور مدارس ابن خلدون، قال لها قبل أن تخرجي مباشرة أعطي رنَّة! وسأقف قدّام البوابة، سيارة هيونداي بحري! ففعلت، وأدار سيارته ليقف أمام البوابة مباشرة، خرجت شابة ملتفة بعباءتها، جاءت تمشي بطريقة معتدلة، لا تسرع خطواتها وليست ثقيلة الخطى. فتحت باب السيارة وركبت: مساء الخير! كانت أنفاسها سريعة ولاهثة، كأنما تجري بشدة فوق بلاط البورسلان اللامع داخل السوق، وتنقر بكعبيها العاليين المصابيح المنعكسة على البلاط كالنجوم، انتبه فهد إلى يدها، هي الصورة ذاتها التي رآها على الماسنجر وهي تجلس ببهاء نادر فوق لوحة المفاتيح. مد يده وعانقت أصابعها الطويلة والناحلة جداً، التي تصبح كأطراف الشوك عند رؤوسها، دقيقة كسهام، كأنما كانت صياداً جاء بقوس سهامه، ولم يحمل على ظهره جراب السهام العشرة المميتة، وإنما جعلها في كفيه! فعلا كانت أصابعها عشرة سهام قاتلة! عانق أصابعها وتحفزت كل خلاياه! رفع يدها وقبَّلها بشغف، فصدرت عنها آهة مكبوتة!

عند الإشارة المجاورة للسوق، اتجه يساراً، سالكاً طريق الملك عبدالعزيز، ومرا بجوار شقق لين المفروشة، وحين اقترب من إشارة بندة المصيف، سألها هل نبحث عن مكان مظلم ومريح كي أراك! كانت تنظر نحوه من وراء النقاب بعينين ساحرتين، لا تتحدث إلا قليلاً خلاف جرأتها على الهاتف، وحين سألها قرب إشارة بندة أي الطرق الثلاثة

أمامي أتخذ؟ أشارت بيدها من الأسفل وهي تخفيها عن مستوى نافذتها: «من هنا؟»، سألها: «لم تشيري بهذه الطريقة الخفيَّة؟»، ضحكت بطريقتها الرائعة، وقالت إن أخوتي يحذرونني أن أرفع يدي حين أشير حتى لا يرى من في السيارات المجاورة يدي! ضحك فهد وقال بوداعة: «ما ألومهم! لو كنتِ أختي لبستك دسوس سوداء!»، علقت بأن أمها وأخاها الأكبر عبدالله حاولا من قبل أن يلبسانها القفازات السوداء كي لا يرى الزجال عورة يديها، لكنها قاومت ورفضت.

كانت تعرف المدينة جيداً، ربما جولاتها مع عشيقها السابق في المخططات السكنية الجديدة في شمال الرياض جعلتها تدرك الطرقات والأحياء الجديدة في المدينة، لكنها كانت تتردد أن تقوده إليها كي لا يكتشف مغامراتها، رغم أنه قال لها مراراً بأنه يحترم وضوحها وصدقها. بعد نصف ساعة من الدوران بلا هدف في أحياء المصيف والمروج، قالت له عد من جهة لي مول، فعاد واجتاز الإشارة ناحية الشمال، ثم دلف إلى المخطط يساراً، حيث يلتوي الطريق، مشى قليلاً حتى دخلا في الظلام، نظر نحوها، فقامت بفك غطاء رأسها، كان وجهها يحمل وعود فردوس أبدي، لها وجه دائري ممتلئ، خدان ناعمان وأنف صغير وجميل، وفم يوحي بشبق مذهل، كانت تبتسم فتزداد غواية عينيها الرائعتين، كيف جمعت عيناها كل هذا السحر والبهاء، وحين تغزل بها ابتسمت بحياء، وأخذت يده بين يديها وقبلت عقلات أصابعه، واحدة واحدة، ثم قبلت رأس إبهامه فشعر بطراوة ريقها، نظر أحدهما إلى الآخر في اللحظة ذاتها، وكأنما كانت عيناها تدعوانه، فمال نحوها وجذب رأسها نحوه بجرأة أدهشته فيما بعد، ومسَّها برقة متناهية، لم يفهم كيف تحرَّر من مآزقه القديمة وانهال عليها كريح، حتى تاه المقود من بين يديه، فتأرجحت السيارة يميناً ويساراً. انتهى الطريق المظلم وخرج على طريق

رئيس مضاء، فعاد وانتبه إلى سيارة كانت تتبعه، وما أن حاذاه حتى رفع ضوءه الأمامي، ضحكت وقالت هذي أشارة مفهومة عند المغازلجية! سأل: ماذا تعني؟ أجابت: ولا شيء، يعني خذوا راحتكم، أنتم مكشوفين! قالت له عد إلى الطريق الذي خرجت منه، فعاد وسار شمالاً، ثم انعطف يميناً حيث تجاوز محطة وقود على اليمين، وقصر أفراح على اليسار، وانتبه إلى عدد من الاستراحات الموزعة في الظلام، قالت خذ أي طريق يمين، وأدخل في الظلام! دخل وسار نحو الشرق حتى انتهى الطريق بحاجز ترابي، وبات عليه أن يتخذ اليمين أو اليسار، سلك اليمين وقد أصبحت مباني الاستراحات المضاءة والطريق الرئيس على يساره، أطفأ الضوء نهائياً، وإن لم يخمد محرك السيارة تحسباً لأي طارئ، اندفعت نحوه وعانقته، أخذت شفته السفلى وعركتها في فمها بقوة. وهي تهمهم: «أحبك.. أحبك!»

عاد إلى الطريق، وعدلت هيئتها، ووضعت النقاب فوق وجهها، لكنهما لم يصمتا أبداً، كانا يثرثران فرحين ومتشوقين إلى اكتشاف أحدهما الآخر.

قالت له: «نسيت أن أشد شعر رأسك!»، رفع فهد شماغه وقال: «وربي عندي شعر كثير!»، ضحكت وهي تقول إن شباب هذه الأيام يدخلون الشيخوخة مبكراً، يعالجون صلعاتهم الكئيبة، ويأخذون الفياجرا، ومع ذلك لا شيء! سأل بابتسامة: «طيب وأنا؟» أجابت وهي تفرد إبهامها: «شكلك كده!» ثم شدّت شعره وهي تصرخ: «يا حبي لك!»

سألها عما إذا كانت النساء يحببن الصلع، أو لعل الصلعة صارت موضة، وإلا كيف نفهم بعض اللاعبين الذين يمسحون شعر رؤوسهم بموس حلاقة!

عاد إلى مركز لي مول، وسألته: «وين بوستر لوحة كليمت؟»، التفت نحو الخلف وجذب لها مغلفاً أسطوانياً، وقال لها: «اعذريني حبيبتي كنت تمنيت أحطه لك داخل برواز على ذوقي، لكن ما حبيت أثقّل عليك!»، قالت: «ما عليه حبيبي، أحطه بغرفتي بدون برواز!»

أشارت: «لا تنزلني من بوابة بيسك هاوس، أقصد اثنين، شف البوابة رقم ثلاثة القريبة».

بعدما تركها، أخذ كأس موكا ساخنة وانطلق، يعلله صوتها المتسائل بقلق: «هاه، كيف وجدتني؟»

-32-

في اليوم التالي، تنبّه سعيد في الثامنة ليلاً، نظر نحو الساعة على الجدار المقابل، سرح فكره صوب طفولته القصيَّة، وتذكَّر أيام خميس مشيط في بيت جدته، واستعاد ذاك المساء قبل خمس سنين، حين قصَّت عليه حكاية أبيه مشبب، وقد أخذها مع أمه عيدة في رحلة عمرة كانت مجرد خدعة ساذجة، لاحتلال الحرم وإعلان ظهور المهدي بداية القرن الجديد، والتمرد على الحكومة وجنودهم، وانتظار تحرّك جيش الكفّار من تبوك، وخسف الأرض بهم.

رفع سعيد رأسه إلى السقف، وشبك أصابع يديه فوق جبينه، وراحت ذاكرته اليقظة تتجوّل بحزن،

فتحرَّك فهد على السرير المجاور، وقد فتح عينيه وتثاءب بصوت ممطوط، ودون أن ينظر إلى سعيد، غمغم بصوت مكتوم: «شكلك صاحي من زمان؟»

أجاب سعيد دون أن يوقف سيل الذاكرة: «تعرف، فهد، فيه حكاية غريبة جداً، صارت قبل ولادتي بشهرين، أفكّر فيها دائماً» سخر فهد بعينين متورمتين: «لا تقول إنك تتذكر كل شيء قبل ما تتولد؟»

دون أن يتأفف سعيد، تحدَّث: «لا، بجد، يا فهد، هذي حكتها لي جدتي، ثم أكدتها لي أمي عيدة. يوم كنت جنيناً، وأبي كان سجيناً مع أبيك، قامت أمي فجراً كي تصنع قهوة عربية لجدتي المستيقظة، قهوة خفيفة دون هيل، وبينما كانت مشغولة في غسل دلة القهوة فوق مجلى الطعام سقط قرطها من شحمة أذنها فشهقت، حتى فزعت جدتي لشهقتها العنيفة، إذ لم يكن الصوت يشبه صوت أمي، لم يكن الصوت طالعاً من حنجرة أمي تحديداً، كأنه كان صوت جِنّي مخنوق، تروي أمي أن جدتي فزعت وقامت تعضد لأمي وهما تخطوان ببطء نحو غرفة القهوة حيث ألسنة النار في الوجار تتراقص. كانت تبكي وتنشج بضراوة لبؤة محرومة، وجدتي تردد: «قلبي خير يقوله المولى!». لكن أمي نشجت ذاك الفجر، وهي تقول لجدتي إنهم قتلوا مشبب هذا الفجر، قطعوا رأسه بالسيف، وبينما هي تتحسس قرطها الآخر في أذنها، كانت تضع يدها على بطنها وتنشج وتردد: «يا رب تحفظ وحيدي!»

انثنى جسد سعيد وهو يتكئ على كوعه ويضيف: «ذاك الوقت كان أبوك في السجن قد شيعه بنظرة أخيرة، وهو يلبس النعل الزبيري الذي كانا يتناوبان لبسه إذا خرج أحدهما إلى التحقيق، لكن النعل لم يعد بعد التحقيق الأخير، لم يكن تحقيقاً وهم يوقظونه في صباح ربيعي مبكر، في الثلث الأخير من الليل، كانت تلك الليلة هي الوحيدة -كما أخبرني أبوك- التي لم يصلِّ فيها صلاة الوتر آخر الليل، بل نام مهموماً متكدِّراً، وفي ساعة باكرة قال وهم يقودونه: «لا تنس حشاشتي يا سليمان»، قال ذلك وهو خارج دون أن يلتفت أو يتوقف لوداع، لكنه كان يتحسس

موضع السيف في تلك الليلة الأخيرة، كنت أنا حشاشته التي أوصى عليها، ما زلت أذكرك أول مرة جئت إلينا مع أبيك في بيت جدتي بالخميس، تتذكّر؟»

- أتذكر كيف كنت تستعرض قدّامي! «أجاب فهد مبتسماً»

- أذكر أنك كنت متخوفاً ومنطوياً خلف عباءة أمك، وأنا أتباهى أمامك بأنني لا أخشى شيئاً، هل تذكر حين كنت أركض في باحة البيت نحو الحماطة، وأحاول أن أتسلقها كاشفاً عن ساقي النحيلتين، أذكر أن سقوطي على ظهري بعد عدة محاولات هو ما جعلك تضحك وتتحرر من عباءة أمك. مازلت أتذكر تلك اللحظات الأولى، وأذكر عندما يأتي أبوك محملاً بالهدايا والأرزاق، الله يرحمك يا عم سليمان!».

أضاف سعيد بعد هنيهة قصيرة:

- تعرف فهد؟ كان أبوك يشبه واحداً دهس طفلاً في حادث سير، وأرّقه ضميره سنوات طويلة، بقي خلالها يحاول أن يسعد الطفل الذي صار مشلولاً بسبب حادثة السير تلك! لقد كانت لحظة وفاء نادرة من أبيك، وأنت تعرف أن هذا البلد لا يعرف شيئاً اسمه الوفاء، وضميره نام منذ قرن!

- تعرف- (كان فهد مستلقياً وهو ينصت)- مازلت أذكر موت جدي لأبي قبل خمس سنوات، تخيل أن يموت رجل كان عقيداً متقاعداً بالجيش، ويقود كتيبة خلال حرب اليمن، كان هو وكتيبته حصناً شرساً يحمي البوابة الجنوبية للبلاد، وقد مات في البيت كما يموت كلب حراسة عجوز، بعد أن أخرجه مستشفى الخميس بالقوة، بسبب الحاجة إلى السرير! تخيل كيف كان يتقيأ دماً وأنا وعمّي وخالي وأقاربي نتفرج على كلب حراسة قديم، دون أن ينتبه إليه أحد! كيف

ينتبه هؤلاء وهم مشغولون بإنجازات فصل التوائم، الذين يجلبونهم من أصقاع الأرض كي تلتقط لهم الصور التذكارية وتنشر على صدور الصفحات الأولى من الصحف المحلية، تحت عنوان إنجازات طبية، كيف يحدث ذلك وجدي الذي دقّ عظامه أزيز الرصاص زمن السبعينيات، وكاد أن يهلك حين أصابته رصاصة طائشة، ثم لم يجد من يوليه اهتماما ورعاية!

انعطف فهد على جانبه الأيمن، وطالع سعيداً، الذي كان قد صمت لوهلة وهو يحدّق في السقف:

- تصدّق فهد؟ لو جاب جدي توأمين، أقصد أبي وعمي، ما يمكن أن تهتم به الحكومة؟

ضحك فهد فجأة بصخب، وقال بخبث:

- هذول توأم بلدي! يعني محلي! ما ينفع! لازم يكون أجنبي، إلا إذا كانت عيون أبوك زرق، يمكن تنفع، حتى تكون بلدنا عالمية، وتنقل انجازاتها العلمية كل دول العالم!

فز سعيد من فراشه وهو يقترح:

- المهم الساعة الآن تسعة، هذي ما هي قيلولة بجدا نطلع نشم هواء في التحلية؟

رفع فهد جواله من على الكومودينو بين السريرين، ونظر في شاشة الجوال الصامت، فوجد سبع رسائل تنتظره، قال بصوت مفزوع:

- سبع رسائل! يا لله صباح خيرا قهقه سعيد من داخل الحمام الوحيد بالشقة، وهو يردد:

- أي صباح يا عم! الناس الآن تتجهز حتى تنام من جديد.

حين خرج سعيد وجد فهداً متوتراً، وهو يُسمعه إحدى الرسائل: «مو انت مو مرتاح لي نهائياً حسب قولك... بيجي وقت آخذ حقي منك... بشراسة لأني مجنونة ومجروحة ومغدورة وأكيد أنت أدرى بالمرأة إذا أحست بالغدر تصبح عندئذ... لبؤة!»

سأل سعيد بقلق: من هذي؟ لا تقول لي الحجازية؟

هز فهد رأسه موافقاً.

- 33 -

حين صعد فهد إلى سيارة الهيئة ذلك الصباح، فكَّر أن ثريا وراء ما حدث له، فقد هددته مراراً إن لم يستجب لرغباتها فستنتقم منه، هل بلَّغت عن سيارة هيونداي إكسنت بحرية اللون، أقالت لهم إنها سيارة كموجة زرقاء طائشة في صحراء قاحلة؟ هل التقطت رقم اللوحة حين خرجت ذات مرة من بوابة مستشفى الإيمان؟ هل التقطت اللوحة وهي خارجة من مشغل «عالم الأحلام»؟ أم أن عشيق طرفة السابق أراد أن ينتقم منها، فتابعها وهو يفعل ذلك مراراً بعقل شكّاك؟ أم كان عمّه الذي يكرهه، ويرى أنه فاسق وماجن؟ كان يتذكَّر مراراً ذلك المشهد، كلما تمشَّى وحيداً في عصر الأحد، على الشاطئ الرملي في مدينة غريت يارموث، ورأى العشاق ممددين تحت شجيرات صغيرة، أحدهما يناغي الآخر، أو يحتضنه ويخمدان مثل حجرين لساعات، كم كان ذلك صعباً، وهو يستعيد مقطعاً من أحد الكتب الثلاثة التي تركها أبوه في حقيبته، يناقش فيه مجتمعات الجاهلية، وكيف أن الكتّاب والصحفيين والروائيين في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات:

«إن الاتصالات (الحرّة) ليست رذائل أخلاقية.. الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته، أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود! بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت! والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة! عشرات من القصص هذا محورها، ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتيرية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها..» هل الخط الأزرق المتعرِّج تحت هذه الكلمات من كتاب «معالم في الطريق»، قد وضعته يد مرتعشة فعلاً؟ هل هي يد أبيه؟ هل هي إشارة ما، أراد أبوه أن يضعها أمام عينيه، أكانت حقاً محاولة تنبؤ مبكرة وناجحة؟

خلال الأيام الأخيرة، كان فهد يفتح الحقيبة الجلدية، الممتلئة بأوراق ومذكرات وقصاصات وذكريات وكتب خاصة وكتب مصورة ومنشورات سرِّية وأقلام ومسبحة نوى زيتون وصورة للأب مع زملائه في باحة السجن لا يعرف كيف ولا من التقطها؟ ولم يشد انتباه فهد بعد مذكرات أبيه، سوى هذا الكتاب الأخضر بقاطع أسود في منتصف غلافه، وعنوانه المكتوب بخط الثلث: «معالم في الطريق» واسم سيد قطب بخط فارسي جميل أعلى الصفحة يميناً، ثم دار دمشق، والخطوط الداخلية بقلم أبيه، والهوامش المكتوبة في لحظات قديمة، فكل المجتمعات في نظر الأب آنذاك، أو المؤلف فحسب، هي مجتمعات جاهلية، فهي **«إما مجتمعات شيوعية ملحِدة لا تؤمن بالله، أو مجتمعات وثنية في الهند واليابان والفلبين وإفريقية، أو مجتمعات يهودية ونصرانية باعتقادها المحرّف، بل يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة» فهي مجتمعات تقوم الحاكمية فيها لغير الله»**، كأن كلام الكتاب الذي تصفحه فهد هو ذاته كلام ابن عمّه ياسر، فهل كان هو المورد المشترك الذي نهل منه أبوه وعمّه وياسر، وكل الذين انساقوا

خلف إشعال الحرب على المجتمع، بل وصل الأمر بأن يترك بعض هؤلاء العيش في مساكن الناس العاديين، ويتخذون لهم مقرّات خاصاً بهم.

كان الحيّ الذي عاشت فيه عائلات جماعة السلفية المحتسبة في الحرّة الشرقية بأطراف المدينة المنورة، مجرد بيوت ومبانٍ عشوائية، بينها ممرات صغيرة جداً، تشبه الزواريب التي لا تكاد تسمح بمرور شخصين اثنين معاً في اللحظة ذاتها، بيوت مسلحة لكل منها ثلاثة أبواب، الباب الخلفي لأي منها يلتقي بالباب الخلفي للبيت الذي في ظهره، وهو الباب الذي تستخدمه النساء عادةً للقاء والحديث الهامس وتبادل المنافع ومتطلبات الأكل، وهي الأبواب الخلفية التي هرب منها كثير من هؤلاء وقت مداهمتهم من قبل رجال الأمن قبيل احتلال الحرم. كان سليمان السفيلاوي مغامراً ومتهوراً، وهو يعود ليلاً إلى الحي المراقب بجرأة نادرة، كي يدخل من باب خلفي في طريق ضيق كالصراط، وينقذ حقيبته التي تحتوي على أوراقه الثبوتية، من تابعية وشهادة دراسية للابتدائية والمعهد، ثم يتسلل هارباً بينما المباحث والجنود يرابطون أمام الأبواب الرئيسة، يقسم أنه كان يسمع نبض قلبه العالي وهو يتسلل إلى بيت قائد الجماعة، ويمر بخفة فراشة في الظلام، نحو مجلس الرجال الذي نام فيه لليالٍ، ليجد فراشه مطوياً كما كان، وبجواره حقيبته الجلد السوداء، يلتقطها دون أن يفتحها ويهرب من الزاروب الخلفي خارجاً من الحي النائي، الذي يسكن معظم بيوته المتواضعة أفراد الجماعة السلفية المحتسبة، أو الأخوان، كما يسمون أنفسهم، ويسكن معهم بعض طلاب الجامعة الإسلامية.

تلك اللحظة البعيدة، الغائرة في المهابة والصمت والنسيان، زمن الاعتقال الثاني، لم تبعد الشاب سليمان عن الجماعة إلى الأبد، رغم أنه بات يحضر درس الشيخ الضرير في جامع الإمام تركي بالديرة، بصحبة

شاب يماثله في العمر، ثم انضم إليهما ثالث ورابع، فأرسل لهم القائد العسكري للجماعة رسولاً يحذرهم من الالتفاف حول مشايخ الحكومة، لأن ذلك يلفت الانتباه إليهم، دون أن يدرك أنهم أصلاً باتوا يضيقون بالجماعة وتهورها، لكن سليمان قابل مشبباً ذات ظهيرة أمام دار الكتب الوطنية بشارع الوزير، طار فرحاً، وقد عرف بأن القائد يسأل عنه، وينتظره في العاشر من رمضان، فشعر الشاب بغبطة كبيرة، إذ لم يكن عادياً أن يقع نظر قائد التنظيم على شخص بعينه، إلا لثقته فيه أولاً، ولقدراته ومواهبه وتميزه عن الآخرين، فسافر سليمان إليه في مزرعة بقرية «العمار» غرب الرياض، جمعت بعض الإخوان، حتى أنه أمسكه بيده وقاده إلى غرفة ضيقة وطويلة، كأنها ممر، وأطلعه على أكياس البصل المخرّمة الحمراء، وهي معبأة بكتيبات صفراء، تحمل عنوان رسالته الأولى إلى الأمة «رفع الالتباس عن ملة من جعله الله إماماً للناس»، لم يقرأ مضمون هذه الرسالة إلا بعد توزيعها، فلم يرها إلا في بيت صغير بمكة، حيث كان قائداً لجماعة مكة، التي ستقوم بتوزيع الرسالة في الحرم، ليلة السابع والعشرين من رمضان.

تشير الرسالة الأولى، التي طيّرها سليمان ورفاقه المتحمسون، في سماءات مكة والرياض والطائف والقصيم، إلى جزء من حديث نبوي يتضمن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**أنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه**»، حيث ترى الرسالة: «**أن القصة التي هذا الحديث جزء منها، الذي فارقنا نحن من أجله الجماعات، هو أنهم يرون أن التبرؤ من المشركين وإظهار عداوتهم والصدع بالحق، فيه حرج ومشقة ومانع من انتشار الدعوة، ويسبب تنفير الناس عنها، فكان منهم من تساهل في هذا الأصل، ومنهم من تركه بالكلية، ونحن نقول بخلاف ما يتصورون، لأن الله قد رفع عنا الحرج وأمرنا بهذا الأصل، ولو كان فيه حرج ما أمرنا به،**

واسمع قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا) فإذا كان الله قد أمرنا بالجهاد وبين لنا أنه لا حرج فيه، وأن ذلك ملة إبراهيم، فاعلم أن هذا الأصل (الجهاد بالنفس واتباع ملة إبراهيم) هو الذي يميز الصادق من المدَّعي»

هكذا كان الناس جميعاً في نظرهم مدَّعين ومنافقين، وأن عليهم دعوة الناس بلا حرج إلى البراءة من المشركين، وإلا فهم منهم. إن قيام الدين لا يكون بالمداهنة والسكوت، بل بالصدع بالحق والصبر على الأذى.

بعد الملاحقات الأولى التي هرب فيها سليمان إلى الصحراء، وهرب فيها القائد أيضاً، وقت الصفري، حيث عاشا على صيد الضبّان من جحورها، وبقيا لأسبوعين هائمين في البراري، وبعد خروج معظم أفراد الجماعة من المعتقل، بعد أربعين يوماً، وبعد الملاحقات الثانية قبل اقتحام الحرم، رأى سليمان أن الأمر صار جدياً وخطيراً، وأنه لم يعد أكثر أهمية وغوغاء من مجرد بندقية صيد تخترق قلب مكبر الصوت، كما فعل أخوه في قرية المريدسية. ولا مجرد تظاهرة حفنة شباب أمام قصر الحاكم ببريدة، بل أن الأمر قد يتجاوز الاعتقال، وأن الإدانة قد تصل إلى القتل بالسيف، فبدأ يتهرَّب من الجماعة، حتى لاحقته، كعقبان سوداء، تهمة التهاون عن الصدع بالحق، لكنه اختفى عن أعينهم، عائداً إلى حجرة صغيرة في حي أم سليم، قبل أن يقرر الهرب نهائياً إلى بريدة، على ألا يخرج منها إلى الأبد، بل قرر بأنه سيدفن فيها، قبل أن يأخذه رجلا مباحث من سوق الجردة، ويهدر من شبابه أكثر من أربع سنوات في معتقل ذي جدران باردة، لكنها حتماً أرحم من الوقوف في ساحة الصفاة بانتظار صليل سيف حاد. هكذا أنقذه خوفه، فلم يقتحم الحرم المكي فجر الأول من محرم مطلع القرن الرابع عشر مع الإخوان.

-34-

في المرة الثانية ثبت منبه الجوال على السادسة، لكنه لم ينتبه إلا على صوت سعيد يزعق بجواره كأنه يأتيه من عمق كهف: «أمك اتصلت على الثابت، تقول جوالك مقفل»، غسل فهد وجهه بسرعة، ولبس ثوبه ووضع شماغه على كتفه، وقال له: «تأخرت، عندي موعد عاجل، لو اتصلت قل لها عنده موعد في الجامعة»، وقبل أن يغلق الباب، أطل بوجهه وقال: «سعيد، قل لها راح يقدم على صيفي بالجامعة!»، صرخ سعيد: «يا مجنون حنا المغرب! أي جامعة؟» أقفل الباب خلفه وأدار محرك سيارته وانطلق نحو مركز غرناطة شرق الرياض، نحو وجه حبيبته الفردوسي، ذاك الذي زلزل كرسي قلبه الضعيف والمتحفز!

فتح جواله، فوجد ثلاث رسائل: من لولوة: «أمي تسأل عنك، وينك»، ومن ثريا: «ما أبي إلا كلمة وفا وشوق، رد يا شامي!» ومن طرفة: «وينك أنتظر اتصالك من ساعة! أتحرك الآن؟ تعرف حبيبي، طريقي من السويدي طويل؟» اتصل بها وأخبرها أن تتحرك: «آسف حبيبتي، راحت عليّ نومة!»

قالت له بممازحة لذيذة: «هاه أجيب معي شيء؟» ضحك بشدة، فقاطعته: «لا، بجد، أكثر شيء متلهف عليه؟» فقال بشغف: «قلبك!» صاحت بحنق وهي تكزّ على أسنانها الأمامية: «يا فهلوي، يا نصّاب لا تعطيني مخرج!» أضاف: «طيب فمك!» تنفست براحة وعمق: «كذا أقدر أصدّقك!» حين أدار محرك سيارته كانت إذاعة إم بي سي على موجات الإف إم، تبث راشد الماجد وهو يغني «هلي لا تحرموني منه» فتذكر «نهى» ودمعها وصوتها المخنوق المتلعثم؛ توقف عند محطة وقود وطلب من العامل أن يملأ خزان سيارته، بينما أسرع نحو البقالة الصغيرة، فابتاع

علبة مناديل فاين، وقارورتي ماء بارد، التقطهما من عمق الثلاجة.

وصفت له بوابات مركز غرناطة الضخم في حي غرناطة، قالت تعال من بوابة رقم اثنين، من جهة الدائري الشرقي، جنب مقهى د.كيف، يعني تشوف قدّامك البوابة الرئيسية، فوقها لوحة واحة المرح. أجاب: «أعرف إكسترا في الآخر شمال، هي قبلها؟»، أجابت: «طبعاً قبلها وقبل باريس غاليري، أقصد ما هي بوابة واحد، هذا عند كوستا كافيه ومقهى اسبرسو»، وأضافت: «أقصد بوابة اثنين، وأنت داخل من الدائري الشرقي، طالع على يمينك، بتشوف مقهى د.كيف، البوابة جنبه مباشرة»

ما أن استدار من إشارة مخرج طريق الإمام، ونظر يساراً، حتى لمح لافتة د.كيف الخضراء، كانت الساعة تشارف الثامنة مساء، انعطف يميناً داخلاً، وحين واجهته البوابة انعطف يميناً أيضاً من جوار الدوار الصغير المقابل، وحين مرّ بالبوابة الصغيرة رقم اثنين، اكتشف أنها فعلاً بوابة منسية، لا أحد حولها، وقبل أن يتوقف رنّ عليها فأجابت بلهفة: «وينك؟» كانت قد دخلت من البوابة الرئيسية، ثم دلفت إلى محل «فافا فووم» قليلاً، قبل أن تخرج وتتسكع، لتمرَّ بقسم العائلات لمقهى ستار بوكس، وتطلب كوبين صغيرين من الكابوتشينو، تسير إلى البهو حيث السلالم المتحركة في المنتصف، ثم تنعطف يميناً جهة السلم الصاعد، لكنها مرت من الأسفل وسارت نحو محل «إتام»، وخرجت من البوابة رقم اثنين، تتهادى بحقيبتها السوداء، تناول منها كوبي ستار بوكس، ثم تحرّك ببطء، وكما المرة السابقة، كان يسمع وجيب قلبها يعلو، سألها عن الزحام الغريب قدّام البوابة الرئيسية، فأجابت: «يمكن علشان اليوم أربعاء»، تجاوزا الدوار الصغير وعادا كي يخرجا من زحمة المركز، منطلقين إلى الطرق السريعة.

قالت له بأنها قبل يومين ذهبت مع أهلها لمناسبة باستراحة في

الشمال، على طريق القصيم، منطقة مخططات واستراحات كبيرة، ومزارع صغيرة، صمتت ثم اقترحت بأن يذهبا هناك، قاد سيارته ومر بمحطة المدينة المنورة، ومقهى المسافر، ومقهى نصف القمر، ثم جاءت كلية اليمامة جهة اليسار، ثم انعطف يميناً من أعلى جسر قوى الأمن، ودخلا في الليل المقمر، كانت أسوار طويلة وعالية بأبواب ضخمة مغلقة، همس: «لو ندخل في أحدها!»، قالت: «لنا كل ها السماء وتدوِّر على جدران!»

بعد أن صعد بسيارته مرتفعاً نحو الشرق، وهبط منه، وجد طريقاً إسفلتيا صغيراً على اليمين، ودخل منه دون أن يتنبه للأسلاك الشائكة والبوابة الحديدية المشرعة! قالت بمزاحها المعتاد: «هذا المكان ما أعرفه، لذلك أنا غير مسؤولة عنه!» قال بوجل: «يعني أرجع؟» فابتسمت وقالت: «لا... واصل!» كان طريقاً إسفلتياً زراعياً ضيقاً جداً، يتسع لسيارة واحدة فقط، على اليسار كانت غرفة صغيرة يتدلى أمام بابها سلك منتهٍ بلمبةٍ صفراء، بجوار الغرفة خيمة بيضاء ودورة مياه من شينكو أبيض، وتقف بجوارها سيارة هايلكس نصف نقل تبدو قديمة ومتهالكة ومتوقفة منذ زمن طويل، بعد مسافة أكثر من كيلو ونصف انتهى الطريق بحاجز ترابي، فكان الطريق الأيمن يفضي إلى باحة ترابية وماكينة زراعية لاستخراج الماء من قلب بئر، وما يشبه الجدران العالية من مكعبات البرسيم الجاف. وبينما كان يسلك الطريق يساراً، انعطف معه، فوجد طريقاً ينعطف يساراً أيضاً وكأنما يعود مرة أخرى إلى الطريق العام، قالت: «أنت راجع للطريق!» قال: «سنقف هنا» ثم وجد معبر سيارات يشق حقل برسيم فدلف منه. أطفأ مصابيح السيارة والمحرك، فساد صمت رهيب، اندفعت نحوه تلتهم وجهه، داعب شفتيها بهدوء، رفع مسند الذراع بينهما، واقترب أكثر منها، ضمها نحوه، وشم عطرها المنتشر في عنقها، دفعته بعد أن كانت يدها اليمنى ممسكة بالمجنون، حررته من قماشه وتناولته، حتى

رأى السماء تهبط خضراء بلون الزرع المحيط، أبعدها برفق، داعب صدرها، وانبثقت حبَّة لوز صغيرة مثل غيمة في سماء صدرها، جذبته وهي تتأوه إلى مقر القدمين تحتها، وتحس مطراً صيفياً ساخناً يسيل، كانا في لحظة حاسمة ملتصقين مثل كبشين مخنوقين في حظيرة، بينما الهلال الناعم يطل مبتسماً عالياً، ورائحة الزرع تتسلل من النوافذ، وزهور البرسيم البنفسجية تدفعها هبة هواء مباغتة، فتقذف برائحة الحقل بينهما، كانت الرائحة أقوى حينما بلغا المنتهى. التقط مناديل ورقية، ثم ناولها العلبة، وفتح الباب ساكباً ماء من قارورة صغيرة.

وقف وقد فتح صدره للهواء الخفيف الناعم، كانت الشاحنات بطيئة ومتوسطة الحركة وهي تعبر بمصابيحها على الطريق، قالت بسخرية: «أعجبتك المزرعة! ترى أنا ما أحب المزارع!» ضحك وهو يسكب آخر قطرة من القارورة: «أي مزرعة؟ قصدك مزرعتك؟» فخجلت وقالت بصوت ممطوط: «يا بايخ!» ثم قال لها بأن السماء هنا لها رائحة، والهلال الذي تغازله نجمة ينتظر أن تجلسي على قرنه كطفلة وتدلِّي قدميك منه! كأنما استوحى هذه الصورة من مكان أو لوحة ما، ضحكت وهي تعلِّق: «شكل الفنان بداخلك اشتغل! عاد هالمشهد ما فيه صباح وضوء ونساء حاصدات بأيديهن المخالب!» صاح فجأة: «طرفة! الحين طلعت فكرة لوحة بديعة! عاشقان يتضاجعان في الحقل تحت سقف فقير من القش! الله وأسميها العاشقين! ما رأيك؟» ثم تذكَّر أنها لوحة للهولندي فان جوخ تصوِّر فترة قيلولة الفلاحين قرب تل من العشب المحصود اليابس.

ركب وسألها: «خلاص؟» كانت تحاول أن تدير عباءتها على الوجهة الصحيحة وهي تدمدم: «شكلي لبست عبايتي غلط!» استدار من جهة بابها، كانت تتطلع نحوه بعينيها الرائعتين بامتنان، تكاد تتسلل منهما

ابتسامة مترددة، قبّل جبينها، وجذبت هي وجهه نحوها، ثم قبلت أنفه!

حرضته على التحرك حتى لا تتأخر على أخيها في السوق، أدار المحرك ثم استدار، وبدلاً من أن يتخذ اليسار ثم اليمين ثم اليمين مستقيماً حتى الغرفة ذات اللمبة الصفراء، فالبوابة التي تفضي إلى الطريق العام، انعطف يميناً حيث فكر أن هذا الطريق يوازي الطريق الذي جاء منه، فلا داع لأن يعود من الطريق ذاته!

سار الطريق بشكل سلس في البداية ثم توقف فجأة وأصبح طريقاً داخل الزرع، يظهر فيه خطان مستقيمان هما أثر السيارات التي تعبر منه، كان الزرع طويلاً شيئاً ما، لكنه غامر وسار بسرعة متوسطة حتى لا يتوقف ويغطس في طين أو رمل، فجأة انتهى حقل الزرع وخرج على أرض وعرة، فلم يتوقف خوفاً من أن تعلق السيارة، ثم اكتشف أنهما سارا في الطريق الخطأ، بعد أن كانت طرفة تستمتع بمغامرته، بدأ القلق يساورها: «فهد ليه ما ترجع للطريق الأول!» قال لها بعد دوران وتيه وخوف: «أعتقد أنني ضيّعته!» أوقف السيارة على أرض صلبة مستوية ونظر نحو الشارع القريب، وسياج الأسلاك الشائكة، وازدادت دقات قلبه، قالت خذ هذا الطريق فنحن جئنا من هنا، كانت تشير نحو الجهة الخطأ، ورغم أنه أدرك خطأ اقتراحها إلا أنه سار حسب كلامها، مقتنعاً بأنها «جوجل» حتى في البر، وفجأة اعترضت طريقه مساحة شاسعة من أرض محروثة، فتوقف فجأة قبل بداية نتوءات الأرض الهائلة الناتجة من إطارات الحرّاثة، ثم وضع ناقل السرعات على الخلف، داس على دواسة البنزين فدارت الإطارات الخلفية دون أن تتحرك السيارة، ضج قلبه بوجل: «غرّزنا!» حاول ثانية أن يدوس أقوى، فغطست السيارة أكثر، نزل وانحنى قرب الإطار الخلفي، لمس التربة فكانت ناعمة كالطحين! اللعنة ماذا يحدث؟

نظر نحو وجهها فبدا ساهماً، لا يعرف هل الخوف عقد لسانها أم

هي ثقة بالخلاص؟ أم كانت تتوقع أن يتهمها بأنها أوقعته في هذا الفخ اللعين! كان يفكر كيف يمكن أن يتخلص منها أولاً، كيف يعيدها إلى السوق وهما الآن في منطقة زراعية نائية محاطة بأسلاك شائكة، ثم كيف يخلِّص سيارته من هذا الشرك! بدأت تدور في رأسه سيناريوهات مرعبة، هل يمشي على قدميه إلى الشارع، فيوقف سيارة ما، فيظهر السائق ملتحياً، ويشك في أمره وهو عالق ليلاً في أرض مهجورة مع فتاة خائفة، ثم يبدي له اهتماماً فيوقف سيارته جانباً، ويقول اسبقني إلى أهلك، سأحضر مسحاة كي نمهد التربة للسيارة، يغافله ويجري مكالمة هامسة، فلا يعرف إن كان يتصل بالشرطة أو برجال الهيئة، وكلاهما فضيحة وورطة كبرى لم يفكر فيها فهد: «سنحفرا» يقول وهو يراقب الطريق: «اللعنة عليه، كان ينتظر سيارة جيمس الهيئة» سيلمح سيارة تؤشر بالنور العالي من بعيد، سيأتي رجلان ويتنحيان بفهد جانباً، يقولان له بهدوء وسكينة: «من التي معك، قل ولا تخف، إن صدقت سنستر عليكما»، فيعترف بأنها صديقته، ثم يحققان معها فتبكي فجأة، آه يا للعينين الرائعتين، كيف سحّ الدمع منكما؟ قاطعت طرفة هواجسه المشؤومة: «أتصل على صديقتي ندى؟ حتى ترسل سواقها؟»

أجاب: «ممكن، على الأقل أقدر أحاول السيارة وحدي وأنا ما أحمل همك معي!» قالت له بعينين ذابلتين: «يعني ما راح تركب معي، أروح مع السواق بروحي؟» أضافت: «ممكن توصلني للسوق ثم تشوف لك أحد يسحب السيارة!» حاول أن يزيح التراب الناعم خلف الإطارات الخلفية، كي يمهد طريقاً للخروج، عاد إلى مقعده وسألها: «اتصلتِ؟» أجابت بحزن ووجوم: «ما ترد!» سأل: «يعني مقفل جوالها؟» قالت وهي تنظر في أفق الأرض المحروثة: «لا، مفتوح بس ما ترد! يمكن نايمة!»

حاول أن يضغط ببطء على دواسة البنزين دون أن يغلق بابه، وأمال

رأسه مراقباً حركة الإطارات، دارت الإطارات وتحركت السيارة مقدار ذراعين فحسب، ثم عادت للدوران في مكانها ونكث التربة الناعمة المغبرة! رنَّ جوال طرفة فجأة فالتقطته، وقد تفاءلت بأن تكون ندى قد انتبهت للمكالمات التي لم يرد عليها، لكن طرفة نظرت بوجوم في الشاشة التي تضيء وتخبو في الظلام ولم تجب المتصل! إذ تأففت: «وش يبي هذا بعد؟» سأل فهد بوجل: «من؟» أجابت: «أيمن أخوي!»

قالت لو عدت إلى السوق ممكن أقول لأخي إنك شقيق لإحدى زميلاتي، وتحتاج إلى مساعدة! ما رأيك؟ تنفس بعمق، وعاد إلى الحفر من جديد، بدأ قلبه يدق أكثر، واغبرَّت ثيابه البيضاء، كان يحفر قرب جحر واسع يلمحه في الظلام، ويسأل نفسه، هل ستخرج فجأة حيَّة ضخمة من هذا الجحر وتلدغني ونحن وحدنا في هذه المنطقة النائية؟ ثم اكتشف بأن المكان كله مليء بالجحور. المدينة كلها جحور في جحور، فلا تعرف أي جحر سيلتهمك في المرة القادمة. ضغط بظفره الطويل دبوس الهواء في الإطارين الخلفيين، فانطلق الهواء، حيث الإطارات ذات الهواء القليل أيسر حركة في الرمل، أدار السيارة إلى الوراء، فسارت مسافة ذراع واحدة ثم بدأت تدور في مكانها: اللعنة ماذا حدث! هل حلَّت لعنة ثريا وهي تشتمه برسائلها المحترقة حسرة، وتهدده بفضيحة فنان يغرر بالنساء! أم هي لعنة أمه التي هرب منها ومن اتصالها، ربما كانت أزمتها الصحية وصلت وضعاً حرجاً، وتحتاج إلى مساعدة.

كأنما كان يواسي نفسه وهو يقول لطرفة للمرة الألف: «كنت خائف من هذي الأرض المحروثة، بجد بقعة ملعونة»، توقف فجأة، لو دخلها فلن يخرج منها إلى الأبد! سألها عن ندى: «ما ردت؟» قالت بلهجة ناعمة وساهمة بوجل: «أرسلت لها رسالة» خلع ثوبه وقد تعرق جسده، قبل

قليل كان جسده يستمتع بجنة من زهور البرسيم، يرى الهلال مبتسماً ولعوباً، الآن أصبح البرسيم مجرد أرض محروثة وقاحلة وخربة، والهلال بدا حاجب شيطان غاضب، ينظر بتشفٍ وسخرية إلى إنسان بسيط أعزل قليل الحيلة يحاول أن يخرج من المأزق، فجأة رن جوالها للمرة الثانية، بينما هو يحفر ويمهد الطريق من الخلف، كان أخوها فلم تجب، حاول فهد أن يزحزح السيارة فاتحاً الباب مراقباً الإطار مردِّدا: «يا رب يا رب!» تحركت السيارة مقدار ذراعين آخرين وغطست من جديد. شعر باليأس يتملكه هذه المرة! رن جوالها فردت وهي تبتسم، قالت لها: «اسمعي، أنا في مكان بعيد خلِّي سواقك يجي من جهة جسر قوى الأمن على طريق القصيم، يدخل من الجسر يمين، ثم يمشي على طول، بيشوف نور السيارة!» أنصتت ثم أجابت: «بعدين أقول لك، ما هو وقته!» كانت ندى تسألها: «ما الذي أوصلك إلى هناك!»

كانت محاولاته قد حرَّكت السيارة إلى الخلف مسافة سبع خطوات، قال لطرفة سأحاول الآن التحرك إلى الأمام، ولو انتشلت السيارة فسأنعطف يميناً وأنطلق. وضع ناقل السرعة على الرقم واحد ثم داس وهو يهزهز المقود يميناً ويساراً ويصيح بلهجة أجنبية، كما في الأفلام: «كام أون! كام أون!» تحركت ببطء ثم اندفعت وأدار عجلة القيادة إلى اليمين، وعاد صوب الطريق منطلقاً بجنون، حتى عثر على حقل البرسيم المحصود، متخذا الصلابة فسار على حافته بهدوء وهو لم يصدق أنهما نجيا من الفخ!

«آه يا حاصداتي البريئات! كم كنتن كريمات وأنتن تحصدن هذا الحقل كي أسير إلى طريق النجاة؟» كان يصيح بصخب، فصاحت طرفة بسخرية رائعة من طريقة كلامه: «ماذا دهاك يا أبا جهل؟» وهي تقلد نطقه بالفصحى، وكأنهما في مسلسل تاريخي بالفصحى!.

- 35 -

لم تكن سيارة الوانيت التي غطست في الرمال قبل ربع قرن، تحديداً في الثلاثين من يوليو 1979م، تشبه سيارة الهيونداي البحرية التي يقودها فهد، وتجاوره حبيبته طرفة، بل كانت تلك سيارة يقودها رجل عصب رأسه بشماغه، كعمامة متسخة ومرقشة بالأبيض والأحمر، وهو يقود بجنون هارباً من حرس الحدود في ظلمة الليل. مرة يطفئ النور ويمشي ببصيرته في الظلام، ومرة يشعل الراكب بجواره كشافاً صغيراً يهديهما إلى الطريق، ولا يسمح للحرس بالاهتداء إلى سيارتهما الداتسون الوانيت نصف النقل. كانا ينتظران طلقات رصاص تأتيهما من الخلف، لكن سطوة الرمل المجنون كانت أسرع من الرصاص، إذ قبضت عليهما، فأخمدا نور السيارة فجأة، وهربا إلى جهتين متضادتين، كان كل منهما يلهث وهو ينتشل قدميه بصعوبة من فخ الرمل الملعون، مضى الراكب إلى مسافة أبعد، وحين سمع صوت محركات سيارات المطاردة، التابعة لحرس الحدود، والمصابيح القوية تطوف في أنحاء الصحراء بحثاً عنهما، لجأ إلى شجيرة رمث صغيرة متمددة، سكن بنبض قلبٍ لاهث، مثل طير أصابت رصاصة بندقية أحد جناحيه، فصار يخفق بجناح وحيد هارباً، وهو ينزف ويتقافز على قائمتيه بحثاً عن ظل شجرة أو حجر يلوذ به عن بصر الصيَّاد.

أوقف الحرس سيارتهم قرب سيارة الوانيت الغاطسة في نعومة الرمل التي تشبه الطحين، كانت أصواتهم في الليل صاخبة، وأعمدة الضوء الكاشفة تتجول مثل عصي مشرعة للجلد، تحرَّكوا في ثلاث مجموعات صوب ثلاث جهات، خلاف الجهة التي جاءوا منها، وبدأت أربعة أعمدة من الضوء تطوف الصحراء كسيوف مشرعة للقتل. كان

الراكب يرتعش وهو يخبئ رأسه تحت الأغصان، كي يبدو مثل شراع مهمل في حمأة القيظ، لكن النور سقط فجأة على عينيه اللامعتين، فزعق أحد الحرس وهو يصيح بصاحبيه: «هذا هو!» فصوَّب مسدسه نحوه، وصاح به لينهض ويديه خلف رقبته، قام منهكاً مترب الوجه وهو يشبك يديه خلف رقبته، تقدم أحدهم إلى خلفه، وتحسس جيبيه، ثم أوثق معصمه الأيسر في كلبش حديدي، وأعقبها باليد اليمنى، ثم ساقه أمامه. لم تمض دقائق أخرى حتى عثروا على الآخر، وأعادوهما وسيارتهما المغطَّاة إلى مركز الرقعي، على الحدود الكويتية، وقد أوقفت مع سبع سيارات أخرى، تخفي في صناديقها نصف النقل، شيئاً مغطى بشراع أخضر موثق بحبال مفتولة حول أسنان معقوفة على جانبي السيارة. وبعد أن تقدَّم مدير المركز الحدودي، ومعه ضابطان، فتحا إحدى السيارات بحذر، بعدما احتجزوا السائقين ومعاونيهم.

كانت أرتال من كتيبات صغيرة بلون زهري، على أغلفتها عنوان: «رسالة الإمارة والبيعة والطاعة، وحكم تلبيس الحكام على طلبة العلم والعامة، والموقف الحق مع الحكام خاصة والناس عامة»، جلس مدير المركز المناوب على مكتبه، وفي يده نسخة من الكتيب الصغير، تصفحه سريعاً، وقرأ بعض الآيات القرآنية والأحاديث القدسية الشريفة، حيث تبدأ بحديث عبادة بن الصامت عن مبايعتهم للنبي (**... وعلى أن نقول الحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم**). ثم قلَّب الصفحات بإبهامه، وقرأ بصوت عال على الضابطين: «**واعلم أن بعض أصحاب المداهنات مع الملوك والحكام يحتجّون بحديث مسلم، حينما سأل رجل فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ قال: (اسمعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم)، وليس لهم في هذا حجة، فإن هذا الحديث - وما في معناه – في مسألة حقوق**

النفس، كاستئثار الحكام بالغنيمة والفيء ونحو ذلك، أما الدين، فليس من حقوق النفس التي يصبر على الأثرة فيها، ولذلك ترى في الحديث أنهم سألوا قالوا: (يمنعونا حقنا)، فأما إذا كان الحق لله، فلا، إذ الواجب الإنكار على من لا يقيم شرع الله عز وجل».

رمى مدير المركز الكتيب على طرف الطاولة: «الله يستر»، قال أحدهما، وأضاف: «هذي والله فتنة»، هزّ المدير رأسه مؤكداً: «شكلها تخطيط على انقلاب»، أما الآخر فقد كان صامتاً، وقد هرب ببصره عنهما، قبل أن يستأذن ويخرج من المكتب.

سبع سيارات محتجزة في المنفذ الحدودي مع الكويت، محمّلة بكميات كبيرة من هذا الكتيبات، كانت قد خرجت من مطابع الطليعة بالكويت، في طريقها إلى مزارع وقرى مغمورة بين الرياض ومكة، ثم تتوزع على أعضاء الجماعة الذين ينثرونها بتوقيت محدد، متفق عليه، في مدن كبرى مثل مكة والرياض والقصيم وحائل وغيرها، حيث يقود سليمان مجموعته الصغيرة، ويوزعهم بنفس قيادي مدرَّب، بل أنه أحياناً يغري بحيويته المفرطة بعض المصلين، ليقوموا بمساعدته ورفاقه بتوزيع المنشورات دون وعي بما تحتوي عليه من تحريض ضد الحكومة والمجتمع الجاهلي، كما يصفونه.

بعد سبع سنوات، تحول سليمان السفيلاوي بقدر غريب، من توزيع المنشورات السرِّية إلى مهنة توزيع الصحف في تلك الشركة الكبرى، التي وجد نفسه فيها، إذ ينكب ملهوفاً على الجرائد، بعد أن بقي محروماً منها في فترة الاعتقال الأولى. كثيراً ما فكَّر أن يكتب ذكرياته وأيامه في المعتقل، كان يظن أن أيامه خلال انضمامه لجماعة السلفية المحتسبة تتفوق على أيام طه حسين، لكن قدرته على الكتابة والوصف والتشبيه

والأسلوب لا تقارن بكبار الكتَّاب، رغم أنه أحب القراءة إلى درجة الإدمان، كأنما كانت ألفية ابن مالك هي الحد الفاصل بين القراءة الممتعة وبين القراءة الإجبارية، هرب من ابن مالك، وانساق بفتنة ومتعة كبيرة مع سيد قطب، والألباني، وحمود التويجري، قبل أن ينصرف بعد خروجه من المعتقل وعمله بشركة توزيع الصحف بالملز، وزواجه ودراسته منتسباً بجامعة الملك عبدالعزيز، إلى قراءات أخرى جديدة، تنوعت بين كتب التراث، مثل «العقد الفريد» و «الحيوان»، و «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء»، وبين الروايات الروسية الكلاسيكية، إذ تسلم روايات دوستويفسكي كلها، «الجريمة والعقاب»، و «الأبله»، و «المراهق»، و «الأخوة كازاماروف»، حيث كانت تنقله إلى عالم آخر بعيداً عن الصراعات المذهبية حول قضية ما.

ظل يقرأ حتى خلال ساعات العمل المكتبي، بعد أن تمت ترقيته، وترك التجوال الميداني إلى الأبد، وفي البيت كان يسرق ساعة بعد مغيب الشمس، لكنه لم يتخلص من ترك كل شيء في يده قبيل الغروب بنصف ساعة، والذهاب عبر طريق العروبة باتجاه الغرب، كأنما يطمئن إلى أن الشمس تذهب إلى مستقرها. كأنما يريد أن يتذكر لحظة شروق الشمس البعيدة في ساحة الجردة، حين أخذوه مخفوراً إلى التحقيق، ومن ثم إلى رحلات طويلة وشائكة من الاعتقال البغيض.

-36 -

طريق الثمامة قبيل الغروب كان مزدحماً إلى حد ما، سيارات باعة الآيسكريم قد انتشرت بشكل ملفت على الجانبين، بينما فهد يسير ويؤلمه قرص الشمس الأصفر، كل شروق أو غروب يمر أمام عينيه يعصر قلبه،

ويذكِّره بأبيه في صباحه الباكر الأخير، ثم يقوده التذكّر إلى عمه وخاله وياسر، يتذكَّر طفولته حين أخذهم عمُّه إلى مزرعة قريبة، كي يتعلموا العوم في بركتها، وكانت عميقة ومظللة برؤوس النخل العالي والشجر الكثيف. قال العم: إن العوم في الماء المظلم يقوِّي قلوبهم الصغيرة، كأنه يقصد بأن يجعل قلوبهم كصخور سوداء، لا تنكسر ولا تغسل الدنيا بالبياض، كلما تذكرهم فهد تمنى أن يسافروا يوماً معاً، ثم تنحرف بهم سيارة العائلة وتنقلب عدة مرات، أو أن تصطدم بجمل سائب يعبر الطريق، فلا يبق منهم أحداً، كم رائع أن يبتهج بموتهم! صحيح أن لا أحد يفرح بموت أحد، حتى موت مَن يسميهم هؤلاء بالكفرة، وأفراد القاعدة ينحرونهم كالشياة، كم كانت لحظة مرعبة حينما فتح مقطع فيديو في موقع إسلامي بالإنترنت، حيث أفراد القاعدة ينحرون رجلاً أجنبياً مذعوراً، لقد أصابه ذلك بالغثيان، وصام عن الأكل أسبوعاً كاملاً، أحياناً يشعر أن من حوله هم أبناء شرعيين للقاعدة، لكن الفارق فقط هو في الفعل، هناك يتدربون ويدمرون العالم الغربي أولاً، ثم يميلون إلى أوطانهم، بحجة موالاة الكفَّار، وفي الرياض والقصيم يؤيدون أفعالهم ويبتهجون بها. مازال فهد يستعيد ذكرى يوم الحادي عشر من سبتمبر، كان في محل البسَّام بشارع العليا يبحث عن جهاز ماكرويف رخيص، وكانت شاشات التلفزيونات مضاءة. وقد لفته تجمّع مجموعة شباب متوسطي العمر واقفين بذهول أمام الشاشة وهم يرون الطائرات المدنية وهي تتفجَّر في برجي التجارة العالمية، كان ثلاثة شباب منهم يصفقون بمرح، اثنان حليقان والثالث بلحية خفيفة، كانوا يصفقون كأنما يتابعون لعبة فيديو، أو فيلماً انتصر فيه الخير على الشر. كان فهد فيما بعد يتذكرهم ويسأل، أين هؤلاء المبتهجون؟ هل هم ممن فجَّروا مجمع المحيا؟ أم مجمع الحمراء؟ أم مبنى الأحوال المدنية بالرياض؟ أم هم الآن

في العراق؟ أم ممن التحقوا بجيش فتح الإسلام شمال لبنان، وسحلت جثثهم في مخيم نهر البارد؟

كم يصيبه الرعب وهو يشعر بأن الناس هنا متأزمون، يعادون كل شيء يدعو إلى التقدم، وقد يستخدم أحدهم القوة لإيقافك، حين تشرح أن التقدم مصير حتمي للأشياء، ثم تتحدث عن أخطائهم منذ رفضهم البرقية والتلغراف والراديو، وقولهم بأنها من أعمال السحر والشعوذة، ثم رفض التلفزيون وتعليم المرأة، وحتى رفض آخر الأشياء كبطاقة المرأة. تجد أحدهم يقفل الحوار لأنك ضعيف الإيمان، وعقيدتك مشكوك فيها، ثم لا يتردَّد بأن يقول أنك علماني وتدعو إلى السفور أو ليبرالي قذر، وقد يزداد قذفه لك بأنك رجل مرتد ويحل قتلك!

ما زال يتذكر برنامج الاتجاه المعاكس، رغم أنه يكره هذا البرنامج المفبرك السخيف، لكنه يتابعه أحياناً. وقد كان سيد القمني الطرف الأول في البرنامج يقول إنه لا توجد ديمقراطية في التاريخ الإسلامي كله، كيف توجد ديمقراطية وإمارة المسلمين تنتقل من خليفة إلى آخر، بخنجر مسموم، أو بشراب السم. بينما كان الطرف الآخر يضع عمامة ويدعى السباعي، منفعلاً كان وهو يشتم القمني، ويصفه ببذاءة بأنه قرد، وأنه مرتد عن الدين، وذلك على الهواء مباشرة أمام الملايين.

بدأ منبه السرعة يدق برتابة وقد تجاوز سرعة المائة والعشرين، فخفف فهد سرعته، ولفت انتباهه عامل مصري على جانب الطريق، يضع طاسات من الكروم مقلوبة على ظهورها فوق لوح أسنده على أربعة براميل، وبجواره حظيرة نوق محاطة بأسلاك شائكة، حيث يقف المتنزهون بجواره، ويدفعون له قيمة طاسة حليب خلفات طازج، فيحلب أمام أعينهم، ثم يكرعون الحليب، حتى تداهم رغوته أنوفهم وشواربهم، ويواصلون السير والواحد منهم يتجشأ وهو يدير شريط أناشيد إسلامية

تتغنى بأمجاد المسلمين الغابرة، وتتغزل بالكلاشينكوف والقبر والجنة.

فكر بأن الصيف قد بدأ، وسيارات باعة الآيسكريم والبليله قد انتشرت، وباعة بطيخ الوادي ورمان الطائف وسكّري القصيم والحليب، وتوزع الناس على جانبي طريق الثمامة، في ساعات متأخرة من الليل، طلباً لنسمة هواء باردة في ليلي نجدي لا مثيل له في العالم على الإطلاق. رن جواله وكانت طرفة وعدته بالانتظار، ظن أنها في «مركز غرناطة»، لكنها قالت إنها ستنتظره في مستوصف:

- «حين تصل شارع الأبراج اتصل وأصف لك»

كان عائداً من استراحة أصدقاء، وقد اتخذ طريق الأبراج متجهاً صوب الجنوب، حيث مستوصف العلم الذي تنتظره فيه طرفة، تجاوزه ثم انعطف في الشارع الداخلي الأيمن كما طلبت، حتى لا ينتبه الواقفون أمام الباب، أو موظف الاستقبال في المستوصف، أنها نزلت من سيارة ما، وهي سيارة أخيها أيمن، وركبت في سيارة أخرى غريبة، أقبلت بجسدها الرقيق الذي لا تستطيع العباءة ستر شهوته، ركبت وانطلقا داخل حي القدس، ثم عاد إلى امتداد طريق الملك عبدالله الشرقي، وحين توقف عند إشارة مكتبة جرير، ووجهه صوب الشرق، أشارت بإصبعها المخبأ عن أنظار السائقين بأن يستدير نحو الغرب، استدار ومر محاذياً لبندة، ثم مكتبة جرير، أخذا الطريق الدائري الشرقي صوب الجنوب، ثم لمحا عدداً من الشقق المفروشة يساراً، في حي القدس والروضة، فاختار إحداها، وأوقف سيارته الهيونداي البحري، عند مدخل الشقق، بينما الناس يملؤون الشارع خارجين من صلاة المغرب، أخرج من درج السيارة ورقة مطوية لعقد نكاح مزور، كان قد دبّره له سعيد ذات يوم: «هذي تستخدمها عند الأزمات!» طالع فيها موظف الاستقبال السوداني، دون أن ينقل عينيه

عن لعبة الورق التي كان يتسلى بها على شاشة الكمبيوتر، قال إن سعر الشقة مئتان وخمسون، ناوله المبلغ، وصار ينقل المعلومات وهو كل لحظة يضغط على الماوس ويحرّك ورقة من الشاشة، كأنما دخل في صراع للظفر بالنتيجة، قال له اذهب وأحضر عفشك، كأنه يريد أن يكمل اللعبة، قال فهد: «ما معي عفش، جئنا حتى نحضر حفل زواج في الرياض فقط» أعاد له صورة العقد، سلّمه مفتاح الشقة، فخرج إلى سيارته، ثم دلفا في المصعد واحتضنها بشبق، وهو يعتذر: «للأسف حبيبتي ما فيه أباجورات في الشقق المفروشة». ضحكت بجذل وهو ينفتح الباب، وتسللا إلى الشقة رقم مائة وواحد. ومثل أي امرأة متطفّلة دلفت المطبخ، وفتحت أبواب الخزائن العلوية، ثم فتحت الثلاجة الفارغة، وتأملت كنب الصالة البنّي الداكن، ثم دلفا معاً إلى غرفة النوم، خلعت عباءتها وظهر كتفاها العاريتان، وابتسمت كعادتها، تلك الابتسامة اللذيذة التي تحمل الخفر والمجون معاً، شعرها كان ناعماً، وصدرها متحفِّز وقد ظهر طرف حاملة الصدر الأسفنجية المغطاة بقماش ساتان أحمر ومشجَّر. باشرت فمه بطريقتها المعتادة، وظلت تلتهم بجوع، وخلعت شماغه وهي تهمس: «كده أحلى!» ثم أطلقت ضحكة مفاجئة وهي ترمي بجسدها على السرير، سأل عن سبب ضحكتها، فأشاحت بوجهها: «ولا شيء!» ثم همَّت بأن تمشّط صدره، فأوقفها وسأل مندهشاً عن سبب ضحكتها المباغتة، وقد تذكَّر ثريا التي قالت عنه حين هجرها بعد أول لقاء، أن شكله يضحِك وهو عارٍ! حين هرب منها إلى الحمّام كان يشبه جرذاً يهرب إلى المجاري!

شعر بنكد مفاجئ، تكدّر مزاجه وهو يلح عليها بأن تخبره عن سبب ضحكتها، فضحكت وأوضحت أنها تخجل من قول السبب! شجَّعها أن تقول وأظهر ابتسامة مفتعلة، وقالت أخشى أن تغضب، فضمها وهو يقبِّل عنقها وشحمة أذنها، هامساً: «كيف أزعل من طرّوفي!»

«صديقتي ندى- قالت- شافت صورة لك في المنتدى جنب لوحة لك في المعرض الجماعي اللي شاركت فيه...» ضحكت طرفة بقوة وقد أغلقت بيدها فمها إذ تردِّد: «ما أقدر ما أقدر يا فهد أرجوك لا تحرجني»

قال لها بنفاد صبر: «يالله عاد احكي!»

قالت طرفة وهي تضحك بأن ندى قالت إن شكله في المنتدى وهو يقف بجوار صاحب الموقع كان يضحِّك! كان بياضه وشعر شاربه الأحمر، وهو لابس شماغ، يشبه الدوافير في دعاية شاي ليبتون! تجهم وجهه قليلاً وضحك مجاملاً، لماذا دافور، مين أين جاء هذا اللقب قديماً، في هذا المجتمع العنصري؟ حين تكون من أحد بلدان الشام يسمونك دافوراً، في المدرسة حين كان صغيراً كانوا يقولون له ذلك، رغم أنه سعودي الأب والمولد والجنسية، والمدرسون في مدرسة الأحنف بن قيس الابتدائية يطلقون عليه: «ولد الأردنية!» كأن لا اسم لديه! حتى صاحب الموقع وهو رجل مثقف كما يفترض، قال له مرة بإنه من أم غير سعودية، قال له بلا مبالاة: «عارف واضح من شعرك الأحمر إنك نصف استواء!» سهر فهد ليلة كاملة يفكِّر بكلمة «نصف استواء»: «اللعنة! هل كان يريد أن يقول إنني لست سعودياً كاملاً؟ لم يتحدَّث عني إذن كما لو كنت لحم مشوي؟ هل كان يقصد أن الشمس لم تشوِ ملامحي جيداً، ألم أتلظَ بقيظ نجد أو الصحراء حتى أصبح أسمر، وبشعر أسود كالليل؟!»

ما زال فهد يتذكَّر حين قرَّر في عطلة الصيف، قبيل بداية الدراسة في الثانوية، بأن يصبغ شعره كاملاً، مما أغضب أمه، وهي تقول أنت منذ كبرت صبغت قلبك بالأسود! كم كرهها تلك اللحظة! حتى وهو يدافع عن موتها المشبوه! بعد موت أبيه، وبيعها ثانية، بواسطة أبيها، برمشيه وحاجبيه الأحمرين، وشاربيه الأحمرين المعقوفين، كشاربي سلفادور

دالي، وشحم لحيته المتهدل حين يستظل بشجر مزرعته في الجبال. إنما يدافع عن موتها ليس حبًّا بها، ولا إنصافاً لحياتها، بل كرهاً بعمه وأبناء عمّه، خاصة ياسر!.

داهمته طرفة وهي تحتضنه وتهمس: «هي غبية أصلاً، ما جربت طعم المجنون الأحمر في فمها، أو وهو يجلدها». كانت يدها السمراء قد ذهبت هناك وصارت تعبث به وهو يتحفز ويتمدد كأفعى، ثم قالت على سبيل المداعبة، إنها تحب حلوى المص، وكانت توزع الحلوى قبل سنة على أطفال ونساء كانوا ضيوفاً في البيت، فسألتها امرأة خمسينية قبل أن تتناول الحلوى من يدها، أجابت طرفة: «هذي حلاوة مص!» ضحكت الخمسينية وهي تقول: «لا الحمد لله أنا عندي بالبيت حلاوة مص خاصة، صحيح أنها سوداء، لكنها ماشية!» كانت تشير إلى زوجها داكن السمرة، بينما غمغمت طرفة: «أنا حلاوة حبيبي حمراء مورِّدة!».

حين ذكرت طرفة اسم عائلتها، وأضافت بأنهم ليسوا من العائلة ذات الاسم، التي تمتلك مركزاً تجارياً ضخماً في الرياض: «ما احنا قبايلة!» هذه الكلمة تعني أنك من خط 110فولت، وليس 220 كما يطلق الناس اختزالاً للقبيلي وغير القبيلي، وكأنها تريحه منذ البداية بأنها لا تلزمه بالتفكير بالزواج مثلاً، كان يقول لها مرة: لا أعرف لماذا الإنسان هنا تحوَّل إلى رقم، حين تشير إلى الخضيري أو غير القبيلي تقول إنه 110 فولت وأحياناً تزداد المبالغة أنه 60 فولت ولا يشعل مجرد لمبة! ويقال عن الجنوبي 07 ربطاً بمفتاح هاتف منطقته، حتى المولد جاء تاريخ ميلاد كثير من جيل أبائنا وما قبله محدداً بيوم 7/1 وكأنما القطيع ولد كله في يوم صدور ميزانية الخير! حتى التقاعد من الوظيفة يرتبط بالتاريخ ذاته 7/1 وكأنما الحكومة كانت تتمنى أن يموت الناس في يوم 7/1 حتى تسهل إجراءات حذفهم من الحياة والعالم!

بعد أن شهقت طرفة، ومجنونه يدلف ويخرج كذب قطبي جائع، مرتاداً بالتناوب كهفين مظلمين، صارت عيناها الواسعتان الجميلتان تتقلبان من اللذة، وكأنما تدخل غيبوبة المتعة الأبدية، وحين صاح بها لاعناً، ممسكاً يده المبتلة، عانقته وهي تهمس بخدر: «أحبك!». وحالما عاد من الحمام فوجئ بشمعتين يهتز ضوؤهما فوق كومودينتي السرير، أبدى دهشته. أجابت بأنها أحضرتهما في حقيبتها اليدوية، تحسباً لشقة مفروشة بلا أباجورة، عانقها وقبّل أنفها اللدن. يذكره أنفها بحلوى قطن، أو حلوى خدود البنات الملوَّن، عريض قليلاً وفيه ليونة كأنما بلا غضروف ولا عظم نهائياً. فتح فهد دولاب الملابس وأخرج علبة سجائره من جيبه، وقبل أن يشعل سيجارة من لهب الشمعة سألها: «ممكن؟» هزت رأسها بغنج، ونفث دخاناً أبيض في حلك الغرفة، فتصاعدت دوائر الدخان مثل جنّيات يرقصن. سألها: «ما سبق دخنتِ؟» أجابت: «دخنت مرتين حين كنت أعمل في المستوصف، زميلتي ندى في الاستقبال مدخنة»، ناولها سيجارته. تردَّدت ثم تناولتها وهي تقول إنها ستجرِّب فقط: «لأنها عقب طعم فمّك!»

قال لها وهي تنفث دخانها: «أحس علاقتك بندى علاقة قوية، لا يكون بينكم علاقة كذا ولا كذا؟» صاحت: «وع! ما أطيق تقرِّب جنبي!» تحدثت عن العلاقات بين البنات، حيث يكون الزحام دائماً على الحمامات في مناسبات الزواج، تجد كل صديقتين تدخلان معاً إلى الحمام، لعشر دقائق أو أكثر، ثم تخرجان مبعثرتين، فتقفان على عجل أمام المرايا وتخرجان من حقائبهن أصابع الشفاه الملونة كي يُعدن صبغ شفاههن من جديد. حتى في الأسواق والمجمعات العامة، يذهبن جهة المصلى، ويدخلن غرف قياس الملابس التي يأخذنها من محلات الملابس الجاهزة، ثم تقضي الفتاة مع صديقتها بعض الوقت، ليخرجن

دائخات وهي يلتحفن عباءاتهن، ويمشين بارتباك ظاهر.

غمز لها: «طيب وأنتِ؟ كيف تعرفين كل هذا وما جربتِ؟» قالت إن لها صديقة أخرى غير ندى، مرة كانت تطلعها على ألبوم صور، وكانت تشير إلى صديقتها بفستان فيروزي، وتقول لها تصدقين أني خلعت لها هذا الفستان بيدي، واكتشفت طراوتها وطعمها!

أضافت طرفة: «تبغى الجد؟ كثيرين يعتقدون أني أنا وندى، بسبب علاقتنا المستمرة من ثماني سنوات.. أن السالفة جنس، خاصة أن ندى بيضاء وناعمة مرة وجسمها صغير، وأنا طبعاً داكنة وأطول منها، دائما يجزمون أنني رجلها، وهي حبيبتي. ما أتخيل نفسي أبداً في علاقة بهذا الشكل!». التف ساقها حوله وبدأت تقبِّله ببطء وتلذّذ، وهي تهمس بهواء فمها الساخن: «كيف أفكر بحريم وأنا عندي مثل حبيبي؟ هاه؟ قل لي كيف؟»

حين يصبحان مثل جمرتين، تقعي مثل قطة أليفة تنتظر ذكرها، وحينها يعلو صوتها شيئاً فشيئاً، حتى أنه أمرها أن تضع المخدَّة في فمها، كانت ممتنة ودائخة بعينيها الواسعتين، المظللتين برموش طويلة، كانت كل فينة تكمّد بأصابعها جفنيها الأسفلين، شاعرةً بألم خفيف فيهما.

بين كل مرة وأخرى كانت تضطجع على جانبها الأيسر، وتتحدث عن صديقها القديم الذي هجرها بعد خمس سنوات. قالت إنه في آخر سنة كان يحاول أن يقنعها بأن تتزوج، بحجة أنه متزوج ومستقر، ومن حقها هي أيضاً أن تتزوج وتستقر وتنجب. كان يخطط لأن يتخلص منها بطريقة مؤدبة، ظاهرها الحرص على مصلحتها، وباطنها التخلص منها. كانت تقول إن صديقتها ندى تقول لها يوماً إنها تتمنى أن تتزوج رجلاً سعودياً لا يخون! كانت معها في سوق صحارى، ووجدت رجلاً وسيماً يلاعب طفلة بالكرة وهو جالس في كرسي استراحة في الباحة، منتظراً زوجته داخل محل أحذية وإكسسوارات، صرخت ندى بفرح: «أبيه!»

وكانت تقصد أنها تريد زوجاً مثله، فسحبتها طرفة من يدها، وهي تقول لها: «وإذا طلع من عندك يا الخبلة وين يروح مثل هذا الحلو؟ كلهم يمثلون يا حبيبتي!»

قال لها فهد: «وأنتن طيب؟ الرجل ما يخون إلا مع امرأة تمنحه الفرصة، ما تعتقدين أن المتزوجات يخنَّ أزواجهن!» فابتسمت وهي تتذكَّر ليلى.

تأففت طرفة وهي تسحب مفرش السرير الأبيض على مؤخرتها العارية، وتخبره عن ليلى التي كانت تدّعي التديّن، وتتصدر المجلس كالدراويش، وتتدخل في ملابس البنات، وكيف كشفت خيانتها، وكيف أنها وأختها علقتا على ليلى وهي تطوف أرجاء الاستراحة بحثاً عن مكان معتم تتابع فيه مكالمتها السرّية عبر الجوال، كانت أختي تشير نحوها وتقول لي بلؤم: «تستشير الداعية!» ثم أطلقت ضحكة عالية.

ضحك فهد وهو يجذب وجهها القمري اللدن نحوه، ويقبّل أنفها وفمها، ثم تتشرنق شفتاها فيه، وهي تستلم وجهه بتأنٍ ومتعة، أرادت أن تزيح الشرشف الأبيض، فمنعها فجأة وقام خارجاً من السرير، ثم نقل إحدى الشمعتين ووضعها بجوار الأخرى، وبدأ ينظر إلى نهديها والضوء المهتز يصفعهما بنعومة، فقد كان الظل رائعاً على جانب وجهها المتكئ على كفها، بينما انثناءات الشرشف، وتموجها بين الضوء والظل، كانت تعطي اللوحة جمالاً أخّاذاً. ضحكت وأسقطت وجهها من على كفها، وهي تقول: «شكلك بترسمني!» أجاب بأنها موضوع رائع للوحة جديدة، كان يتخيل شكلها، وأشكال لوحات لنساء مستلقيات أو مضطجعات، تذكّر لوحة «نساء عاريات» لبابلو بيكاسو، ولوحته الأخرى «امرأة عارية ذات قلادة»

سألها: «نمشي؟» فاستاءت وهي تضحك وتقول بأن أسلوبك غبي، وغير لائق، المرأة هي التي تقول أنها تأخرت، يمكن أن تسأل مثلا: «ما تأخرتِ؟» حتى أفهم بشكل غير مباشر، اعتذر منها بقبلة. قامت ترتدي ملابسها، ودخل هو إلى الحمام ليغسل فمه، فسمع الإمام يقرأ في الركعة الثانية: (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور، وحصِّل ما في الصدور). فكّر فهد للحظة بأن يخرج للصلاة كي يمثِّل على موظف الاستقبال ويخدعه، لكنه لم يفعل. خرج من الحمام وسألها عن اسم قاعة الزواج القديمة على طريق الملك عبدالله، قدَّام قصر العويضة؟ فقالت: «تقصد الملكية؟» هزَّ رأسه شارحاً لها طريقة مقنعة بأن يترك عنده المفتاح حتى لا يعود في الغد بهدف إرجاعه فقط!

وضعت الغطاء على رأسها قبل أن تخرج، ثم أوقفته في الصالة، وقبَّلت رأسه فضحك، وهو يقول لها: «أنتِ أول إنسان يحب رأسي!» رفعت النقاب وجذبت وجهه وقبَّلته ثم أسدلت النقاب، وهي تضحك بجذل وتقول: «مسكت معي بوسة أخيرة!»

كان يتخيل المشهد قبل أن يفتح باب الشقة، الذي ترك عليه المفتاح بعد أن أقفله، تحسباً لأن يفتحه أحد بمفتاح احتياطي من الخارج، كان الحلم الذي سردته عليه قبل قليل قد أصابه برعب، ولم يكشف لها عن خوفه حتى لا يدمِّر مزاجها. قالت له إنها عصر اليوم، قبل موعدهما، كانت نائمة، ورأته مستلقياً على ظهره فوق سرير غرفة تشبه غرفتها، بينما هي جالسة بجواره تداعب وجهه بأصابعها وتتأمله بشغف، وكل فينة تلمح بطرف عينها تحت خزانة الملابس، المرتفعة عن الأرض قليلاً، أذناب ضبان بحراشفها الشوكية، كانت الضبّان متخفية تحت الخزانة، بينما أذنابها المشوَّكة فقط هي التي تظهر لها، كانت تعبث بملامحه وهي خائفة، وتفكِّر كيف تقترح بأن يهربا من الغرفة إلى مكان آخر، دون أن

تخبره بأمر هذه الزواحف البشعة، كي لا تثير هلعه، وفي هذه اللحظة سمعت صوت أخيها خارج الغرفة، فاستيقظت بفزع وهي تنظر نحو خزانة ملابسها، فلم تجد شيئاً.

بينما يدير مفتاح الباب تذكَّر باب الشقة المقابلة 102 ومداس الأحذية أمامها، وقد احتشدت فوقها أكثر من ستة أزواج من الأحذية، هل كان هذا تفسير الحلم، والأحذية هي أذناب الضبان العريضة التي رأتها طرفة، أم أنهم سيكونون رجال الهيئة الملتحين وهم يرتدون مشالحهم الوبرية، وينتظرون خلف الباب، وما أن يفتح حتى يهجموا عليه ويقودونه إلى سيارة الجمس، جاذبين حبيبته خلفه بينما هي تبكي وتتوسل، فينهرها أحدهم: «أسكتي يا فاجرة!» ثم يسجلون ضده خلوة غير شرعية في مقر الهيئة في الروضة، ويحولونه إلى الشرطة.

فتح الباب بهدوء ووجل، وكان مداس الأحذية خالياً تماماً، حيث خرج نزلاء الشقة، نزلا بهدوء في المصعد، وقادها إلى السيارة ثم عاد إلى السوداني وسأله بخبث: «تعرف قاعة الملكية للاحتفالات؟» هزَّ السوداني رأسه معتذراً. قال له: «قالوا لي أنها على طريق الملك عبدالله؟ تعرف كيف أروح له؟» قال له: «أطلع من هنا، وخذ يمين بطريق الخدمة على الدائري، ثم خذ يسارا من الإشارة عند مخرج عشرة، تصل إلى طريق الملك عبد الله».

أعطاه مفتاحاً، كنزاً سرياً، كي يصل إلى خاتمة الحوار كما خطط له: «طيب حلو، إحنا رايحين زواج، وطالما أن القاعة قريبة من طريق القصيم، يمكن لو خرجنا بدري من هنا، نسافر مباشرة إلى المجمعة. خذ المفتاح معك، ولو ما رجعنا لحد الساعة ثنتين ممكن تتصرف بالشقة». تسلم المفتاح بامتنان، وقال بأنه سيبقيها له حتى الغد إن أراد.

قالت طرفة بأنها لن تعود إلى المستوصف لأنه أغلق أبوابه منذ نصف ساعة، ولن تذهب إلى مركز «لي مول» ولا «غرناطة»، واختارت سوق صحارى عند تقاطع الملك عبدالعزيز مع الملك عبدالله. سار في طريق الملك عبدالله صوب الغرب، وقد كان شريطها يصدح ممطوطاً بالأغنية التي تحبها: «حبيبي يا بعد كلي، أنا مشتاق لعيونك» وكانت تهز رأسها نحو الأمام بطرب هادئ، بعد أن اجتاز الإشارة، دخل يميناً بحي الملك فهد، ثم استدار خلف السوق، وتوقف عند المدخل الرئيس، نزلت طرفة وقد ودعته، ومضى فاتحاً نوافذ السيارة متنفساً هواء ساخناً مختلطاً بهواء المكيف البارد.

قالت له في اليوم التالي، إن بدوياً غازلها حين نزلت، وأخذ يردد أمام حارس الأمن: واثق الخطوة يمشي حلواً. كان لا يتذكر كلمة: ملَكاً، فاستبدلها بكلمة: حلواً. كانت ثريا قد قالت له قبل ذلك إن سائق الليموزين السعودي الذي ركبت معه بعدما تركها فهد عند المشغل قد ناولها بطاقة اسمه وهاتفه، وعرض عليها خدماته، هل هنَّ صادقات؟ أم يدعين ويحلمن دائماً أن تثير أنوثتهن شبق الرجل وشهوته. يمكن أن يكن صادقات، فالرجال هنا مهووسون بالشهوة، ويبحثون عن النساء بكل السبل، بينما كثير منهن قد عشن طفولة معذبة، ومشوهة إلى حد مؤلم، طفولة محمولة على أرجوحة عنف وقمع، وإيذاء نفسي وجسدي، نهى الصغيرة المحفوفة بجيش وأم تحصي أنفاسها حتى وهي نائمة، وثريا التي قضت حياتها مع زوج مهمل وقذر، وطرفة التي كانت شقيَّة وهي تقاوم تمييز شقيقاتها عنها.

-37-

طفولة طرفة كانت معذبة، وصاخبة جداً!

من اسمها الذي كان قرباناً للجدة الراحلة، إلى أيامها الكئيبة. ففي المتوسطة السادسة والعشرين بحي السويدي، وفي فصل «ثاني ثالث»، وقفت ذات ضحى المراقبة العملاقة حليمة الأفريقية عند باب الفصل وطلبت طرفة، أشارت مدرسة القواعد الواقفة أمام السبورة نحوها، آذنة لها بالخروج إلى مكتب المديرة، حينما تسللت طرفة مذعورة خارج طاولتها، استدركت حليمة الأفريقية قائلة: «هاتي شنطتك معك!» تجمدت المراهقة طرفة، سحبت الحقيبة بنزق وخرجت وهي تميل رأسها يساراً، في الممر المؤدي إلى مكتب المديرة قالت لها المراقبة حليمة: «طرفة أبوك ينتظرك عند الباب!»

صاحت طرفة وقد جذبت يد المراقبة لتوقفها:

- أهلي فيهم شيء؟
- لا، أنتِ مفصولة!
- ليه؟
- يعني ما تعرفين؟

في وقت الفسحة جاء شيخ كي يلقي محاضرة دينية على الطالبات، جلس في غرفة حارس المدرسة، وتناول المايكروفون وبدأ يتحدث إلى الطالبات الصغيرات اللاتي تجمعن في صفوف مرتبة في الساحة، كانت طرفة متمردة وقيادية، تسيطر على مجموعة تلميذات مكونة من أماني وأمل وجواهر، وقد جلسن بجوار بعضهن بعضا خلال المحاضرة، فبدأت طرفة تسخر من كلام الشيخ بتحريك يديها وهز رأسها متسائلة، كما لو

كانت صورة معبّرة عن الشيخ المحجوب عنهن داخل جدران غرفة الحارس، بينما صديقاتها يكدن أن يهلكن من الضحك وقد غمرن وجوههن في أحضانهن. جاءت المديرة التي تقف على حافة الساحة، وأشارت بالعصا تدعو طرفة، فقامت وطلبت منها بحركة أن تجلس على طرف الصف، وبعد انتهاء المحاضرة وتفرق التلميذات على فصولهن، ذهبت طرفة إلى غرفة المديرة التي لم تجلس بعد في مكتبها، سألتها طرفة بجرأة:

- ليه أنا ينقل مكاني في المحاضرة، كلهم كانوا يضحكون!
- صحيح، لكن نقل واحدة يكفي، بعدين أنتِ سبب الفوضى. وبعدك كل شيء هدأ.
- أو يمكن هم عندهم واسطات، إما مدرّسة ولا مراقبة ولا... «كانت تلمّح إلى أماني التي تعمل أختها معلمة رياضيات في المدرسة»
- بس بلا قلة أدب! «قاطعتها بغضب وهي تهددها بالعصا»
- أنا مو قليلة أدب!
- أقول ابعدي عن وجهي لأجلدك! «دفعتها المديرة»
- قلة أدب! «أمالت طرفة فمها باستهجان»
- تعالي هنا يا بنت الكلب! «صاحت بها المديرة قبل أن تبتعد»

استدارت طرفة نحو المديرة بعينين تقدحان شررا وسخطاً ويدين ترتعشان غضباً، ثم بصقت تجاهها بحنق، وهي تصيح تجاهها: «أنتِ بنت الكلب!»

حررت المديرة فوراً فصلها فصلاً تأديبياً لمدة ثلاثة أيام، ثم اتصلت بأبيها وطلبت منه أن يأتي فوراً، كي يتسلم ابنته المفصولة بسبب سوء سلوكها، وحين اصطحبت المراقبة طرفة نحو باب الخروج من المدرسة،

توسلت طرفة أن تسمح لها بأن تعتذر من المديرة، لعلها تتراجع في كلامها، فقالت المراقبة وهي تطرق باب الحديد الخارجي كي يفتح الحارس الباب: «المديرة أصدرت قرارا، وتم توقيعه ورفعه» ثم نظرت نحوها باستعلاء وقسوة: «خلك تتأدبين مرة ثانية!»

خرجت طرفة ذات الأربعة عشر ربيعاً وهي تتعثر بعباءتها، تحمل حقيبتها وورقة فصلها، أخذها أبوها بينما كانت أمها في المستشفى وقد أنجبت فجراً أختها الصغرى إلهام، وما أن وصل إلى البيت حتى سحبها مثل بهيمة ثم انهال عليها ضرباً دون أن يعرف السبب، كان يلهث ويضرب ويصيح: «تبغين تفضحينا عند الناس، الله يهلكك آمين!» بعدما تركها مدعوكة بعباءتها المغبرة وخرج مقفلا باب المنزل، بكت طرفة بصوت عالٍ، وصاحت تولول وحدها داخل البيت: «الله يلعنك، جعلك للموت آمين، يا رب جعلي أموت وأفتك من عيشتكم!» كرهت أباها كثيراً، وكرهت العيش معه، كانت تتألم لأنها بصقت على المديرة القذرة لأجله فقط، كانت تدافع عن أبيها حين وصفته المديرة بالكلب! بعد أن هدأت طرفة وصحت من نوم العصر بأكمله، قالت لنفسها وهي أمام المرآة: «صادقة المديرة أنا بنت كلب!»، وأضافت بعد تنهيدة: «أبوي كلب وستين كلب!»

كانوا يعلمونهن في المحاضرات أن المعاكسات أمر خطير، ومن أعظم الذنوب، في الدنيا خزي، وفي الآخرة عذاب عظيم، ولهذا الحديث وقع كبير على النفس، إن مجرد تفكير التلميذة بهذا الأمر، أي أن تتحدث مع شاب، كان يصيبها ليس الخوف فحسب، بل الرعب والارتعاش، لكن طرفة بعد ذلك اليوم تمنت لو أنها تستطيع أن تفعل ذلك، فقط عناداً لأبيها، لكنها لم تكن بحاجة إلى رجل، ولا إلى أنثى، بل تريد أن تحكي وتستفيض

حتى لو للمرآة، كي توقف القهر الذي بدأ يأكل أطراف يديها الجميلتين.

لم يكن أبوها مطمئناً تجاهها، دائماً يشعر بالقلق إزاء شقائها وتمردها، فلم تكن مثل بناته الأخريات، هادئات وباردات تماماً، بل كان في داخلها حريق مكبوت، تحب الناس وتختلط بهم وتقيم صداقات مع كل الطالبات، الكل يعرفها بشغبها وطرافتها، بينما لا تحس الطالبات بوجود أخواتها في مدارسهن، كم كانت لحظة محرجة للأب وقد دخل التلفون في بيتهم بالسويدي، حيث عاش البيت بأكمله أزمة صعبة، فلا أحد يجيب على الرنين سواه، أو الأم حينما يكون غائباً عن البيت، وحين يعرف اسم المتصل ويناول إحدى البنات السماعة، يبقى بقربها متنصتا. لم يعرفن لم كل هذا القلق تجاه التلفون، كانت طرفة أكثرهن نقمة عليه وعلى أمها، فكم كانت ترغب عند أول رنّة هاتف، أن تقفز وتجيب المتصل. لا يشفع للصغيرة طرفة عنده سوى تميزها ونجاحها بتفوق كل سنة، ورغم أنه يفرح لذلك، وأنه لم يخشَ عليها من شلة صديقاتها في الابتدائي، حيث مدرستهن القريبة المستأجرة، التي تدرس فيها بنات الجيران الذين يعرفهم جيداً، ومعظمهن قرويات جئن من قرى الرياض المحيطة، سدير وحريملاء وثادق، أو من حارات قديمة كالشميسي القديم والسبالة وأم سليم والجرّادية، إلا أنه أصيب بقلق حين أراد تسجيلها في المتوسطة السادسة والعشرين، التي كانت مبنى حكوميا جيدا، ضمن مجمع يضم المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية. طالبات المجمع مختلفات تماماً عن مدرستها الابتدائية المؤجرة، كنّ جريئات كثيراً، الأمر الذي جعل طرفة تتخلّص تدريجياً من صديقاتها القرويات، وتتوسع في علاقاتها، حتى تقود شلة صغيرة. أصبحت هي القيادية وصاحبة المهمات الصعبة، كانت تسمع حكايات علاقات البنات الصغيرات مع شباب، فتصاب بدهشة، وتتمنى أن تفعل مثلهن، وترى طالبات الثانوي بلباسهن

وميوعتهن وحركاتهن المكشوفة، وحين تعود إلى المنزل تصطدم برفض أمها لطلباتها العادية:

«أمي ودِّي أقص شعري!»

«أمي كل زميلاتي يصبغن شعورهن!»

لكن الأم التي ترفض وترفض حتى يصيبها الملل، فتفكِّر بأن تخرسها. لتطلب منها أن تستأذن من أبيها، فتوقف طرفة طلباتها فوراً. هذا قد يهون، لكن الأمر الشاق هو كيف تفاتح أباها بطلبات المعلمات، لأنه سيواجهها بالسبِّ والشتم، حتى صممت على التخلص من لعناته، بأن تجعل أختها الكبرى أسماء تطلب منه نيابة عنها، فيستجيب فوراً.

كانت طرفة تكرههم، بدءاً من اسمها الذي أُطلق عليها تخليداً لاسم الجدَّة، أما أخواتها، أسماء وأمل وأحلام وإلهام، أسماؤهن تبدأ بالألف، وكلها أسماء حديثة وجميلة، بينما اسمها كان مثل وصمة عار بينهن، لماذا طرفة: «العن جدتي على أبو جدتي!» كانت تقول حين تبلغ سكرة حنقها أقصاها، ثم تضيف: «كل أسمائهن بحرف الألف، والحرف شكله شموخ وثقة، أما حرفي الطاء تحس شكله مطوي ومنكفئ، يمكن يشبه كلمة طز!»، كأن ولادتها على هذا الكوكب طرفة ونكتة تجلب الضحك، وهم يقولون «يكفيك فخراً أن اسمك على جدتك، تخلدين ذكراها»، فتبكي: «يلعنها، ويلعن ذكراها، يعني من تكون؟ الليدي ديانا على غفلة؟»

يحيط البكاء بحياة طرفة، رغم أنها تظهر أمام أخواتها بصورة قوية ومتماسكة، كم كانت فكرة الهرب تسيطر عليها في مراهقتها، لكن تهرب! إلى أين؟ كما أن الفكرة مجنونة وصعبة جداً، ولعل فكرة الهرب هي سيدة أحلام اليقظة، ففي الليل كانت آخر من ينام في البيت، حتى أصابتها عادة غريبة، فهي تذهب إلى باب البيت المطل على الشارع، وتفتحه، ثم تنظر

يميناً ويساراً، وغالباً تحدِّق جهة اليسار؛ لأن الشارع كان ممتداً أكثر، وفي آخره انعطافة غامضة، هكذا بقيت لليال تفتح الباب وتنظر جهة اليسار، كأنها تنتظر أحداً، أو تنتظر شيئاً ما، حتى شعرت ذات ليلة بنعل زبيري حاد يسقط فوق رأسها، ثم كفّ ثقيل يدير وجهها، وركل عنيف على جسدها، كان أبوها يضربها، ويشتمها وهو يعض لسانه، كان يكتم صوته خشية أن يصحو أهل البيت، أو مداراة للفضيحة. هرولت إلى فراشها ودخلت تحت البطانية وهي تغرس طرفها في فمها كي لا يظهر صوت بكائها، لحق بها ووقف أمام جسدها المكفّن بالبطانية، ثم ركل قدمها: «ابلعيها، مفهوم؟»

بلعتها وصمتت طرفة، وفي الصباح جاء وأوقظها كعادته، بركلة مباغتة من قدمه، كلما تذكرت طرفة تلك اللحظات البعيدة، تسأل نفسها: «لماذا كنت أقف هناك عند الباب؟ ولو كانت شكوكه صحيحة بأنني أنتظر أحداً، لماذا لم يسألني من؟». بعد يومين كان يلمّح إلى الحادثة، دون أن يخبر الأم، لكنه يلح عليها بأن تنتبه، وتضيّق على طرفة الخناق، إلى حد أنه حين يجلس ليرتشف قهوة المغرب، فلا يرى طرفة أمامه، يرسل أمل أو أحلام كي يبحثن عنها، ويخبرنه ماذا تفعل.

أحياناً كانت تنظر إلى جارهم وهو يقف أمام باب منزله، ويمسح على رأس ابنه الصغير أمامه، أو يجلسه في حضنه رغم أنه كبير، وأحياناً يمسك بيده، ويلاعبه ويضحك معه، كلما رأت ذلك تضحك أو تستهجن فعلهما، فقد تعلمت من أبيها وأمها أن المسح على الرأس عيب، حتى هذا يدخل في أمور التحرش ومناوشة البنات، ولو كان من الأب ذاته.

والآن وقد كبرت، وبعد اختفاء زوجها الثاني، ونومها مع ابنتها الوحيدة سارة، لا تزال تشعر كلما تنبهت صباحاً، وهي لم تزل مستلقية

في السرير، أن ثمّة قدم ستركلها بعد هنيهة، حتى بعد موت أبيها بعشر سنين كاملة.

كم كان الأب حنوناً وضحوكاً مع بنات أخيه، كم تحترق طرفة حين تراه يضحك ويمزح مع ابنة عمها مها، حتى أن مها هذه كانت تتمنى أن الله أطال عمره بدلاً من أبيها، فتردد طرفة في سرِّها: «ليت الله أخذك معه!»

- 38 -

ليت الله أخذني مع أبي!

هكذا ردد فهد مرات عدة، خلال حزنه الطويل في الأسبوع الأول من غياب أبيه تحت تربة مقبرة النسيم، وعند زواج أمه، رغم أنفه، من عمه الذي لا يطيقه، وعند اكتشاف موت أمه تحت التعذيب، وأخيراً في غرفة التوقيف بمبنى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين أصبح أضحوكة بين أفواه الرجال الملتحين، الذين أدخلوه إلى غرفة تحقيق صغيرة: الرجل ذو العينين النسريتين، ومعه رجل مفتول العضلات ضحوك وساخر، وثالث عاري الرأس ويظهر صلع خفيف في مقدمة رأسه.

أجلسوه على كرسي بعيد، ونثر ذو العينين النسريتين أغراضه، بأن قلب الكيس حتى تساقطت الأشياء تباعاً، محفظته التي تلقاها هدية من طرفة، وعليها شعار شركة جيفنتشي، وقلم رخيص، وجوال نوكيا الجيل الثالث، وأوراق متنوعة عبارة عن فواتير أغراض رسم من مكتبة المكتبة، وميدالية مفاتيح على شكل فيل فضي صغير، معلّق فيها مفتاح سيارة الهيونداي البحري ومفتاح شقة سعيد، ومفتاحين للبابين الخارجي والداخلي لبيتهم في العليا، ومسبحة من نوى الزيتون منضدة بشكل بدائي، سأل الرجل الأصلع بسخرية:

- ما شاء الله كل هذي في جيوبك؟
- نعم يا شيخ.
- الأخ سعودي؟ «سأل وهو يتفحَّص ملامحه»
- طبعاً! قدّامك بطاقة الأحوال!
- عارف، أشوفها، لكن شكلك غريب!
- يمكن أمك غير سعودية! «قال المفتول العضلات ذو الوجه الضخم»
- نعم، من عائلة أردنية.
- يعني مهجّن؟
-
- نصف سعودي! «قال ذلك ضاحكاً برعونة»

قال الأصلع فيما يشبه الغمغمة، وهو يتفحص الأوراق والفواتير: «يعني نصف رجل!»

شعر بغصة وحشرجة بكاء في حلقة، فبرغم أوراقه وبطاقته ومولده وعائلته ولهجته، يبقى إنساناً غير مكتمل في نظر أناس هذا البلد، منذ همسات المدرسين في ابتدائية الأحنف بن قيس تجاهه، وحتى استهجان زملاء المتوسطة حين يتسلم الكرة في ملعب المدرسة، وهم يصيحون: «ناول أبو شكيم»، وفي هذه اللحظة التي بقي فيها محتجزاً بين هؤلاء الثلاثة، نظر أحدهم في بطاقة أحواله:

- من أيّ السفيلاوي؟
- من القصيم.

نظر الأصلع نحوه متشكِكاً:

- من وين في القصيم؟

- أهلي من المريدسية.
- تعرف أبو أيوب؟
- الشيخ صالح. «شرح ذو العينين النسريتين»
- عمّي! وكاد أن يضيف: وزوج أمي! لكنه شعر بغصة فسكت.
- والنعم. قال ذو العينين النسريتين، ثم أضاف بصلف: فيه، ما هو فيك.

قال مفتول العضلات ذو الوجه الضخم: «أما أنت والتبن!»

سحب الأصلع الذي بدأت تظهر حبيبات عرق في صلعه الأمامي قلماً من جيبه، وركز سن القلم تحت خيط المسبحة، بين نواتي زيتون متباعدتين، ثم رفعها نحو أنفه، وشمَّ بحذر وعيناه ترمشان بسرعة وقلق، ثم تحرَّك بها ببطء نحو ذي العينين النسريتين، وقرَّبها من أنفه، فشمَّ الآخر مرتين، ثم أبعد رأسه، وعاد ثانية، وشمَّ من جديد، وقد رفع حاجبيه، ثم حرَّكها ببطء من جديد نحو الرجل المفتول العضلات، وقرَّبها من أنفه، وسأل:

- ما هذه؟
- سبحة!
- ليه ملوَّنة مثل شغل الأفارقة؟

بعد أن صمت فهد قليلاً:

- أنا لوّنتها، أنا رسَّام.

رفع الأصلع عينيه ببطء نحوه:

- ترسم أوادم؟
- كل شيء! وكاد أن يضف: حتى الأجساد العارية.

دخل عامل اندونيسي يحمل حافظتي شاي وقهوة، ووضعهما على طاولة في طرف الغرفة، ثم سكب قهوة للثلاثة، وبعد أن وضع الأصلع

المسبحة داخل مظروف صغير، قام وسكب قطرات قهوة على إبهامه، خشية أن يبلل إبهامه بلسانه بعدما لمس المسبحة فينتقل السحر إلى فمه، ثم إلى جوفه فيموت، ثم مسح بإبهامه المبتل بالقهوة طرف المظروف اللزج، وأغلقه بإحكام.

همس المفتول العضلات في أذنه بضع كلمات، وهزَّ الآخر رأسه موافقاً، بينما الرجل ذو العينين النسريتين، لم يسمع ذلك، إلا أنه فهم الرسالة السريَّة، فهز رأسه أيضاً موافقاً على تخمينهما.

بقي فهد ينظر تجاههم بقلق، وتذكّر أنه قرأ في الصحف قبل عام، عن حادثة الساحرة التي رآها رجال الهيئة، وهي تطير فوق مكنسة، هاربة من شقة تمت مداهمتها، وقد عثروا على مسابح وطلاسم وتعاويذ:

جريدة عكاظ: 29 مايو 2006 م

القبض على ساحرة المدينة وضبط وكر المشعوذات

فوجئ رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى مداهمتهم احد أوكار السحر والشعوذة بحي أرض محبت المجاور لحي السيح بالمدينة المنورة يضم اكثر من 20 امرأة بساحرة افريقية عارية كما ولدتها أمها وذلك صباح أمس الأحد.

المفاجاة الحقيقية ليس في رفضها قبول بطانية القيت عليها لستر عورتها، لكنها طارت كعصفور من الغرفة لتختفي تماما من الشقة وسط ذهول أكثر من 20 شخصاً من افراد الهيئة.

هبوط مرعب:

عند هذا الحد، فقد انطلق رجال الهيئة يبحثون عن الساحرة في الأدوار العلوية والسفلية للعمارة المكونة من اربعة طوابق، حيث اختفت المشعوذة في الدور الثاني وخلال بحثهم فوجئوا باحد المواطنين وهو بملابس النوم يستغيث وأطفاله من خلفه طالبا النجدة من المواطنين، وافاد المواطن بان امراة افريقية عارية سقطت من سقف الغرفة لتستقر وسط اطفاله وهم نائمون الأمر الذي اثار ذعرهم وطفقوا يصرخون بصوت عال، واضاف أنه عندما ذهبت لاستطلاع الوضع في الغرفة ابلغني

المطـاردة الماراثونيـة للـساحرة لـم تنته

من الساحرة خرجنا جميعـا مـن الـشقة هاربين.

صائدو المشعوذات:

عنـدها قـام رجـال الهيئـة بالـصعود إلـى الدور الرابع، حيـث وجـدوا الـساحرة فـي شقة المواطن وهي عارية تماما فرفعـوا أصواتهم بالأذان و «آيـة الكرسـي» حتـى شلت حركتها، وقام احـد أعـضاء الهيئـة برمي قماش على جـسدها لـستر عورتهـا إلى حين إحضار ملابسها، وعندما ارتدت

أبنائي بما شاهدوه من منظر غريب وبعد تأكدي ملابسها تم القبض عليها. وأوضح مصدر في الهيئة أن عملية القبض على الساحرة ومعاوناتها تمت بقيـادة الـشيخ فهيد العوفي رئـيس مركـز هيئـة الحـرة الغربيـة. وقـد عثـر مـع الـساحرة فـي غرفتهـا علـى مبـاخر ومـسابح وطلاسـم وأوراق شـعوذة وغـرز وأشـرطة فيـديو لتعلـيم الـسحر وربـاط حـزام لمريـول طالبات الابتدائية مما يفيـد بـأن إحـدى الطالبات جـرى سـحرها كمـا عثـر علـى مصحف تحت مقعدها.

الجزء الخامس

حقيبة سوداء قديمة

«الممثلون أطفال مُفسَدون نحن أفسدناهم،
وذلك بسبب لحظة الامتياز التي تتسلط فيها الأضواء
عليهم على الأقل».

فدريكو فيلليني: أنا فيلليني

-39 -

خفّف القطار سرعته، وبدأت لافتات مسمى بلدة «نيوماركت» تمرّ أمامه، حتى توقف تماما لمدة ثلاث دقائق، تململت خلالها العجوز أمامه، وقد بدا النعاس على عينيها الصغيرتين. دخلت فتاة شقراء تلبس تي شيرت زيتي وجينز، وتضع قرطاً صغيرا في شفتها السفلى. وضعت حقيبتها الخفيفة على الرف، ثم جلست على مقعد الطاولة المجاورة لفهد، وأخرجت علكا وضعته في فمها، وانهمكت في ملاحقة شخصيات رواية «عدّاء الطائرة الورقية» لخالد حسيني. فتح فهد حقيبته حين تحرّك القطار، وفكّر أن يتسلّى برسم «اسكتش» لفتاة تقرأ كتابا في عربة قطار.

في الأشهر الأولى لرحيل أبيه، كان اكتشف طريقة الرسم بالباستيل، وظل مخلصاً له شهوراً عدة، فلم يكن آنذاك يستخدم حاملاً للوحة. كان يغلق باب الغرفة، ثم يفتح علبة ألوان مدرَّجة، يجلس على الطاولة، وينهمك بجنون دافعاً الأقلام في كل اتجاه من الورقة، بل أحياناً يشعر أن الأقلام هي التي تتحرَّك كجنيَّات الليل، حيث يقدن يده في الأنحاء: ها هنا طريق طويل مظلم بغيم أسود، وهنا شجرة بريَّة وحيدة، وهناك عربة

قديمة منكوبة، وسرب من غربان يحلِّق في رأس الصفحة. ثم يترك القلم ويدمج لون طرف الطريق البعيد مع السماء المظلمة بإبهامه، فيتداخل الأفق، تتلوَّن أصابعه حتى تكاد تصبح ألواناً، فلا يميّز إن كانت سبابته صارت قلماً، أم أن القلم صار سبّابة. يرسم بحماس، ويشعر أنه يلهث وهو يجر الأقلام ويدفعها. كان ينعس قبيل الفجر، فيرتخي رأسه الثقيل فوق الورقة، وعند الضحى يتنبّه وقد سال لعابه فوق الورقة متخذاً جسداً طولياً يشبه جسداً دخانياً لجنيَّة، جسداً تشكَّل من العربة القديمة المنكوبة.

بعدما ترك الرسم بأقلام الرصاص، وأقلام الباستيل، مدمناً ألوان الزيت والفرش وحامل اللوحة، وحاملة الألوان، ها هو يرسم بالقلم حين يجلس في مقهى «تي آند كوفي بوت» أمام كارفور في مركز غرناطة التجاري، وقد اختار طاولة لصق الزجاج المغطى بلاصق مضبَّب يستر الجالس في الداخل عن حركة السوق، اختار مقعداً ممزقاً حاجبه الزجاجي بطريقة عشوائية، تاركاً مساحة شفافة تسمح له بالتلصص على المتسكعات. طلب قهوة تركية وماء، ثم أخرج ورقة من جيبه وقلم رصاص مقاس نصف ملم، وبدأ يرصد المشهد من وراء الزجاج، نساء يلبسن عباءات لا تخفي تسلل بنطلونات الجينز، وبعضهن تدفع عربة فارغة، أو يتمدد داخلها طفل لاه وهو يمسك خيط بالون منفوخ بهواء النيتروجين، بعضهن تقود خلفها خادمة اندونيسية تدفع العربة، بعضهن تجمهرن محفوفات بالصغار المشاغبين عند ماكينة صراف سامبا. فجأة وضع الفلبيني ركوة قهوة نحاسية صغيرة فوق الطاولة، وبينما أمسك فهد بمقبض الركوة كي يسكب القهوة الثقيلة، كان الفلبيني يتأمل الورقة، ويقول بأنها جميلة، شكره وبدأ يرتشف من فنجانه الخزفي الأخضر، ويحدِّق في ما صنعت يداه.

توقفت عند دوار البوابة رقم أربعة سيارة صغيرة، ونزلت تمشي

بهدوء وثقة، وهي تتأمل السائقين الجالسين على زرع أخضر في مربعات الحدائق الصغيرة قرب مكتب الأمن، دلفت من باب كارفور وهي تتأمل المحلات التي تدرك ترتيبها جيداً على يسارها، وعلى اليمين تظهر بوابات كارفور المفتوحة، ورجال الأمن بملابسهم الكابية وهم يثرثرون بين المتجولين، مرَّت بجوار النساء المتجمهرات قرب ماكينة صراف بنك سامبا، ونظرت تجاه المقهى، سارت أماماً كي تصل إلى البهو الواسع قرب السلالم الكهربائية، ثم تعود كي يسهل عليها النظر من باب المقهى الرجالي المشرع، كي تفتش عن فهد، لم ترغب أن تتصل به، تريد أن تقبض عليه في لحظة سهو وغفلة، مرَّت ورأته منهمكاً يدمج بإبهامه ألوان قلم الرصاص، ثم انعطفت يميناً واقتربت من فتحة الزجاج المكشوفة، وقرعت بخاتمها بغتة، التفت فهد ناحية الزجاج، بينما ابتعدت قليلاً، ولم يلمح غير عينيها المبتسمتين خلف نقابها.

سريعاً أفرغ قارورة الماء الصغيرة في جوفه، وخرج مصحوباً بنغمة الرسائل من جواله، فتحت الرسالة الواردة: احذر العبارات التالية إذا كانت صادرة من واحد أكبر منك:

1- تعال نصيد طيور.
2- تبي أعلمك مصارعة؟
3- إيش رأيك نطلع فوق السطح نشوف الحمام؟
4- تبي أعلمك السواقة؟
5- تعال ندور جرابيع في البر.
6- اليوم عازمك على حسابي.
7- تعال ندف الدولاب.
8- تعال أوريك ألبوم الطوابع.

9- تعال نسهر على فيلم فيديو.

10- تعال نشوف الوزغة كيف ترضع عيالها.

مع تحيات لجنة مكافحة اللواط بالقصيم

أغمض فهد لوهلة وتنهّد، وهو يمسك بيد طرفة لدقائق، ثم يرخيها وهما يخترقان الممر الواسع للسوق، سائرين بجوار كارفور، لاحظت أن مزاجه قد تعكّرً قليلاً، فسألته عن السبب، لكنه أخبرها أن لا شيء، وسألها إلى أين هما ذاهبان الآن، أجابت بعينيها الذائبتين، ثم أضافت بأنه إذا كان مشغولاً أو مزاجه مضروباً، يمكن أن نأخذ قهوة ونتجوّل في السيارة فقط، وقفا عند مقهى ستار بكس داخل السوق، جهة البوابة الرئيسية. لم يكن سعيد سوى صديق مشاغب، كلما وردت إليه رسالة ساخرة عن القصيم وأهله، أرسلها فوراً إلى فهد، وهذا الأخير يرد عليه بالتعليقات الساخرة عن أهل الجنوب.

بينما أخذا فنجاني كابتشينو وعادا إلى بوابة رقم أربعة، جاء صوت لولوة حزيناً وهي تعاتب أخيها فهد، بأنها وأمها تبحثان عنه منذ يومين، فأمه متعبة، وقد أضناها البحث عنه، حاول أن يتحجج بأنه يرسم كي يشارك في معرض الربيع القادم، ووعدها بأن يزورهما الليلة. ما إن خرجا في السيارة حتى رنَّ جوالها، فبدأت تفتِّش عنه بقلق في حقيبة يدها، كان يهجس وينظر في لوحة الإعلانات عند الإشارة، وهي تضحك مع زميلتها وفاء، لكنه انتبه إليها حين قالت وهي تنظر إليه: - أعرف وحدة صاحبتي، تطلع مع حبيبها شورت تايم بلا مقابل، وشكلها هي تدفع له في الآخر!

حين أقفلت الخط كانت ترخي نهاية ضحكها وهي تضع الجوال داخل حقيبتها:

- بجد مجنونة!

- من؟

- وفاء زميلتي. وأضافت: اشتغلت تسع سنين على بند محو الأمية، كانت تدرس علم نفس، ثم ألغوا البند، وألغوا عقود أكثر من ثمانية آلاف معلمة.. تخيَّل، بكل بساطة!

- يا الله، طيب وش عملت؟

- ولا شيء، وأضافت: فكروا يعملون مظاهرة عند مركز التربية والتعليم وسط الرياض!

- أخاف بعدها يتمنون بيوتهم بلا عمل!

- تقول لي الآن، إن صاحبتها في البند، اقترحت يكونون فرقة طقاقات أفراح، فردت وفاء، بأن فيه شغلة أحلى وأسهل وأسرع تحصيل فلوس.

- إيش هذي الشغلة؟

- تشتغل بنت جمعة، الشورت تايم بألف ريال في الشقق المفروشة، والليلة في الاستراحات بألفين وخمس، يا سلام!

- معقول!

- لا، أمزح يا مجنون، صدَّقت؟

- ليه ما أصدق! كل شيء جايز في ها البلد، وأضاف فهد بصوت خافت كما لو كان يحادث نفسه: البنات يصيروا بنات العم جمعة ، والشباب على العراق! وأضاف: بنت جمعة! حلوة التسمية هذي!

ضحكت طرفة: «يسمونها بنت جمعة»، وأضافت: «وفاء مرة سألناها عن رجلها، فقالت رايح البحرين، صدّقنا أنه فعلاً مسافر، ضحكت علينا وقالت هذي شفرة للرجل السكير!»

لم يطل وقته مع طرفة ذلك المساء، تجولا قليلاً في الأحياء المظلمة شمالاً، وقطف منها قبلة دون رغبة، فأحست بالحرج، وطلبت منه أن يذهب إلى أمه، وسيلتقيان في الغد إذا شاء.

- 40 -

- تكلَّم! «قالت لولوة»

- من؟ سأل فهد وهو يضع على الطاولة خبزاً وثلاث علب زبادي داخل كيس، جلبها من تموينات السليمانية ومخابز السفراء المجاور.

- واحد من أهل الأرض، بسم الله.

- قصدك جنِّي؟ «قال فهد مبتسماً»

- أعرف، ما تصدق بهذي الأشياء، لكن أقسم بالله سمعته، صوته كان غير.

ثم أضافت:

- أقسم ما كان صوت أمي!

لم يكن مقتنعاً، لكنه حين جالس أمه المطروحة على فراشها في غرفة الطعام، ناولها كأس ماء زمزم، فرشفت ثلاث جرعات، ثم سكب في يمينه عدة قطرات، ومسح على جبينها ورأسها، وهو يتمتم بآية قرآنية، كان يدركِ أن ثمَّة علاج روحي قد ينقذ هذا الجسد المسلوب، وحتى إمساكه لكفِّها التي لم تزل تحتفظ بجمال ودفء وطراوة، يمنحها طاقة جديدة نحو الحياة، فاعتدلت وجلست تقص عليه بعض طفولته، ثم تطرقت إلى أبيه وساح دمعها فصمتت، تذكَّرت الحقيبة ربما، فطلبت منه

أن ينادي لولوة:

- أجهَز الشاهي يمّه، دقيقة.

- أبوك ترك لك أمانة «وهي تمسك بيد فهد وتعصرها»

عاتبها فهد وهو يغالب حشرجة صدره: «بلا هالكلام اللي مالو طعمه» وأضاف «الله يعطيك طول العمر وتحضري زواجي وتشوفي أحفادك»

وصفت سها بصوت متعب لابنتها مكان حقيبة جلدية سوداء قديمة، فوق خزانة الملابس، تحتاج إلى السلم القصير، خلف باب المطبخ.

-41-

لم تشعر طرفة بروحه التي تحلِّق ببهاء معتاد، كما لم تشعر بلمساته وحنانه الذي اعتادته. أحسّت أنه يعيش أزمة، لكنه لا يفصح عنها. ألم تكن هي ملكة الأزمات والمآسي؟ كم لعنة حلَّت بها دون أن تنتهي، فقط تنهض من الرماد كالعنقاء، وكل مرة تقول لفهد بسخرية مفرطة: «ابتسم أنت في مملكة الإنسانية!» كانت تتذكَّر الوجوم الذي يداهمها وهي معه أحياناً، تتذكر ذلك وهي تجلس في ظلام غرفتها بالطابق العلوي بحي السويدي، وتسمع أذان المغرب من المسجد القريب، تسمعه لأول مرة بهذه الدرجة من الكآبة، فكيف يدعو للراحة وهو بكل هذه الكآبة والقنوط، لم تستطع طرفة أن تجد سرّاً لتبقى في الظلام، ففي طفولتها، وعند شعورها بالحزن والرغبة الشديدة بالبكاء، كانت تتسلل مثل قطة منهكة إلى داخل خزانة الملابس، وتغلق بابها عليها، وتغمض في الظلام وهي تسح الدموع بغزارة، حتى تتطهر روحها وتخرج كي تلعب وتركض بجنون.

لا تستعيد من طفولتها سوى المواقف السيئة والحزينة، بدءاً من اسمها طرفة، على جدتها من أمها، ولعل اللعنة أن الأهل والأقارب سمَّموا طفولتها بأن أيما امرأة تسمَّت بطرفة، ستكون حظوظها في الحياة سيئة، ورغم أنها لم تؤمن بذلك، إلا أن السنوات التي مرَّت بها أكدت ذلك، فلا تعرف لماذا يفضّل أهلها جميعاً أختها الكبرى أسماء عليها، هل لأنها كانت هادئة تماماً، عكس شقاوة طرفة، أم لأن طرفة متميزة جداً في دراستها، بينما أختها الكبرى ترسب وتعيد السنة تلو الأخرى، حتى أصبحتا معاً في الصف الرابع الابتدائي، ثم تجاوزتها طرفة، وانتقلت قبلها إلى المرحلة المتوسطة، رغم أنها تعتمد على نفسها، عكس أختها التي تحظى بالمدرسات الخصوصيات دون فائدة. ولكن هل يكفي ذلك لأن يكرهها أهلها، حتى تشعر في لحظات كثيرة وهي صغيرة، أنها ليست ابنتهم، وأنها في العائلة الخطأ، فلم تكن تتوافق معهم في أفكارهم ولا في طريقة عيشهم، بل حتى سمرتها بجانب أخواتها الأربع البيضاوات، تجعلها تشكّ بالأمر أكثر، وحين كبرت ورحل أبوها كانت تسأل: «هل سوتها أمي مع أحد ثاني؟»

لم يكن يمر يوم في طفولتها دون أن تُضرب بسبب أو من دونه، من الأب القاسي ومن الأخوة. حتى أصغرهم يشعر بمتعة بأن يحذف النعل تجاهها حين تمر، كما لو كانت قطة تقف بالباب، ويريد أن يجعلها تهرب!

لم يقتصر الأمر على الأخوة والأخوات، بل حتى العمَّة، كانت تفضل أسماء عليها، ورغم تسلّط الأب، ألا أنه لا ينادي سواها في طلب الأكل والشرب واللبس. هل يفعل ذلك لأنني أتقن الأشياء أكثر من أختي، أم لكي يريحها، وتقوم بالمهمات بدلاً منها، الخادمة الصغيرة طرفة؟.

أبوها لم يكن يحبّ أمها، التي كانت تتذمّر منه، تحاصره وتشك فيه

دائماً، حتى أنها صرَّحت لها ذات صباح بعد أشهر من وفاته، بأنه كان يخونها، وأن القبيحة التي يخون لأجلها، حملت منه ذات مرة، صاحت طرفة لحظة ذاك: «كفاية يمه، أرجوك خلاص، الله يرحمه»، ثم أضافت بصوت منطفئ: «اذكروا محاسن موتاكم»، رغم ذلك زاد رعبها ليلاً وهي تتأمل حياتها الطويلة، وشعورها بالغربة بين أنفاس هذه العائلة، رغم أنها تتذكر أنه كان يحلم بأن يرزق بطفلة ذات لثغة في نطقها، تجعل الراء مثل اللام. هل كانت عشيقته لثغاء، ويريد أن يراها تتمثل أمامه في البيت؟ همست طرفة لنفسها وهي تتقلب على سريرها: «إذن لم يكرهني وقد حققت له هذا الحلم؟» لم تكسب حبه، ولم تنجُ من سخرية أخوتها وأخواتها حين تنطق كلمات فيها حرف الراء، فهم يقلّدونها بتهكم، وبتحدٍ يصيح أحدهم: «أتحداك تقولين روح راحت روحك؟»

رغم أنها كانت جريئة جداً وملسونة، لكنها لا تملك أن تخبر أمها بأسرار الطفولة التي مرت بها خشية عقابها وتشديد الرقابة عليها، لم تكن تجرؤ أن تحكي عن ابن عمها الذي يكبرها بخمسة أعوام، والذي طلب منها أن تأتي معه إلى بيتهم كي ترى الصقر الذي اشتراه عمها، فذهبت معه، وأراها صقره هو، فبقيت لأيام طويلة تشعر بالضيق والذنب، وحين تراه عند الباب تكره نفسها وتضيق بها، وكأنه كان على حق، وهي من ارتكب الخطأ، فهي تخشى أن يخبر عنها، وكأن الذنب ذنبها هي.

أما المرة الثانية فقد حرمتها إحدى أعز صديقاتها، التي تجد فيها العزاء، فلم تعد تملك أن تمر مروراً أمام باب منزلها، فضلاً عن أن تدخل كالعادة وتلعب معها. كانت حادثة ولَّدت فيها خوف كل ظهيرة، حين تخرج من المدرسة، فتبقى قلقة وأعصابها مشدودة قبل أن تضطر للمرور أمام باب الجيران، حيث يقف أحمد دائماً أمام الباب، منتظراً مرورها، لكنه بعدما كبر وتزوجت هي مرتين، بقي يقف أمام الباب دون أن تعرف

طرفة لماذا يفعل ذلك. كان فقط يجلس على العتبة ويحدّق أمامه دون أن يلتفت يميناً أو يساراً، جامداً ينظر تجاه الساحة الترابية أمامه برأس ثابت كرأس ضبع، هل أصيب بمرض نفسي ما؟

لم تكن طرفة تكره أباها ولا تحبه، وإن كان يفترض أن تحبه لأنه أبوها. بل إنها حين تغضب منه، وتوسوس لنفسها بأنها تكرهه، ترتبك سريعاً وتخشى عقاب الله، مع أنها لا تتذكر أنه ضمَّها أو احتضنها أو مسح على رأسها، خلافاً لعمها الذي يحبها كثيراً، ويكيل لها المديح أمام أهلها، وحتى أمام بناته، ولا يتردد بأن يضمَّها كلما رآها، وهي كانت تجد في حضنه الحنان الذي تفتقده في بيت عائلتها.

حين رحل أبوها، انفجرت طرفة باكيةً بشكل مجنون، وظلت تبكي بصمت شهراً كاملاً، لدرجة أن النساء اللواتي جئن يعزين كن يرثين لها، ويتصلن لاحقاً يسألن عن حالتها وجزعها، فقد كانت تبكي كطفل، وهي تردد: «رجعوا لي أبوي!» ومع مرور الأيام أصبحت قادرة على أن تتعايش مع الظروف، وفي آخر أيام حداد أمها، وبينما كانت جالسة معها ذات ليل ساكن، حكت الأم عن المستور، وكيف اتهمها ذات مرة في شرفها، وكيف ظلمها وقذفها. ثم حكت عن البنت التي كان يحبها قبل زواجه بينما رفض أهله تزويجه لها، وأرغموه بأن يتزوج منها لأنها ابنة عم ويتيمة، وحالته المادية كانت ضعيفة، فلا أحد سوى ابنة العم تستر عليه، ويستر عليها، بلا كلفة ولا هموم، وقالت لطرفة عن خيانته لها، مع هذه البنت التي حملت منه، وما أن أوقفتها طرفة، حتى أكدت الأم أن ذلك ما حدث.

كم كسرت الأم تلكم الهالة الرائعة! تلك القداسة المنيعة حول الأب! كم أحست طرفة، بعد ذلك، بالخيبة، كم كرهت أمها تلك الليلة البعيدة، لأنها كسرت صورته بداخلها كأب قويّ! ولكنها لم تكن تلومها

على ذلك، وما يثير دهشة طرفة حتى الآن، أن الأم حافظت على نفسها في الحداد ونفذت شروطه، فمن تلتزم بحدادها يبنى لزوجها بيت في الجنة، ثم واصلت التصدق عنه، ورفضت الزواج من بعده، وما تأتي لحظة حديث عنه، إلا تثني عليه وتتعطر بذكره أمام بناتها وأبنائها، الذين يشعرون بالفخر به. كانت طرفة تكاد تبكي وهي تشعر بالخداع في سيرته، ولا يصلها شعور الفخر به، كما هو حال أخوتها وأخواتها. تضحك في سرِّها، حين تراهم جميعاً يحتفظون بصورة شخصية له، داخل محافظهم في جيوبهم، وهي الوحيدة التي لا تحتفظ له بأي صورة، ليس كذلك فقط، بل تتحاشى أن تنظر في صورته، فهي تخشى من نفسها، وتخشاه، تحس أنها سترى نظرة عتب في عينيه، ذلك العتب الذي يقبض على ما يدور بداخلها من شكوك تجاهه، بسبب تقززها مما أسرَّت به أمها عنه.

كل التفاصيل كانت تؤرق طرفة التي كبرت، والتهمت الأيام خصومتها مع أهلها، فبدأت تدور في فلكهم، وتتعايش معهم بسلام، حتى تزوجت سامي، وطلقت بعد سنتين، فعادت بشعور آخر تجاههم، فقد كبرت الفجوة بينها وبينهم، وأحست بالغربة أكثر من أي وقت مضى، فأصبحت غرفتها هي ملاذها وعالمها الوحيد، صحيح أن إخوانها يرتدون ثوب الطيبة والخشية والغيرة على أخواتهم، لكن طرفة تشعر بأنهم أنانيون ومخادعون!

حاولت خلال سنوات أن تردم الهوة بينها وبينهم، صحيح أنها كانت شقيَّة وحمقاء وذات لسان أرعن، ولا يمكن أن تسكت لأحد، بل ترد بكل جرأة، فقد كانت ترى أن ما تفعله هو جرأة، وإعادة حقها المسلوب، بينما هم يرون أنها وقاحة وفجاجة و «قلة أدب!» خلافاً للأخوات الأخريات اللواتي كن هادئات ومؤدبات ومهذبات، في حين ترى طرفة أنهن غبيات وساذجات، لدرجة أنها تسخر منهن ومن غبائهن المتفشي، فتضحك بشدة حين يرسبن، وفي المقابل لا أحد يفرح لها إذا نجحت.

رغم موقفها من أبيها، كم تمنت طرفة أن يكون موجوداً حين خطبها سامي، فهي رغم رغبتها في الزواج منه، إلا أن ثمة شعوراً داخلها ينبئ بأن أباها سيرفض زواجها، لأنها لم تكمل دراستها من جهة، ولأن نظرته إلى الرجال تختلف عن أخوتها، فلن يغلِّب مصلحة أو منفعة، ولن يجامل أحداً، كان يتمنى أن يراهن جميعاً في الجامعة، وفي أحسن التخصصات، لم يكن يطيق الغياب عن المدرسة، كان يتحوَّل إلى نمرود حين تطلب منه الأم بأن يسمح بغياب أحلام أو إلهام. لكن رحيله جعل من يريد أن يذهب إلى المدرسة يذهب، ومن يتقاعس لا أحد يحاسبه، تحوَّل البيت إلى مدينة صغيرة من الفوضى، داخل مدينة تلفّها الفوضى. ذات ليل قرأت طرفة فاصلاً إعلانياً يومض على شاشة ماكينة الصراف، يصف البلاد بمملكة الإنسانية، وبينما عادت إلى فهد وهي تضع نقودها داخل محفظتها: «تخيل يسمونها مملكة الإنسانية! مو كان أحسن لو سمّوها مملكة الفوضى!»

- كيف نسأل عنه وهو ولدنا، نعرفه من كان صغيرا!

هكذا كان كل الأخوة يقولون عن سامي، وهم يشعرون بفرح حين يأتي إليهم، يجلسون بجواره بنشوة كمن يلتقط صورة مع نجم تلفزيوني صغير، وحده أخوها أحمد، الثاني في الترتيب، لم يكن متفائلاً به، فهو يقول إن حياة الممثلين والمطربين واللاعبين هي حياة ملوَّثة، ولا ينفعون للزواج، حتى لو كان سامي، وحتى لو كنا نعرفه.

لم يكن أحمد متشدِّداً، لكنه يحافظ على الصلاة في المسجد، وهو الوحيد الذي يصلي الفجر في المسجد المجاور منذ سنوات طويلة، لا يحب النميمة ولا يكره أحداً، كان ودوداً ومخلصاً لبيته ولأخواته ولأمه الأرملة.

قبل موت الأب، تقدم إلى خطبة طرفة ابن عمها، وهو العم الذي يعيش في الخبر، كانت تميل إليه أو إلى عائلته، لشعورها أنهم أكثر تمدناً، لكن الأب رفض مبدئياً رجلاً لا يملك وظيفة، رغم أنهم كانوا يريدونها مجرد خطبة، إلا أنه أفهمهم أنه لن يربط مصيرها برجل ينتظر وظيفة، ولمدة لا يعلمها. أما سامي فلا تعرف عنه شيئاً، بخلاف ما يعرفه المشاهد أمام الشاشة الفضيَّة، أو صوره في الجرائد، لكنها متأكدة بأنها لا تحب أهله الفضوليين والبدائيين، لا يعرفون الأناقة ولا اللباقة في التعامل والكلام، وحين بادرت أمه وأخته الكبرى بعرض الأمر عليها، لم تكن ردة فعلها جيدة، لكن خالته، وهي ابنة عمها في الوقت ذاته، تحدثت معها وأقنعتها، بأنه أسرّ لأخته بحبه لها، فهو يتذكر عينيها الحلوتين حينما كانت صغيرة، قبل أن تتغطّى، ثم حسم الأمر بأنه إذا لم يتزوج منها، فلن يتزوج أبداً.

لا تتذكره جيداً، فلم تره على الطبيعة، سوى مرة قبل أشهر، حينما كانت في بيت عمها، أهل أمه، وكانت مع ابنة خالته سامية، تتلصصان عليه من نافذة الخيمة القماشية، كانت ترى أنه مجرد شاب مغرور، يتباهى بخصلتي شعر أماميتين تتدليان على جبينه، وكان يتحدث مع خالاته ويحرِّك يديه بثقة، أو ربما بخيلاء.

لم تكن المكالمات التلفونية بينهما بعد الخطبة تتجاوز الحديث عن ظهوره على الشاشة، وتمثيله لبعض الأدوار الصغيرة، وعلاقاته مع زملائه في العمل، ولم تكن تشير إلى أي علاقة نسائية محتملة له مع أخريات، فلم يكن أكثر من ممثل يؤدي أدواراً ثانوية، وقد برز في بداياته من خلال مقاطع إرشادية في القناة الأولى للتلفزيون السعودي، حول الحفاظ على المياه وعدم هدرها، وعدم الإسراف، واحترام المعوقين وأهمية اندماجهم في المجتمع، وهكذا...

لم تكن طرفة تأخذ أمر الزواج بجدية كبيرة، فهي لم تزل تتذكر أنها

ظهيرة يوم زواجها، كانت جالسة أمام الشاشة تتابع فيلماً أجنبياً مترجماً، حتى صاحت أختها أسماء: «خلاص بيكون كله قدَّامك على الطبيعة!» وقد كانت تظن أنها تتابع سامي على الشاشة. كان الأهل مصدومين بسبب برودها يوم الزواج، إذ لم يتغيَّر شكلها حتى بعد صلاة العشاء في القصر، كانت ترتدي بلوزة وتنورة، وشعرها منكوش دونما عناية، حتى أن عبدالله زعق فيها مذهولاً من برودها ولا مبالاتها، لم يكن أحد يفهم أن سامي يحتاج إليها كثيراً كي يتباهى بها في المناسبات، وهم يشيرون إليها بهمس، هذه زوجة سامي، كان يهتم بفساتيني وأناقتي، ليس لأجلي أو لأجله، بل للنساء اللواتي ينتظر دائماً تعليقاتهن، وقد نقلتها له أخواته النمَّامات، فهن لا يتوقفن عن نقل المقارنة بين طرفة، وبين ابنة عمها، أو خالته، ورغم سعادة طرفة بحضور الاجتماعات الأسرية عندهم، خاصة اللقاء السنوي، إلا أن أمه بدأت تعزلها شيئاً فشيئاً، بحجة الخوف عليها من أعين النساء الحارقة.

كثيرة كانت أسفاره، بحجة العمل والتنقل مع فريق التصوير في مصر وسوريا والأردن، حيث إن الأستديوهات هناك، لكنه كان يشعر بشوق إليها، فلا يكف عن التغزل بها ليلاً. يشتري لها هدايا وتحفاً جميلة، يكتب عليها بعض خواطره الشعرية، أو كلمات أغنية يحبها، وتعبِّر عما بداخله، بل إنه حين يعود يجلب معه كل القصاصات التي كتب عليها أشواقه، كإيصالات الدفع أو الفواتير أو كعب بطاقة باص أو قطار، أو تذكرة فيلم سينما أو مسرحية، كل ما يبقى من أوراق في جيب بنطلونه الجينز، هو مشروع كلمات وخواطر إلى حبيبته طرفة.

لم تكن الاتصالات المريبة تقلقها في البداية، سواء حين يجيب سامي المتصل بأن الرقم خطأ، أو حين التي ترد هي ويقفل الخط في

وجهها مراراً، لم تكن تغضبها رغم أنها بدأت تزرع الشكَّ في قلبها، خاصة حين يخفض صوته على مكالمات لا يحب أن تسمعها، وكانت تتجاهل ذلك، لأنها تثق به.

كل ذلك كانت طرفة تمرره ببساطة وثقة، لكن تصرفه الغريب الذي يحاول فيه أن يعزلها عن الناس، أن يبعدها قدر الإمكان عن أقاربه، خاصة خالته وابنتها سامية، اللتين تجد فيهما صديقتين، فلا يحب أن تتصل بهما في غيابه. كأنه يريد أن يسمع كل كلمة تقولها لهما، وتسمعها منهما، حتى وصل به الأمر أنه حالما يدخل الشقة يسألها فوراً عمَّن اتصل، وعمَّ تحدثتا، إلى حد أنه يتجسس على أرقام الاتصالات الواردة، وكم يقلب البيت إذا ما وجد تلكم الأرقام ممسوحة مثلاً، فيغتاظ ويلتهم الشك أطرافه وعينيه.

في الوقت ذاته، حين يأخذ زوجته إلى زيارة أهلها في السويدي، يعود إلى الشقة ويتصل بخالته لساعات، فيجد فيها سلوكاً مريباً، ولهذا كان يخشى على زوجته طرفة منها، فكانت تمسك على تصرفاته وثيقة ما، حتى وصل به الأمر إلى أن يراقب طرفة، ليس لمعرفة المكالمات الواردة والمرسلة، ولكنه اضطر لوضع جهاز تنصت صغير في جهاز تلفون مجلس الرجال، جهاز صغير تحت الكنبة المجاورة لطاولة التلفون، حتى وصل به الشك، حد أنه أصبح يتصيد دخولها إلى الحمام قبيل خروجهما في مشوار ما، فيقوم خلسة بتفتيش حقيبتها اليدوية.

كان سامي شكّاكاً، رغم ذلك كانت الأيام تسير ببطء ورتابة، إلى أن عاد فجأة من عمَّان دون أن ينهي تصوير حلقات مسلسل جديد، فقد طرده المشرف العام على الإنتاج، نتيجة تحرّشه بشابة فلسطينية تعمل ماكيير في المسلسل، فكلما انحنت على وجهه كي تضع الكريم أو الميك

أب في بداية يوم جديد، بدأ يتغزَّل بعينيها وفمها، حتى تمادى وهو يحرِّك يده فوق مسند المقعد، فتبدو الحركة دون قصد، فيمسُ مرفقه فخذها، حتى صاحت به يوماً، واحتشد الممثلون والمخرج ومساعده، وفني الديكور ومختصة الملابس، فوجدوها تبكي وهي ترمي فرشاة الماكياج من يدها، رافضة العمل، بعدها اضطر إلى أن يعيد الدفعة الأولى المتسلمة من أجور المسلسل، وبقي بلا عمل لمدة سنة. حتى اضطر تسليم شقته، والسكن مع أهله، فبدأت حياة جديدة مؤلمة لطرفة، حيث يتخاصم مع أمه على مسائل تافهة، فيخرج من البيت حانقاً ليوم أو يومين، وتبقى طرفة ذليلة ومستعبدة في بيت أهله، كأنها خادمة بلا أجرة، فباتت تكره أنانيته وتحتقر تصرفاته وهروبه.

تلك الأيام أحدثت نقطة تحول كبيرة في حياتها، فقد عثرت ذات مرة على ملعقة صغيرة محروقة فوق غطاء لمبة مرآة الحمام، فما كان منها إلا أن رمت بها في نفاية المطبخ، وبعد يومين عثرت على معلقة أخرى نالها الحرق قليلاً. كانت تشك في أنه يتعاطى شيئاً لا تعرفه، ثم لاحظت على الموكيت أسفل السرير، في الجهة التي ينام فيها، بقايا تبغ منثور، كان الموكيت لونه فاتح، فتحوَّل إلى لون داكن من أثر التبغ الذي عرفت أنه حشيش مخدِّر، يلفه داخل سيجارة لم تكن قد ميزتِ رائحته بعد، لكنها بعد السنة الأولى أصبحت تتحاشى أن يضمها، رائحته نتنة، وحين يأخذها إلى السرير كانت كأنها بكر في كل محاولة، كانت تشبه حالة اغتصاب.

لم يكن يملك مالاً، بل مجرّد مبلغ بسيط يتقاضاه من عمل جانبي بالتلفزيون، لا يتجاوز ثلاثة آلاف ريال، لا تكفي لمصروفه السرّي أسبوعاً واحداً فحسب، ورغم أنهما يعيشان مع أهله، إلا أنه بدأ يردد اسطوانة جديدة، بأن عليها أن تأخذ مصروفها من أهلها، وبلغ حنقها أقصاه بسبب عدم تحمله لأي مسؤولية، ثم صارت أمه تطلق سهامها تجاهها، وتعزو

سبب كل حكاية ومشكلة وهروب، إلى عدم إنجابها، فلو كان لديها أطفال، لما هرب من البيت بعد كل خصومة، وكأنه لا يهرب من لسانها السليط، وشتائمهما المتبادلة، ولكي توقف سهام الأم المجنونة، اضطرت طرفة إلى مراجعة طبيب نساء أكثر من مرة، حتى طردها بعد عدد من الفحوصات والمراجعات، قائلاً بحزم: «إذا لم يحضر زوجك المرة القادمة فلا تأتِ!»

وعدها مراراً بأن يذهب معها إلى الطبيب، ولم يفعل، ووعدها مراراً بأن يستقر معها من جديد في شقة مستقلة عن أهله، ولم يفعل، حاول أن يستعيد اللحظات الجميلة معها في شقة الورود، لكنها تحولت إلى زوجة مع وقف التنفيذ، حتى عادت إلى أهلها غاضبة، وحاول أن يستعيدها مفتعلاً أسباباً غبية جعلت حياته بهذا السوء، فهناك من يتآمر ضده في التلفزيون، وهناك من يكره العمل معه في مؤسسات الإنتاج الفني، وهناك من يخطط لإنهاء بداياته القوية في الدراما والتمثيل، فأوقعه بعضهم في دوخة التلذذ بسجائر الحشيش، حتى أن أهله يكرهونه بسبب نجاحه وحب المشاهدين له، عند ذاك سقط من عين طرفة وروحها، أصبحت لا تطيق البقاء معه في مكان واحد ومغلق لمدة تزيد عن نصف ساعة، وعادت إلى بيت أهلها في السويدي، كي ترتب غرفتها القديمة الصغيرة، التي كانت عبارة عن مخزن مساحته لا تزيد عن اثني عشر متراً مربعاً، صحيح أنها كانت تشعر بالحنين والشوق في الأشهر الأولى، لكنها بعد زمن، اعتادت العيش لوحدها، رغم محاصرة أخوتها لها، لخروجها، لرؤية زميلاتها، فقد كان شقيقها أحمد يشعر بالانتصار لرأيه القطعي بمجتمع الفنانين واللاعبين، بأنه مجتمع قذر وملوث، وكلما حدثت مشكلة صغيرة في البيت، لام أخوته وأخواته وأمه على رمي ابنتهم في هذا العفن.

في سيارته، وهو يقف عند إشارة أسواق العويس بطريق العليا، حاول فهد أن يفتح الحقيبة، فاكتشف أنها مقفلة برقم سرِّي، وضع عدداً من التخمينات، ثلاثة أرقام ليس أمراً صعباً وليس سهلاً أيضاً، مولد الأب 956 بعدما حذف الألف، فلم تستجب، وضع 985 مولده هو، فلم تستجب، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة، فكَّر بالسنة التي وقعت فيها حادثة الحرم 979 فلم تنفتح أيضاً، قال فهد لنفسه هل وضع رقماً سهلاً ومميزاً، كالحادثة ذاتها لكن بالتاريخ الهجري، أي مطلع القرن 400 ففوجئ بها تنفتح وهو يقف في شارع الرمان المتفرع من الطريق الدائري الشمالي، أسفل العمارة التي يسكن فيها سعيد، كانت رائحة عطن تنتشر بداخلها، عطن متلبِّس برائحة عطر رخيص، فبدأ يعطس وقد أثار حساسية جيوبه الأنفية، ثم أضاء مصباح السيارة ورأى أسرار الحقيبة.

بدأ يقلب الأوراق والمذكرات والكتب بتواريخ شرائها من مكتبات مكة، وكتيبات عبارة عن رسائل جهيمان التي قام بتوزيع إحداها على المصلين في الحرم ذات رمضان، قرأ فهد عناوينها، كتاب ضخم قلبه بين يديه «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» لحمود التويجري، فتحه فطار غبار خفيف نحو عينيه فأغمض، ثم فتح عينيه وقرأ على الصفحة التي توقف عندها:

باب ما جاء في القحطاني:

قد تقدم حديث قيس بن جابر الصدفي عن أبيه عن جده: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «سيكون من بعدي خلفاء، ومن بعد الخلفاء أمراء، ومن بعد الأمراء ملوك، ومن بعد الملوك جبابرة، ثم يخرج

رجل من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا، ثم يؤمر القحطاني، فوالذي بعثني بالحق؛ ما هو دونه». رواه الطبراني. قال الهيثمي : «وفيه جماعة لم أعرفهم».

وتقدم أيضًا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- وفيه: « ثم يكون أمراء العصب، ستة منهم من ولد كعب بن لؤي، ورجل من قحطان، كلهم صالح لا يرى مثله » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه».

أقفل فهد كتاب إتحاف الجماعة، ورفع كتاباً آخراً، عرفه من غلافه «معالم على الطريق» لسيد قطب، ثم تناول عدداً من الكتيبات الصغيرة، قرأ على بعض منها: «الإمارة والبيعة والطاعة» و «كشف تلبيس الحكام على طلبة العلم والعوام» و «النصيحة، والميزان لحياة الإنسان» رفع كتيب صغير وقليل الوريقات لونه أصفر مكتوب على غلافه: «رفع الالتباس عن ملة إبراهيم عليه السلام» قرأ على الهوامش في كتيبات تعليقات بخط أبيه المتعرِّج: الموقف من الحضارة، دعوة بلا أذى، الجهاد، المطاوعة، ملة إبراهيم، الطاعة..

رفع فهد هذه الكتب، وعثر تحتها على رسائل إلى والده، ودفتر مذكرات صغير، وأوراق قرأ بعضها، إحداها فتوى بتاريخ 1979/11/20م: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه، وبعد، ففي يوم الثلاثاء، اليوم الأول من شهر محرم عام أربعمائة وألف من الهجرة، دعانا نحن الموقعين أدناه، جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود، لدى جلالته في مكتبه في المعذر، وأخبرنا أن جماعة في فجر هذا اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة، دخلوا المسجد

الحرام مسلحين، وأعلنوا طلب البيعة لمن سموه المهدي، وبدأوا مبايعته، ومنعوا الناس من الخروج من الحرم، وقاتلوا من مانعهم، وأطلقوا النار على أناس داخل المسجد وخارجه...» أعاد فهد الورقة وأخذ ورقة أخرى اصفرَّ لونها، فأدرك أنها قصيدة عمودية طويلة، قرأ مطلعها:

عبد سـرى في ليلـــة ظلمـاء   هربـاً بتقواه من الفحشـــاء

هربــاً من الفتن التي حاطت به   من فتنـة السـراء والضـــراء

أجال بصره وقلب الورقة التي اشتملت على أكثر من أربعين بيتاً.

أقفل الحقيبة القديمة، وأطفأ مصباح السقف في سيارته، ونزل منها حاملاً الحقيبة، وأدار المفتاح في ثقب الباب، فكانت الشقة معتمة، ولم يكن سعيد قد عاد بعد، فقرّر أن يفتح الحقيبة من جديد، ملتقطاً دفتر المذكرات الصغير، قارئاً بنهم ودهشة.

-44-

مكة 1979: بعد يومين من التحقيقات، تم ترحيلي من بريدة إلى الرياض، كان يصطحبني جندي مثل ظلي، والقيد في قدمي، بينما كلبشتان تحيطان بمعصميَّ، سارت العربة المقفلة في طريق أظن أنه طريق المطار القديم، حتى دخلت من بوابة خلفية لمبنى قديم، وتم إيقافي في زنزانة لا تزيد عن متر×مترين، بقيت خمسة عشر يوماً محروماً من النوم، فكلما تدلى رأسي خبطوا على باب الزنزانة الحديدي فهببت مذعوراً. كانت الزنازين الصغيرة جداً موزعة على ممر ضيق، حيث نزلت أولا من أربع درجات، فوجدت صالة فيها العسكر والحرَّاس، ثم تجاوزت الصالة ونزلت أجرُّ قدمي بالقيد عبر أربع درجات أخرى إلى رواق الزنازين

الموحشة، أذكر أنهم يغلقون الباب فأتسلى بقراءة العبارات المكتوبة على ظهر الباب، ذكريات وتواريخ وتقويم هجري لأحد الشهور كتبه سجين كي يعدّ الأيام، شعارات سياسية مختلفة ومتناقضة تبعاً للتيار الذي ينتمي له السجين، أعضاء ذكرية ومؤخرات، أوضاع جنسية وعبارات بذيئة، لم يكن عامل التنظيف ينتبه لما خلف الباب حين يدفع به للداخل، أما الزنازين التي تنفتح أبوابها للخارج فهي عرضة للتنظيف المستمر.

بعد أسبوعين تم ترحيلي إلى جدة، ومنها إلى مكة بسيارة جيب، ثم أقفلوا عينيّ برباط قماشي، ولم يزيحوه إلا بعد ثلاث ساعات من بقائي في غرفة السجن، وما أن فتحت عيني حتى رأيت صديقاً قديماً زاملني في معهد الحرم، كانت الغرفة 4×6 أمتار تقريباً، نقيم فيها نحن الخمسة، جدرانها مدهونة بالمعجون الأبيض ذي الرائحة النفاذة، وقد كان السجن الجديد في مكة، بقيت هناك ستة أشهر لا أعرف شيئاً، ولا أين أقيم، على ظهر الأرض أم في بطنها، لا كتاب ولا صحيفة، ولا ساعة يد تشير إلى الزمن أو اليوم أو التاريخ، كأن الزمن قد توقف عند أول محرم مطلع القرن 1400 للهجرة، وبعد زمن طويل مرّ كدهر، وفي ظهيرة أحد الأيام لمحت كتباً مع السجان الشاب دغيليب وقد أقبل، فخفق قلبي فرحاً إذ عثر على نافذة يطل منها على عالم آخر، غير هذه الجدران البغيضة، وقف دغيليب يتهجّى أسماءنا، ويناول كل واحد منا مصحفاً. بعدما غادر، لاحظ أحد الإخوان أن على أغلفة المصاحف رسم للكعبة الشريفة، وعلى جانبيها ما يشبه هيئة إنسان، فقال لنا إن هذه رسوم أحياء على المصحف الشريف والعياذ بالله، ولا يجوز أن تبقى، فوافقه ثلاثة منا، وقرروا أن ينزعوا الأغلفة، بينما أنا وصديقي لم نتفق معهم، ولم نر بأساً في ذلك، وفي صباح الغد، صاح الحارس بأسمائهم، وأخرج الثلاثة الذين نزعوا أغلفة مصاحفهم، وأوقفوهم بين العنابر، فجاء ثلاثة عساكر بعصي

خاصة وقاموا بجلدهم، كان حفيف السياط يحرك هواء السجن الساكن، وأصواتهم تعلو وتنخفض!

في السجن كان الفراغ شاهقاً كمنارات الحرم الشريف، ولا نملك سوى الحلم بكتب وجرائد، كنت أتسلى بتربية الصراصير، فكلما اقترب مني صرصار سمين خبطته بالنعل حتى يتمدَّد، وينبثق من خلفه كيس صغير لزج، أتأمله قليلاً، ثم أرفعه بيدي وأضعه داخل علبة زبادي فارغة، وبعد أيام أتسلى بالكيس، حيث ينبجس ويخرج منه عشرون صرصاراً صغيراً، كنت أخرم غطاء العلبة للتهوية، وتبقى الصراصير تكبر وحزني يكبر أيضاً، حتى أقرر يوماً أن أعدمها جميعاً، كان الإعدام الجماعي مسلياً لي ومرعباً لهذه المخلوقات الصغيرة، لكنني كنت أشعر بجبروت وأنا أفرك قبضتي فوقها، بينما بعضها يحاول النجاة مستغيثاً!

في أيام تالية كنت أريد مسبحة أتسلى بها، أسبِّح بها، أو أعد بها أهلي كي لا أنساهم، أو أعد بخرزها الإخوان الذين تم إعدامهم. كان صعباً أن تطلب شيئاً ترفيهياً كمسبحة، فصرت أحتفظ بنوى الزيتون، حتى أصبح لدي ما يملأ كفِّي، فصرت أحكُّ رأس النواة بالأرض الإسمنتية حتى يظهر خرم الفراغ في قلب النواة، ثم أقلب النواة على رأسها الآخر وأحكُّ بها الأرض، حتى تبدو كخرزة مخرومة، بعدما استخرج منها اللبَّ، وما أن تجمَّع لدي ثلاث وثلاثون نواة، حتى استللت خيطاً من البساط، ونظمتها فيه، وعقدت طرفيه. هل كنت بحاجة شديدة إلى مسبحة، أم كان الفراغ يجعلني أبحث عما يسليني ويبدد الزمن الطويل كأفعى في بيات شتوي!

بعد سنة سألونا ماذا نريد من الكتب، فطلبت ديوان المتنبي، كنت فرحاً وأنا أطير مع قصائد الفخر والحكمة، حفظت نصف الديوان، كما حفظت خمسة عشر جزءاً من القرآن، كان أحدنا قد حفظ كتاب «نزهة

المشتاق»، وبعد أن استردوه منه، قرَّر أن يكتبه كاملاً على لائحة الجدار الأبيض، فاستخدم الحلقات المعدنية فوق علب المشروبات الغازية، يكتب بها على الجدار بدقة متناهية! حتى أن أكبرنا وهو رجل أمي كان يحرص على توفير الحلقات المعدنية وحفظها، لم يكن يفهم ما يكتب لكنه يستمتع بالخط الجميل، حتى قرر الذي يكتب على الجدار أن يعلم الرجل الأمي حروف الأبجدية!

كانت الجدران تحكي لنا الزمن القديم، ونحكي لها أحزاننا ووحشتنا، وخوفنا الكبير من المجهول، لم أزل أتذكَّر بعد أن سمحوا لنا بزيارات الأهل، أن أحدنا أحضر له أهله عطراً، فأهداه إلى السجَّان دغيليب الذي كان ودوداً، فعطرنا جميعاً، أذكر أنه رشَّ شماغي الرديء الذي وفروه لنا بعد سنة من السجن، وما أن نمت تلك الليلة، بعدما لففت أسفل وجهي بالشماغ المعطر، حتى رأيت كوابيس لم أرَ ولن أرى في حياتي ما يشبهها، رأيتهم يأخذونني معصوب العينين إلى ساحة الصفاة، يقفون حولي، ويقرأ أحدهم بصوت عال صك حكم قتلي بحد السيف، بصفتي من المفسدين في الأرض، فأسمع صوت سلّ السيف من غمده، فأرتجف وأتشهَّد، ثم فجأة يخزني السيّاف برأس السيف في خاصرتي، فأطوي ظهري فزعاً، وتصبح رقبتي مفرودة كرقبة طائر، وما هي إلا لمحة خاطفة حتى شقَّ السيف المسلول الهواءَ الملوَّث، وحزَّ رقبتي الهشة، فطار رأسي متدحرجاً ككرة، بينما بقيت عيناي مفتوحتان تنظران نحو الناس المتجمهرين! أذكر أنني حين صحوت كنت أتصبب عرقاً ورعباً، وفتحت عيني لأتأمل جدران المعتقل، حتى بدت الغرفة الضيقة جنة سماوية وارفة الظلال! فعلاً كانت أسعد لحظات حياتي أن وجدت أنفاسي منتظمةً، ورأيت جدران السجن الجميلة، ولم يشبه هذه اللحظة سعادةً إلا لحظة الإفراج عني!

في المرة الأولى جاء أبي وخالي إبراهيم، كانا فرحين أن عثرا عليّ أخيراً، وأنني مازلت حياً، وفي المرة التالية جاءت أمي مع أبي وأخي، كان السفر من الرياض إلى جدة مؤرقاً ومرهقاً لهم! حتى صدر قرار بعد ثلاث سنوات ونصف بأن يوزع السجناء حسب مناطقهم توفيراً للمتاعب والسفر، فعدت إلى سجن الوزارة في الرياض، وأقمت مع زملاء جدد، ثم نقلوني إلى سجن عليشة، فأحسست أنهم أفرجوا عني لحظة ذاك، كان الوضع هناك رائعاً، كنا نقرأ الصحف ونستمع إلى الإذاعة ونعرف ما يحدث حولنا.

أشد ما يؤرقني كان يوم العيد وما بعده، لأن قرارات الإفراج تأتي في أواخر رمضان، وحين تصدر قائمة باسم عشرة أو خمسة عشر سجيناً، أو أحياناً سجين واحد، ولا أجد اسمي بينهم تصيبني حالة إحباط شديدة؛ لأنني سأنتظر أملاً صغيراً وضبابياً في رمضان القادم، أي بعد عام كامل من العناء والظلمة والملل والانتظار!

في نهاية رمضان 1404هـ، أفرجوا عني، أرسل رئيس وحدة المباحث في السجن بطلبي، كنت نائماً، فأيقظني زملائي، وركضت نحو الباب الموصد بوزرتي، فصاح أحدهم: البس ثوبك يا خبل! ثم لبست، وقادني دغيليب إلى مكتب الملازم سعود: «إن شاء الله تفرج لك!» هكذا قال، دائماً كان كلامهم مبهماً رغم أنهم صاروا أصدقاء لنا بسبب العشرة الطويلة، لم يقل لي أكثر من ذلك، رغم أن أبي وخالي كانا في غرفة مجاورة ينهيان إجراءات الاعتقال، فخرجت في رمضان ووجدت بيت أهلي قد تحول إلى بيت فرح كبير!

كان هناك رجل مباحث يفترض أن يقف في مكان سرّي، خلف الكرسي الذي أجلس عليه، كي يدقق في ملامحي، من خلال ما يشبه

المرآة، فيراني ولا أراه، حتى يتعرف عليّ ويتتبعني في الشهور الأولى لخروجي، ويكتب التقارير عن سلوكي، لكنه دخل علينا مباشرة، فصرخ فيه الملازم وأخرجه، وهو يقول مبتسماً بلهجة حجازية: «دول ناس ما تفهم! والله بجم!»، ثم شرح لي أن الشخص الذي دخل للتو سيتولى متابعتي، وحذرني كثيراً بأن أبتعد عن الشبهات التي تضر بي، وأن يكون سلوكي جيداً: «لازم يا سليمان تثبت حسن سلوكك، وكمان ممكن تعزم الراجل على فنجان قهوة مثلا! ثم ضحك فضحكت معه!»

جاء أبي وخالي وأخي لتسلّمي، كانت لحظة خروجي مع أبي وأخي وخالي لحظة رائعة وممتعة، لكنها كانت مريعة بحق، فلم يكد يمضي شهر واحد فقط، حتى اجتاحني الحنين إلى أيام المعتقل، كانت الأيام متشابهة، لكن الطمأنينة والهدوء والاتكال على غيري لا تتوافر في المدينة، فأنت مطالب بأن تعمل وتلهث وتكذب وتخون وتنافق، مطالب بأن تتزوج وأن تكون أباً صالحاً، وأن تمتلك بيتاً و...و...

نصحني أخي بأن أسافر كي أتخلّص من الكآبة والحزن، لكن لم يكن لدي جواز سفر، فقد صادروا جوازي عند القبض عليَّ، وعدت إلى مباحث السجن، فطلبت من الملازم أن أحصل على جوازي، نظر نحوي بعين نصف مغمضة وقال لي، عليك أن تذهب إلى وزارة الداخلية، وتقدِّم طلب رد اعتبار: «طلب رد اعتبار!» همست في داخلي، كأنني كنت مفقوداً، كأنما خلقت من جديد، بلا جواز ولا ذاكرة، ذهبت هناك وكتبت خطاباً أتسول فيه بأن يعيدوا خلقي كإنسان، هم الخالق ونحن التابعون، نسيت أن أقول لك إنني حينما أردت استخدام دفتر التابعية، قالوا عليك أن تراجع الأحوال المدنية كي تستخرج بطاقة أحوال جديدة، بدلاً من الدفتر القديم. اللهم لا اعتراض، نحن تابعون لهم يا ولدي، تابعون بكل

ما تعنيه الكلمة، بدءاً من الجنسية وحتى تنفس الهواء المخنوق من حولنا.

بعد شهر من تقديم طلب رد الاعتبار، عدت إلى الملازم في السجن، فنهرني وهو يقول: «أنت أغرب وأغبى سجين شفته بحياتي! ما في سجين يرينا خلقة وجهه!» وقلت في نفسي لقد شعرت بالحنين إلى التبطل والنوم والقراءة والكتابة والتسلية في المعتقل، فهي نعمة مذهلة لا تتوافر في مكان آخر سوى سجنكم الموقر!

كلما مضت خمسة أشهر أو ستة، أعود إليهم وأسأل عما حصل في خطاب طلب رد الاعتبار، فتكون الإجابة أنه لم يأت خطابك بعد، لا أعرف إلى أين مضى خطابي، بعد سنة وشهرين جاء الرد بالموافقة على أن يعاد لي رد الاعتبار، فانطلقت بعد أسبوع إلى مديرية الجوازات، ودخلت شعبة الجواز السعودي، وقفت أمام الموظف، وقدمت طلبي الذي تفحصه لثوان، ثم سألني: «جواز أول مرة؟ أو عندك جواز سابق؟» فأجبت بنزاهة حسدني عليها أخي: «عندي جواز من قبل!» رفع رأسه عن أوراقي وسأل: «وين هو؟» قلت ببلاهة تليق بي: «عندكم!» قطب حاجبيه وهز رأسه وهو يسألني: «كيف يعني؟» شرحت له قصة سجني السياسي، فأشار إلى أن أذهب إلى المكتب الخاص، وهو مكتب خاص بشعبة الاستخبارات، فذهبت ووقفت أمام شاب يقظ له عينان متقدتان، قال لي: «جوازك ضمن أرشيف يستحيل الحصول عليه!»

قلقت وكدت أبكي وأنا أساله: «طيب والحل؟» فقال لي بنزق: «يا أخي ما فيه داعي أصلاً أن تقول أن عندك جواز، كان قلت للموظف جواز جديد، ولو فتش بالكمبيوتر لن يجد اسمك، لأن جوازك القديم قبل نظام الكمبيوترا» سألت بأدب: «طيب والحل الآن؟» أجاب بغير مبالاة: «ارجع له بعد أسبوع لعل يكون نسي اسمك وشكلك» وبعد يومين فقط

أشار زميلي في العمل بشركة توزيع الصحف، بأن أستخرج جوازاً من مديرية الجوازات بالمنطقة الشرقية، وأرشدني إلى أحد أقاربه هناك، ففعلت، وخرجت وأنا أكاد أطير، كان الجواز الأخضر أجنحة من ورق، يقودك إلى أي مكان في العالم، كان مفتاحي واكتشافي الأول لشواطئ البلاج في البحرين، حيث انكسار الموجات الصغيرة الناعمة مع الغروب الفاتن، والشمس تنشر خيوطها الذهبية وتتشابك مع شعر سهى... ما أجمل أن أبقى وسط الماء الممتد بلا أفق! كأن الحياة لا حد لها، كأن الزنزانة لم تعد حولي، مع أنني أشعر أحياناً أن الزنزانة تلاحقني، تعرّش كالشجر في داخلي، لا أستطيع جزّها، ولا الفكاك منها.

الجزء السادس

لا أحد يعالج قفل الباب!

«لم يلتفتْ.

لم ير أحداً منا

لكنه رمق العتبة والباب

واسلم عينيه للنباتات على الشرفة».

بسام حجار: بضعة أشياء

-45 -

فجر (شبرا) يبدو هادئاً ووادعاً، شارع يمتد غرباً وشرقاً بعرض عشرين متراً، مضاء بمصابيح صفراء كامدة، في منتصفه مطب اصطناعي كبير أمام مسجد الفتوخ. من بابه الشمالي المطل على الشارع يخرج عبدالكريم بشماغه الملفوف طرفه حول رقبته دون أن يخفي لحيته السوداء العشوائية، يلبس نعله وينزل الدرجات، ثم ينعطف يميناً داخل الحي، يتوقف عند ماء السبيل في الزاوية، وضع يده كإناء وشرب ثلاث جرعات، وقبل أن يمضي، سلّم بصوت يغلبه النوم على أحمد الصميتان، ومشيا صوب بيتيهما، يدخل أحمد أولاً ويعزم صاحبه مجاملة: «تفضّل»، فيرد الآخر وهو في طريقه: «زاد فضلك»

قبل سنوات جمعتهما مدرسة تحفيظ القرآن في مسجد الفتوخ، ثم حلقة تحفيظ جامع السديري، وفيما بعد كانا يدخلان أوقات العصر المكتبة العامة بالسويدي، واستعارا بعض كتب الألباني، وراجعا مجلدات «رياض الصالحين» و «دليل الفالحين» ومنذ سنوات بدأ عبدالكريم يدخل في اجتماعات ورحلات مع مجموعات أخرى كبيرة، ويزداد نشاطه

الدعوي، بينما اعتذر أحمد بسبب انشغاله بشؤون الأسرة، خاصة البنات بعد وفاة والده ابن الصميتان، وكم ألمح لصديقه عن أخواته الصالحات، ورغبته في سترهن مع زوج صالح يقدرهن ويحافظ عليهن.

لم يكن أمر فشل زواج طرفة أمراً عابراً وسهلاً، وقد ورطها أخوتها بممثل فاشل وسيء الخلق والمزاج والسلوك، لكن المنتصر هو أحمد تحديداً، فشعر أن نظرته تلك كانت صائبة، فهذا عالم عفن وأوساخ، الأمر الذي جعل أحمد لا يتوانى عن مخاطبة صديقه مباشرة، بعد عدد من الإيماءات والتلميحات، فغامر وشرح لصديقه: «الأولين يقولون اخطب لبنتك ولا تخطب لولدك» هكذا افتتح عرض أخته أمل، مؤكداً حبه له في الله، وثقته بأن أخته معه ستكون في يد من يخشى الله ويرجو ثوابه.

لم تكن أمل إذن، بل أراد طرفة تحديداً، أراد أن ينقلها من وسوسة الشيطان إلى ملكوت الله وعدله، أن يعيدها من بعد ضلال سنتين كاملتين، إلى هداية الخالق وعباده الذين يخشونه ويخافون عذابه ونقمته، فله بذلك أجران، أجر نفسه أولاً، وهو يكمل دينه، وثانياً أجر ستر امرأة ضعيفة أوقعها شيطان الفن في حبائله، هكذا دخل بها، وعاشت معه ثلاثة أشهر من أجمل أيام حياتها.

هادئاً كان ورزيناً، لا يضربها ولا يخونها، فقط كان يشعر أنه يخون دينه أحياناً وهو يتقاعس عن عمله ودعوته وجهاده، ويقول لها في أمسيات دافئة، أنه يقدرها ويحترمها، لكنه يخشى أن اعتياده على الدعة والرفاهية سيصرفه عن احتسابه في الدعوة والنشاطات الصيفية والرحلات الخلوية، فضلاً عن طموحه القديم في الجهاد بنفسه، وليس بماله فحسب.

أخذها ثلاث مرات إلى سوق الجفال على طريق الملك فهد، وأقنعته مرة بأن يذهبا إلى برج الفيصلية، لكنه أخبرها، وهما يخرجان بعد نصف ساعة متوترة من التجوال، بأن عليها أن تنأى بنفسها عن باب الفتنة، وعليه هو أيضاً أن يحفظ بصره من النساء المتبرجات. في الأسبوعين الأولين كان يحرث طرفة مرتين كل يوم، ويمطر مستودعها بشغف كبير، حتى أحبته وبدأت تتحوّل تدريجياً، تلبس ما يريد، تضع عباءتها فوق رأسها، وليس على كتفيها، حتى لا تظهر ثمرتي صدرها للعيان، تستبدل نقابها بغطاء كامل للوجه، حتى لا تكون عيناها الجميلتان مطمعا لضعاف القلوب، وبعد شهر من العلاقة الدافئة، ودون أن يطلب منها شيئاً، أو يقترح عليها، جلبت قفازين أسودين وحشرت يديها داخلهما كلما خرجت من البيت.

بعد كل صلاة عصر، كان يتأخر في جامع السديري، بشارع سدير في شبرا، كي يتدارس مع بعض الإخوة، ثم يصلي المغرب ويحضر درساً أو محاضرة في الجامع، بعدها يعود إلى شقته القريبة في الشارع ذاته، بعد أن يجلب معه خبز تميس وفولاً أو قلابة، ويتناولها مع زوجته طرفة، بعد أن تحضر شاياً ثقيلاً، وعودي نعناع وفص بصل، وشريحتي ليمون أصفر، ويداعبها وهما يأكلان قبل أن يأخذها إلى الفراش.

ذات مرة، عاد كعادته فعثر في الصالة الصغيرة على جريدة الرياض، نظر نحوها شزراً وهو يسألها:

- من كان عندك؟
- أخوي أيمن.
- أنا ما أحب هذا الآدمي! ثم أنتِ تعرفين أني ما أحب الجرائد ولا المجلات تدخل بيتي!

اعتذرت منه طرفة، وقبلت رأسه، فابتسم وداعب خديها ووجهها الدائري.

كل شيء فيه رائع، رقته ومداعبته، حتى غضبه كان هادئاً ورزيناً.

طريقته في الجنس لم تكن قصيرة ولا طويلة، كانت متوازنة وممتعة، لكنه لا يمكن أن يأتيها من الخلف، رغم أنها تحركت ذات مرة، في لحظات مداعبة طويلة، لكنه ابتعد وعاد إلى مكان حرثه المعتاد، لقد اعتادت طرفة أن تفعلها مع زوجها السابق، وأن تتلذذ بها، وبآلامها، وأن تنقل معرفتها تلك، إلى حبيبها فهد، خلال معاشرتها له.

ذات عصر، كانت ندى تحادثها في الهاتف، فقالت لها إنها وجدت رجلاً أبدياً، صحيح أنه متشدد ومحافظ جداً، لكنه يحبها ويخشى عليها، بينما كانت ندى تضحك وهي تقول: «يا خبله هذا موسوس وشكّاك»، فالرجال في نظرها شكّاكون، حتى وإن اختلفت أساليبهم، لكن طرفة رفضت ذلك، وهي تقول: «عبدالكريم غير!» هكذا ظنت، أنها ستعيش معه إلى الأبد.

-46 -

المنزل خاشع وغائب في العتمة، وهي وحدها تشبه نحلة تطن في الأرجاء، تشعل نار الفرن في المطبخ، تضع إبريق الماء كي يغلي، تنصت لقرقرة الماء التي تسبقها زوبعة الذباب المباغت وهو يطوف، لا تعرف لولوة ما الذي يجعلها تهلع حالما ترى الذباب أو النمل يتجمهر كأنما سيأكل جثة!

قبل يومين هرعت إلى علبة المبيد وأطلقت غازه العنيف تجاه قاطرة نمل تسير بخيلاء تحت أساس الجدار الفاصل بين المطبخ وغرفة الطعام،

قالت إنها تحاول أن تنهش جسد أمي، الذي أصبح خدراً وذابلاً كورقة خريف، ها هي تبحث عن المذبة البلاستيكية في أدراج المطبخ السفلى، وتلاحق الذباب مثل فتيات القصص الخيالية اللواتي يلاحقن الفراشات في الغابة. تصفع الذباب الذي حالما يحطّ على باب الثلاجة العلوي، فينفجر بدم لزج وجناحين متصلبين، وجاء صوت أمها سهوا متسائلا عن الصوت العنيف، فأجابت: «ذباب يمه، بس قتلت ذباب!» كانت تحاول أن تزيحه عن بياض باب الثلاجة، وهي تشعر بغثيان يقلب أمعائها، خلافاً لما كان يحيط أبيها من متعة قصوى وهو يعدم الصراصير بشكل جماعي، حين كان في المعتقل.

تفاجأ فهد لأن لولوة وضعت لجوالها بدلاً من الرنين دعاء بصوت خاشع: «اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك بكل اسم هو لك» صمتت لوهلة، وقالت بأدب: «هذا شيء يخصني، الدعاء راحة للقلب وقرب من الرب سبحانه وتعالى، أمي بحاجة إلى الدعاء يا فهد، ما هي بحاجة إلى فيروز وخالد عبد الرحمن»، أزعجه انسياقها خلف وصايا العم: «ضحك عليكم ودمركم، وخرَّب كل علاقة حب ودفء زرعها أبوي»، فتنهدت وهي تقول: «لعلمك، علاقتي بأمي الآن أحسن من أول، والدعاء والقرب من الله يزيد الحب بين الناس، لكن أنت تعاند، وراسك يابس، لأنك تكره عمّي».

كانت لولوة تفكِّر في فتح باب الثلاجة السفلي، لتخرج كيساً بلاستيكياً مغلَّفاً من أرفف الباب، تفتحه لتشم رائحة ورق النعناع الأخضر، قبل أن تستل غصناً بارداً، ثم تغسله بماء فاتر، وتغمس الوريقات ببطء في إبريق الشاي، لتتهادى صوب غرفة الطعام حيث جسد

الأم الأربعينية مسجى على فراشها، لتعتدل وهي تبتسم لابنتها:

- فهد ما اتصل؟

- اتصل أمس، وسأل عنك، ويسلّم عليك.

- ما تعرفين هو قدر يفتح الشنطة؟

- ما سألته، نسيت أسأله!

- أجل ما تعرفين إيش كان بداخلها؟

- يمكن كنز ولاّ ذهب! «وضحكت لولوة «

اتسعت ابتسامة الأم وهي تتذكر أبا فهد، سليمان السفيلاوي، الذي أحبها كثيراً ولم يحب المال والثروة، ولم يسعَ إلى جمعها أبداً، فقد كان يرى أن الحياة لا تقدر بثمن مهما كان، فلا يعقل أن يصرف الإنسان أيامه لاهثاً مثل كلب خلف المال، وكأنه يشير إلى أخيه صالح، الذي أسس خلال سنوات سلسلة محلات للعود والعطور الشرقية، بينما كانت أيام زوجها الراحل كلها أيام طمأنينة وهدوء، محاطة بروتين يومي معتاد. فهو يعود من الشركة جالباً معه علبة من اللبن، وجريدة الشرق الأوسط، ثم ينام بعد الغداء لساعتين تقريباً، ويصحو على رائحة القهوة التركية تتسلل من المطبخ تعدّها سها، وفي جرعة واحدة يشرب نصف كأس الماء أولاً، ثم يرشف القهوة على مهل، ويعيد قراءة بعض المقالات في الجريدة، خاص مقالة غسان إمام، وحوله فهد ولولوة ينشران دفاترهما الدراسية، وينبطح كل منهما لحل واجباته. يساعد فهدا في مراجعة دروس الرياضيات، ثم يخرج إلى الشركة إذا كان لديه عمل إضافي، أو يخرج بعد العشاء مع سها إلى مقهى أو مطعم في العليا، وفي عطلة الأسبوع يأخذان معهما الصغيرين إلى ملاهي قلعة السندباد، ويصطحبان معهما أحياناً سعيداً ابن صديقه الراحل، أو يخرجان مبكرين

إلى حديقة مكتبة الملك فهد، يفرشان بساطاً مبطناً أسفله بالإسفنج، يشربان القهوة والشاي من حافظتين معهما داخل سلة، ويتركان الصغار الثلاثة يتجولون في أنحاء الحديقة، ويلهون بالألعاب والمراجيح، حتى يختتمون يومهم بمطعم شتورة اللبناني، أو مطعم أبو كمال في نهاية شارع الثلاثين بالعليا.

-47-

كان يقود سيارته في طريق الجامعة، يتفحص المحلات على الجانبين. تقول له إنها لا تحب الأنفاق، تحس أنها ستموت داخل نفق ما رغم الإنارة الحمراء الكامدة، فيضحك: «حشا ما صرتِ طرفة، شكلك ديانا، وأنا ما أدري!» ترخي ضحكاتها، وهي تقرّب رأسها من كتفه الأيمن، هامسة بدلع: «أحبك دودي!» تدلف سيارتهما من نفق عثمان، ثم نفق تقاطع الجامعة مع أبي بكر، متجهين صوب الغرب، هاربين من سوق غرناطة مول، وقد أحضر لها كأس موكا من مقهى د.كيف، بينما أخذ هو قهوة تركية، كان يقول لها أنه لا يحب القهوة التركية في فنجان ورقي، لأنه القهوة مزاج، وضمن المزاج الجلسة والفنجان الخزفي، وضحكة أمه الرائعة حين تهمس في أذن أبيه وقت المغرب في بيتهم، في الدور العلوي بحي العليا، كانت رائحة القهوة تتسلل من الصالة وتدلف إلى غرفته فتشيع جواً دافئاً وحميماً من الحب بين والديه، كانا طائري حب دافئين، قبل أن يهبط ملك موت كان يطوف متسلياً فوق طريق القصيم، يبحث عن فريسته في سائقين ينعس بعضهم، ويعبث بعضهم الآخر بجهاز الجوال، حتى اصطاد أباه، وطار بروحه إلى السموات البعيدة.

في النفق الأخير غرباً صوب جامعة الملك سعود قالت له بأن يأخذ طريق التخصصي، تفحَّصت المحلات على الجانبين، قالت له إن هذا الشارع له تأريخ، فقد كانت تسكنه ابنة عمها أم سامية، فالشارع ممتد من الجنوب حيث بنده العزيزية متقاطعاً مع طريق مكة، مبتدئاً بمحلات البناء ووكالات السفر، حتى يبلغ نهايته بمحلات الديكور الداخلي ومشروع ابن باز للزواج الخيري، ثم يستمر بأراضٍ خالية، تلك التي اصطادت فيها الهيئة صديقتها ندى ذات مرة: «تخيَّل الغبية طالعة مع صديقها تتمشى في الصبح على طريق الثمامة، وهم راجعين فكروا يدخلون في المخططات الجديدة، وفجأة كانت سيارة الهيئة وراهم» قالت طرفة ذلك، دون أن تتوقع أنها ستقع بعد شهور، وفي طريق قريب من التخصصي، في يد رجال الهيئة، وستبكي وستتوسل دون فائدة. مرا بمحل ديكور فخم، فقالت إن ابن صاحب المحل خطبها من أخوتها، قبل أن تتزوج عبدالكريم زميل أحمد شقيقها، كان كل من في البيت صمت تماماً أمام قرار أحمد حين أصرَّ على عبدالكريم، فتحولت طرفة إلى حقل تجارب يعبث بها الأخوة، هؤلاء الذين تكرههم جميعاً، ما عدا أصغرهم أيمن، فهو لطيف وهادئ جداً، لا أحد يحس به في البيت، ولا أحد يدعوه باسمه، دائماً يقولون له: «تعال يا العنز! رح يا العنز!» الجالس معهم لأول مرة، يظن بأنهم يسخرون من سهولة انقياده لأمه وأخواته، وأن أي واحدة منهن تملك أن تسوقه أمامها كالعنز!

لكن الحكاية المفتعلة التي يرويها الأخ الأكبر عبدالله هي أمر آخر، وهو أن أمهم قماشه حين وضعت أيمن جف ثديها بطريقة مرعبة، تذكر أن لهفته على ثدييها، جعلها تستأجر له امرأة سوداء، ولم تستطع الأم أن تواصل تحمل أجرتها المكلفة، فتوقفت بعد أن وجد شقيقها الأكبر-كما يروي- حلاً سحرياً، وهو أنه يأخذ الرضيع وقد بلغ سنتين، ويلقمه ثدي

المعزى، فيرضع حتى أصبح هادئاً ووديعاً بشكل يجعل من يتعرف عليه يظن أول الأمر أنه مريض.

لكن الأم التي تبتسم وهو يروي خرافته تلك، تقول إن خاله حين علم أنه الوحيد الذي قضى طفولته مع الحليب المجفف، صار يسميه ولد البقر، ثم أصبحت ولد الغنم، والتقطها الصغار كعجينة صلصال وعبثوا بها، فصارت ولد العنز. هكذا نسي أخوته اسمه الحقيقي، وأصبح اسمه ولد العنز، ثم غضبت الأم كثيراً بسبب إهانتها، ووصفها بالعنز، فتحول اسمه إلى العنز مباشرة.

تركها شقيقها أيمن عند بوابة باريس غاليري، في سوق غرناطة، ودلفت وهي توحي بأنها متأخرة على صديقتيها ندى وفطوم كالعادة، لكنها تسللت من السوق، ودخلت محلين أو ثلاثة، ثم خرجت من البوابة الرئيسية، حيث ينتظرها حبيبها، كانت تتوخى الحذر لئلا يتعرف عليها أحد، رغم أنها مغمورة بعباءتها السوداء، وغطاء وجهها، إلا أن هناك من يمكنه أن يتعرف عليها من طريقة لبس عباءتها، ومن خطوتها الجنائزية البطيئة، ومن ثقتها المفرطة فهي لا تتلفت حولها، ومن يدها البضة التي أدمن تقبيلها. أشعل مصابيح السيارة الثانوية حينما أقبلت، وهي سعدت عندما لم تجد رجل الأمن عند البوابة، رغم أنه لن يتنبه إليها، فيما إذا جاءت مع سيارة كامري سوداء، وركبت مع سيارة أخرى من نوع هيونداي إكسنت بحري، ونظراً لخشيتها من دقة ملاحظة أي رجل أمن، كانت تحرص أن تدخل من بوابة، وتخرج من بوابة أخرى، فحين تدخل من بوابة باريس غاليري، تخرج من بوابة كارفور، أو إكسترا، أو من البوابة الرئيسية، أو البوابة الخلفية المطلة على حي غرناطة.

كانت تقول له أخشى أن تزورنا خالتي مع ابنتها، فتقررا أن تلحقا بي

في السوق، وتتصلا بهاتفي الجوال بحثاً عني! هكذا كانت لا تجيب عن أي اتصال، ما عدا هاتف العنز، فهي تجيبه فوراً وتقنعه بأنها ستتأخر وستتصل به حالما تنتهي من جولتها مع صديقتيها.

حينما أقبلت عليه وهو يقف بسيارته أمام بوابة السوق الرئيسية، أدار المحرّك، أقبلت تمشي ببطء وهي تحمل حقيبتها اليدوية بيد، وكيساً وردياً باليد الأخرى، صعدت بجواره، وقالت إنها لا تريد أن تفعل معه شيئاً، فقط يتحدثان لا أكثر، لكن يده صعدت فوق يدها، فأخذتها وأدخلتها من تحت غطاء وجهها الأسود، وقبلتها ببطء، ما لبثت أن بدأت تمص أصابعه واحداً واحداً.

تمهّل أمام مدخل شقق مفروشة، ولمح على كرسي الاستقبال شاباً سعودياً سميناً، عاري الرأس، فلم يتوقف، كان يخشى السعوديين لأنهم أكثر تطفلاً من موظف الاستقبال إن كان سودانياً أو هندياً مثلا، فقد يكون متعاوناً مع الهيئة، أو محتسباً للأجر فيوقع بهما. دخلا كلصين إحدى غرف الشقق المفروشة، راحت تقبّله كعادتها، واستسلم لها مخدراً، أخرجت وردة حمراء من كيسها الوردي، لم تكن مغلفة بورق سلوفان كأنما قطفت حالاً من حديقة، قالت إنها جلبتها من محل ورود داخل السوق، ناولها علبة مزلق صغيرة، وكرتوناً أكبر قليلاً من حجم علبة الكبريت، ابتسمت بخفر، وفتحت العلبة ونظرت في الشريط داخلها المكون من ثلاث وحدات داخل غطاء قصديري، أمرها بأن تمزق إحداها وتشم رائحته، فتحته وشمّت وهي تقول: «الله.. روعه!»، كانت رائحة فراولة طازجة.

تناولت جسده من رأسه، ومرت عليه كاملاً، كأنما كانت تودعه للمرة الأخيرة، حتى تحفزت كل مساماته، وقفز هو بفمه أيضاً بحثاً عن

الغيمة، غيمتها. يقول لها إن مطرها كريم، فتضحك بخفة روحها وتتساءل بخبث: حتى في الصيف؟ يضحك هو ويهمس في أذنها: حتى في الصيف، هي لا تحتاج طلب استسقاء، مجرد المرور بجوارها يجعلها تمطر كغيمة مجنونة. لا يعرف لماذا تقوده إلى خلفها، ثم تعيده إلى غابتها. لكنه في لحظة الذروة لا يرى شيئاً، فقط كانت رائحة الفراولة تطير في يده، تضوع فوق السرير، وتدلف في الخلف ببطء وممارسة هينة. كانت تطلب منه أن يدلف ببطء وسياسة، دون أن يستخدم وسيلة مساعدة، شيئاً فشيئاً حتى أصبح وجهها ملتوياً وتبكي بشبق، كانت فرحة بعد دقائق من اللهاث أنه لم يستخدم وسائل مساعدة: ههه أخذت المليون بدون ما تستخدم وسائل مساعدة! كانت تقول بشغب. قرأت في موقع إلكتروني اسمه «جنون الرياض» عن طرق الجنس الفرنسي، وقالت له إن الطريقة الفرنسية تجعلني أصل الذروة ببساطة.

في طريقها إلى البيت، كانت تهاتفه وهي بجوار شقيقها، تشير له أنه لم يترك لها كريم اليدين، ولا القفازات! ثم تضحك، لم يعرف هو أنها بجواره حالما قالت ذلك، إلا حينما علا صوت منبه السرعة الرتيب من سيارة الكامري. ودعها على عجل: «إذا وصلتِ البيت اتصلي!» ثم أقفل الخط. قال لنفسه إنها مجنونة رسمي، كيف تتحدث بهذه الجرأة بجوار أخيها، حتى تلميحها مكشوف! كريم اليدين مصطلح بديل للسائل الزلق هناك في الخلف، والغطاء المطاطي للعزل أصبح اسمه: «قفازات! يا سلام على الترميز! صدق مجنونة!»

حاول أن يرد على لعبتها المريعة حين أخافته بولاعة السجائر لتشعل شعره الطويل من الخلف، فوجد مكاناً لائذاً خلف مدخل الشقة، اختبأ فيه وكتم أنفاسه، نادت باسمه مراراً ولم يجب، ثم همزت رقمه في جوالها، فرن

بغتة في جيبه وخرج من مخبئه ضاحكاً: «يا ملعونة، فات عليّ أحطه على الصامت!» ثم عانقته وهي تحيط رأسها بحجابها، وتناولت فمه بشغف. في المصعد اقترب ليحتضنها ثم رفعت غطاء وجهها وقطفت قبلة أخيرة.

قالت له: «أخاف عليك فهودي بجد»

كانت تخشى الغياب وتكرهه كثيراً، غياب الأب الذي يكرهها ولا يكفُّ عن ضربها، وغياب عبدالكريم الذي خرج دون أن يقول لها بأنه لن يعود إلى الأبد، وغياب خالد الذي عاشرها ثلاث سنوات، حتى اكتشفت زوجته الأمر في جواله، فقرَّر أن يهجر طرفة ويتحاشاها إلى الأبد.

تناولت طرفة يده ووضعت خدها عليها وهي تهمس بخوف: «توعدني ما تتركني فهد؟»

هز رأسه ممتناً وغائباً في طراوة خدّها.

-48 -

ذات ليل لم يعد من جامع السديري.

هاتفها بأنه سيتأخر إلى الغد، فسيشارك في رحلة لمدة يومين، لكنه لم يعد بعد يومين، ثلاثة أيام، أسبوع، ولا شهر أيضاً.

ذات ليل، بعد أسبوعين من الانتظار والبكاء في شقّتها، عادت إلى بيت أهلها، كان أحمد يتحاشى النظر إليها، ففي البدء كان يتهمها بأنها أرهقته بمطالبها، وهو زاهد في الدنيا، تقي وورع، لا يرى في الحياة شيئاً يستحق التهافت والتباهي واللهاث، حياته كانت الحياة الأخرى، فهي ما تستحق العناء والتعب، لكن أحمد بعد أسبوعين من البحث وسؤال أهله وأصدقائه وجماعة مسجد الفنتوخ وجامع السديري، وجامع الصانع

الخيري، عرف أنه واثنين ممن يعرفهم في مسجد العيد في السويدي، قد سافروا إلى سوريا بشكل سرّي، لم يكشف عنه رفاقه إلا بعد ثلاثة أيام من غيابه، بكت أمه طويلاً، وكذلك طرفة التي ظنَّت أن الله قد عوضها عن معاناة الطفولة المرّة، وزواج فاشل دام سنتين، برجل يستحق التضحية والحب، لكنه خانها دون أن تنتبه.

كانت تتذكَّر كيف كان في الشهر الثاني يستقبل شاباً بطريقة غامضة، يرنُّ على جواله رنَّة واحدة، فينهض مسرعاً ويهبط نحوه بجلابيته، فتذهب هي مسرعة إلى نافذة مجلس الرجال المطلة على الشارع، تقفل ضوءها وتتلصص من وراء الستارة المغلقة، فترى في الناحية الثانية من الشارع شاب طويل بشعر طويل يكاد يظهر من أمام كتفيه، يتحدث طويلاً وهو يقف خلف باب سيارته المفتوح، ومحركها المشتعل، في حين ترى ظهر عبدالكريم وهو منهمك في النقاش معه، في البدء سألته عمن يأتي ويذهب بهذه الطريقة، ولا تستضيفه في مجلس الرجال، فأجاب بأنه من الأخوة جماعة مسجد العيد، المسجد القريب خلف الطريق العام. وحين بدأت تتعمق في السؤال عن اسمه وعمله ومتى ظهر في حياته، قال لها: إنه صديق طفولة من أيام الابتدائي» ورأت كيف كان لا يحب أن تسأل كثيراً عن أشياء لا تخصها، حتى صار يضع قفلاً لهاتفه المحمول، ويرتبك حين ترن نغمة الرسائل في جواله، أقنعها بأن أمور الرجال وخصوصياتهم لا يحق لها أن تتدخَّل فيها وتتعمَّق، ثم يسألها: «فيه شيء ينقصك؟» وحين تنفي وهي ساهمة: «أنا مقصِّر عليك بشيء؟» لكنها تسأل بابتسامة وهي تغيِّر الموضوع: «أصلِّح لك قهوة؟»

حين يخلع ملابسه ويدخل إلى الحمام كي يستحم طويلاً قبل الآذان الأول من صلاة يوم الجمعة، تحاول طرفة أن تفتح جواله، تحاول أن تضع أرقاماً متوقعة كي تفتح وترى صندوق الرسائل، لكنها لا تنجح

أبداً، تستغرب انهماكه في الشهر الثاني من الزواج في الإنترنت. ذات مساء هاتفه صديقه في الأسفل، فهرع نحوه ناسياً جهاز الكمبيوتر مفتوحاً، فهرعت خلفه وحرَّكت الماوس قبل أن ينغلق فلا تتمكن من فتحه إلا بالرقم السرِّي، فتحت بعض ملفات سطح المكتب، فرأت خرائط لسوريا، وشمال سوريا لمنطقة الرقة ودير الزور: «يفكر يتزوج سورية؟» فكرت طرفة قبل أن تعثر على خريطة العراق. أقفلت الملف سريعاً. وقد لفت انتباهها ملف عنوانه «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وعثرت على وثائق بعناوين: الدورة الرياضية للمجاهد من موقع البتَّار، بيانات متنوعة من موقع المقريزي، فتاوى من موقع صوت الجهاد، ثم فتحت القائمة المفضلة، وراجعت سريعاً بعينيها أسماء المواقع المحفوظة لدى عبدالكريم في المفضلة: موقع المقريزي للدراسات التاريخية، موقع المرصد الإعلامي الإسلامي، منبر التوحيد والجهاد، موقع البتار، موقع صوت الجهاد. فجأة سمعت مفتاحه يتسلل في ثقب قفل باب الشقة، فخرجت وهي تسأله بتودّد: «ليه تأخرت؟ عسى ما شر»، فانقلب هو يحاول أن يبرر لها حاجة المسجد إلى دعم للمكتبة وتغيير المكيفات، ثم سألت إن كان يريد قهوة أم شاي، أو سينتظر حتى موعد العشاء.

دخل إلى مكتبه الصغير، وانتبه إلى أن الشاشة لم تقفل بعد غيابه لأكثر من عشرين دقيقة، رغم أنها مضبوطة على القفل بعد دقيقتين فقط من عدم الاستخدام، لابد أنها فعلتها وتجسست على أشيائي، هكذا همس عبدالكريم لنفسه، جاءت ووضعت كوب شاي فوق طاولته، رمقها بعيني صقر نافذتين:

- طرفة وين كنتِ قبل شوي؟
- في المطبخ «أجابت بافتعال بلاهة ما»

- أقصد لما نزلت لزميلي.

- كنت هنا، أشارت بيدها وأضافت: في الصالة.

نهض من كرسيه، وخرج إلى الصالة وجلس على الكنبة، ثم تناول كتاباً صغيراً، وقال إن الخطأ ليس عيباً، لكن الكذب هو العيب:

- لا تكذبين يا طرفة!

صاحت بانفعالٍ:

- أنت تخبئ عني كل شيء، كمبيوترك ما أقرِّب منه، ولا جوالك، وناس تأتي عندك ما أعرفهم، وأسألك عنهم وتتحاشى أن تخبرني بحقيقتهم، من حقي أعرف، أنا زوجتك.

- حياتي ما هي ملكك يا بنت الناس، مفهوم؟ ثم أضاف:

- وما تتدخلين بشيء مالك فيه!

صفق الباب خارجاً، وبعد ساعتين عاد يحمل خبزاً ولبناً، وعلبة تمر مكنوز، نهضت نحوه وقبّلت رأسه، ثم ناما.

حين اختفى عبدالكريم، بقيت طرفة في شقتها تنتظر، كلما سمعت صوت سيارة أسفل الشارع وهي تتوقف وبابها ينغلق، أطلت من وراء الستارة، وكلما سمعت وقع أقدام الساكن في الشقة المجاورة توقفت نبضات قلبها لثوانٍ، وهي تتوقع أو تتلهف، لأن يتسلل مفتاحه في ثقب القفل، ثم يديره دورتين، ويدفع الباب ببطء، فيدخل منهكاً من سفرٍ، أو رحلة خلوية طويلة ومرهقة، فتقبّل رأسه وتخلع شماغه المدعوك، ثم تفتح أزرار ثوبه وتخلعه كي يدخل إلى الحمام، ويقف دقائق طويلة تحت رشاش الماء المتدافع، وتهب هي راكضة نحو المطبخ تعد له العشاء، وتصنع له نوعين من الشاي، شاي أحمر، وآخر بالزنجبيل، وتسكب له

من قارورة العسل صحناً صغيراً، وبضع زيتونات، وتنتظره في الصالة بفرح وشغف، ثم تفكِّر بأن تتصل بأهلها وتخبرهم متلهفة: «عبدالكريم رجع!»، أو تتصل بأمه أولاً.

لكن لا أحد يفتح الباب.

لا سيارة تقف بهدوء أسفل العمارة.

لا صوت يأتي من رقم هاتف غريب، يطمئنها عنه.

لا شيء أبداً، سوى الحنين الذي يأكل أطرافها، ويملأ ليلها بالوحدة.

-49 -

لم تكن طرفة تشعر ببرود علاقتها فحسب، بل كان حدساً يقلقها حين تستلقي على سريرها، وتتأمل حياتها، بدأت تفقد الأمل في رؤية فهداً ما لم تتوسل إليه. انتقلت المرحلة من التلميح إلى التصريح، ثم إلى التوسل. ثمة غموض لا تفهمه، لِمَ يتهرب منها، وحين تتحدث معه تجده متلهفاً إلى حد البكاء، ثمّة غموض في العلاقة يكاد هو ألا يفهمه، فهو يريد أن يقابلها ويحتضنها ويحرق فمها قبلاً، لكنه يذهب إلى الحمام ويغسل فمه مراراً، يتمضمض ويبصق ويكاد يشم أن ثمة رائحة كريهة تخرج من فمه، ويزداد الأمر سوءاً لو جذبت وجهه هناك في الأسفل، وتورط بأن قابل عضوها واضطر بأن يفعلها بلسانه، كم يكاد يتقيأ، وكم سيقضي وقتاً طويلاً في الحمام يحرق عضوه بماء ليس دافئا، بل يكاد يكون مغلياً، يرى بخار الماء يتصاعد ويدلكه مراراً.

ذاك المساء قال لها مباشرة، وبطريقة مفاجئة لها، وربما له أيضاً: «أشوفك اليوم؟»

لم تشهق بل أجابت بدلال ولؤم، بأن يمهلها ساعة لترى الأمر، ثم لم تصبر وقد حسمت الأمر موافقة، في الطريق إليها ليلاً كان متحمساً وشغوفاً، كان يستمع إلى إذاعة إم بي سي أف أم، وصوت عبدالمجيد عبدالله ينساب بعذوبة، ما إن اقترب حتى سألها من أين؟ قالت له: «من البوابة رقم ثلاثة». سأل للتأكد: «قدَّام المدارس...صح؟ المواجهة لحارة ندى؟» أتصل ثانية ليقول لها أن تخرج، حتى فاجأته وهي تتهادى بمشيتها البطيئة، أو المغرورة كما يصفها، صعدت بجواره تحمل حقيبة يد زيتية مزينة بنقوش مطرزة لفرسان يحملون رماحاً وسهاماً، وبيدها الأخرى كيس بلاستيك لم يلتقط اسم المتجر عليه، قالت له إنها كانت ستتصل به، لكنه فاجأها بوقوف سيارته أمام البوابة، لم يكن هناك أي من المتسوقين أو المتسوقات، مجرد رجلي أمن في الجوار يشعلان سيجارتيهما، قالت له: إنه وقت صلاة العشاء، لذلك لا أحد يقف أمام البوابة!

سارا معاً، سألها عما إذا كانا سيأخذان فندقاً أم شقة، أم يلوذان بأحد المخططات المظلمة، خاصة أن الساعة تقترب من التاسعة، ولا وقت يكفي لجلسة وعراك طويل، قالت « لا يهم قرّر أنت.»، سارا باتجاه الشمال نحو طريق التخصصي الجديد، بحثاً عن مخطط ما، مرا بأول شارع بري مظلم، كشفت وجهها، وقبّلها على عجل. قررا أن يبحثا عن شقة ما، اقترحت أن يتجها إلى فندق الفهد كراون على طريق المطار السريع، فاعتذر بأن الوقت لا يسعف بمتعة مكان كهذا، استعرضا أسماء الشقق التي ارتاداها، ثم استقرا على أن يزورا شقة جديدة لم يعرفاها من قبل، وفي حي النزهة، ركن سيارته وكله قلق من أن تفتش طرفة في أغراضه، دائماً يسعى لأن يوقف سيارته أمام بوابات الشقق كي يضبط حركة جسدها فيما لو انحنت لتفتش! كانت قاعة الاستقبال واسعة وفارهة، لكن لا أحد هنا، وجد في الجانب باب غرفة موارب، دق الباب

بهدوء وهو ينده: «صديق!» خرج عامل هندي، يظهر من لهجته العربية المكسرة أنه وافد جديد إلى البلاد، قذف أمامه السؤال المعتاد: «عوائل؟» ثم أخذ المفتاح وتبعه فهد إلى الدور الثاني، وقد كان الممر مفروشاً برخام ثمين، والأبواب على جانبيه توحي أن هذه الشقق محترمة ونظيفة. ما أن فتح باب الشقة 18 حتى بدا له بأنها تشبه غرف الطرق السريعة، نظر إلى غطاء السرير البالي بفعل الغسيل المتكرّر، قرر أن يأخذها احتراماً للوقت الذي كاد أن يطير من أيديهما، ناول الموظف المصري الذي جاء تواً صورة من عقد نكاح مزوّر، ومبلغ مائتي ريال، أشار بيده نحوها في السيارة بأن: «تعالي»، لكنها لم تتحرك، ثم هاتفها طالباً أن تنزل، تناول المفتاح ودلف قبلها إلى المصعد، حين انغلق الباب ارتمت في حضنه، وقال لها إن المكان رديء وقذر، لكن لا مجال للبحث وإهدار الوقت، رفرف قلبها وثدياها اللذان أرسلتهما صباح اليوم برسالة وسائط، كشفت عن حبتي زبيب متحفزتين من خلف قماش ستريتش وردي ضاغط عليهما، وكتبت له: هذي أنا صاحية الآن من النوم.. يعني طازجة! جلس مدة نصف ساعة يكبّر منطقة وسط الصدر كي يقرأ العبارة الإنجليزية: «دعنا نرقص الهولا هولا!»

فتح الباب ثم أغلقه خلفهما سريعاً، كانت الشقة ظلاما دامسا، حاول أن يشعل الضوء بلا فائدة، همز زر الباب، والحمام والغرفة، بل حتى زر التكييف، ولكن دون فائدة، قالت له أقفل الباب وسأشعل شمعة أحملها معي من المرة الأخيرة، فقال إنهما بحاجة إلى التكييف، رفع سماعة الهاتف وطلب الاستقبال، فرد الموظف المصري: «بص حضرتك على شمالك، حرِّك القاطع الكبير!»، فتح صندوق الطبلون الرمادي، وهمز القاطع الكبير حتى اشتعل كل شيء في الشقة، أقفل مزلاج الباب، وسارعت هي بالدخول إلى الغرفة، خلع حذاءه وجواربه وشماغه أيضاً،

ثم دلف إلى الحمام قليلاً، وحين خرج وجدها أمام مرآة التسريحة تتزين، وترش عطراً خفيفاً على صدرها المترجرج تحت قماش دانتيلا أسود مخرَّم، احتضنته بقوة وهصر خصرها اللدن، هاجمت فمه، وحاول أن يجعل يديه تتسللان، متحسساً بلذة، لا يعرف ما الذي جعله يجلس على ركبتيه ويغامر بلسانه، حتى أصبح في لحظة انهماكه يفكر في شهوتها وكيف سيفعل، كان يفكر هناك حيث يحاول تهييج نفسه محاصراً بالخوف من الفشل، حين بدأت آهاتها تتعالى وهي واقفة جذبته إلى السرير، لكنه كان خامداً رخواً، وانقلب على ظهره بجوارها محدقاً بالسقف، انقلبت عليه ضاحكة محاولة أن تجعل اللحظة بسيطة وساخرة، لكن ذلك لا يلغي أنها كانت تدير قطعة لحم لدنة، جلست على حافة السرير، وسمعته يقول: «المكان قرف!» ثم أضاف: «أحس بغثيان من القذارة فيه!»، كأنما يبحث عن مبرر لهزيمته، لكنه لاحظ أن ظهرها نصف عارٍ ويرتعش، ورأسها ذو الشعر الناعم جداً، الأسود جداً، يرتجف بشدة، حاول أن يواسيها فمسح على ظهرها، لكنها قامت بخدر نحو طاولة التسريحة، وأخذت غطاء رأسها وفردته فوق الوسادة الوسخة، وأرخت رأسه فوقها قائلة: «ارتاح!» ثم أضافت بابتسامة مفتعلة: «ما عليك، كل شيء يرجع مثل ما كان، وأحسن!»

جلست قربه وهي تقصّ عليه مضحكة. لكن فهد لم يزل يفكر في فشله، حتى اعتدل ولبس، وابتسم نحوها بحزن: «نمشي؟»

نهضت نحو التسريحة وأخرجت من حقيبتها علبة سجائر دافيدوف الرفيعة جداً، أشعلت واحدة ونفثت دخاناً في الغرفة، ناولته السيجارة فأخذ نفساً واحداً ثم أعادها إليها وهو يقول: أحياناً أفكر ماذا تغير في علاقتنا، وكيف بدأت أشعر بخوف قبل أن أقترب منك، وأفكِّر بالفشل في لحظات المداعبة والقبلات، فأفشل فعلاً. لم تكن طرفة تفهم جيداً أسباب

ذلك، لكنها تخشى أن الحب بدأ يذبل فعلاً، وأنها ستفتقده يوما ما، ولم يعد هذا اليوم بعيداً، ومن سيغطي فراغه؟ تضحك في سرها، وهي تتذكر أنها قالت ذلك مع خالد عشيقها السابق، الذي استنزف جسدها ثلاث سنوات كاملة، وهاهو فهد السفيلاوي يقتحم حياتها وينسيها حبيبها السابق. فكرت أن حياتها مع صغيرتها سارة ذات السنوات الأربع أجمل من ضياع الوقت مع هؤلاء القذرين! لكن ماذا أفعل حين تحترق فطيرتي، كيف أطفئ جذوتها؟ مللت أن أفعل ذلك بنفسي، ولا أحب أن أتخذ صديقة أخرى كرجل، كم أكره ذلك، فكلما اقتربت مني ندى لتهمس في أذني، أو أحاطت عنقي لتجذبني نحوها كي تقول شيئاً، أو التصقت بي، يا الله كم يثير ذلك قرفي، فأصيح بها أنا ما أحب البنات يلصقون بي! فتضحك هي وسامية ابنة خالتي، حيث تعلق المخبولة سمسم، يعني تحبين الشباب يلصقون!. أحياناً أستغرب قصص سمسم حين تقول إنها في محلات أبو ريالين المزدحمة بالبضائع، حيث لا يبقى من مساحة المحل إلا ممرات ضيقة لا تكفي إلا لعبور شخص واحد، تقول إن زحام الناس أيام الأعياد أو بداية المدارس، يجعل الشباب يمرون خلفها، يخبطون وراءها بقصد، فلا تكترث ولا تفعل شيئاً، كانت سمسم تضحك بشدة وهي تقول: «خليهم ينبسطون مساكين!»

عانقته طرفة عند الباب، وجذب خصرها الناحل نحوه بقوة، ثم رفع يدها السمراء البضة وقبلها بخشوع، وفي المصعد لم يكن الوقت عند النزول من الدور الثاني إلى الأرضي يكفي إلا لرفع غطاء وجهها وقطف قبلة سريعة، ثم أعطاها تعليماته السريعة وهو يناولها مفتاح السيارة، تخرجين أمامك مباشرة نحو السيارة، حتى أنهي الأمر معه، فمن الصعب أن يسلم الشقة نهائياً بعد ساعتين أو ثلاث، فبدأ كذبته المكررة، بالسؤال هذه المرة عن قاعة نوّاره للأفراح؟ وحين لم يعرفها موظف الاستقبال

المصري، أخبره بأنها على طريق القصيم، هل تعرف الطريق، هز المصري رأسه بخجل، وقال إنه جديد في هذه المدينة، ولا يعرف شيئاً سوى هذه البناية، قال له فهد، النهاية الطبيعية لهدف كل هذا الحوار، أننا سنذهب لمناسبة زواج، لو تأخرنا حتى الواحدة ليلاً، فاعتبر الشقة حرّة، والمبلغ المحجوز عندك كتأمين هو لك. ابتسم الموظف المصري بامتنان وشكره. في شارع التحلية كانت السيارات الفارهة تتحرّك ببطء، وهي تصعد تتحرّك مجللة بالموسيقى، والشباب يتناثرون فوق مقاعد المقاهي. حين وصل إلى مقهى كوفي داي سألها إن كانت تريد قهوة أو كابتشينو، فشكرته، فأخرج إحدى الوردتين وراح يشمها جذلاً كي يدخل هواء حزين جداً إلى جوفه، فيكاد يبكي وهو يفكر بأيامه.

لم تتصل به خلال ساعة كاملة، وبعد أن استحم، وفتح التلفزيون، هاتفها وسأل: «وينك؟» أجابت بأنها لم تخرج من السوق بعد، فلم يأتِ أخوها، شعر بالتأنيب أكثر هذه المرة، فلم يعد يمنح حبيبته ما تحتاج إليه، لم تعد روحه كما كانت، وقلبه أصبح مجرَّد مضخة دم بليدة، بكى بعد أن أقفل الضوء، وقال لنفسه، جيد أنه ليس هنا -يقصد سعيداً- وإلا لوجد فرصة سانحة للسخرية والضحك، رنت طرفة، وقد كان صوتها حزيناً رغم أنها تحاول أن تفتعل البهجة والضحك. تكاد تجزم أن هناك عشيقة دخلت حياته، وهو حساس للغاية، ولا يملك أن يكسر قلبها. يحاول أن يقنعها أنه يعيش أزمة أمه المريضة، دون أن يعطي تفاصيل تبحث عنها في حياته الشخصية، فكل الحديث معها إما وله وشوق، وإما سخرية عذبة في سرد حكايات صديقاتها الناقمات، وإما أحاديث عن همومه في الرسم وطموحاته، ونظرته السلبية نحو الفنانين السعوديين.

-50-

منذ الظهيرة لم يأكل شيئاً، سوى دونات يابسة التقطها من الثلاجة، وأعدّ معها كوب قهوة أمريكية، إذ ينهمك متحفزاً أمام لوحته «مكة»، وفي ذهنه دائماً لوحة الجورنيكا لبابلو بيكاسو، ففي مقابل سوق مفتوح في مدينة الجورنيكا الصغيرة، فوقه طائرات تصبّ جحيماً تمسح به البشر المتجولين، يرسم هو سطحاً شاسعاً كصحراء تحيط بها المآذن، يوزع جثثاً متساقطة في أنحاء اللوحة، رؤوساً مخرمة برصاص قنّاصة، وشاحنات تنقل الموتى مثل صناديق الكوسة والطماطم.

أحياناً يفكر فهد ما الذي يجعله يعشق الفن التشكيلي إلى هذا الحد، ويدمن رائحة الزيت المدوِّخة، هل هو شغف حقيقي ورغبة دفينة للتعبير عن داخله؟ هل استجابة لنبوءة الفنان السوداني مصطفى الذي قابله طفلاً مع والده بشارع الثلاثين؟ أم هي رغبة عنيدة مضادة لقمع عمّه وصراخه أمامه دوماً، بأنه سيطالب يوم القيامة بنفخ الروح فيها؟

بدأ يضع مخططاً أولياً للوحته تلك، يرسم بخطوط الرصاص بانفعال وحزن، ثم يرمي المخطط ويشرع في آخر، حتى قرر أن يرسم بالزيت بلونين فحسب، الأسود والأبيض وفي ذهنه مأساة ودراما الجورنيكا الأسبانية، يضع دوائر مترامية فقط، مجرد رؤوس مرمية مثل بطيخ وافر في حقل فسيح، ومن ثقوب صغيرة فيها يمتد سائل أسود حتى الأرض، كان يرسم وهو يتنهّد كل فينة بصمت وغيظ، شعر فجأة أن الرسم النهائي لحظة الانفعال سيخرج عملاً عاطفياً جداً، ولابد أن يهدأ قليلاً، فأخذ كوب القهوة ومضى إلى حقيبة أبيه. فتحها وقلّب الكتب والأوراق، ملتقطاً مسبحة نوى الزيتون، أدارها واحدة واحدة بين إبهامه وسبابته، ثم عاد إلى مقعده قرب اللوحة فالتقط فرشاة الزيت، ودهن نواة زيتون بلون

أبيض، ثم أخرى بالرمادي، أعجبه ذلك وخلق لديه تسلية جديدة تخفف عنه وطأة القلق، فعصر أنبوباً أحمر، ووضع منه بحجم مخلف طير صغير فوق نواة أخرى، ثم دهنها بإبهامه من جميع جهاتها، فصارت حمراء فاقعة، فعل ذلك مع أخرى، بلون أصفر، ثم أخضر، وهكذا حتى تحولت المسبحة الكامدة إلى أغنية أفريقية دافئة وضاجة بالحياة، كأنما أحيا روح المسبحة بعد أن كانت ميتة.

صاحت نغمة الرسائل في جواله البعيد، فلم ينهض نحوه، وبعد عشر دقائق صاحت النغمة من جديد، وضع المسبحة فوق حامل الألوان، وقام متباطئاً نحو جيب ثوبه، وقرأ رسالتين من أخته لولوة، ومن طرفة: «فهد أمي تسأل عنك من قبل البارحة».

عاد من جديد إلى اللوحة الزيتية المعلقة فوق الحامل، تأمل الجثث المرمية بفوضى وعبث، سمع باب الشقة ينفتح ببطء، ثم ينغلق، وخطوات بطيئة تسير إلى المطبخ المكشوف على الصالة الصغيرة، وماء ينسكب في كأس، ثم قرقرة الماء تندلق داخل جوف عطش، وصوت ارتطام خفيف لقاع الكأس على طاولة المطبخ، وصوت سعيد على بعد خطوات وهو يتأمل: «هايل يا فهد، بجد أنت فنان كبير!» التفت فهد نحوه بحاجبين معلَّقين: «هلا، من وين دخلت؟» ضحك سعيد وهو يشير إلى اللوحة: «دخلت من الباب، لكن أنت الظاهر محتاج تطلع من اللوحة!»

دخل سعيد لينام، بينما واصل فهد العمل، وبدأت تظهر معه معالم رجال ملثمين وجنود وعسكر، وما أن اقتربت الساعة من الواحدة صباحاً، حتى أحس بضيق في صدره، كأنما عشرون جندياً يطرحونه ويجلسون فوق قلبه، حتى تضطرب أنفاسه، غسل الفرشاة التي بيده، ونظَّف السكين بسرعة، ثم غسل وجهه برشق متوالٍ من حوض المطبخ، لبس ثوبه وخرج دون شماغ، أدار محرِّك السيارةِ وسار بها على غير هدى.

يكاد الخدر يتسلل إلى جسد الرياض وهي تنام مثل امرأة غامضة، أضواء الشوارع خافتة وهي تصارع أعمدة الغبار التي تصب جحيمها فوق المدينة، الجسر الصغير في برج المملكة كان غائباً في ظلمة الغبار الثقيل، وكذلك الكرة البلّورية فوق برج الفيصلية، سيارات يقودها شبان عابثون تقف عند الإشارات، يقف قرب إحداها، وفي المقعد الخلفي ثلاثة رؤوس ترقص بصخب، بينما صوت المطرب راشد الفارس يشق غبار الليل: «عزّاه يا قلبي من الهم عزّاه، ومن يواسي دمعتي قال خيره»، ينظر فهد نحوهم بابتسامة، وفي المقعد الأمامي شاب بشعر مربوط من الخلف، يشير إلى فتيات خلف نوافذ مظللة بالسواد، لسيارة كاديلاك سكاليد لؤلؤي، فتفتح إحداهن نافذتها وتقوم بحركة بذيئة بإصبعها الوسطى تجاههم، ليضجّوا بزعيق عالٍ مصحوباً بأزيز العجلات تطارد السائق الهندي المدرَّب على الجولات الليلية.

مرَّ فهد من أمام سوق الأندلس ثم العليا مول، وتوقف عند إشارة تقاطع العروبة والعليا، نظر باتجاه محل قصر الأحذية، وفكَّر أن يزور أمه وأخته، لكن الوقت كان متأخراً، فانعطف يميناً سالكاً طريق الملك فهد، وفتح زجاج النافذة لعل الجنود العشرين الذين يرقدون فوق صدره ينزاحون تباعاً، لكن الغبار المتدافع مثل رذاذ مطر هائج، قد جرح وجهه وآذى عينيه، فعدل عن طلب الهواء، وأغلق زجاج النافذة.

همس في داخله، لو بكى الآن بهدوء، لخفَّ ضيق قلبه شيئاً ما، ولطار الجنود الرابضون بصلفٍ على أنفاسه، فتح الدرج والتقط أول شريط صادفه، ثم دفعه في فم المسجل، فغنت فيروز بصوت جارح وحزين: «مشتاقة لا بقدر اشوفك ولا بقدر إحكيك، بندهلك خلف الطرقات وخلف الشبابيك»، فتذكَّر ليالي بعيدة حين كان أبوه يقرأ في غرفته، وصوت فيروز يذوب ناعماً في الآذان، لم يصعد الجسر الذي

يقطع طريق الإمام، توقف أقصى اليسار عند إشارة عبداللطيف جميل، وانعطف مستديراً نحو محطة البنزين في الزاوية، ثم دخل إلى موقف السيارات أمام كشك مقهى كوفي داي. طلب قهوة تركية بسكر وسط، وقارورة ماء صغيرة، سار ببطء في طريق القصيم، يرتشف قهوته وتسوقه فيروز إلى ذاكرة حزينة، حيث لفظ أبوه نفسه الأخير في هذا الطريق اللعين، وحين عاد بعدما قطع مسافة سبعين كيلو متر، لم تكن أنفاسه خفيفة كما ظن، فقال لنفسه: «هذه ليلة ملعونة حتماً»

بقي يتقلب في فراشه، ويشرب ماءً حتى انفلق الضوء وغفا متعكر المزاج.

/

الجزء السابع

ضحكة الجن المميتة

وبلدةٌ مثل ظهر الترس موحشة

للجن بالليل في حافاتها زجلُ

الأعشى

-51-

بعـدما تحـرّك القطـار مـن «نـورج» نحـو محطتـه الأخيـرة «غريـت يارموث»، كانت العجوز اللطيفة قد غادرت القطار بعدما سألته إن كان بخير، ثم عرضت عليه المساعدة من جديد، فشكرها. أحاط رأسه بيديه، مثبّتا مرفقيه على الطاولة، وهو يحاول قطع خيوط ذاكرته العصبيّة دون جدوى. كـان يتسلى بـالنظر نحو الفتاة الشقراء دون أن يرسمها، مجرد خطوط ودوائر وكلمات متناثرة على الورقة أمامه، أو يتسلى بالنظر من خلال النافذة، دون أن ينجح في الخروج من بئر الذكريات الحزينة.

في الضحى البعيد، لم توقظه صيحات الرسائل في جواله، لكن الرنين المتلاحق كالنحيب جعله يفتح عينيه ببطء شديد، ورأسه مثقل بالغم، فرأى رقماً ثابتاً يومض في شاشة الجوال، ضغط الزر الأخضر بتوجس وريبة، فجاءه صوت عمّه الذي لم يسمعه مذ غادر البيت، قال له إنه في مستشفى الملك خالد الجامعي، حيث أمه مريضة جداً، وهم ينتظرونه في قسم الإسعاف، صاح بوجل، ماذا حدث لها، فقال إنها في غيبوبة الآن، ونرجو أن يكشف الله عنها الضر.

لم يقل إنها ماتت!

لكن نغمة صوته وخدره تكشفان شيئاً مريراً.

هرع فهد ولبس ثوبه وشماغه، وسار بجنون إلى المستشفى.

أطلق عنان سيارته كفرس مجنون، سالكاً الدائري الشمالي، منعطفاً يميناً في طريق أبي بكر، ثم يميناً في طريق الجامعة، مندفعاً وهو يغطس كدلفين في الأنفاق ويخرج منها شاهراً رأسه صوب الغرب، حتى إذا وصل إشارة التخصصي، تلفت نحو الإشارات مشعلاً أضواء الطوارئ في سيارته، ثم اجتازها دالفاً الجامعة، وما أن وصل الدوار الثاني الصغير قبيل مخرج مطابع الجامعة، حتى انحرفت سيارته بقوة ولم يتمكن من حكم قيادها، ولحسن الحظ لم يكن في الطريق الداخلي للجامعة سواه، أدار سيارته في الاتجاه الصحيح وسار بهدوء وهو يستعيذ ويتمتم، حتى بلغ الإشارة وانعطف يساراً ثم دخل يميناً إلى المواقف المقابلة لقسم الإسعاف، ركن سيارته وهرول مثل طير حجل يدرج في الرمضاء، هرع مارقاً من أمام سيارات الإسعاف المركونة.

خلف الباب الزجاجي كان عمّه وابن عمّه ياسر يقفان مع الطبيب، وما أن فتح الباب ودخل حتى استقبله عمّه وقبّله على خديه، ثم قاده إلى مكان الجلوس قرب الأسرة المتحركة عند الباب، وأجلسه على كرسي جلدي متمايل، ثم جلس بجواره، وقال له: «أحسن الله عزاك، لله ما أعطى وله ما أخذ»، ثم بدأ يحدِّثه عن أفضال أمه وتقواها، بينما رفع فهد رجليه الحافيتين، وقد حررهما من نعله على البلاط، ووضعهما على حافة الكرسي في وضع القرفصاء، وقبض على رأسه بين يديه، فبدأ جسده الرقيق يهتز بصمت، بينما العم يواسيه: «البكاء ما ينفع الميت، الآن ما تحتاج منك إلا الدعاء والصبر، ثم إن أم فهد كان مؤمنة وتقية، كانت صحابية الله يغفر لها»

حين أفاق من رعب الموقف وصدمته، تقدّم منه الطبيب وعزّاه، وأخبره أنها مسجاة هنا في السرير رقم 3 إن كان يريد أن يراها، تذكَّر فهد على الفور موقفه مع سعيد أمام موظف الاستقبال بإسعاف الشميسي، حين اقترح عليهما أن يذهبا إلى الثلاجة لتفحص الجثة المشتبهة، للتعرف عليها إذا كانت لأبيه أم لغيره، قام وقد كان مرتبكاً ووجلاً، دخل بيدين مرتعشتين وهو يزيح الستارة البيضاء التي تحجب السرير عن الممر. دخل معه العم قليلاً، وطفق فهد يبكي وهو يقبل رأسها، وشعيراته الذهبية الفائضة من تحت الشرشف، أشار الطبيب بيده إلى العم بأن يخرج كي يترك ابنها معها، يقبلها ويناجيها ويخفف عن نفسه العناء والحزن وعذاب الضمير، لم يعرف فهد كيف واتته الجرأة رغم بكائه بأن يفتح جبينها الأبيض ويقبّلِه، ثم يبحث عن يديها ويقبلهما بخشوع، ثمّ يقبّل قدميها.

لفت نظره بغتة أن قدميها متورمتين، ولمح طرف ساقيها محززتين ببقع، متورمتين بالماء، بيد راجفة وقلب يعلو نبضه بقوة، رفع الغطاء عن وجهها المضيء، ونظر إلى عنقها وكتفيها، فلمح ندوباً واضحة، بدأ يرتعش وخرج راكضاً نحو الطبيب، فأخذه من يده منتحياً مكاناً لائذاً، وسأله إن كان قد رأى الندوب والجراح على جسد أمه، فهز الطبيب رأسه بالإيجاب، وقال دون أن يسأله، بأنه لا يظن أنها سبب موتها، قال فهد، لكن من الذي ضربها هكذا؟ وبدأ يزعق بحدِّة في الممر: «أمي ماتت، فيه أحد قتلها!» هدّأه الطبيب واقترب منه عمّه وياسر، والخال إبراهيم الذي دخل للتو، عانق فهداً وعزّاه، أخذوه إلى مكان الانتظار الخالي قرب الأسرة المتحركة في مدخل الإسعاف، شرح العم أن شيخاً مصرياً ينفث عليها منذ عشرة أيام، وتبين أنها مسكونة، حتى أن الجني المشرك داخلها تكلَّم بصوت سمعه هو وياسر ولولوة، بل إن الشيخ تحاور معه، ووعده بأن يخرج منها، لكنه البارحة نكث وعده ورفض أن يخرج من جسدها

بتحدٍ، فاضطر الشيخ أن يضربه كي يخرج، وظل يضرب حتى هرب الجني وصمت صوته، فطلب أن يجعلوها تنام كي ترتاح، فنامت بعينين غائمتين، فلم تمطر، ولم تستيقظ لصلاة الفجر.

غطَّت وجهها تماماً بجلال صلاتها، ولم تظهر سوى قدماها المحمرتان، علب الدواء ملقاة بجوارها، هاتفها الجوال خمد في جوفه صوت الأمام السديس وهو يقرأ سورة مريم، السورة التي تحبها كثيراً، قارورة ماء زمزم، رزم أوراق مخطوطات الزعفران، ورقة بآيات قرآنية مكتوبة بالزعفران ومنقوعة داخل كوب ماء أصفر، مصحفها بريشة النعامة الموضوعة على سورة الحشر، كتيب صغير للأدعية، وحسرة مكتومة تطير بجناحين من ألم، وبكاء تشرنق في الستائر المسدلة، وملاك موت متألم وهو يلم أغراضه ويخرج من النافذة قبل أن يلقي عليها النظرة الأخيرة، ورجال كثر وطالبات مدرسة متوسطة في شارع الخزان، وأطفال عابثون يتزحلقون بفرح في حديقة الفوطة، وباعة محلات الأكلات الأردنية والفلسطينية يقفون على الرصيف بينما تمر هي طائرة بثوب أبيض ووجه باسم رغم غلالة حزن تتحلق حول العينين.

ما أقسى العمر يا سها!

ما أقسى اللحظة وما أبرد أن يخمد الدم المجنون الراكض في الجسد، ثم يتوقف القلب عن الغناء!

قام فهد بصخب نحو الطبيب، ثم عاد تائها من جديد إلى بوابة الإسعاف، وأمسك بذراع رجل الأمن الأسمر، وقال له بنبرة صارمة: مصري ضرب أمي حتى ماتت، اتصل بالشرطة. تحرَّك رجل الأمن وقام بالاتصال وتحدث لدقائق وهو يخطط بالقلم فوق طاولته قرب الباب الخارجي، صاح جوال فهد، وتحدث تخنقه العبرة شارحاً لصديقه سعيد

ما حدث: «تخيَّل أمي تموت مقتولة» يفزع سعيد وهو يقول له إنه في الطريق، وينصحه بأن يحقق في الأمر، لازم تعرف كل ما حدث يا فهد! الخالة سها مثل ما هي أمك، هي أمي أنا أيضاً.

-52-

بدأ فهد يطوف مثل ذئب خارج مبنى الإسعاف، يمر أمام الباب الزجاجي ذاهباً وعائداً كما لو كان أمام سياج حديدي يفصله عن الحرية، يريد أن يطير أو يقتل أو يهرب، يتمنى لو نسي فجأة من هو، لو أن ذاكرته مثل فراشة تقف على زهرة، فتطير فجأة ولا تعود، لمح من أعلى الدرج البعيد غرباً، النازل من مواقف السيارات المكشوفة في الشمس، صديقه سعيد، وهو يهرول بخطى مرتبكة وضائعة، ضمّه إلى صدره وهو يجذب رأسه نحوه ثم يقبّل جبينه، ويردد بأسى: «أحسن الله عزاك، وصبرنا جميعاً على مصابنا» ثم بدأ يواسيه بكلمات دينية، وأن هذا طريق كلنا سنسلكه، وقد تكون وفاتها راحة لها من معاناة المرض.

- لكن هذا قتل يا سعيد، ما هو موت طبيعي!
- طيب والعمل؟
- طلبت الشرطة، ووصل محقق الآن. ثم أشار إلى الداخل: يحقق الآن مع عمي!

دخلا إلى ممر الاستقبال، كان ياسر يتكئ على زاوية جدار الممر، وينظر يميناً تجاه أبيه، حيث يجلس أمام المحقق، يتحدث بحماس وثقة، يحرِّك يديه معاً، يسحب شماغه كل فينة وهو ينزلق إلى قفا رأسه، كان

ياسر يراقب والده لكنه لا يسمعه، بغتة وقف رجل سمين بجوار فهد، يظهر نصف ساقيه الممتلئين من تحت ثوبه الأبيض، السلام عليكم ورحمة الله، فرفع فهد رأسه ليرى رجلاً مصرياً ضخم الجثّة، بوجه أبيض مستدير تتشرنق تحته لحية سوداء مقصوصة بعناية دقيقة، وفي فمه سواك يلوكه على الجانبين باستمرار وقلق، أجابه دون أن يمدَّ يده ليصافحه، عاد إلى الباب الزجاجي وتحدَّث مع رجل الأمن عند الباب، الذي أشار ناحية فهد، فخطا الشيخ المصري نحوه بأنفاس مضطربة، وصافحه بحرارة، وهو يقدِّم التعازي داعياً لها بالرحمة، مشدِّداً على أن القضاء والقدر أمر لابد منه، صرخ فيه وهو ينفض يديه في وجهه، «كيف تقتل امرأة مريضة وضعيفة يا مجرم؟» لم يقابل سخطه وصراخه الهائج إلا بهدوء ورزينة «الله يجزاك بالخير» كان يردِّد ببرود طاغ، حتى تدخَّل رجل الأمن، وأخذهما خارجاً، وظل فهد يدعو عليه بالعذاب والنار، بينما كان متماسكاً بملامح باردة تشبه ملامح الموتى، الله يهديك، كان يقول، وعيناه الزجاجيتان تنظران في الفراغ، متحاشياً النظر في وجهه مباشرة.

بعدما هدأ فهد قليلاً وسأله، لم فعل ذلك، صار يشرح له أن الرسول كان يقرأ ويضرب، ثم أخبره بأن زوجها العم أيضاً قد شارك بالضرب. ذكر تفاصيل كثيرة، كيف أن أبا أيوب أحضر له عصا غليظة حين بدأ صوت المارد الأجش يمكن سماعه. ثم صاح العم بلولوة بأن تناوله عصا «أعطينا عصا المكنسة!» فتِّشت في المطبخ وعثرت عليها خلف الباب، سألته ما الأمر، فأجاب بأن الجني بدأ يتكلم وسيجلده الشيخ هذه المرة حتى يخرج من جسدها، قال ذلك وهو يركض بالعصا ليناولها إلى الشيخ المصري، الذي طلب إمساكها من يديها ورجليها، وبدأ يضرب على ظهرها أولاً، ثم على كتفيها لأن المارد يقف فوق كتفها الأيسر. كانت تبكي بصوت أكله التعب والإجهاد، حتى بدا صوتها مثل خوار بقرة

مريضة، والشيخ المصري يجلد بقسوة، ثم ناول العصا إلى العم الذي دقّ به على بطتي ساقيها، ثم رجليها. وأخيراً أمام لعناتها الخائرة همس المصري صوب ياسر بأن يحضر مشرطاً، فأخرجه من جيبه، وكأنما استعد لذلك، فحزَّ الشيخ إبهامها، وانبثق دم أسود طار من لزوجة المارد المشرك، وروحها أيضاً، فنامت بهدوء.

قال الشيخ إنها ستصحو غداً بوجه جديد، وصحة جديدة، فقط غطُّوا وجهها بملاءة خفيفة حتى ظهيرة الغد، لكنها نامت إلى الأبد، كانت طيور لا مرئية تحلِّق منخفضة فوق جثمانها المسجَّى في غرفة الطعام، بينما الطبيب ياسر بعينيه الدائريتين خلف نظارتين تشبهان عيني بومة، ينظر إلى جثمانها، شاعراً بالزهو بعد أن نسف كل العلوم والمعارف التي حصدها في سبع سنين في كلية الطب البشري بجامعة الملك سعود، ووجد العلاج القرآني هو الوسيلة الوحيدة للطب.

-53 -

وجه العم بدا مظلماً، حزناً أم وجلاً من التحقيق وأسئلة الموت والجريمة، كان يتبعه ولده ياسر مثل ظله، بينما استدعى المحقق الشيخ المصري، الذي ناوله دفتر الإقامة النظامية في البلد. دوَّن بعض المعلومات، وبدأ يستجوبه عن تفاصيل ليلة البارحة، كم كان مؤلماً حين يتذكَّر فهد ليلة البارحة، كيف هبط الغبار كثيفاً على الرياض، كيف سبحت المدينة في طبقات ثقيلة من غبار يأكل الرموش، ويطير في فتحات الأنف ليدخل الدماغ، كيف يربض الغبار فوق القلب كقيامة، يتذكَّر فهد كيف خرج بعد نصف الليل وبدأ يطوف الشوارع مغموماً لا

يملك أن ينام، ولا أن يتنفس أيضاً، كيف توقف عند إشارة تقاطع العروبة مع العليا، ونظر قليلاً يساراً تجاه قصر الأحذية، وفكَّر أن يزور أمه لولا أن الوقت كان متأخراً. هل كانت اللحظة تلك، وقت أن خمدت أنفاسها، هل كانت تنظر تجاه القبلة، صوب برج المملكة حيث يقف فهد، وأسلمت الروح؟ ألم يرَ مثلاً فراشة طارت في لوثة الغبار، أو حمامة عمياء تخبطت في أعمدة الإنارة في العليا مول، أو سقطت بين أقدام رجال الأمن عند مدخل مواقف برج المملكة؟ هل كانت روح أمه تلكم اللحظة ترفرف حزينة، خائرة، مطمئنة، ساخرة من الدنيا، ومن الناس، ومن هذه البلاد العجيبة؟ أم لم تكن روحها قد خرجت بعد، بل كانت العصا الغليظة وقت ذاك تعلو في هواء مشبع بالغبار والأتربة، وتحط من علٍ بوشيش يشبه لوثة ريح مسرعة تهرب من الطرقات؟

دخل من باب الإسعاف رجل أربعيني يحمل أوراقاً، ويلبس لباساً مدنياً وشماغاً، مرَّ عجلاً وصافح الطبيب المصري، وتحدَّث معه لثوان، ثم وقف على رأس المحقق، وقلَّب الصفحات العشر المملوءة حزناً وسخطاً، حيث يظهر اسم سها مثل جثة جندي أصابته رصاصة حرب طائشة قبل أن يدخل ميدان المعركة. فجأة ظهر ياسر بجوار الرجل الأربعيني، وبدا أنه يناقشه في أمر مهم، اقترب فهد منهما تاركاً سعيداً جالساً على كرسي بلاستيكي من النوع الذي يستخدم عادةً في الحدائق، كان الرجل ذو اللباس المدني، وهو كبير المحققين، يشرح لياسر الإجراء المتَّبع في هذه الحالة، وهو إحالة الجثَّة إلى التشريح في مستشفى المركزي في الشميسي، حيث يتم التشريح لمعرفة سبب الوفاة، كان ياسر يحاول أن يقنعه أن ينتهي الأمر دون التشريح، فلا يجوز أن نعرِّض جسد الخالة للغرباء، وتنتهك حرمته وعورته بمشارط التشريح، ولسنا بحاجة إلى ذلك، كان فهد بجوارهما، فسأله فجأة: «ومن أنت حتى تقرر إذا كنا

بحاجة أو لا؟ وأنتم هل كنتم بحاجة إلى جلدها حتى الموت؟»

حاول طبيب الامتياز ياسر، وهو يحرِّك يديه بكثرة أمام ابن عمِّه الساخط والحزين، أن يشرح بأن أمر موتها كان مفروغا منه حسب نتائج الفحوصات والأشعة، فالمرض منتشر في رئتيها ولا توجد فرصة نجاة، لذا حاولنا أن نلجأ إلى علاجها بالقرآن، فقد سمعنا أن كثيراً من الناس شفاهم الله بالرقية الشرعية! قال كبير المحققين إن هناك حالة مشابهة حدثت قبل يومين في الدوادمي، وكانت الضحية طفل في العاشرة، تعرَّض إلى الضرب حتى الموت، ثم أشار إلى أن حالات كثيرة تتعرَّض للتعذيب لاستخراج الجنِّ أو المردة، قال العم الذي اقترب من الثلاثة الواقفين في العنبر الجانبي أمام الأسرَّة المحجوبة بستائر، إن إكرام الميت دفنه، والموت حق، وميتة أم فهد قضاء وقدر، وقد يكون كفَّارة لها عن الذنوب، فعذاب المسلم في الحياة الدنيا يخفف عنه عذاب الآخرة! كان كبير المحققين يهز رأسه موافقاً، ثم أضاف العم، بأن التشريح سوف يعطِّل الدفن، وتكبر المسألة أمام الأقارب الذين سيأتون غداً ظهراً من خارج الرياض للصلاة عليها.

رمق ياسر أباه بطرف عينه قبل أن يكمل جملته، هل التنازل عن القضية لا يجعل الفقيدة ترحَّل إلى المشرحة؟ بحيث تذهب إلى الثلاجة مباشرة؟ اعترض فهد، «هل أتنازل عن قضية قتل؟ وقتل من! أمي؟ أنا لن أتنازل». كان العم يشعر أنه وابنه ياسر قد تقع أقدامهما في الجريمة، فالتفاصيل الدقيقة حول من أحضر عصا المكنسة، وهي أداة الجريمة المستخدمة، ومن ناول الشيخ المصري الأداة، ومن أمسك الضحية ومنعها من الدفاع عن النفس ومقاومة الاعتداء، ومن شارك في الاعتداء أيضاً، كل هذه التفاصيل الجنائية الصغيرة تقود العم إلى المحكمة، الأمر الذي جعله يناقش بغضب وهو يهز يده أمام ابن أخيه، وكل فينة يسحب

شماغه الذي يتزحلق نحو مؤخرة رأسه، بينما يلتقط ياسر الحديث من أبيه، وهو يعدِّل نظارتيه الطبيتين فوق أنفه ويتحدَّث بمداهنة حيناً، وبجلافة حيناً آخر، كان فهد يقطر عرقاً وغضباً، وتفاصيل حياة أمه في الأيام الأخيرة، تنساب أمام عينيه كفيلم طويل بلا آخر، يتذكَّرها قبل شهر، حين حكت له حكاية عمته الكبرى، التي سمعتها مراراً من أبيه، لم تكن تنسى موت العمّة هيلة، الشقيقة الكبرى، في حالة مشابهة قبل خمسين سنة، في وادي الروغاني بعنيزة، وكيف كان على الأب صيام شهرين متتاليين كفَّارة عن القتل غير المتعمَّد، أو الإهمال تجاه طفلة في العاشرة، كانت قد بدأت تشعر بصداع ينتابها لحظات كثيرة، ثم بدأت تستنجد بالجدران حين تمشي، وتسحب قدميها على الأرض دون أن ترفعهما، كانت الدنيا تتضاءل أمام عينيها والضوء يخبو شيئاً فشيئاً. لم تُفِد الرقى والأدوية الشعبية من امرأة تدعى موضي في «الصباخ». حاولت أن تنقذها من الدوار والدوخة والعمى، لكن دون جدوى. سليمان السفيلاوي لم يعرف أخته هيلة، لأنه لم يكن قد ولد بعد، لكنه يراها جيداً حسب وصف أمه، طفلة جميلة بيضاء لها جديلتان على الظهر ومفرق شعر رأسها يضيء كبرق، عيناها واسعتان مع لمعة نادرة. حين تضحك فإنها تكشف عن أسنانها البيض بابتسامة صغيرة، كانت تبتسم بخفر فتاة في العشرين، رغم أنها أصغر بكثير، حملت عن أمها الكثير من الأعمال المنزلية، عاد الجد بعد صلاة المغرب وهو يخبر الجدة بأن إمام المسجد في «الجردة» سيأتي لينفث عليها، جاء الشيخ مرتين، ونفث عليها بصوت عال وجهوري: «والنجم إذا هوى, ما ضلَّ صاحبكم وما غوى». ثم نفخ هواءً عنيفاً من فمه، حتى أصاب الصغيرة الملل والسأم، وهي تغطي وجهها بشيلة سوداء. صارت تتأفف وهي تصد بوجهها المحجوب عنه، فيدير وجهها نحوه بالقوة، وينفث فيها بصوت صارخ تقريباً «قل أوحي إلي أنه استمع

نفر من الجن...» ثم قالت الصغيرة هيلة: «خلاص!» قالتها أكثر من مرة وهي تمدُّ يدها بطريقة تشبه من يدفع عنه أذى، قرَّر بعدها حين خرج مع الجد عند الباب بأنها مصابة بالمسِّ، هكذا صار الجد يحرق فوق لهب «الكولة» لفافة مبرومة من قماش الشيلة السوداء بحجم البنصر، ثم ينفخ النار المتوقدة وما أن يتضافر الدخان الأبيض من جمرة القماش حتى يدخل طرف الشيلة في فتحة أنف ابنته الصغيرة هيلة فتزعق بسبب الجمرة الحارقة، وتكاد تزهق روحها وهي موثقة بيدي أمها، حتى تحوَّلت فتحتي أنفها الأبيض الصغير إلى ما يشبه مدخنة موقد، محفوف بالسواد والجروح المتفلقة.

بعد أيام اصطحب الجد زوجته، وسار بسيارته الفورد الحمراء القديمة إلى جنوب بريدة، وهما يحملان الصغيرة المصابة بالعمى والدوار، الطريق البرِّي كان قاسياً وموحشاً تجاه عنيزة، السيارة تصعد وتهبط في الوهاد، وما أن اقتربت من عروق النفود حتى بدأت معاناتهما في الحفر والدفن لعجلات السيارة العالقة في نعومة الرمل الأحمر، حتى بلغا وادي الروغاني فتنفسا الصعداء، كان الوقت ليلاً، والإعياء قد نال منهما حد النعاس الذي يشبه الموت، كانت الخيام المنصوبة في الوادي معروضة للإيجار، لكن الجد أوقف السيارة ونزل ساحباً صندوق عدّة القهوة والشاي بصعوبة من حوض السيارة الخلفي، فتح الصندوق الخشبي وأخرج دلة القهوة النحاسية وبحث في الظلام عن عود ثقاب وقطعة ليف غرزها في فم الدلة، أخرج من علبة كبريت أبو شعلة عوداً وأضاء الحلكة بشعلة صغيرة في فتيل «الكولة» التي أفرزت فوراً رائحة الكاز، كان الجد يحتاج أن يصلب رأسه المعطوب بفنجان قهوة مرَّة قبل أن ينام، بينما كان غطيط الجدة في مقصورة السيارة لا يقطعه سوى أنين هيلة كل فينة.

قالت الجدة ليلة صيف ساكنة قبل موتها بأيام قليلة أنها وضعت السعوط في ماء، وسقت هيلة سبع جرعات متتالية، وفي اليوم الثالث من السكن في خيمة ومعالجة الصغيرة بالسعوط الذي له رائحة الغبار، وبينما كان الجد خارج الخيمة ذات صباح باكر، يتفاوض مع رجال آخرين لشراء بقرة، هلكت الصغيرة هيلة بين يدي أمها. جاء الجدّ بعد أن اشترى البقرة وربطها في وتد الخيمة. ثم دخل على الجدة وغسلا جسد ابنتهما الصغيرة وكفّناها، وصلى عليها الظهر مع الجماعة، ثم دفنها في مقبرة الطعيمية في عنيزة، وعاد الجد والجدة ببقرة من عنيزة، كانت الجدة تروي الحكاية وهي تشعر بحنق وعبرة تسرق صوتها كلما أعادت الحكاية طوال خمسين عاماً.

ها قد ماتت سها بالطريقة ذاتها، في الماضي ماتت هيلة على يد شيخ الروغاني، والآن ماتت سها على يد شيخ مصري. في الماضي كان على الجد كفّارة عن ذنبه، فقبول أداء الكفّارة هو اعتراف بالذنب، بينما العم وابنه يتهربان من مسؤولية قتل أم فهد، فقد اعتبرا نفسيهما مجتهدين بعد أن عجز الطب الحديث عن علاجها.

«يا إلهي، هل ظنَّت أمي لو ظنّاً، ذات يوم، أنها ستموت بعصا وخنق وإغراق بالماء حد التقيؤ؟ هل يعقل ألا يؤثر العلم ودراسة الطب على ابن عمي ذي العينين الدائريتين المتلاصقتين كعيني بومة تتربَّص في الظلام؟» كان فهد يفِكر.

انسحب ياسر من الجدال الحاد، وهمز أزرار هاتفه المتنقِّل بسرعة، وتحدَّث بصوت خافت، بينما كبير المحققين كان يشرح بأن تنازل الورثة عن حقهم في اشتباه القتل، إنما هو تنازل عن الحق الخاص، أما الحق العام الذي تملكه الدولة فهو يبقى في يدنا نحن! بمعنى أن الشيخ

المصري لن يفلت من العقاب حتى وإن تنازلتم! أصرَّ فهد بأنه لن يتنازل عن حق أمه في الحياة، ولن يوقِّع على أي شيء من هذا القبيل. عاد العم إلى مسألة القدر، وأنت لا تؤمن بالقضاء والقدر: «يا أخي خف من ربك» كأنما يمهد كي يتهم ابن شقيقه بأنه علماني كافر وملحد. رنَّ الهاتف المتنقِّل في جيب فهد، نظر في الرقم فوجد اسم طرفة، يومض بإلحاح، قطع الخط، وانتبه إلى رسالة واردة من سعيد: «فهد لا تتنازل عن حق أمك لهؤلاء الكلاب!» التفت نحو سعيد فرآه جالساً على مقعد بلاستيكي أبيض واضعاً ساقاً فوق أخرى، ويهزها بإيقاع قلق ورتيب. تحرَّر فهد من الجو المخنوق، وخرج إلى مظلة موقف سيارات الإسعاف، كي يشعل سيجارة بين سيارتي إسعاف ثم ينفث دخانها ويبكي بحرقة، جاءت يد حنون تحط على كتفه، كان سعيد يواسيه ويحرِّضه في آن.

- 54 -

اغرورقت عيناه، فأمسك سعيد بذراعه وحاول أن يواسيه، بينما أجهش بالبكاء فجأة، وأسند رأسه إلى مرآة السائق الخارجية لسيارة الإسعاف، بكى بصوت عال في هذه اللحظة تحديداً، فهو يحتاج لأن يخرج إلى الهواء، أن يوقد جمرة سيجارة، أن يجد شخصاً يواسيه غير القتلة، الشيخ المصري والعم وابنه، فقد كان شعوره بأنه لم يفقد أمه فحسب، بل إنه فقدها بطريقة بشعة. لم يضربها أبوه مثلاً، بل رجل غريب جلدها حتى الموت، وشاركه ولده، أي جرأة امتلك العم؟ بل أي جرأة امتلكت أخته لولوة بأن تنتشل عصا المكنسة من خلف باب المطبخ، لتناولها للعم الذي جاء يركض مذعوراً على إثر أصوات الجن الكفرة؟ أي

موت لقلبك الصغير يا لولو؟ كان فهد يدمدم بحسرة وألم وحزن وبكاء...

- إكرام الميت دفنه، ولا أعتقد أن الإنسان سيكرم أحداً في الدنيا أكثر من أمه!

قال العم أبو أيوب، وقد وقف مع الخال إبراهيم وفهد وياسر، وتحدَّث طويلاً موجِّها معظم الحديث نحو فهد، يدير السواك في فمه ويكر خرز المسبحة بإبهامه بطريقة آلية عجولة: «إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» فيومها جاء- رحمها الله- وساعتها حلَّت، وعلينا أن نؤمن بالقدر والمكتوب، وكل ما نفعله يا إخوان هو من عمل الشيطان، ولن يعيد الميت إلى الحياة». قاطعه فهد: «لكنه يعيد حقه، وإلا صارت الدنيا فوضى يا عم، أمي ماتت مقتولة حتى لو كانت مريضة، حتى لو كان الأطباء قالوا إنها ستموت بعد أشهر أو سنة، فلا أحد يعلم كم ستعيش!»

«أعرف، قال العم وهو يرمق سعيدا الواقف خلف الزجاج، لكن هذا الشيخ حسن النيَّة ومتَّبع للسنة، ومن عفا وأصلح أجره على الله، هذا شيء، أما الشيء الآخر الغائب عنك يا فهد، أن تحويل جثمانها -رحمها الله- إلى المشرحة ودوخة الطب الشرعي ستعذبها وتعذبنا، هل ترضى أو حتى تتخيل أن أمك تحت مشارط الأطباء بعد موتها؟» لا، لا نرضى، قال ياسر، فاعترض فهد، «لا تتحدَّث فيما لا يخصّك!» أمسك العم بيد فهد وأخذه خارج مبنى الإسعاف.

- يا فهد لكنه يخصّني، فأنا زوجها، ثم نحن الآن في حالة عزاء، ولا تظن أن أحداً سيناله شيء، لأن كل منا عالجها بالرقية بحسن نيّة، وحتى أختك لولوة شاركت في الاجتهاد، فالوضع في هذه الحالة قد يلزمه عتق رقبة أو صيام شهرين متتاليين، إذا كان الاجتهاد خاطئا

والاختيار خاطئاً. قاطعه ياسر الذي لحق بهما: «لم نخطئ والرجل شيخ معروف وصاحب مؤلفات موجودة بمكتبة الرشد!.» واصل العم أبو أيوب كأنه لم يسمع شيئاً. «المطلوب الآن باختصار هو أن نتنازل عن المصري، ويصدِّق تنازلنا بسرعة في المحكمة، ونحاول ألا يحوَّل الجثمان إلى التشريح، ولا ننام الليلة إلا بعد وضع المرحومة بالثلاجة، حتى نبدأ الغسل غداً والصلاة عليها العصر.»

كان يوماً عاصفاً كالحلم، يمرُّ خطفاً أمام عينيّ فهد، الذي تراوحت أيامه بين رائحة الزيت، والقماش الخشن ذي الحبيبات، والفرش المتنوعة، ومذكرات الكلية، وممرات جامعة الملك سعود، والمكتبة المركزية، ومركز سوق غرناطة، وسوق لي مول، وصديقه سعيد، وصديقاته نهى وثريا وطرفة، كانت أيامه بسيطة ونمطية، يجلس في مقهى الشلال على طريق الدمام، أو في مقهى طريقتي بشارع العروبة، يحب فيروز وخالد عبد الرحمن، ويحب الرقص والرسم، ويتابع معارض التشكيل في قاعة شدا أمام بنده العزيزية بالمربع، وقاعة الشرقية شمال مستشفى التخصصي، جولاته مع سعيد لا تتعدى شارع التحلية والعليا، ومطاعمه تتراوح بين بيت الفطيرة الدمشقي بشارع ليلى الأخيلية، وزيت وزعتر في شارع التحلية، ولا يحب من مطاعم الوجبات السريعة سوى ماكدونالدز.

صحيح أن ثمَّة علاقات عابرة عقدها مع من حوله، قبل أن يستولي العم على بيتهم، مثل عبدالرزاق الهندي في تموينات السليمانية الذي فتح باسمه حساب مؤجل الدفع، وأبو ريَّان صاحب مخابز السفراء في شارع العروبة، لكن العلاقة كانت سريعة وعابرة، أما الآن فقد تجاوز عالمه الصغير الحميم، كأنه فجأة سقط من مروحية صغيرة في أحراش غابة مظلمة وموحشة، جعلته ينظر في الشجر الكثيف أول مرة، ويسمع

أصوات كائنات جديدة ومخيفة، ويرى أعيننا حمراء مشبوبة بالخديعة. هو الآن في منام سيصحو منه ذات صباح، ولا يجد منه سوى أوراق يابسة في ممر زهير رستم تدفعها ريح خفيفة يقودها أيلول، وسيقف في الشارع والشمس الصفراء النابتة من الخلف قد بدأت تصفع الجسر العالي لبرج المملكة الضخم، ثم يمطُّ ذراعيه على اتساعهما ويقول «يا الله صباح الخير» فيمضي محتذياً نعله الزبيري المتهتك والذي يسحبه ببطء حتى يجرح وقعه المنتظم على الإسفلت سكون الصبح، يتسلمه شارع سيدة الرؤساء الموازي لشارع العروبة، ثم يتجه شرقاً هابطاً من أمام مبنى شرطة العليا القديم، واقفاً ناعساً أمام فحيح التنُّور بينما الجذع المربوع للخبَّاز الأفغاني عبدالمولى يتمايل وهو يضرب بخفَّة جدار الفرن بحاملة العجين المستديرة، ثم يمسح عرق جبينه بفوطة متسخة تتدلى فوق كتفه الأيمن.

لم تكن لحظات المستشفى والإسعاف وموت الأم معذَّبة وصراعه مع عمِّه وابنه، وحواره مع المحقق وموضوع التنازل والقاضي والمحكمة والثلاجة والمغسلة والجامع والمقبرة، هي لحظات معروفة ومألوفة لديه، بل كانت لحظات رعب وقلق وخوف، لحظات جديدة ومريعة تشبه لحظة من خرج من عتمة شقة صغيرة في المصيف، إلى فضاء وحشي سديمي ثقيل ومؤلم يجلب الريبة في تفاصيله. كان نقيًاً ووديعاً، يدمن رائحة الزيت، ويحب الورد والموسيقى والفنون والحياة البسيطة الواضحة كالشمس، ويحب طرفة أيضاً، لكنه الآن بدأ الخطوة الأولى في عالم غامض وغريب يحاكمه ويتآمر ضدَّه، كان في مشهد رومانسي حميم من فيلم طويل جداً تلته فجأة جلبة وقع حوافر خيل وسيوف وطلقات رصاص ومعركة ورؤوس وأشلاء تتطاير في الأنحاء.

اقترح المحقق في حالة تنازلهم أن يكون التشريح سطحياً، وليس تشريحاً عميقاً في جسد الأم، فذلك لن يستغرق سوى ساعتين على

الأكثر. حاول العم أن يلغي أمر الطب الشرعي والمشرحة نهائياً كسباً للوقت، لكن المحقق رفض ذلك، ووعد بإسراع الأمر حالاً، ثم أجرى اتصالاً، وقال إنه حاول أن يطلب من الطبيب هناك في مستشفى الشميسي أن يأتي هنا بدلا من نقل الجثة إليه، لكنه اعتذر، إلا أنه وعده أن ينجز الأمر في ظرف ساعتين، قال ذلك المحقق مبتسماً بأدبٍ عالٍ، ثم مضى بعد أن تسلم دفتر التحقيق من الشرطي، ومضى.

فهد كان مثل طفل ذي خمس سنوات، فقد أمه في قسم النساء بصالة زواج، يتلفّت بدهشة وينصت إلى مكالمات عمه الذي يحاول أن يجد أحد معارفه من القضاة كي يسجل التنازل شرعاً، همس سعيد في أذنه: «ليه تتنازل ببساطة؟» وبنظرات تائهة يجيب: «الفكرة هي دفن الميت حتى نكرمه، على الأقل أغسل ضميري، بعد ما أهملت أمي الأيام الماضية»، يجيب سعيد بصوت أعلى: «لكنك الآن تهملها أكثر، وتهدر حق الأخذ بثأرها من القتلة!» انفعل فهد وهو ينفض يديه بحسرة وعجز: «يا سعيد أنا ما ني ناقص تعذيب، ضميري يأكلني أكل»

أمسك بيده وقاده كأعمى إلى مسجد المستشفى لصق الحديقة، صاعداً به الدرجات الثلاث، وبعدما خلع حذاءه: «صل صلاة الاستخارة!» نصحه سعيد، ومضى إلى الحديقة مشعلاً سيجارته، في حين اتخذ فهد مكاناً قصياً في المسجد، مجاوراً للنافذة الزجاجية الطولية، لم يكن هناك سوى عامل نظافة بلباسه الأفرول الأصفر يجلس في الصف الأمامي قبالة المحراب، منهمكاً بقراءة المصحف بين يديه، وبينما كان فهد يطيل السجود مسبِّحاً وداعياً، قام واقفاً مغمضاً عينيه بخشوع وطمأنينة، وحالما انحنى راكعاً لمح فوق طرف ثوبه ريشة حمامة بيضاء، صغيرة وناعمة، أطال الركوع وهو يتأمل حياته السابقة تتمثل في ريشة، لم يعرف ماذا قرأ في صلاته، وهل صلّى ركعتين أم ثلاثاً، التقط الريشة

من على ثوبه وقد جلس يستغفر، حرّكها ببطء فوق شاربيه الخفيفين، وتخيّل الحمامة القبيحة التي سقطت منها الريشة، تخيّل همهمة الريشة وسخطها وهي تنام وحيدة وكئيبة فوق سجاد المسجد الأحمر، تهذي وينصت:

ريشة ضالة أنا، وحيدة وعارية وحزينة، لا أحد يعرف تاريخي وأسراري، فلم أسقط من طير البط النافض ريشه على شط العرب في جحيم الطائرات الأمريكية، لم أطر من هناك متأرجحة في الهواء، عابرة الصحراء المؤججة بدخان الحرب، لم أطر محلقة بجنون وضحكات حتى سطح بيت في حي البشر ببريدة، لا، لم أفعل، كنت مجرد ريشة طائر حمام أحب المدينة الصامتة، المدينة المخاتلة التي تنام على شهوة ودعارة وتصحو على صلاة الفجر، ريشة حزينة أنا لأن يستغلني هنا من يريد مضاجعة فتى أو طفلاً، لست ريشة جناح طويلة وثقيلة شيئاً ما، ولا ريشة ذيل مصبوغة بالرماد، أنا مجرد ريشة صغيرة طارت من صدر حمامة وحطت على الأرض، وبينما ولد أكبر سناً يوثق طفلاً من خلفه ويرفعه عالياً كي يرى مخفق حمامة تركتني، كان الاحتكاك حولي يجذب الهامل من الأشياء الطائشة على أرض السطح، كنت شيئاً طائشاً ومرمياً، إذ شدّتني الشحنات الكهربية في ثوبه الصوفي الأخضر، وطرت إلى حافته، فما أن نزل إلى الطابق السفلي ولمحت أمه الريشة حتى شدّت أذنه، ودلفت به إلى غرفة النساء وهي تكز على أسنانها من الغيظ: وين كنت؟ ومع مين؟ وشو عملت؟ ولا أعرف إن كان أثر الوسم في ظاهر كفه اليسرى، تلك التي يرسم بها، كان بسبب كيِّ الملعقة المحروقة فوق النار، آنذاك.

هل يشعر بالذنب والخطيئة مثلي؟ كم شعرت بالخطيئة وأنا أشاهد وأرى، ولا أملك أن أدفع الأذى عن طفل بريء وخائف! كم كان تاريخي متقلباً، مشرفاً مرة ومؤذياً مرات، فمنذ قرون كنت أتباهى وأحدهم يقص

طرف قصبتي الحادة لتصبح مائلة، كي يغمس رأسي في دواة الحبر الحالك، فأكتب تاريخ الشعوب وآدابهم وآلامهم، وكنت أيضاً أكتب صك إعدام أحدهم وأنا أنزف ألماً وقهراً بيد قاضٍ ظالم، كنت أتعارك مع ريش كثيف داخل كيس قماشٍ حين تضع فتاة جميلة رأسها كي تنام بدعةٍ، وكنت أبكي مع زميلاتي الخائفات في الكيس ذاته، إذ لا نرى شيئاً لكننا نسمع صوت رجل يصرخ ويعربد ويغتصب.

في أيام الأعياد والأفراح كنت أزيّن أكمام البنات الصغيرات مع ريش آخر ملون وكثيف، كنت أحياناً أقف وحدي بخيلاء فوق قبعة طفلة أو شابة حسناء، كنت أنام أحيانا بسكون وطمأنينة نادرة بين صفحتي مصحف كريم، يسترخي فوق رفٍّ خشبي بمسجد طيني قديم، وكنت أيضاً في منفضة ذات عصا أنفض الغبار العالق على الستائر والنوافذ، تهزهزني يد خادمة اندونيسية ذات صباح دراسي هادئ، وأنا الريشة ذاتها ضمن ريش رمادي مجموع بعصا المنفضة ذاتها حين يسحبها بهدوء رجلٌ شره متيقظ ونعظ، يسحبها من يد الخادمة ذاتها، وينتهكها بصمت يقطعه لهاث وأنين وحنين إلى بلاد بعيدة، حيث زوج وأطفال لا يرون ما يحدث لأمهم، مثلما نراه نحن معشر الريش الساقطات، فكيف نحن معاً ريش نعام نرى رجلاً ينتهك جسداً صغيراً لخادمة غريبة، بينما الواحدة منا، ريشة النعام ذاتها، تنام بين ورق طاهر لمصحف كريم، ريشة تحفظ أين وقف قارئ المصحف، وتحفظ سر الاغتصاب أيضاً.

كم أحس بجلد الطائر المقتول والمرمي قرب النار ساخناً حين تنتزعني أصابعُ غليظة وتطيّرني في هواء برّي ناعم! كم أسمع آهة الطائر الذي لم يمت بعد! تجرحني آهته حين أنتزع منه بالقوة، كأنما يقول لي: يا ريشتي الحميمة الدافة، عيشي بكرامة، وطيري مع الريح، ولا تشهدي مأساة أو على الأقل لا تشتركِ منها، فأنتِ ريشة ينفث فيها الله سكينته وطمأنينته!

- سأفعل يا أبي الطائر!
- لكنني يا أبي مجرَّد ريشة! ألا تعرف ذلك؟

ريشة أنا لا أملك من الأمر شيئاً، لا أطير، أبقى حزينة ووحيدة ومشردة على إسفلت أو رصيف أو سطح، أحلم بريح ذئبية تعوي في الطرقات كي أطير، ريشة أنا لا حول لي ولا قوة، خفيفة لكنني لا أطير، ثقيلة لكنني لا أزن شيئاً، ريشة شاهدة ومشهود عليها، أرى بحدسي وأسمع بقلبي، أليس للريشة قلب أيضاً، يخفق كلما هبَّ هواء نادر في مدينة قبيحة ووحشية وصامتة؟ أليس للريشة حلم وطموح، بأن تجد مدينة بيضاء رمادية سوداء لا يعيش فيها سوى الريش، لا إنسان فيها ولا حيوان، ليس سوى الطير والريش والهواء اللعوب؟

لا أعرف، لِمَ لا يفكر بي ابن آدم؟ فكم من فضيحة وجريمة قتل ومأساة كنت شاهدة عليها؟ كنت شاهدة على طفل بدأت مأساته مبكراً، ثم كنت شاهدة على مراهقته وقت أن ضمَّته امرأة أربعينية إلى صدرها اللدن، فشمَّ عطرها بدءاً، ثم هاجمَتْ فمه وعينيه، وأنا أطوِّق مع ريشات وردية حافة صدر فستانها، لم يتنبه أولاً، لكنه صحا بغتة وطارت سكرته اللذيذة، فنهض عن جسدها، وهو يكاد يبكي، ذاهباً إلى حوض المطبخ كي يتمضمض مراراً، يرفع رأسه عالياً تاركاً الماء يغسل فمه وأقصى حلقه، ثم يكسر عنقه سريعاً إلى الأسفل قاذفاً كمية الماء في قلب الحوض، هل كان يغسل طعم لسانها من فمه، أم طعم أسنانها، أم تراه كان يغسل الخطيئة والذنب؟ كنت أبكي، أقسم أنني حين أدارت ثريا الحجازية مروحة السقف وهزَّني الهواء فوق حافة صدرها بكيت، أعرف أن لا أحد يرى دموعي، ولا أحد يسمع صوت نشيجي المرّ، لكنني أبكي على ما اقترفته قصبتي الصغيرة وأطرافي الناعمة حين علقت على ثوبه الأخضر الشتوي ذات ظهيرة باردة على سطح منزل في حي البشر ببريدة.

-55 -

أمام قصر فاره في حي الغدير شمال الرياض وقفت سيارة اللاند كروزر البيضاء، ونزل منها أربعة رجال، أولهم كان العم بكرشه، حيث سارع بفرد مشلحه الملفوف، ونفضه جيداً، ثم رماه خلف ظهره وثبَّت حواف الزري المقصَّب حول عنقه، فتدلَّى المشلح على كتفيه، تبعه الثلاثة، الخال إبراهيم وفهد وياسر، وقد أدخلهم حارس اندونيسي بلحية طويلة تشبه لحى الماعز، كانت حدائق القصر مذهلة، مما جعل فهدا يتلفَّت بدهشة جعلته يفكِّر في شجيرات الورد الكبيرة المصطفة على حوافي الحدائق الشاسعة، وفي المجلس انتظروا إلى أن طاف عليهم عجوز إريتري بفناجين القهوة.

كمن يوقِّع وثيقة إعدام، أمسك فهد القلم وبدأ يجرح الورق كما لو كان يجرح قلب أمه، وهو يوقِّع مع عمّه على إقرار التنازل عن الشيخ المصري محمد عبدالمعطي، فيقبِّل الخال رأسه، بينما كان القاضي يحدِّث عن أهمية الرقية ومشروعية الضرب، ولكن يجب معرفة حدود الضرب في الإسلام، ثم يشير إلى التسامح والعفو في الدين، ويدعو للقتيلة بالرحمة والمغفرة، وأن يكون عذابها ومعاناتها تكفيراً لها عن أخطائها وذنوبها، ومع كل دعوة كان ياسر يردِّد بحزن مفتعل: «آمين» فينشج ويمسح عينيه بطرف شماغه، بينما بظاهر كفِّه الأيسر يعاجل به ما تسرَّب من أنفه.

تذكَّر فهد حادثة سخيفة، تشبه حادثة قتل أمه، نشرتها الصحف، وتنازل عنها أصحاب الحق بعد أن مات ابنهم الشاب.

تنازل أهل قتيل الرقية بجدة والإفراج عن المعالج بكفالة حضورية

ذكرت مصادر أمنية مطلعة أن أهل المريض المتوفى لدى أحد الرقاة في حي الرحاب بجدة مساء أول من أمس تنازلوا لدى دائرة النفس بهيئة التحقيق والادعاء العام تمهيدا لتصديق تنازلهم شرعا لدى المحكمة الشرعية بجدة. فيما تم إطلاق الراقي بكفالة وإحضاره عند طلبه، والذي قال أمام الجهات الأمنية إن المريض الذي كان يتولى علاجه مصاب بمسّ من الجن منذ صغره. وزعم أن ثلاث جنيات يسكنّ داخل جسده، إحداهن تدعى مبروكة وأخرى تدعى حبيصة، وهن معه منذ الصغر. وكانت شرطة الشمالية بمحافظة جدة قد أحالت القضية أمس إلى دائرة النفس بهيئة التحقيق والادعاء العام ضد أحد الرقاة الشرعيين ويدعى (ط.ح.ع، 45 عاما) تورط في قتل مريضه (م.أ.ع، 27 عاما) من سكان مدينة قلوة بمحافظة المخواة بمنطقة الباحة الذي يقوم بمعالجته من مس جن أصيب به منذ الصغر بغير عمد، عندما حاول النفخ في فمه فطارت أسنانه إلى داخل فم المريض، وسدت مجرى الهواء فلفظ أنفاسه. وأشرف على القضية مدير شرطة جدة المكلف العميد سعد بن دعجم، فيما باشر الحادث فور وقوعه مدير التحقيقات بشمال جدة العميد محمد الخضاري ومدير شرطة الشمالية العقيد محمد المالكي. إلى ذلك، انتقد عدد من المختصين في الشريعة ما يقوم به عدد كبير من المعالجين بالقرآن دون دراية بأصول الرقية الشرعية، وشدد الشيخ رضوان الرضوان إمام مسجد الإخلاص بجدة على ضرورة تفعيل دور اللجنة الثلاثية المكونة من الإمارة ووزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد والإفتاء لمتابعة المخالفات الناتجة عن مثل تلك الأمور.

وأضاف الرضوان إن مهنة الرقية أصبحت مهنة من لا مهنة له، مشيرا إلى أنه يعرف أشخاصا لا يجيدون قراءة الفاتحة أصبحوا رقاة شرعيين، إضافة إلى أن الجن تتكلم نيابة عن المريض عند القراءة عليه، وهذا جرح في الراقي. وانتقد أسلوب بعض الرقاة في جلب سيدات للعمل سكرتيرات، إضافة إلى التخصص في معالجة النساء وهذا أمر مخالف للشرع، مطالبا بأن تكون الرقية بإشراف علماء مختصين ممن يشهد لهم بالصلاح.

-56 -

في الليل زار أخته لولوة، وفي غرفة الطعام المطلّة على الشارع وضع فهد رأسه بين كفّيه كمن استيقظ من حادث سير كاد أن يودي بحياته، فوقفت أمامه لولوة وواسته بأن مسحت على رأسه، وأشعلت الفرن كي تعد له كوب شاي، وهي تنصحه بأن يحمد الله على هذا الأجل، فهي كانت مؤمنة وكانت تحبّه كثيراً وهو كان ولداً بارّاً بها. تذكّر كيف كانت تستمتع حين يستلقي واضعاً رأسه في حضنها، وهي تفتعل البحث عن قمل تائه في غابة رأسه الموحشة.

كل شيء في الدور العلوي يذكّر بكِ، غرفتكِ الشرقية الصغيرة، سجادة صلاتك والجلال العنّابي الذي تعتمرين به خلال الصلاة، جهاز الراديو ناشيونال الياباني الكبير، والمدفأة التي تعمل بالزيت عبر شرائحها السبع بجوار فراشك، طاسة الزيت فوقها، قوارير ماء معدنية صغيرة تحيط بها، أصابع بسكويت ريكو المطعّم بشوكولا خفيفة، آنية التمر المغطّاة، وآنية فضيّة صغيرة فيها تين مجفف، قميصك القطني المعلّق على باب الدولاب، غطاء الرأس المغروز بين شرائح المدفأة كي يدفأ ويطرد برد رأسك، الستارة الجديدة لغرفة الطعام، ستارة ذات خطّين تحجب الضوء عن عينيك المتعبتين، حقيبتك البنّية المعلّقة على حامل حبل الستارة، علبة بلاستيكية تحفظين فيها كسر نبات الحلتيت والمرّة داخل الحقيبة، علب أدوية الضغط والحموضة والتهاب البول والصداع، زوكار وسكوبان وكولي يوررينال وبنادول، كل ذلك جعلك تسكنين بعيداً عن غرفتك، وعن الصالة التي طالما مددت قدميك فيها، حين تجلسين على فرو الدب،

وأمامك ماكينة سنجر التي تديرين عجلتها برفق، كي ترتقي ثوباً أو قميصاً، والكل يعرف أنك تطيرين على إيقاعها المنتظم إلى سماء وأحلام بعيدة.

كان الصمت يعمُّ البيت، وفهد جالس على كرسي بلاستيكي في المطبخ يتذكر، بينما شهقاته تقطع الصمت المهيب: «تعوَّذ من الشيطان يا فهد»، تقول لولوة وهي تواسيه، وقد وضعت أمامه كأس شاي، ثم أغلقت باب المطبخ وراءها ذاهبة إلى الصالة، شعر بالاختناق، فمشى معه كوب الشاي صوب النافذة المطلة على الغرب، وسحبها فوق مجرى الألمنيوم، فكان جسر بناية المملكة العالي مضيئاً، تنفَّس بعمق وبكى بصوت عال وحار، بينما حطَّت فراشة سوداء على شبك النافذة الحديدي المقشَّر الطلاء، طارت وحطَّت على إطار الألمنيوم البارد، كان السكون يعمُّ السماء المغبرَّة، والحرارة تفيض وتهبط فوق الرؤوس، رمى فهد جسده على مركاة، وأسند مرفقيه على ركبتيه، ثم شبك يديه فوق عينيه وهو يتأوه بحرقة، كان يسمع ضجَّة نغمة الرسائل في جواله، قرأ: أحسن الله عزاءكم وغفر لميتكم! لم يعرف الرقم، ولم يكترث به، أشعل مكيِّف الهواء وأغلق النافذة، فطارت الفراشة السوداء إلى الداخل، وحطَّت على قماش الأباجورة في الزاوية أولاً، ثم فوق حافة الطاولة، قرب كأس الشاي البارد، قال فهد لنفسه، يا لهذه الفراشة الغريبة! فراشة داكنة كالليل، أذكر أنني قرأت مرَّة أن أرواح الموتى تتحوَّل إلى فراشات سوداء تتجوَّل في الأنحاء، هل أنتِ أمي؟ تعالي هنا يا حبيبتي، حطِّي على قلبي، أو لأقل لكِ، حطِّي على رمشي وقولي لي، كيف حدث ذلك؟ كيف قتلوا قلبك؟ وكيف ضحك المصري وعمّي وابنه الطبيب المشعوذ حين أقلقك الحرُّ وشعرتِ بنقص الهواء حولك فرفعتِ طرف ثوبك السفلي، فضحك المصري وهو يقول هذا ما أريد! ثم ضحك عمّي مقتنعاً أن اليدين اللتين رفعتا ثوبها هما يدا الجنِّي، فهي لم تعد تملك من أمرها شيئاً، هيَّا اقتربي

مني يا أمي وافضي لي بكل ما حدث، طارت الفراشة السوداء نحو خزانة كتب صغيرة عند الباب، بعد أن اقتربت يده منها، هل ستعود إلى كتاب ما، خرجت منه تلك الفراشة سهواً؟

تخيلي، أمي، في أيّ بلد خراب نعيش، فقبل أيام أقر مجلس الشورى ببساطة مناقشة تعريف حدود الضرب في الرقية الشرعية، أي أنه أقرَّ بجواز الضرب، وقبل عامين فقط أقام المجلس الدنيا ولم يقعدها، عندما رغب أحدهم في إجراء تصويت على مناقشة أمر تافه لا يحتاج إلى نقاش أصلا، فهل يناقش المجلس موضوع قيادة المرأة للسيارة أم لا يناقشه؟ هؤلاء العلماء يقرِّون الضرب، الذي تحرِّمه ديانات العالم وقوانينه، لذلك يستحق جسدك الضامر الطاهر الضرب والجلد حتى الموت، بحجة إخراج الجنّ من جسدك!. تعالي هنا يا أمي، لا تطيري بعيداً، فالغرفة موصدة الأبواب تماماً، تعالي ولا تدخلي في الكتاب، أريد أن أحادثك وأن أفضي لك بلوعتي: هذه البلاد الغريبة، التي نعيش على أرضها خائفين، في البيت وفي الشارع والعمل والسيارة، هذه البلاد التي لا نصحو صباحاً فيها دونما هزَّة في اليدين أو قشعريرة ما تنتاب أجسادنا، أكلت قلبك ورمتك في ثلاجة الموتى، ألم يعلنوا قبل أيام عن ساحرة أفريقية سوداء عارية ركبت مكنسة وطارت من الدور الثاني حتى الدور الرابع بالمدينة المنوَّرة؟ يا إلهي، لقد نشرت صحفنا العظيمة الخبر. صحفنا كأنما تؤكد تصريحات رجال الحسبة، رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين رأوا الساحرة وهي تطير!

أحياناً يا أمي أشعر أنني لست في العالم الواقعي، بل في حلم أو في فيلم، كأني أشعر بكائن أسطوري هائل يجلس في الأعالي، ويدير بكرة فيلم خرافي، فيستمتع أولاً ثم يضحك بشدة، ويفكِّر أنه حين تفرغ بكرة الفيلم سيرمي بها في المزبلة، ثم يذهب وشأنه، بينما نحن نتقافز ككلاب

صغيرة ملقاة في حفر عميقة مليئة بالقاذورات، قبل أن يتعالى في البعد صوت تراكتور ضخم قادم، دافعاً التراب كي يهيله فوقنا!

مد يده إلى كأس الشاي البارد شارداً، وانتبه إلى الفراشة السوداء التي طارت بغتة من أعلى خزانة الكتب، والتصقت بالمرآة، فذكّرته بقصة ملك الفراش، التي اشتراها مع أبيه منذ سنوات، من مكتبة جرير العليا، قصة تحكي عن ملك فراش طار من مملكته باحثاً عن عمل لصغار الفراش أو اليرقات في مملكته، حتى وقف عند نافذة قصر فاره، وما كاد يتأمل الداخل حتى أرعدت السماء وانهمر مطر غزير، الأمر الذي دفعه لأن يدلف بسرعة إلى داخل القصر قبيل إغلاق الخادم للنافذة، طار إلى غرفة النوم، وهناك وقع في الغرام الأزلي، رأى في المرآة ملكة الفراش بألوانها الزاهية، تشبهه كثيراً، وإن كانت تبدو أصغر قليلاً، كلما اقترب منها اقتربت هي أيضاً منه، وما تلك سوى صورته في المرآة، حتى لمع برق مفاجئ ورعد صاخب تحطمت على إثره المرآة، فهربت الملكة الجميلة، ليعود ملك الفراش حزيناً، ويحكي لأفراد مملكته، الذين تأكدوا أن البرق أو الضوء هو الذي التهم ملكتهم، ومن حينها بات الفراش يحوم حول الضوء أينما وجده!

هل تبحثين يا أمي الملكة عن ملكاً ليلكياً طار منك؟ هل قدر الملوك أن يبحثون عمّا يرسي قواعد ممالكهم، حتى يلتهمهم الضوء كما فعل ملوك العالم من قبل، حتى يتحوّل الضوء إلى نار تحرق ولا تذر؟ - ظل فهد يستعيد لحظته تلك لأيام تلت- تلك الليلة التي نامت فيها أمي داخل الثلاجة، لم أستطع أن أنم جيداً، في الربع ساعة الأولى رأيت فراشات سوداء تطير من حولي، وبعد أن شربت ماء باردا من الثلاجة، وغفوت قليلاً، رأيت أنني كنت نائماً في الحلم والنمل يتسلق جسدي، ووجهي، ويقتحم فتحتي أذني وفمي، ويدغدغ جفنيّ المطبقين فيرتعش جلد جفنيّ

الرقيقين، وأصحو مذعوراً، ثم أنقلب إلى جنبي الأيمن، وقبيل الفجر كانت الطائرات الحربية تحلِّق فوق برج المملكة، ثم تصوِّب قذائفها وحممها نحو عمارتنا الصغيرة، فيهرب الجيران إلى الشارع، بينما أفتِّش في سطح العمارة عن أختي لولوة، وجوز حمام رمادي لا يكاد يطير، فقط يركض مهرولاً على أرجله الحمراء، فأهش بيدي نحوه كي يطير دون أن يترك ريشة على الأرض، أو على ثوبي!

-57-

لم تكن أمه وحدها تبحث عن ملك، بل كانت القبائل كلها تبحث عن ملك الشرق القديم، تبحث عنه كي تسقطه، وتستولي على عرشه، تطير على خيول كالريح، تشرع سيوفها في الفضاء كالقدر، كي تلتقط الريشة من صدر بيته، فسقوط الريشة هو سقوط مملكته، هكذا كانت تسير أحوال بلاد الريش لقرون طويلة، هكذا سئمت قبيلة العجمان من مملكة بني خالد، ومن ابن عريعر، فخرجوا عن طاعته المستمرة لعقود، فأراد أن يؤدبهم، وقتل عشرين منهم، ثم أبقى واحداً منهم كي ينقل ما حدث، فرد هؤلاء بأن وجدوا سبعين رجلاً في الصحراء، مقرفصين يجمعون العشب بسلام، كي يؤمنوا طعاماً للخيل، فمالوا عليهم وأهلكوهم، تاركين واحداً منهم حيّاً كي ينقل لملكهم ما حدث، هكذا أناخ العجمان في الرضيمة، شمال شرق الرياض، مستعدين لحرب طويلة، ومستنفرين بعض القبائل، التي تهافت بعضها نحوهم، فقانون الصحراء يعني إما أن تهاجم جارك، أو أنه سيهاجمك إذا ركنت إلى السلام، فاشترطت إحدى القبائل أن تمتلك الصمان، بموارده المعروفة اللهابة والقرعا واللصافة، حين تقوِّض ملك ابن عريعر، بينما اشترطت أخرى أن تحوز على الشرف، تلك النوق

السود كالليل، التي كان يمتلكها الملك، أما القبيلة الثالثة فطلبت الجياد التي تنهب الأرض كالبرق، في حين اشترطت القبيلة الأخيرة أن تظفر بريشة، مجرّد ريشة تميِّز بيت الملك، صحيح أنها مجرّد ريشة، لكن خطفها وحيازتها تعني سقوط ملك، وانتقاله إلى قبيلة أخرى، تعني أن الفخر والعزة والمجد انتقل إلى مكان آخر. ما جعل تلك الريشة تنال اسم أم الدهور، لأنها باقية لدهور طويلة، تنقل المجد من قبيلة إلى أخرى، هي إذن لعبة الصحراء، تلكم اللعبة المسكونة بالدم، دم يسقي رمل الدهناء، فتنبت عوسجاً وطلحاً يقف في صهد القيظ كرجال مشنوقين، ينظرون إلى الأرض دوماً، معركة طاحنة التهمت الجياد والجمال والرجال، معركة لم ينعم رجالها باعتدال آذار 1823م، ولا بصحو السماء، ولا بزهرِ أقحواني ينمو بغواية وجمال، ولا ببقايا ماء سيل في نقرة أو وهدة أو شعيب، ولا بتغريد طير، كأم سالم، الذي يطير عالياً في لبِّ السماء، ثم يهوي كحجر وهو يعلن عن قدوم الربيع. لا شيء في هذه البلاد يغني عن برك الدم الطري، ولا صوت يعلو فوق صليل السيوف، ولا ليل ناعم وهادئ ما لم تنم الريشة آمنة ومطمئنة على باب بيت رجل قاسي الملامح وحاد الطباع، ينظر كل فجر نحو الأفق، كي يستعد لأول ذرة غبار تعلو في البعيد، وتخفي خلفها جحافل خيل تنهب الأرض وتطويها، عليها فرسان لا يكاد يعلو فوق يقينهم من النصر سوى أنفاسهم اللاهثة، وخفق راياتهم الحرّة المجنونة في هواء مشبع ببرودة فجر لم ينم جيداً.

كان فهد يفكِّر دائماً، في ما حدث لهذه البلاد، ما الذي تغيَّر حقاً عما قبل قرنين من الزمان؟ هذا النفط الأسود، أم الشوارع الشاسعة المنيرة، أم البنايات الشاهقة وناطحات السحاب: «هل تغيَّر شيئاً هنا؟» كان يشير إلى رأسه وهو يتحدث مع سعيد ذات ليل، وقد تابعا في برنامج تلفزيوني آخر أخبار مزايين الإبل، وعودة روح القبائل من جديد، وصراعاتها المقلقة، إذ كان سعيد يتأفف: «هل كانوا يراهنون على الدين، وبعد حكاية الإرهاب

والتفجير، صاروا يفكرون بالعودة إلى القبيلة؟».

كانت القصائد التي تتنقل بين أبناء القبائل قبل قرون، هي صحيفة الترويج لبطولة قبيلة ومجدها، وقبل عقود من السنوات أصبحت الجدران في الأحياء هي الصحف القبلية المهمة، التي يفتخر أطفالها بنسبهم، ويتحدون القبائل الأخرى بشجاعتهم وبطولاتهم، ويضعون وسماً رمزا لقبيلتهم، ثم دخلت القبائل عصر الإنترنت والقنوات الفضائية، بينما بقي العقل يدور في فلك النهب والقتل والسبي، والظفر بريشة ملك، وتقويض مملكة.

-58 -

عن القرية ذاتها، التي تنام في حضن النفود الرملي، ويتنفّس نخلها العالي الهواء الذي يهبّ على استحياء، يتذكّر فهد حكاية مضحكة، يرويها أبوه كلما دار نقاش عن تحريم الموسيقى. حكاية عن بابهم الخشبي الفاسق في بيت جده في المريدسية، الذي بدأ يصدر أزيزاً عند فتحه وإغلاقه بسبب الصدأ في مفاصل الباب، وكأنه موسيقى ناعمة توقظ الناس وقت القيلولة، حتى باتت العجائز يردّدن: «صاحت مزامير السفيلاوي!» وكأنهن يشرن إلى مزامير الشيطان. فكان على الجد المبادرة فوراً بحل هذه الفضيحة، حيث فكّر بدهن مفاصل الباب بزيت الطعام كي يخرس الصوت تماماً، كأنما الحياة هنا منذ قرن وحتى الآن لا تريد أن تسمع صوتاً غير الكلام فحسب، وكلام الرجل فقط؛ لأن صوت المرأة حرام أيضاً، كان فهد يفكِّر بصمت.

قبل قرن كانوا إخوان من أطاع الله، يمتشقون سيوفهم ويخطرون بأرواح صلدة، ثياب مهلهلة فقيرة وعمائم بيضاء قصيرة تعقد حول الرأس، لا يتردد أحدهم بأن يشهر سيفه صائحاً بفطرة صافية: «أنا خيّال

التوحيد، أنا أخو من طاع الله، تبيَّن يا عدو الله»، حيث كان المحمل المصري يتبختر بخيلاء في عرفة، يقودهم رجلان يحملان أبواقاً عسكرية، ويتبعهما خيَّالة مسلحون. وما أن صدحت موسيقى الأبواق تضجُّ في عرفة كي تمهد الطريق للموكب، حتى هجم الرجال ذوو العمائم البيضاء بسيوفهم اللامعة أمام الموكب، وقد استلّ أحدهم سيفه الرهيف، ولحظ به معدة أحد حاملي الأبواق، وتوقف نفخه وتدلّى البوق من فمه متأرجحاً كغصن شوحط، فانهال رصاص الخيَّالة المصريين على الفرسان البدو حتى تساقط بعضهم، وهرب من استطاع الهرب، محملاً بحزن وخزي الهروب من كلمة الحق ونصرة الدين، لكن أكثرهم اطمأن إلى أن صوت الموسيقى الشيطانية قد خمدت إلى الأبد، ولن تعود إلى الشعائر المقدسة من جديد، بعدما ساءت العلاقات مع مصر بعد الحادثة تلك.

بعد سنوات، أهمل الجد معالجة بابه الفاسق، مرَّ ثلاثة منهم يحملون عصي الشوحط على السفيلاوي، ودقوا بابه، منكرين عليه أنين الباب الخشبي الضخم، الذي حين ينفتح، يصحو كل من في المريدسية، وهو صوت منكر يتوجب إنكاره وإيقافه، وإلا فإن الله سبحانه سيصب رصاصاً حارقاً في أذني الجد علي يوم الحساب، وبينما يهزون عصيهم كان وجهه قد امتقع كثيراً، ليس بسبب وقفتهم وتهديدهم، بل بسبب عورته التي انكشفت، حيث الجدة في عمق البيت تهزّ صغيرتها حصة بإيقاع رتيب وتهزج بصوت حزين: «لا واهنيك بالطرب يا لحمامة، ياللي على خضر الجرايد تغنين، عزّي لعينك وان درى بك سلامة، خلاك مثلي يا لحمامة تونين، كسّر عظامي كسّر الله عظامه، شوفي مضارب شوحطه بالحجاجين». ما أن نكص الجد على وجهه حتى ركلها بقدمة: «اسكتي يا مرة، فضحتينا الله يفضحك بين عباده!»

رجال الإخوان صارمون، متحفزون في كل البلاد لمحاربة كل

مخترع جديد لا يفهمونه، إذ يعدّونه بدعة يجب إنكارها، وهي من أعمال السحر والشعوذة التي يجب ألا توجد في ديار الإسلام، والسكوت عنها يغضب الله سبحانه:

من عبدالله بن حسن إلى حضرة الإمام المقدم المحترم عبد الرحمن آل فيصل أطلقه الله من كل بأس وقيد وكفاه من نواه بمكر وكيد، آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال والتحفي عنكم والاحترام وأحوالنا بحمد الله تسركم من جميع الوجوه نعرف جنابكم العزيز أنا ألفينا بريدة بتاسع عشر شوال لم نر من فضل الله مكروها وتحرينا القدوم الإخوان على الابن عبدالعزيز في حين يصل إلى بريدة، لكن حصل منهم توقف لأجل أمور راجعوا فيها الابن وطلبوا منه إجابتهم فيها وهي مسألة البرقي والأتيال ومسألة القصور يطلبون إزالتها بعد الحج وأرسل إليهم الشيخ عبدالله والشيخ عمر آل سليم ليبينوا لهم أنهما ومشايخ المسلمين لم يعلموا أنه محرم، فوصلوا إليهم وتكلموا معهم جهارا في ذلك فلم يقبلونهم وأبوا إزالتها أو يذهبون وقت الحج يفسدون في الحجاز، فأجابهم الابن سلّمه الله إلى مطلوبهم خوفاً من وقوع مفسدة على الإسلام والمسلمين والقصور جعل لهم أجل إلى انسلاخ عاشورا، فإن حصل في التفكير إزالتها وإلا رخص لهم في إزالتها وأعانهم على ذلك، واشترط عليهم شروط وطلب العهد منهم عليها منها إنهم لا يغزون أحدا ولا يفعلون شيئا من أمور الدين ولا ما يخل بالولاية إلا بالتفاف مشايخ المسلمين ومراجعة أولى الأمر منهم وأن لا يتعدى منهم أحد على أحد من الرعية حاضرتها وباديتها إلا بمراجعة ولي الأمر وأمره في ذلك. ومن فعل ذلك فهم رفعوا أمره لولي الأمر وتولى تأديبه، وأن لا يتكلوا في شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله حتى يراجعوا مشايخ المسلمين وتصدر منهم الفتوى لهم وأرسل إليهم عبدالعزيز بن مساعد يعاهدوه

على ذلك.

28 شوال 1346هـ

أن تظهر البرقية والتلغراف في بلاد المسلمين عام 1928م فهو أمر يجرح عقيدة الدين، الأمر الذي جعل الإخوان يثورون لدينهم، كما أن القصور أو المخافر التي أنشئت على حدود العراق، فوق الآبار جعلتهم يهبُّون فوق جيادهم، تخفق ثيابهم البيض وعمائمهم، ممتشقين سيوفهم، يسابقون الريح التي تلعب عنيفةً براياتهم الخضر، المزيَّنة بلا إله إلا الله محمد رسول الله، يصومون لأيام وليال، زادهم تمرة يابسة يبلون بها حلوقهم الجافة، وغيرة صلبة على دين الله، يعترضون طريق القوافل المسالمة إن لزمت الحاجة، وثبت لهم كفر هؤلاء العابرين.

«أما مسألة البرق والأتيال، فهو أمر حادث في آخر هذا الزمان، ولا نعلم حقيقته، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم، فتوقفنا في مسألته، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته. وأما مسجد حمزة وأبي رشيد، فأفتينا الإمام وفقه الله بهدمهما من الفور، وأما القوانين، فإن كان موجوداً منها شيء في الحجاز، فيزال فوراً، ولا يحكم إلا بالشرع المطهَّر. وأما دخول الحاج المصري بالسلاح والقوة في بلد الله الحرام، فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح بالقوة، ومن إظهارهم الشرك وجميع المنكرات، وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام، ومن تمكين أحد أن يتمسح به أو يقبِّله».

قال راشد ذو الشارب الثخين، لصديقه سعيد، إن هؤلاء لم يموتوا، بل هم يتناسلون وتتغير ملامحهم الخارجية فقط، فالذي كان يربط العمامة البيضاء على رأسه ويحارب كل من يلبس العقال ويتهمه بالكفر،

هو نفسه من يلبس الآن ثوباً قصيراً إلى منتصف الساق، ويتهم من يلبس ثوباً طويلاً بالإسبال والفسق والنفاق! اعترض سعيد بابتسامة صغيرة: «لا ما هو لهذي الدرجة، ما يكفرون من يسبل ثوبه لكن ينصحونه!»، همس راشد: «صدّقني يا سعيد، هم يجرّون الحبل ويرخونه، كل ما أعطوا وجه شدّوا أكثر، تصدّق أنهم قصّوا ثوب الملك عبدالعزيز لأنه مسبل». ضحك سعيد بجذل، وعلّق ساخراً: «يا أخي هم لا تأخذهم بالحق لوم لائم، ناس شجعان!». قال راشد بتساؤل: «ما تعتقد أن الزمن يدور، والأحداث نفسها تدور، حتى لو تغيرت المسميات، تخيّل سعيد، كانوا يحاربون الكفّار في العراق، وتورطوا مع البريطانيين في بداية القرن الماضي، وهم الآن يعيشون نفس الأحداث، يحاربون في العراق وضد الأمريكان وأذنابهم كما يسمونهم!». هزّ سعيد رأسه رافضاً، وهو يحاول إشعال سيجارة: «لا يا راشد، أنت تخلط الأمور، فرق بين الإرهاب وبين الجهاد، أظن الإخوان كانوا مجاهدين ونيتهم كانت صافية»، أقفل راشد الحوار: «أنت تسمي ما يحدث في العراق إرهابا، هناك من يسميه جهاد، وهناك من يسميه مقاومة ودفاع عن النفس والعرض والدين!».

في مقهى المسافر كان راشد بشعيرات قليلة فوق رأسه مضطجعاً على مقعد عالٍ، ويسحب دخاناً من ليّ الشيشة، ثم ينفثه في الهواء حتى يتصاعد عمود دخان، دون أن يكف عن شتم كل شيء حوله، ولم يكن سعيد يخالفه إلا لكي يزيد معرفته وثقافته، كان يخبره أن الحياة هنا لا تحتمل، لا شيء يتغير منذ قرن، والحياة تدور في مكانها، فالذين حرّموا البرقية والتلغراف والراديو، جاء أحفادهم قبل عشر سنوات وحرّموا أطباق الفضاء وأجهزة الاستقبال، ثم أصبحوا يتقافزون بين القنوات الفضائية التي كانوا ينكرونها، هاهنا مفتي، وهناك مفسّر أحلام، وثالث محدِّث، ورابع مفسِّر، وخامس خطيب ومهتم بشؤون المرأة المسلمة، وسادس وعاشر...

الجزء الثامن

لم أسرق زيتوناً، عزيزي السيد لوركا!

«شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك».

محمود درويش: أثر الفراشة

-59 -

في مغسلة جامع الراجحي، في الطريق الدائري الشرقي، كانت سها تنام على مصطبة الجنائز، بعينين مغمضتين تشبهان عيني الأميرة الجميلة النائمة، نامت قبل أن تستعد للنوم الأخير، وهل يستعد أحد للموت، ألسنا نقول دوماً إن الموت يهبط فجأة، لماذا لا يأتي الملاك بلطف ويحط في الغرفة، يجلس أمام الكائن وقبل أن يستأذنه في قطف روحه يناقشه قليلاً حول أحلامه وماذا يريد من الدنيا، يمهله كي يرتِّب أوراقه جيداً، يغسل الأواني حوله، وينظِّف كأس الشاي، ويلتقط ورق النعناع الذابل داخل الكأس فيرمي به في الزبالة، ثم يرتِّب ملابسه الداخلية وأغراضه، ويحرق مذكراته السرّية، ويكتب وصيته وورقة يشرح فيها مشاعره في اللحظة التي تسبق الرحيل، يصف طعم الموت، حامض أم مرّ، وجوه الأشخاص الذين يلقنونه الشهادة، عينا الذي سيغطي وجهه بشرشف أبيض خفيف.

دخلت زوجتا العم، أم ياسر، وأم معاذ، وهما تصحبان لولوة إلى المغسلة، بينما جلس فهد مقرفصاً وقد لف غترته حول وجهه، وطفق يبكي بلا صوت، كان يحس بحرارة شديدة تنتهك عينيه. أصوات

السيارات والناقلات المسرعة في الطريق الدائري الشرقي تشرخ صمت المكان، أحس فجأة بيد تمسك عضده: «تعوَّذ من الشيطان، أحسن الله عزاك» ساعده فوقف، وقاده ابن عمه معاذ إلى المكان المخصص في الجامع لذوي المتوفى، أجلسه وطلب من القهوجي أن يصبَّ له فنجان قهوة، كان العم وابنه ياسر يرتشفان القهوة ويتحدَّثان مع الخال إبراهيم حول الوظائف والبطالة وسوق الأسهم وفوضى العمالة في الرياض: «كم مرعب أن تجلس بجوار قتلة باردين!» كان فهد يفكِّر.

رنَّت زوجة العم وقالت للعم بأن يحضر للسلام الأخير على زوجته المرحومة، قام العم ومعه فهد، كان ممسكاً به بيده الثلجية، دلفا من الباب الجانبي، حيث كان جثمان سها مسجًى عند الباب، رائحة النشادر تملأ المكان، الرطوبة ونداوة الغرفة الواسعة تنتشر، فتحت لولوة الستار الأبيض حين سمعت الأصوات، دخلا وانحنى فهد على جبين أمه الندي وقبَّله، جاء بعده العم وقبَّل رأسها وهم يلغط: «اللهم اغفر لها، اللهم أوسع مدخلها!» لماذا صوته الجهوري يذكِّر بأصوات باعة الخضار!

شعر فهد بأن النهر يجري في قلبه، والرجفة تحاصره فيتماسك من رعشة تفضُّ أجزاء جسده، كان يجزم بأنهم لا يشعرون بالموتى، وأنهم مثل بقية الأدوات في الغرفة، قطعة جماد لا تحسُّ ولا ترى، لم ير أحد منهم أن سها قد تململت وقامت معه، وهي تقول بأن الشمس اليوم حارة يا فهد، والموت في حمأة الصيف مشكلة، لكن ماذا أعمل، هو الوقت الوحيد الذي أستطيع أن أخرج فيه من غرفتي، أما الشهور الأخرى فالبرد يأكل عظامي، ولا أبرح مدفأة الزيت. أول مرَّة يجد فهد أمه قوية وواثقة وهي تفتح باب سيارته الواقفة على الدائري الشرقي، وتقول له أسرع عنهم، قلت لها سيبحثون عن جثمانك؟ صكت ضحكتها وهي تفضي بأن الجثمان هناك، وأنا روح أمك سها معك، رح لشارع الخزان، ثم خذ يمين

من شارع السويلم، حتى أريك أول مدرسة ابتدائية دخلتها، حتى تعرف أنني ابنة المكان القديم، ابنة هذه المدينة الجاحدة، ولا تربطني بالأردن أو فلسطين سوى الجذور والمسميات، فالإنسان ابن لحظته، وابن المكان الذي يعيش فيه. هكذا فكَّر فهد وتأمل كلمات أمه المتخيلة، وأنه ابن غريت يارموث الآن، ابن البحر الأزرق الغامق، ابن مكتب الطباعة والتصوير الذي يعمل فيه، وابن المدرسة الصغيرة التي يتعلم في غرفها ذات الشبابيك الطولية المفتوحة على الهواء البارد والسهوب الخضراء.

أرسل له سعيد رسالة قصيرة: «فهد، نحن على يمين المحراب، حجزت لك مكاناً» دخل جامع الراجحي قبيل آذان العصر، وقد وضع حذاءه خلف باب مقرّ الجنائز، الذي تنام خلفه جنازتان غير جنازة سها، دخل المسجد وجلس في مكانه بين سعيد وياسر، صلوا العصر ثم انفتح الباب السحَّاب عن ثلاث جنائز، فأقبل الإمام نحوهم بمشلحه الحليبي، لينتقل من المحراب، ويقف أمامهم للصلاة على الموتى، وجهه الملتحي صارم وعبوس، بينما سها تنام بصمت تلفها عباءة سوداء، حتى في الموت تضع عباءة سوداء فوق كفن أبيض، كما عروس تضع عباءتها فوق فستانها الأبيض. تسابق المصلّون إلى الجنائز بعد أن سلَّم الإمام، وهرع فهد معهم كي يتسلم أحد أركان النعش الأربعة، ثم هرولوا نحو سيارة الإسعاف وقد نسي حذاءه في الجامع، مكتفياً بجوربين أبيضين، فكَّر فهد بأن يتضامن مع أمه، وينزل إلى قبرها بجوربين أبيضين وثوب أبيض؟

- هل كانت إشارة البياض تلك، تعني أنني أريد أن أبقى معك في قبرك يا أمي؟

دفع الرجال النعوش الثلاثة في مواضعها داخل سيارة نقل الجنائز، وركب شاب أسمر يطوّقه الحزن، ثم تبعه العم، ودفعه ياسر من الخلف:

«أركب، عجّل خذ مكان!» كان السائق يقود بعجلة، وربما بشيء من التهور، كأنه هو أيضاً يريد أن يجعلك تنامين في لحدك دون تأخير، هل كنتِ صاحية لحظة ذاك؟ فكَّر فهد، «كأنني سمعت صوت أنفاسك، أو ربما هي ضحكتك المحبوسة وأنت تخفين فمك بيدك؟ هل هي ضحكات الموتى تأتي كتيمة ومحبوسة شيئا ما؟ كنت بينهما، يهلِّلان ويستغفران ويدعوان، كنت أسمع طواف السواك الخشن على أسنان عمّي البغيضة، بينما تعتمل أصابع ياسر الغليظة على حبّات مسبحته السوداء».

ربط العم ثوبه حول خصره ونزل إلى قلب القبر فتبعه فهد وياسر، جاء رجل حليق وقال لهم: هذا القبر غير مجهَّز الحواف بطوب اللبن، إذهبوا هناك. مدّ يده للعم، فقفز خارجاً إلى حفرة قبر آخر، وكانت هناك جماعة فاتت عليهم الصلاة عليها في الجامع، قد اصطفوا يصلُّون على جنازتها في المقبرة، بينما ينتظر فهد مع عمه في قلب الحفرة وينظر إلى الشمس التي هبطت نحو قلب المدينة، يفيض رأسه من فوهة القبر، وعيناه ذاهلتان بسبب لحظة الدفن المهيبة!

كان يتأمل مهابة الموت، ففي لحظة الموت يعود الإنسان طفلاً، من مهاد أبيض إلى كفن أبيض، من حزائم مهاد الطفولة تضغط جسده كي لا يملك سوى البكاء، إلى حزائم الجثمان كي لا يثبَ ثانيةً ويفرَّ إلى الحياة، كأنما اللحظة الحاسمة حين وضعت الأم داخل اللحد المنزوي تحت التربة، ثم فككت الحزائم من جنازتها وهم يقولون لها: الآن طيري، فطبقات التراب فوقك هشَّة، طيري الآن كما يطير الطفل حبواً ومشياً وركضاً، ها هي تحرِّك أجنحة الملاك وتخفق في هواء مستعمل وثقيل، تطير فوق المدينة وتبحث عن جسد تائه بين شارع الخزان وحديقة الفوطة والعليا، فالكائن يصبح ثقيلاً فقط حينما يكون حيّاً، فلا يملك أن يطير، وحين مماته يخفُّ ويطفو، ويرتفع عن الأرض بقدمين معلّقتين في الهواء!

صاح الخال: «نظِّف اللحد يا فهد، تأكد إن ما فيه جمش!» لم يصبر، فأزاحنا وهبط بصعوبة، تفقَّد اللحد في عمق التربة، وقاس بيده طول الطوبة وعرض فتحة اللحد، ثم أشار بأن نضع الطوب بشكل مائل، ولكن بعد ترتيب صفٍّ من الطوب النائمات، حتى لا تسقط طوبة على جثمانها! في الأعلى مدَّ سعيد يده إلى الخال إبراهيم وقفز خارج القبر بعد أن أهال بعض التراب من الحواف.

في المقبرة جاءوا بكِ أمي يحملون نعشك كالعرائس الشهيدات، تناولتُ رأسك الكريم، وناولته إلى عمّي، ثم هبطنا بك بهدوء إلى فتحة اللحد، وضعنا رأسك إلى القبلة، وأسندنا ظهرك المرهق من عناء الحياة وكَبَدها بنصف طوبة لِبن، وقبل أن نصفَّ اللبن حول فتحة اللحد ذكَّرني أحد المحتشدين حول القبر: «اسحب العباءة!» سحبتها جيداً، حتى اكتملت في يدي، ووقفت متفحصاً الواقفين في الأعلى، فرأيت سعيداً متحفزاً، ثم لففت العباءة حول يدي وقذفتها نحوه!

ها هي عباءتك أناولها إلى سعيد الذي أمسك بشقها الأيمن مراراً، بينما أمسكت أنا أتشبث بالأيسر، وأنت تذهبين بنا إلى المستشفى المركزي. أقفل اللحد بطوب اللبن الضخمة، ولا أعرف كيف أملك قلباً قاسياً لأسجنك داخل لحدك بطوب اللبن، كم كان مرعباً أن أضع آخر لبنة بشكل طولي فأغلق عنك الهواء والضوء والحياة!

كنت أرى نفسي هناك، حيث كان ثمَّة بصيص ضوء صغير من الكوة الأخيرة، بعد أن حجب اللبن المعالج بالطين عنِّي كل الهواء والضوء، من سيضع آخر لبنة ويحجب الضوء عنِّي تماماً، حتماً عمّي الذي سيسد عني ضوء الحياة، ولكن ما جدوى أن يكون للميت عينان وكل ما حوله أسود وكالح، يا إلهي! شعرت أنني أحاول أن أدفع الطوبة الأخيرة بقدمي،

أحاول أن أحرِّر قدمي من الكفن، وحين لم أتمكن، أرفع قدميّ معاً وأدفع الطوبة التي لم يجفُّ الطين من حولها، أصرخ بقوّة، ولا أحد من حولي، حتى يغامر زائر قبر أو حارس المقبرة، ويحفر قبري، فأظهر أشعثاً محروقاً بوجه كله كدمات، وأهرب صوب قرص الشمس، كما لو كنت بطل فيلم يركض في نهايته، تصحبه الموسيقى وأسماء الممثلين والفنانين تتوالى بخط أبيض رفيع!

ناوله أحدهم يده، فقفز فهد خارجاً من القبر، منتظراً عمّه وكان يضمّد الطوب ببعض الطين، بينما ياسر في الأعلى يحثُّ التراب من حواف القبر كي تنهال ذراته خفيفة كالهواء: «الآن تحثُّ التراب برقّة، وأنت بالأمس كنت مع أبيك تجلد فقيدتي بالعصا كي تُخرج المارد؟ كم أنت مارد ومتخلِّف، أيها الطبيب القذر، بعينيك اللتين تشبهان عيني بومة خرائب!» يمسك به عمّه أبو أيوب وقد خرج على حافة القبر كي يحثو بكفِّه ثلاث دفعات من التراب، ويخرج من الزحام فيصحو ويبكي، يقوده إلى ظل سيارة قريبة:

- تعوَّذ من الشيطان!
- عليكم بالدعاء يا ولدي!
- تماسك واصبر، إن الله مع الصابرين!

وقف وبجواره عمّه وابنه والخال إبراهيم وسعيد، وبدأ المعزُّون يتزاحمون حولهم، يقبلونهم على الخدين: «أحسن الله عزاك!» فيجيب بصوت مخنوق: «جزاك الله خير!» ثم يدعون لأمه وهو يمسح طرف أنفه ويردِّد: «آمين! اللهم آمين!»

قدَّم أحدهم له قارورة ماء صغيرة، فأمسك بها دون أن يشرب، ففتح قارورة أخرى، وناوله إياها، شرب جرعة وهو يرفع شماغه الذي ينساب

كثيراً إلى الخلف ويكاد يسقط، بعد أن سمع عمّه أبو أيوب كيف يصطاد زبائنه حتى في المقبرة، ولم يكتفِ بالمسجد، سحب جذعه المنهك، وانطلق مهرولاً بجوربيه الأبيضين إلى سيارته، فلحق به سعيد ملتقطاً المفتاح من يده كي يقود عنه!

- 60 -

في الليلة الأولى لدفن الأم سها، قرر سعيد أن ينتزع فهداً من حزنه، أن يطوف به الرياض بأكملها، لم يدع شارعاً ولا حارة قديمة أو جديدة إلا مرَّا بها، من جنوب الرياض حيث تجولا في حي بدر والشفا، ثم سارا في الدائري الجنوبي تجاه الشرق، ودخلا حي خنشليلة وحراج ابن قاسم، ثم عادا وسلكا طريق الملك فهد، وخرجا من سوق عتيقة، داخلين قليلاً في شارع السويدي وحي سلطانة، ثم مرا بمتنزه سلام ودوار سلام القديم، فطار به إلى منفوحة القديمة، لكن فهد توسل إليه بألا يذهب هناك، حيث الجن والدجّالون، وقد تذكّر الشيخ المصري، فعادا إلى الداخل شمالاً، في حي دخنة القديم، ثم وصلا إلى شارع الظهيرة ومنه إلى شارع الخزان، حيث لم تزل المصريات والسوريات المحجبات يتجولن بين محلات الأقمشة والملابس الجاهزة، توقف سعيد بعدما أمره فهد بذلك، سارا مشياً بين نهايتي شارع الظهيرة وشارع السويلم، ثم اجتازا الشارع وسارا بمحاذاة سور حديقة الفوطة، كان فهد يمشي وينشج بألم وحرقة، تركه سعيد يسير أمامه بفوضى دون أن يغفل عنه، كان يمشي ويرفع رأسه كل فينة نحو السماء، كأنه يلوم أحداً هناك في الأعالي، لم فعلت بي كل ذلك؟ لم خلقتني إذا كنت تخطط أن تدمر حياتي بعبث؟ ماذا فعلت لتجعلني دمية تتسلى بها؟. اجتاز الطريق الصغير بجوار مركز

مسرح الفوطة، ثم سار باتجاه القصر الطيني الضخم، وانعطف يساراً صوب مركز الملك عبدالعزيز الحضاري، متأملاً الأشجار الساكنة في آخر الليل، بضع عائلات في الساحة، وأطفال يلعبون بدراجاتهم الهوائية، توقف مذهولاً ونظر نحوهم لوهلة، يبحث عن أحد افتقده هنا، ويتأمل مصائر هؤلاء الأطفال بعد سنوات قليلة، وأي طريق أسود ينتظرهم ليقودهم إلى جهنم، سار تجاه امتداد شارع الوزير، وقد شعر سعيد بالإرهاق وهو يلهث خلفه، لكنه لا يوقف سيره العشوائي، فكَّر سعيد كيف سيعودان إلى السيارة، هل يأخذا سيارة أجرة؟ ثم انعطف خلف فهد يساراً، وانطلق في الطريق الطويل صوب كوبري الوشم، لكنه في المنتصف توقف ونظر يميناً تجاه محطة بنزين، ثم اجتاز الشارع نحوها، ظن سعيد أنه سيبحث عن قارورة ماء لدى محل تموينات، لكنه توقف أمام محل مؤسسة برواز، وظل يتأمل اللوحات المزينة بإطارات ثمينة، ذلك المكان الذي زاره مراراً بصحبة أبيه قبل سنوات، كي يتركا عنده بعض اللوحات أو البوسترات، ليصنع لها إطارات مناسبة.

هل يبحث عن أبيه الآن؟

خرج ومشى قليلاً بهدوء كحيوان وحشي يتربص بفريسته، نظر نحو لافتة النيون التي تحمل اسم الدكتور إسماعيل رسلان، طبيب الأطفال القديم، وأمسك بالهواء قدَّامه ومشى مغمض العينين لوهلة، هل كان يمسك بطرف عباءة أمه وهي تأخذ أخته الصغيرة لولو إلى الطبيب، شعر سعيد بقشعريرة تسري بجسده، وهو يراه على هذه الحالة المريعة.

قاربت الساعة الواحدة صباحاً، وقد اخذ فهد الطريق يساراً من أسفل كوبري الوشم، لحق به سعيد وسأله إن كان قد تعب كي يعودا إلى السيارة، لكنه لم يجبه، بل ظل صامتاً كجمل صبور يعرف أسرار

الصحراء، ويسير حسب حواسه. قرر سعيد أن يمسك بيده بهدوء ويعود به من الطريق ذاته، وحين فعل ذلك لم يقاوم فهد، بل سار من جديد رافعاً رأسه يستنشق الهواء بقوة وينشج فجأة، ثم يتلفت بذعر في الأنحاء، عادا من جديد جهة حديقة الفوطة وقد اقتربت الساعة من الثانية صباحاً، حين قاومه فهد وهو يسير في شارع الخزان تجاه الشمال، مجتازاً طريق الملك فهد وجامع الجوهرة، حتى بلغا العمارة القديمة ذاتها، التي عاش فيها جده وجدته قبل تهجيرهما القسري مطلع عام 91م، جلس على درج العمارة وقد أظهر ساقية وغرز رأسه بين ركبيه بعدما أحاطه بيديه، وظل يبكي ويبكي. جلس سعيد بجواره وهو يشده من كتفه ويضمه نحوه: «تعوَّذ من الشيطان يا فهد»، ويضيف «فكرت أسلّيك في الشوارع والحارات القديمة والذكريات الحلوة، ما فكَّرت أني أعذبك وأعذب نفسي معك»، أجاب فهد بصوت غير واضح، وفي غصّة البكاء: «ما فيه مكان ولا زاوية ولا شارع بها المدينة الملعونة إلا تذكرني بأبي»

في السيارة قال فهد بعد أن عاد إليه هدوءه، لابد أن أهاجر إلى أي مكان في الدنيا، يجب أترك هذا المكان بأسرع وقت ممكن!

- والجامعة؟ سأل سعيد.
- ممكن أبدأ الجامعة من جديد، في أي مكان آخر.
- وأختك؟
- يا سعيد، خلاص أختي صارت من طينة عمّي! ثم أضاف بعد صمت: بكره تتزوج وتنشغل بحياتها وأطفالها.

ثم أضاف وهو ينظر من زجاج النافذة إلى برج التلفزيون:

- ويمكن يكون رجلها من طينة ياسر ويقنعها أن أخاها كافر، ومشكوك في عقيدته، ويرسم البشر والنساء العاريات.

- ممكن.

- ما عندي استعداد أتحمل مفاجآت جديدة، لن أتمسك بآخر خيط مشكوك فيه أصلاً. ثم أضاف:

- إذا أمي يا سعيد وهي أمي، استطاعوا أن يقلبوا رأسها، كيف يكون الوضع مع مراهقة مثل لولو؟

- معك حق.

- يا سعيد هذي بلد مجنونة، تركض خلف الخرافات والأوهام.

رنت نغمة الرسائل في جواله: «حبيبي، روح روحي أقلقتني عليك، طيب رد حتى أطمئن عليك!»

لم يسأل سعيد عن طرفة، ولم يفكِّر فهد فيها، صحيح أن حياتها تشبه حياته المريعة، لكنها ستعيش مع رجل آخر، يشبه خالداً، أو قد يعود عبدالكريم يوماً، ويراجعها حين يكتشف أن له طفلة جميلة اسمها: سارة!

-61-

حين عاد إلى البيت، كانت اللوحة التي جلبت له العناء والكآبة لم تزل تنثر الجماجم البشرية المتناثرة في الأنحاء، ولم تزل خيوط الدم متجمدة حولها، كان الصبح قد بدأ يفيض من نافذة الصالة المطلة على الشارع، نظر من النافذة نحو السيارات القليلة في الدائري الشمالي، ومبنى مكتبة جرير في الضفة المقابلة، فكَّر أن يتمشى قليلاً رغم ما يعانيه من إنهاك، كان مقهى ستار بوكس على الدائري الشمالي ما زال مقفلاً، وكذلك مقهى الدونكن دوناتس، حاول أن يتمدد كي ينام قليلاً، دخل ما

يشبه الغيبوبة، حتى انتشله رنين جهاز الجوال بجواره، فكانت حبيبته القرمزية طرفة، تردَّد قليلاً، ثم أجاب بصوت مبحوح وغائر جداً، كأنه طالع من عمق لوحة ما، ارتبكت طرفة لأول وهلة، وهي تسأل بإلحاح: «وش فيك حبيبي؟ صوتك تعبان مرة!»

فجأة بكى، وبدأ ينهنه بطريقة تشبه الصمت، ازداد قلقها ورجف قلبها، وهي تستحلفه أن يخبرها بالأمر، حتى اكتشفت هي بحدسها اللافت، وقدمت له العزاء وهي تستخدم العبارات المعتادة، بأن هذا طريق سنسلكه جميعاً، لكنها اختلفت عن المعزين، بأن أضافت «علينا أن نعيش حياتنا فهد، بالطريقة التي نحب، نحن لن نعيش مرتين!»

اقترحت أن تكون بجواره، وأن يترك شقة صديقه مؤقتاً، قائلة:

- تعال نأخذ شقة مفروشة يوم أو يومين، حتى تتجاوز الأزمة حبيبي.
- أتمنى حبيبتي، لكن ذلك صعب!
- أبداً لا صعب ولا حاجة، أنسق مع زميلتي ندى، ثم أضافت: أمي تثق فيها.
- لا حبيبتي، صعب حتى لي أنا.

أقفل الخط، ووعدها بأن يلتقيا عندما تهدأ حالته قليلاً، فكان لقاؤه بها بعد أسبوع، لدقائق قصيرة في مقهى ستار بوكس بطريق الملك عبدالله، قبل أن يتسلل خلفهما الشيخ ذو المشلح الحليبي، الذي قاده إلى آخر كارثة في حياته القصيرة.

حاول أن يغمض عينيه، فهمس جواله برنة رسالة، فتحها ووجد رسالة وسائط، صورة مفرش مشجَّر مثني على شكل مثلث صغير، بجواره فنجان قهوة تركية فوق صحن خزفي أبيض صغير، على طاولة رخام

أبيض، ومكتوب في أعلى الصورة: «حبيبي، هذا فنجانك بالعافية، ولا تنسَ فنجاني يبي تحلية من شفايفك العسل! بجد مشتهيتها فهودي».
ابتسم وغفا بسلام حتى المغرب، قام متمايلاً محفوفاً بصداع قاتل، نظر نحو باب غرفة سعيد المفتوح، بحث في أرفف المطبخ عن إكسترا بنادول، ثم تناول قرصين متتاليين، ودفعهما بجرعات كبيرة من الماء، جعلته يلهث بعدها مثل كلب، عاد ووقف أمام اللوحة، ونظر دائخاً نحو تفاصيلها، فرأى الجماجم المنثورة والأشلاء، لكنه لاحظ أن الطيور في الأعلى لم تكن غرباناً، بل صارت بيضاء، إنها حمامات تطير فوق الجثث، اللعنة ما الذي جاء بتلك الحمائم البيضاء والرمادية؟ صاح بصوت مخنوق، لا يعرف إن كان يسمعه أحد، أو حتى هو نفسه قد سمع فعلاً: «أنا ما أحب الحمام!»

كان يحب حياة بابلو بيكاسو، وجنونه الفني، ونقلاته من مرحلة فنية إلى أخرى، الزرقاء والوردية والتكعيبية والتجريدية، مع أنه أحب مرحلته الأخيرة، المرتبطة بالانطباعية، التي أنجز فيها لوحته الشهيرة الجورنيكا، لكنه لا يحب عادات بيكاسو ولا سلوكياته، يكره حبه لمصارعة الثيران، ويكره ولعه الشديد بالحمام، ولماذا تحضر الحمائم في لوحاته؟! فزّ وحاول أن يطمس الحمامات في اللوحة، لكن المشهد غام أمام عينيه، وتحركت اللوحة، فجلس ببطء وأمسك برأسه، ثم مشى بتثاقل وأخرج ركوة القهوة من الدرج، سكب الماء فيها ووضعها على النار، وهو يمسك حافة الطاولة، ثم وضع ملعقتي قهوة تركية سوداء فوق الماء، وحركها، فقلبت مرتين، ثم رفعها عن النار.

جلس، وشرب قهوته شارداً، رفع رأسه نحو السقف، فلم يجده يتحرك أو يهبط قليلاً، قام نحو حامل الألوان، أخرج لوناً لم يركّز ما هو، فقط فتح الغطاء الصغير، ثم قرّبه نحو أنفه وشمّه عميقاً وهو يواصل

شرب فنجانه المرّ، نظر إلى المكان حوله، سريره في البعيد، والمطبخ في الزاوية، مصباح السقف المتدلي فوق طاولة الطعام، الأحذية المتناثرة بعشوائية عند مدخل الشقة، اللوحة كما هي على الحامل، الغربان السود تحلِّق في الطرف، والعقبان الجارحة تطوف حول الجثث المرمية فوق سطح يشبه حقل بطيخ تحت شمس صيف لاهبة.

شعر بأن حواسه قد عادت إليه، وفكَّر لو أن الغربان والعقبان في اللوحة طارت فجأة، وانهمكت تنهش عينيه البارحة حين كان نائماً كجثة قتيل، ما الذي يمكن أن يفعله؟ سيصحو بلا عينين، وربما بلا قلب أيضاً، تذكَّر قصيدة لوركا التي يحبها «أغنية القمر»، وكيف يصنع الغجر من قلب البدر النازل من عليائه عقوداً وخواتم، سيكون مثل قمر لوركا الذي نزل كي يلهو في دكان الحداد، لكن لا طفل سيحذره من العقبان الجارحة، تذكَّر الطفلة سارة، فلقة وجهها كالقمر، وضحكها الطفولي، وفتنتها حين حملها ذات مساء وهما في ألعاب واحة المرح بسوق غرناطة، كي يعيدها إلى أمها طرفة، وهما يجلسان في قسم العائلات، وبكى حينما تخيَّل أنها تحذره من العقبان الجارحة، دون أن يحذرها أحد من ليل طويل ستعيشه بلا أب، ذلك الأب ليس حيّاً تنتظره، ولا ميتاً كي تنساه، فهي لم تره أصلاً!

-62-

تذكَّره هذه القصيدة وهم يسألونه عن مسبحة نوى الزيتون في معصمه! تذكَّر الغجر الذين خرجوا فجأة من أحراش الزيتون على خيولهم! وكيف خطفوا القمر اللاهي وصنعوا من فضته البهية قلائد وخواتم، هل كان نوى الزيتون في مسبحته هو ذاته الزيتون الذي مرَّ به الغجر، فطار بين أيدي البنات الأسبانيات القاطفات، إلى معتقل بأطراف

مكة، كان يتسلّى بين جدرانه سجين وزّع ذات فجرٍ منشورات جماعته المعارضة في باحة الحرم المكي، فبات يقضي الليل والفراغ والصمت يحك رؤوس نوى زيتون الأسبانيات بأرض المعتقل الإسمنتية الخشنة، حتى يثقبها من الطرفين، وينضد نواة خلف نواة، حتى تتشكل مسبحة، يحتفظ بها كتركة لابنه، الفنان الذي يلوِّنها بالزيت، ويضعها في معصمه كإسورة، كي يتذكّر دوماً مأساة أبيه، دون أن يدري بأنه كان ينضد مأساته الشخصية هو أيضاً، وينجو من بلد أحبها، هارباً بتهمة ساحر.

كان يفكِّر حين استدعوا الشيخ الجالس أمامه، أي مسبحة ملعونة تلك! وأي زيتون ناضج كان ذاك الذي طار من غرناطة أو اشبيلية! وأي شجر يضحك عليه متخاذلاً هناك! تضامن مع الغجر ضد القمر، وتآمر مع الغجر هنا ضدي، هل هم غجر أيضاً يا أبي؟ هل هم غجر أيضاً سيد لوركا؟ وهل أنا القمر الذي هبط في القصيدة ودخل دكان الحدّاد كي يتسلى؟ نعم أنا القمر لي جانبي المضيء كفضة، ولي جانبي المظلم أيضاً، وقد نزلت هذه البلاد التي تشبه دكان حدّاد كي أعيش، لكنني لم أتنبه إلى نصيحة الطفلة سارة، ولم أستطع أن أفعل مثل قمر لوركا، فلم أعلُ فجأة في الوقت المناسب، ممسكاً بيد الطفل، بل بقيت حتى دهمني الغجر بتهمة حيازة نوى الزيتون، لم أسرق زيتوناً عزيزي السيد لوركا، بل احتفظت بنوى زيتون معتق ومغبر، قمت قبل أسبوع بتلوينه كي يصبح مثل سماء أفريقية ملونة. حين قدم الغجر متسللين بين أحراش السيارات لا الغابات، لم أسمع طبولهم، ولم أسمع نداءاتهم من سيارتهم على الناس المذعورين في الطرقات، المهرولين والمختبئين كفئران، لم أسمع سوى صوت حبيبتي وهي تواسي لوعة فقدي لأمي، لم أتنبه إلى أن الأندلس تحضر في الرياض، ولم أفكِّر أن الرياض تذهب في الأندلس البعيدة.

- نتجول في السيارة، أو ندخل شقة مفروشة؟ سألت طرفة.
- ما رأيك في قهوة؟
- امم، في السيارة، ممكن.
- لا، نجلس في مقهى.
- أظن المقاهي مراقبة من الهيئة دائماً. ثم أضافت: زميلتي ندى تقول إن هناك موظفين في المقاهي يعملون جواسيس لصالح الهيئة، حتى أنهم يكسبون من الهيئة أكثر من مرتباتهم في المقهى.
- ما أظن، ثم أضاف: أحس هذه مبالغات وإشاعات.
- بعدين دخول مقهى في الصبح، يخوّف.

لم يكن فهد يفكِّر كثيراً في هذا الأمر، كان حزنه كبيراً، وخانقاً، رغم مرور أسبوع على دفن أمه، إلا أنه لم يزل يشعر بسماء الرياض تنخفض إلى حد أنه يستطيع أن يلمسها بيده، ذلك الأمر الذي جعل تفكيره مشوشاً، لا يملك أن يواصل إنجاز لوحته الزيتية، ولا أن يشرع في لوحة أخرى جديدة، وهو يتذكَّر مقبرة النسيم، وجامع الراجحي، وثلاجة الموتى، وربما كانت أكثر المشاهد قساوة في عقله، نظرته وهو داخل القبر حتى رأسه، ووجوه الناس وحركة شفاههم وأيديهم الممدودة باللِّبن وكرات الطين، كلما تذكر وجوههم حاول أن يتخيلها صامتة، أن يلغي الصوت تماماً، ويبقي الصورة فحسب، أن يشعر بأنه أصم، كي يترك مساحة ضخمة للصورة فقط، كيف يمكن أن يرسم أجسادا متحلِّقة من حولهم، تقف منحنية نحوه، وجوه تهمهم أو تدمدم أو توجِّه، وجوه شائخة، وأخرى شابة، وجوه بنظارات، وأخرى معروقة ومكدودة، كل ذلك مع مسحة خفيفة لذرات غبار متطايرة من حركة الأقدام المحيطة.

قد يكون ذلك المشهد مشروع لوحته القادمة.

قد تكون اللوحة هي: «المقبرة»!

-63 -

بقي محتجزاً في غرفة توقيف ضيّقة، بتهمة الشروع بالسحر، والتلبس بالشرك الأصغر، بسبب مسبحة من نوى زيتون ملوَّن، ورغم لطف الشيخ ذي المشلح الحليبي وأبوَّته، إلا أنه اختفى عن ناظريه، ولم يعد يراه، فوجد نفسه يشبه غجر لوركا، هؤلاء الذين يخفون السكاكين تحت التراب. كانت غرفة ضيّقة ومكتومة، في سقفها تتدلى مروحة لا يعرف إن كانت على وضع التشغيل أم أن هواءً ساخناً يتسلل كعجائز محدودبين من نافذة عالية جداً، كان يفكِّر إن كان سيطول هذا الأمر، كم سيبقى محتجزاً هنا؟ وهل سيرحلونه إلى سجن آخر؟ أم ستصدر المحكمة فيه حكما قاسيا، تذكَّر ذا العينين النسريتين وهو يقول له، إن عقوبة السحرة في هذه البلاد الآمنة المطمئنة هي القتل، كان يخبره وأصابعه النحيلة تتخلل لحيته بهدوء، كم مؤلم هدوء القتلة، صاح بحسرة، بأنه ليس ساحراً، وأن الحكاية هي أن والده كان في معتقل، وكان يتسلى بنوى الزيتون، وكان...، فيبتسم حتى يكاد يرى منقار فمه الجارح، ويوبخه بسخرية «ما شاء الله، العائلة كلها خريجين سجون؟» ثم يخبره بأن وضعه أصبح مأساوياً، والتهمة ثابتة عليه، خاصة أن شقيق المرأة تقدَّم بشكوى عن أخته، بأنه كان يسحرها حتى تخرج معه دون شعورها.

اللعنة، قال فهد لنفسه، ألم تكن هي من تطاردني؟ ألم يكن شغفي بها قد خفَّ، وهي من اقترحت أن تراني كي تواسيني بموت أمي؟ ثم من يواسيني فيما بعد بموتي؟ هل سأقف مثل مشبب والد سعيد في ساحة عامة، مكمم الرأس بغطاء يحمل رائحة موت وشيك، ثم يطير رأسي؟ فحد الساحر ضربه بالسيف، واقتلوا كل ساحر، لكنني يا شيخ لست ساحراً، أقسم أن أبي هو من ورَّطني، وهو من ترك لي آثاره كي يجعلني

أتذكَّر أخطاءه فلا أقع في ما وقع فيه من سجن طويل ورعب ليلي من انتظار قتل مؤجل، ها قد اختصرت الطريق يا أبي، وسأذهب إلى المذبحة فوراً. كم أرعبني الرجل الضخم الجثة وهو يدير سواكه في فمه بخشونة، ويخبره أن أوراقه قد تحال إلى هيئة التحقيق والإدعاء العام، لم يكن ثمة مخرج سوى العامل الإندونيسي الذي يجلب الطعام أو الشاي. كيف أقدم له رشوة صغيرة وأنا لا أملك شيئاً، لكن يمكن أن أعده بمكافأة كبيرة إن ساعدني، لا لأهرب، فقط أريد أن أتصل.

كم كانت عيناه زائغتين وهو يناولني جهازه المحمول المتهالك! فأضغط أرقام سعيد على عجل، وكنت مرعوباً من أن يكون مقفلاً، أو لا يجيب، خاصة أن الرقم كان غريباً عليه، ما أن سمعت صوته حتى أخبرته سريعاً بأنني في مركز الهيئة، ومتورط بقضية كبيرة، ثم فقال بنزعته الجنوبية، اترك الموضوع عليَّ، وفي اليوم التالي جاء الشيخ ذو المشلح الحليبي، فكدت أن أعانقه لشدة فرحي به، كنت ألومه لأن تركني ولم يسمع حكايتي، وحكاية المسبحة الملوَّنة، فابتسم وهو يربت كتفي، وأخبرني أنني سأخرج بعد أن أكتب اعترافاً بالخلوة غير الشرعية مع امرأة، وتوقيعاً أتعهد فيه بألا أرتكب هذه المعصية مرة أخرى، كدت أسقط مغشياً عليَّ، وقد شعرت بعتق رقبتي، كنت مثل القاتل المحكوم عليه بالإعدام، وفي ساحة القصاص، وقبيل أن يرتفع السيف في الهواء ليشقه بصفيره المجنون، قبيل أن ينغرز في لحم وغضروف الرقبة فيطير الرأس، صاح أحد المحتشدين، أعتقته لوجه الله، اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى، ويكبِّر الحشد ويهللون بصخب، ثم يعاد المحكوم بالإعدام إلى السيارة بعد أن يخلع عنه الغطاء، فيرى الحياة من جديد، ويصادق على التنازل في المحكمة.

هكذا أعتقني هذا الشيخ الجليل من الإعدام، كدت أسقط على رأسه

وأقبله، وكدت أحتضن سعيداً حين وجدته وقد جاء ليأخذني، كانت عيناي زائغتين، ولا أعرف كيف دبَّر سعيد هذا الأمر ببساطة أكبر مما توقعت، وما أن سألته ونحن خارجان في السيارة:

- اركب وبعدين أقول لك.

- كيف يعني؟ كيف غيروا رأيهم ببساطة؟

- الواسطة يا عم فوق القانون.

- أي واسطة؟

- عمّك.

- اللعنة عليك وعلى عمّي، صاح فهد بهياج، وهو يحاول أن يفتح باب السيارة المقفل، ويرفع أصبعه تجاه سعيد، ويصرخ: أقسم لو عرفت وأنا عندهم ما أكتب تعهد، حتى لو يحكمون عليّ إعدام، أنا ما عاد عندي شيء أخسره.

- فهد اسمعني، الموضوع لو تشعَّب وطال، يمكن ما يصل إلى إعدام، لكن قد تتورط بسجن طويل، تفقد فيه حياتك ودراستك.

- يا سعيد، عاد ما فيه غير عمّي القاتل يتوسط لي وأطلع من مزبلتهم؟!

- لأن عمك هو صاحب علاقات معهم، لا تنسَ أنه يعرف الكبار منهم، وأكثرهم يصلون معه في مسجده، وتربطه بهم مصالح ومنافع!

- طيب وين هو؟

- جاء بعد ما عمل اتصالات، وخلَّص بعض أوراقك، وراح.

- كيف راح؟ معقول؟ بدون أن يقول شيء؟ ولا يسبب متاعب لي؟

تهرَّب سعيد من الإجابة، ورمي بصره تجاه المحلات على الطريق،

وقال بأنه سيذهب إلى الشقة، كي يستحم ويبدل ملابسه، ويحتفل بخروجه من الاحتجاز في أحد المطاعم الراقية.

حين أراد سعيد أن يركن سيارته قرب مطعم البحصلي بطريق الملك عبدالله، اعترض فهد قائلاً إنه يكره هذا الطريق بأكمله، محلاته ومطاعمه ومقاهيه، وهو لا يكاد يتخلص من ذكرى سيئة له في مقهى ستار بوكس، ثم سار سعيد إلى مطعم السرايا التركي بشارع الثلاثين، وبينما هما ينتظران الطعام، سأل فهد:

- قل لي، ما الأمر؟

- فهد بكل بساطة، عمّك أوصاني أقول لك أن لا يريد أن يراك إلى الأبد.

- طز فيه، أنا أصلاً لا أريد أن أرى قاتل أمي.

- فيه أمر آخر، صمت سعيد، وهو يخرم المنديل الورقي المثلث بالشوكة فوق الطاولة، ويفكِّر قليلاً كيف يشرح الأمر، ثم أضاف: أخذ نسخة من أوراق قضيتك في الهيئة، وطلب منهم يحتفظون بصورة من تعهدك له.

- ليه؟ حتى يساومني عليه متى أراد؟

- لا.

- أجل؟

- قال لي أنه سيأخذ أختك عنده، لأنك شخص غير ثقة، وغير مؤهل للحفاظ عليها.

صمت فهد قليلاً، وتطلّع من الزجاج المطل على شارع الثلاثين لوهلة، وكأنما يصارع مآقيه كي لا تطفر دمعة مباغتة، فرأى حماماً يتجول على الرصيف العريض، قفزت إحداها فوق حوض شجيرة ذابلة، بينما

بقية الحمام ظل يحوم على بلاط مرصوف، وينقر كل فينة كما لو كان يقرأ سيرته المؤلمة. عاد ببصره إلى عتمة المطعم، وهمس بحزن وخيبة: «لعنة الله عليه!»

- أنت يا فهد قبل أسبوع كنت تفكِّر تهاجر. ثم أضاف سعيد: ولما سألتك عن أختك قلت لي: «إنها من نفس الطينة، ولم تعد تهمك.»

- سعيد، ما عاد لي من ريحة أهلي غيرها، تفهم؟

ثم تغيَّر صوته واختنق، حشرجة حزينة في صدره، وبكي قليلاً، فصالب يديه فوق الطاولة ووضع رأسه فوقهما، ثم راح في نوبة بكاء طويلة وصامتة وحزينة، تركه سعيد لدقائق، ثم مد يده ووضعها فوق رأسه، وهو يواسيه: «تشجَّع يا فهد، أنت رجل، وعليك مواجهة الحياة وتحدي المواقف الصعبة!»

عندما خرجا من المطعم، رأى فهد في الجهة المقابلة من شارع الثلاثين مقهى ستار بكس، بلوحته الخضراء الشهيرة، فصاح ساخراً كي يسمع سعيد: «ورانا ورانا ستار زفت!» ضحك سعيد وهو يفتح باب سيارته: «هذي شركة عالمية، تلقاها قدَّامك في كل بلدان الدنيا، حتى يمكن في القرية اللي تخطط تعيش فيها في بريطانيا».

- ممكن جداً، لكن تعرف؟ الفرق أنه هناك ما فيه هيئة، ولا أشخاص يترصدون حركاتك، ويحصون أنفاسك، وين رحت، وين جيت، من البنت اللي معك، أمك أو أختك أو حبيبتك.

- أتمنى تعجبك الحياة هناك. قال سعيد بعدما أطلق زفرة طويلة.

-64 -

قاد سيارته الصغيرة تجاه العليا، مارّاً بجوار بيتزاهت بشارع العروبة، إلى شارع فرعي صغير اسمه سيدة الرؤساء، ومنه إلى ممر زهير رستم، متوقفاً لوهلة أمام الباب الأسود الذي عبرت خلفه طفولته مثل حلم. هذا الباب الذي ودَّع على عتبته أباه سليمان، حين أدار محرك سيارته صوب القصيم ولم يعد. هذا الباب الذي دخل منه الغجري عمّه، بعينيه الزجاجيتين، وكرشه النابت بأناة وروية، كي يطرده من بيته، بل كي يطرد الحياة بمجملها من هذا البيت المطمئن. هذا الباب الأسود الذي خرج منه لأول مرة حاملاً حقيبة المدرسة، متوجها إلى وجوه أطفال ومدرسين لا يَعرفهم في مدرسة الأحنف بن قيس. هذا الباب الأسود الذي دعكته أقدام جده وجدته وأخواله الثلاثة. هذا الباب الذي نقلوا منه جثة أمه تنازع الحياة، بعد أن أضنى جسدها الضرب المبرح. هذا الباب الأسود، الثقيل، الحزين، المقطب، هذا الباب بكتفيه العريضين كغوريللا، لم يسع أحلام أسرة صغيرة، بدأت حياتها بخطيئة التورط بحركة الجماعة السلفية المحتسبة، وصرف عائلها بضع سنوات في المعتقل، لأنه غامر ووزع منشورات تحرِّض على التمرد، وعاد ليعيش بشرف فلم تقبله الأسر العريقة. هذا الباب الأسود الذي ينفتح بسلاسة فلا يئن كما باب الأجداد في قرية المريدسية، حين بات يخجلهم وهو يصدر أنيناً ممزوجاً بالحياة، فأصبح عند جماعة المسجد نوعاً من الغناء، نوعاً من مزامير الشيطان التي يجب لجمها. هذا الباب الذي يقف شاهداً على حياة مرت مهرولة ومجنونة، دون أن تقف لثوانٍ، وتتأمل خلفها.

رفع فهد بصره إلى النافذة الزجاجية المضببة، لعله يلمح طيف أخته، لكنه لم ير سوى الصمت والموت البطيء، ولم يجد سوى حوض النبتة

المتيبسة هناك. أدار محرك سيارته ومضى منعطفاً يساراً، ماراً بجامع شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ناظراً نحو الدرج الجنوبي، حيث أرفف النعل فارغة، لكنه لمح نعلاً على الأرض، نعلاً زبيرياً متهالكاً يشبه نعل أبيه، نعل أبيه الأخير، الذي قاده إلى حتفه في رحلته المشؤومة. بعد أن تجاوز الجامع ضج قلبه بالقلق، فاستدار وأوقف سيارته، نزل خائفاً ومرتبكاً، خلع نعله عند الباب، وتأمل قليلاً مقاس النعل الزبيري المركون أمام الباب، وضع قدمه اليمنى بداخله: «هذا مقاس أبوي!» حين مد يده ليفتح الباب أحس بقشعريرة تسري في جسده كماء بارد، وتحفزت شعيرات جسده، فتح الباب ببطء شديد، فرأى في أقصى الجامع جهة الغرب، قرب المحراب، جسداً ملتفاً بمشلح وبري كما لو كان نائماً، وجهه متوجّه القبلة، فكّر أن يمشي بهدوء كي يرى الوجه، خاف أن يستيقظ، لكنه عزم، وخطا بإيقاع بطيء، محاذراً أن يحدث ثوبه حفيفاً ما. حين وصل قرب المحراب تطلّع في وجه الرجل النائم، لكنه كان يغطي وجهه بشماغه، فكر أن يحدث ضجة كي يستيقظ، لكنه تراجع ثانية، وسار نحو الباب متلفتاً كل بضع خطوات نحو القبلة، حيث الرجل النائم. راح يتأمل النعل قليلاً، كان يشبه النعل الذي تناوب لبسه أبوه وأبو سعيد أيام المعتقل، كلما ذهب أحدهما إلى التحقيق، حتى جاء ذلك الفجر الثقيل، فلبس أبو سعيد النعل الزبيري، وخرج ولم يعد هو، ولم يعد النعل أيضاً. هل هذا النعل الراقد كشاهد أمام باب الجامع، هو النعل ذاته الذي انتعله أبو سعيد قبل ربع قرن؟

خرج من الحارة نحو طريق محلات باعة الورد، وسار جنوباً حتى أسواق الجزيرة، ثم انعطف يساراً متجهاً صوب شارع إبليس، حيث محلات الباعة البنغال، الذين يبيعون سرًّا أقراص الفضاء ومستقبلات الإرسال الفضائي، وبطاقات القنوات الجنسية المشفَّرة، ثم تسلل إلى

طريق صغير خلف أسواق السدحان، وتوقف أمام شركة إصدار تأشيرات السفر إلى بريطانيا، في تمام العاشرة صباحاً، حاملاً أوراقه المطلوبة، وتذاكر السفر.

حين أودع أوراقه بعد التفتيش المعتاد عند المدخل، وسأله الموظف ذو الشعر الطويل عدداً من الأسئلة، وحوَّله إلى غرفة تسجيل البصمات، سلمه ورقة المراجعة بعد يومين، وخرج فهد وهو يتنفس بسعادة عند البوابة الخارجية، ويفكِّر بما حدث مع طرفة، وهل سلّموها إلى أهلها فوراً، أم اقتادوها إلى دار رعاية الفتيات؟ وما موقف أهلها، وأخوها عبدالله تحديداً، تجاه ما حدث؟ وماذا قالوا لصغيرتها سارة عن أمها؟ يا الله، كم هو جارح هذا البلد! كم مكلف فنجان قهوة عابر مع امرأة عابرة! كان يهمس لنفسه وهو يدير محرِّك سيارته متجهاً صوب شارع التحلية، ليتوقف أمام مقهى الدنكن دوناتس، كي يشرب قهوة أمريكية سوداء، مع فطيرة خف الدب، ثم بين حين وآخر يخرج جواله ويتأكد أنه على وضع التشغيل، وأنه لم تصله أي رسالة.

بدأ الفلبيني يقفل ستائر النوافذ الطولية، وقد علا صوت أذان الظهر، فخرج فهد نحو سيارته، وبينما هو يدير المحرك، فتح علبة الرسائل في جواله على أثر رنين يشبه أزيز الصراصير: «أقسم بالله لأفضحك قدّام كل الناس وفي كل المعارض، وفي كل مواقع الرسامين، يا جرذي!» فتح خانة الرد على الرسالة وكتب: «طز فيك، وفي الناس، وكمان في بلدك!»

تخيل ثريا الحجازية وقد استيقظت من النوم متأخرة، إثر ضجيج أطفالها المختصمين، ثم أحست بجهاز التكييف يضرب جسدها شبه العاري الذي تفوح منه رائحة عطور قوية ونفّاذة، ولم تجد بجوارها رجلاً يقتحمها، فكتبت تلعن شاب عابر وصغير، لم يملأ حياتها، ولم يستسلم

لمشيئتها، فجأة أزَّ الجوال من جديد: «شوف يا شامي، من حقك تلعن فيني وفي الناس، لكن أقسم لأحفظ رسالتك ضد بلدي، وأوديك في ستين داهية!»

يا إلهي- فكَّر فهد- كيف يعيش الإنسان في مجتمع عنصري متآمر، مجتمع يكره ويغش ويكيد وينمّ ويسرق ويقتل، مجتمع هذه هي عيناته التي أمامي، عمِّي وياسر وثريا، صحيح أن هناك أصدقاء نبلاء، كسعيد، وهناك سائرون صوب قناعات ويقينيات كأبي ومشبب وعبدالكريم، وهناك أيضاً تائهون مثلي ولولو وطرفة وسامي، لكنني أشعر برغبة شديدة بالتقيؤ، كلما تذكرت بعض التفاصيل المريعة.

-65 -

في غرفة المكتب المقفلة بمبنى الهيئة، تأملت طرفة لحظتها المضنية، وتخيلت لو كانوا اقتادوها إلى دار رعاية الفتيات، ودخلت هنا بمحضر تسلم وتوقيع الاخصائية، ثم جلست في اليوم التالي أمام شيخ له حاجبان معقودان، وحقق معها حول جناية خروجها مع شاب غريب لتشرب معه كوب كابتشينو. وتخيلت كيف وقع الأمر على الأم المغلوبة حين اتصلت المشرفة بها، وأخبرتها بالأمر، طالبة أن يأتي والدها كي يتسلمها، فارتبكت الأم كثيراً، وقررت ألا تخبر عبدالله كي لا يقتلها. أخذت أيمن سريعاً، وخرجت معه حسب وصف المشرفة، أضاعا الطريق أكثر من مرة، ليوقف أيمن سيارته قرب أي عابر طريق، مرة قرب مبنى الجوازات، ومرة قرب مبنى تعليم البنات، فيسأل عن مقر دار الفتيات، وحين وصلا دخلت الأم إلى المشرفة، وطلبت أن تتسلمها:

- ممنوع يا خالة!
- أنا أمها!
- آسفة، ما يستلمها إلا والدها.
- والدها متوفى يا بنيتي.
- طيب الوكيل عليها، ويحضر معه أصل الوكالة وصورة.
- أخوها هو الوكيل، صمتت ثم أضافت: طيب معي أخوها عند الحارس.
- معه وكالة شرعية عن البنت، وباسمه؟
- لا، الوكيل أخوها الكبير.
- خلاص هو يحضر ويستلمها بنفسه.

اللعنة، ما الذي يحدث؟ كأنما هم يدبرون مقتل طرفة ببساطة، وبدم بارد، تخيَّلت الأم كيف يأتي عبدالله بهدوء القتلة، يأخذها بسماحة ويسر وحب، يعيدها إلى البيت، ولا يفتح معها أي موضوع، وكأنه لا يكترث، ثم يأخذها ليعتذر لأنه رفض دراستها في أكاديمية تمريض، ويخبرها بأن زميله سيوفر لها قبولاً سريعاً لدراسة التمريض، وفي الطريق يدخل قبو عمارة مظلم، ثم ينحرها بسكين ضخمة ورهيفة، ويضع جثتها داخل كيس أسود، ثم يحملها على كتفه، ويرمي بها في صندوق النفاية الأصفر الضخم، تخيلت طرفة كيف فكَّرت أمها بمصيرها لدقائق، وكيف تخرج من هذا المأزق: «أخوها الكبير مسافر» قالت الأم.

- تبقى عندنا لحد ما يرجع بالسلامة.
- يا بنتي، مسافر في بعثة، يدرس برا، ثم أضافت: بعدين طرفة عندها بنت صغيرة في البيت، ما تنام الليل إلا في حضن أمها. توسلَّت إليها: والله

يرحم والديك يا بنيتي، استري على بنتي، الله يستر عليك دنيا وآخرة.

سمعت طرفة خشخشة مفتاح داخل القفل فانتبهت، فهي الآن محتجزة في مبنى الهيئة، وليست في دار رعاية الفتيات، دخل الرجل ذو المشلح الحليبي محفوفاً بالسكينة، ومعه شاب بلحية خفيفة متعرشة على الفودين، يحمل ورقة وعلبة البصمة الزرقاء، قال لها الشيخ إن الهيئة تستر على المرأة الجانحة في المرة الأولى، لكن المرة الثانية، لا سمح الله، ستذهب إلى دار رعاية الفتيات، وتحال إلى التحقيق هناك، وقد تبقى ستة أشهر أو سنة، وقد يتم إحالتها إلى سجن النساء، بعد الحكم عليها بالسجن مدة محددة.

«هذا تعهد، تبصمين عليه بعدم تكرار أي مخالفات شرعية، ونحتفظ فيه عندنا بمنتهى السرية، وقد نحتاج إليه، كما قلت لك، لو قمت بعمل مخز مرة أخرى!» قال لها الشيخ ذلك، وهو يلتفت تجاه الشاب بجواره ويضيف «الأخ سعد يأخذ إقرارك ويوقعك عليه، واتصل بأهلك، حتى يوقعوا على استلامك»، مضى الشيخ وترك الباب خلفه مفتوحاً. تقدَّم الشاب ذو اللحية الخفيفة، ووضع ورقة الإقرار أمامها، ثم أشار إلى الجملة في الأسفل: المقرّ بما جاء في أعلاه، وقال: «سجّلي اسمك هنا» ناولها القلم، دونت اسمها بيد مرتعشة، فتح علبة البصمات ذات السطح القماشي الأزرق الرطب، ووضعها على الطاولة بجوارها، ثم تناول يدها البضّة الناعمة، وأفرد إبهامها الأيسر، وضغط به على زرقة العلبة الرطبة، وألصقه لثوان بجوار الاسم، وظل يداعب يدها حتى سحبتها منه، وامتقع لونه بغتة «يعني حرام علينا حلال عليه؟» وهو يلمّح إلى فهد، فنهرته بقسوة وثقة «خف ربّك يا شيخ!» هي تعرف أنه ليس شيخاً، لكنها أرادت أن تضعه أمام مرتبة يحترمها ويخجل من ممارسة لا تليق بها، هرول

خارجاً مذعوراً، بينما جعلت تدعك إبهامها في طرف الطاولة التحتي، كي تزيل عنه زرقة الحبر البغيضة.

كم أبكاها موقف أيمن حينما بكى أمامها وهو يردد «هذي آخر ثقتي فيك يا طرفة؟»! وأضاف «أنا الوحيد اللي يحترمك ويقضي أغراضك وطلباتك، تحطيني في ها الموقف؟» فما ملكت طرفة إلا أن جذبت رأسه وقبلته مرتين، رغم أنه أصغر منها بسنوات، وهي تعتذر منه، وأنه لا يستحق أن تخدعه: «أنت الوحيد اللي بقى لي بعد موت أبوي، ما عندي إلا أنت، الله لا يحرمني منك!»، ثم وعدته بحماس بالغ «أقسم ما أطلع من البيت إلا للقبرا» كان رنين جواله لم يتوقف منذ بلغت الساعة الواحدة ظهراً، ثم أجاب أمه بأنه تأخر على طرفة بسبب تعطيل دكتور لهم في الجامعة، وأن طرفة اتصلت به مراراً من الأكاديمية، وحين سألت الأم: «أرسل لها عبدالله طيب؟» صاح مقاطعاً: «لا، خلاص أنا عند باب الأكاديمية، دقائق ونكون في البيت!»

بكت طرفة طويلاً معه في السيارة، ولم يسألها من هذا الذي خرجت معه إلى المقهى، لكنها أصبحت لا تملك أن ترفع عينيها الجميلتين نحو أيمن كلما جلس مع أخواته في الصالة.

-66 -

الغبار يخنق الرياض لليوم الثالث على التوالي، القمر يحاول أن يصبح بدراً مرئياً دون فائدة تذكر، كل ما في المدينة يدعو إلى الرثاء والشفقة، كان فهد يركب بجوار سعيد متجهين نحو المقهى وهو يشعر بأنه يكاد يطير، فقد خطف تأشيرة سفر إلى بريطانيا، وهاهو يسعى لأن

يقابل الأصدقاء الذين وصفهم سعيد بالمفاجأة، حين وصل وجد مجموعة يعرف بعضهم، وبعضهم الآخر يقابلهم لأول مرة، عرفه سعيد عليهم واحداً واحداً، فراس زميل حارة، سعود معروف، وهو المشرف العام على موقع كانون، عمر ناشط سياسي إسلامي يعيش بطالة بعد فصله، لأنه اشترك في التوقيع على بيان إصلاحي سياسي، زياد القزم أيام المتوسطة ذو الصوت النسائي، علي بن عبداللطيف الحاصل على الأول في الثانوية العامة بثانوية النجاشي، بالإضافة إلى راشد، جلسوا وطلب فهد معسل تفاح بحريني، كان أحدهم معه رواية «بوذا الضواحي» لحنيف قريشي، تصفحها فهد وقرأ تعريف الناشر، ثم انتبه إلى حوارهم الجاد.

كانوا يتجادلون مع عمر، فسعيد يستفزه لأنه يجلس مع ملحد، لا يؤمن بشيء، مثل الأخ فراس، بحيث يؤكد لهم أنه ما زال يؤمن بمشروع الإصلاح في البلد، حتى لو مات أو تم وأده في البدايات، كما يؤمن بأن الإسلام هو الطريق الوحيد للإصلاح، لكنه يرفض ذلك الدين المطلبن، (نسبة إلى طالبان)، وفي المقابل يرفض الدين الذي يصدر من مجلس الوزراء، ووجود أخ حتى لو لم يؤمن بشيء، مثل الأخ فراس، لا يعني أنني أتفق معه، وليس بالضرورة أن يؤمن هو أو يعتقد، هذا أمر شخصي يخصه هو، يخص علاقته بالعالم ونظرته إلى الدين. قطع سعيد الحديث، وقال بأن المجموعة يودعون الزميل فهد الذي سيسافر إلى بريطانيا، يمكن للدراسة، ويمكن لهجرة مؤقتة أو نهائية، وما أن شرع سعيد يحكي عن ظروف فهد التي عصفت به في السنتين الأخيرتين، حتى دلف المقهى مجموعة من الملتحين، بعضهم ممتلئ ويضطرب جسده داخل ثوب قصير وشماغ يتدلى على طرفيه، ثم توقف قائدهم وسط الجالسين في المقهى، فأخفى البعض ليّ الشيشة بجواره، وبعضهم الآخر علّق ليّ المعسل على حامل بجوار المعسل. ونهض خارجاً، وما كاد فهد يهم

بالخروج حتى أشار عمر بيده نحوه بأن يجلس، وهمس للجميع، أرجوكم لا يطلع أحد، حتى تروا بأعينكم ماذا سأفعل.

«يا إخوان الشيخ لديه كلمة!» صاح أحد الرجال الذين يكاد معظمهم يبلغ العشرين عاماً، بعضهم يحمل أكياساً مملوءة بأشرطة الكاسيت المجانية، وكتيبات صغيرة، وبعضهم أحاط بالشيخ السمين، ذي الوجه الأحمر الدائري، ولحيته السوداء المرتَّبة: يا إخوان (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وإنني والله أحبكم في الله، وأحب لكم ما أحبه لنفسي، فيا أخواني هداكم الله، إن شرب الشيشة والمعسل والدخان بأنواعه من جملة المحرمات لما فيها من الأضرار الكثيرة التي أوضحها الأطباء، ونهى عنها الله سبحانه وتعالى: (يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات) وقال عز وجل: (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) والدخان والمعسل والشيشة -يا أخوان- هي من الخبائث التي حرّمها الله في محكم كتابه، وهي من أسباب الأمراض والهلاك، قال سبحانه: (ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة) ويقول عز من قائل: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما).

بقي الشيخ يتحدث لعشر دقائق في صمت مطبق، لدرجة أن بعضهم أخفض صوت التلفزيون، مما جعله يشعر بالنشوة والعزة، وما أن تلا آية الختام، حتى رفع عمر يده وصاح بصوت عال كسر الصمت:

- جزاك الله خير يا شيخ، عندي سؤال؟
- نظر الشيخ نحوه هنيهة: تفضل.
- في الحقيقة جزاك الله خيراً على هذي النصيحة، بس ما عرفنا اسمكم يا شيخ!

تأمله على مضض، ونطق أحد مصاحبيه:

- الشيخ حمود بن عبدالله.

قال عمر بثقة عالية، وجرأة يحسده عليها كل الصامتين:

- طبعا يا شيخ أنت توافق على أن فيك خير، وفيك شر أيضاً».

هز الشيخ رأسه بتردد «نعم» بينما كان مرافقوه قد رفعوا حواجبهم مستنكرين.

ثم قذف الطلقة الثانية:

- وأكيد أنك يا شيخ، جزاك الله عنا كل خير، تعرف أن من بين هؤلاء من فيه خيّر أكثر منك!

ثم ختم عمر بصراحة مجنونة:

- أنت جئت تنصح هؤلاء العاطلين أكثرهم، حتى يبطلوا شرب المعسل والدخان، لكنك ما سألت نفسك لماذا هم هنا؟ ألا تعرف أن أكثرهم يعانون من البطالة وقلة الحيلة، وأكثرهم يعانون من الحاجة وقلة اليد، ما تعتقد يا شيخ أن وقفتك قدام إمام جائر، والصدع بالحق أمام حاكم جائر أهم من وقفتك على شيشت ها المساكين؟

كان الشيخ ينظر إلى عمر، وقد أخرسته المفاجأة، واحمّر وجهه، وصار يتمتم بكلام غير مفهوم وهي يتجه إلى الخارج يتبعه رجاله الملتحون، بينما بقي عمر يصيح بجنون أحمق:

- يا شيخ لا تعطيني ذنبك وتمشي، تعال عندي لك كلمة رأس.

ضحك بعض الشباب في المقهى، وصاح سعيد في الجميع، صفقة كبيرة للشيخ عمر، صاح الشباب وهم يصفقون ويصفِّرون بمتعة نادرة، في مدينة لا تتخلص من غبارها إلا وقد هجم عليها غبار جديد. قال راشد: «يا عمر حرام عليك، حرمتهم من الأجر، ومن توزيع الأشرطة التي

معهم!» قال سعيد: «تصدق، لا يفوت موضوع الجلسة هذي على متذاكم، أول ما ترجع البيت أنقل ما حدث بالتفصيل» أيده سالم: «فعلاً، أعتقد أنه موضوع مثير، سيحظى بمتابعة كبيرة».

انتبه سعيد إلى صمت فهد وحزنه، وخاطبه وهو يشير إلى عمر: «ما تعتقد تغير رأيك في مسألة السفر؟ أقصد بدلا من الانسحاب والهروب، ممكن الواحد يواجه هؤلاء!» هزَّ فهد رأسه نافياً، وأضاف سعيد: «يعني أنت شفت شجاعة عمر وجرأته كيف جعلتهم يهربون كالثعالب!» وبينما فرد عمر صدره منتشياً، اعترض راشد: «لا تصدق يا عم، والله لو كانوا متأكدين أن عمر ما هو مباحث، ما كانوا هربوا، ويمكن عملوا له مشكلة كبيرة!» أيد ذلك الرأي سعيد وفهد أيضاً. وبينما كان عمر يرتشف شاياً، أشار إلى أنهم بشر مثل غيرهم، بعضهم يخاف وجبان حقاً، وبعضهم شجاع ويحب الشهرة، ويعرف أن تهوره سيقوده إلى التوقيف أو السجن، وذلك يوفر له مريدين وتابعين. وبعضهم بسيط للغاية، ويظن أن نصائحه تلك هي من باب احتساب الأجر. حتى أن بعضهم يصبح متسلطاً ومستبداً، وتتملكه روح الرغبة في دهس الآخرين واستعبادهم تماماً.

كان عمر يرى أن جماعة الموقعين معه على البيان الأخير، الذي طالبوا فيه بمملكة دستورية، أكثرهم يعانون من عقدة الاضطهاد، فتحوَّل أكثرهم إلى دكتاتوريين صغار، لكن بأنياب شرسة، لذلك أنا ليس لدي ما أفقده أبداً، سأتفرغ في حياتي المقبلة لفضحهم!

قاطعه راشد: «والليبراليين يا عمر أيضا محتاجين فضح!»

ضحك عمر ساخراً: «أي ليبراليين يرحم والديك، هذول فرائس ميتة، المسألة كلها لعبة من الطالبانيين الذين يقضون على ما تبقى من ها البلد، إن كان بقي منه شيء أصلاً، فهم اخترعوا كذبة الليبراليين، حتى يبررون قبضتهم الحديدية، وقيادة المجتمع المسكين إلى محرقتهم الفظيعة»

أشار فهد إلى سعيد، فاستأذن هذا الأخير من المجموعة، وأخبرهم أن فهد ليس معه سيارة، لأن سفره في الغد، وسيذهبان. خرجا مارين أمام باعة الأشرطة وأقراص السي دي عند مدخل المقهى، تحركت بهما السيارة صوب الغرب في طريق الدمام، متجهين إلى الرياض، زحام المقهى قد خفَّ عند الثانية صباحاً، كان سعيد يتأفف بقرف:

- لا مسرح، ولا سينما، ولا ساحات عامة، ولا شوارع يشم فيها هواء، حتى المقاهي رموها خارج الرياض مسافة ثلاثين كيلو، ومع ذلك قاعدين يطاردوننا في كل مكان! بالله عليك وين نروح؟

- يعني وش تتوقع؟ ناس مطلق سراحهم، يلعبون في البلد بدون حِسيب ولا رقيب، لا قانون يمنعهم ولا حقوق محفوظة لك.

- يا عم وين القانون أصلاً؟ أي واحد ممكن يعترض طريقك ويتهمك ويوقعك على أكبر إدانة رغم أنفك، أو يرميك في توقيف أو حتى سجن.

قال سعيد ذلك وهو يدق عجلة القيادة بقلق ويضيف:

- تصدق فهد؟ معنا واحد في العمل يقول ببساطة وسذاجة عن قضية امرأة تعرّضت إلى اعتداء من الهيئة، ليه ما تروح للجنة حقوق الإنسان تشتكي؟

- المشكلة يا سعيد أن كثير من الناس بسطاء وساذجين، ما يفهمون أن حقوق الإنسان جهة حكومية مثلها مثل ديوان المظالم، ما هي جهة مستقلة، يحكمها نفس العينات، وتوظفهم الحكومة برواتب ومزايا.

تجاوزت السيارة تقاطع طريق خالد بن الوليد، ثم اقترح سعيد أن يمرّا نحو هرفي أو كودو كي يأخذا وجبة، وقد أكد أنه لا يشعر بالقرف فحسب، بل أيضاً بالجوع: «ما تحس أن ها البلد عايش للأكل والخراء؟» وأضاف سعيد: «ما تشوف المطاعم هي الوحيدة تفتح حتى الصبح؟»

قاطعه فهد بنبرة حزينة: «أحس أن كل واحد يلهث مثل الكلب حتى يكسب قرشين ثم يهرب في الصيف شهر أو شهرين حتى يعيش في أي بلد، ويقضي على القرشين ثم يرجع يموت عشرة أشهر وهو يلم من هنا وهناك حتى يرجع يعيش برا من جديد في السنة التالية، وهكذا».

توقف سعيد عند طلبات السيارة لمطعم هرفي بنده، في طرف المصيف الشمالي الشرقي، طلب وجبتي كومبو دجاج، ورفض أن يساهم فهد في المبلغ، متذرعاً بأن السفر والغربة ستقضي على كل ما تجمَّع معه من مبلغ متواضع بعد أن باع سيارته بالأمس. عادا إلى الطريق الدائري الشمالي وقد بدأت غيمة الغبار الثقيلة تهبط إلى الإسفلت حتى تلامس الرجلين، فأخفى فهد أنفه بشماغه وهو ينزل عند مدخل العمارة، أخبره سعيد بأنه سيمر على البقالة كي يجلب علبة سجائر، سائلاً عما إذا كان يريد شيئاً، فأشار بيده: لا، وهو يصعد السلم الرخامي إلى الطابق الثاني.

-67-

الطريق ليس طويلاً بين لندن وغريت يارموث، لولا نوبة البكاء والذكريات الأليمة التي انتابت ذاكرة فهد وعركته طوال الرحلة. الطريق الذي يزدان بالطبيعة الخضراء ومساكن القرميد والأنهار والماشية المطمئنة، لم يرَ منه سوى الصحراء الجرداء رغم أنه يتأمل من النافذة، رغم أنه يحاول مراراً ألا يقتل متعة الصعلكة اللذيذة في لندن، وحين يفعل ذلك، أي يسوق الذاكرة بعنوة كما لو كانت بهيمة إلى مناطق أخرى جديدة. غير ذاكرة حياته السابقة، يجد خيوطها تتشابك وتتعالق حتى تعود به من جديد إلى المأساة ذاتها!.

في وقفته الطويلة في ساحة ترافالغر أمام تمثال نلسون، عمدة لندن

الذي منع إطعام الحمام الأليف الذي يكرهه، الحمام البذيء الذي لوث روثه الساحة الجميلة، وعلق بالتماثيل المنصوبة هناك، الحمام الذي لم يسلم منه حتى تمثال القائد نلسون، كما لم يسلم منه فهد أيضاً. فإن كان قائد الأسطول البريطاني، المنتصر على أسطول نابليون بونابرت، القائد الشهير نلسون، لا يستطيع أن يدفع عن جسده روث حمام تافه، فمن الطبيعي أن لا يملك فهد دفع أذى ريش ما عن حياته. ذاك الحمام الذي يتذكره فهد جيدا، ويسأل نفسه مرارا: لم لا يطير كما هو حمام الحدائق العامة في لندن؟ لم لا يخفق بجناحيه ويطير حين يلاحقه ياسر وفيصل في باحة بيت العم في البشر ببريدة؟ يسترجع فهد كيف كان الحمام يركض ويتقافز لاهثاً دون أن يطير، هل بسبب أجنحته التي لم تكن قوية بما يكفي للطيران؟ هل هو منتوف ريش القوادم مثلا؟ هل كان ثقيلاً ولا تحمل أجسامها جيوبا داخلية مملوءة بالهواء؟ هل أرجلها الحمراء ذات مخالب مستقيمة، وليست محنية، إذ اكتشف البيولوجيون الأستراليون، بأن الطيور في العصور القديمة كانت تقضي وقتها على الأرض، لا على أغصان الأشجار، حيث أثبتت الآثار بأن أرجلها مستقيمة نسبيا، تنفع للمشي، لا للطيران؟ وهل الحياة في بريدة ما زالت متوقفة في العصور القديمة؟

عاد فهد ببصره إلى حمام ساحة ترافالغر، وهو يفكّر في قرار منع رمي الحبوب للحمام في الساحة، والغضب العام لهذا القرار، خاصة من مناصري البيئة، الذين قد تربطهم مصالح مشتركة مع باعة الحبوب والبذور الذين تورطوا بتجارتهم الكاسدة!

هؤلاء التجار لا يعنون لي شيئاً، فكَّر فهد، لكن ما يؤلم حقاً، هو أن يحب فنان كبير مثل بيكاسو هذا الطائر القبيح، ويرسمه أكثر من مرة في لوحاته. بل حتى شاغال رسمه وهو يهبط من الأعلى بمنقاره صوب عاشقين، كم أحب لوحته الرائعة تلك «عاشقان وزهور» ما أبهى جرأته

باستخدام اللون الأصفر القوي، الفاقع! وما أتعسه من فنان! وهو يرسم حمامة هابطة في أعلى اللوحة، تجاه العاشقين الطائرين فوق آنية الزهور! أنا أكره الحمام، أكرهه كثيراً، ليس لأنه دمَّر طفولتي، وربما حياتي بأكملها، بل لأنه طائر بغيض، حقود وأناني، حتى طريقته في الجنس ساذجة، بل دوران غبي وقفزات بليدة رعناء، لماذا إذن يدّعون أن دراساتهم أثبتت أن الحمام مع الدلفين والفيل والقرد من أذكى الكائنات بعد الإنسان، هل لأنها تنقذ الغرقى في البحر؟ أم لأنها تتعرف على الألوان؟ أم لأنها تتعرف على نفسها في المرآة أو شاشة التلفاز؟ وهل حين لا أتعرّف على نفسي في المرآة أكون كائناً غبياً؟ اللعنة على هؤلاء العلماء، وعلى الفنانين أيضاً.

فتح فهد حقيبته بجواره، وأخرج جهاز الآي بود الصغير، وثبّت سماعتين في أذنيه، واستعرض أغنيات سيلين ديون المتوافرة، ثم أطلق صوتها الشجي، وهو يتخيلها مع الطفل الذي يطلق طائرته الحربية الصغيرة من النافذة، ويتحكم بها بقدرة فائقة:

«امممم...امممم..أنال جناحين لأطير» بينما طفل يشبهه يدير بسبابته ثلاث ريشات في مقدمة طائرة التحكم عن بعد، ثم يضعها على مدرج، وحين تصدح ديون بصوتها النقي «أنا حي» تنطلق الطائرة من النافذة بهوس مجنون:

When you call on me
When I hear you breathe
I get wings to fly
I feel that I'm alive
When you look at me
I can touch the sky
I know that I'm alive

بغتة استيقظ مفزوعاً على صوت القطار وقد خفف سرعته، خلع السماعتين من أذنيه، ونظر من النافذة حيث هدأ القطار استعداداً للوقوف، نظر للمرة الأخيرة إلى الفتاة الشقراء، التي وضعت كتابها داخل الحقيبة الخفيفة، ثم تحركت أمامه، رمى حقيبته على كتفه سريعاً، وهبط في المحطة، ثم التهمته البلدة الصغيرة، دون أن يزيح عبء ذاكرته اللعينة.

الجزء الأخير

بياض بلا نهاية *

«لديّ ريشة تكتب،

ما أشعر به دائماً.

إن كان كذباً، فخطها خفيف

وإن كان حقيقياً، فليس بها أي حبر.

فرناندو بيسوا: رباعيات

-68-

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

يوليو 2008- الرياض

الفهرس

صدر للكاتب

- ظهيرة لا مشاة لها- قصص- الرياض 1989م.
- رجفة أثوابهم البيض- قصص- دار شرقيات- القاهرة 1993م.
- لابد أن أحداً حرّك الكراسة- نصوص- دار الجديد- بيروت 1996م.
- لغط موتى وقصص أخرى- إتحاد الكتاب العرب- دمشق 2000م.
- لغط موتى- رواية- منشورات الجمل- كولونيا/ المانيا 2003م.
- فخاخ الرائحة- رواية- رياض الريس للكتب والنشر- بيروت- 2003، ط2(2006)
- القارورة- رواية- المركز الثقافي العربي- بيروت/الدار البيضاء 2004، ط3(2008).
- النخيل والقرميد- مشاهدات من البصرة إلى نورج- رحلات- دار السويدي بالاشتراك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت2004م.
- أخي يفتش عن رامبو- قصص- المركز الثقافي العربي- بيروت/الدار البيضاء 2005م.
- نزهة الدلفين- رواية- رياض الريس للكتب والنشر- بيروت 2006م.

• صدر للكاتب بلغات أخرى:

- **Wolves of the Crecent Moon-** Novel- AUC Press- Cairo2007.
- **Wolves of the Crescent Moon-** Novel- Penguin USA- New York 2007.
- **Loin de cet enfer-** Roman- ACTES SUD- France 2007.

يوسف المحيميد

الحمام لا يطير في بريدة

يوسف المحيميد، روائي من السعودية، حفر لنفسه موقعاً على المستوى المحليّ، حيث تلاقي أعماله إقبالاً من القراء، وأيضاً على مستوى أبعد وأوسع، إذ تُرجمت بعض أعماله إلى عدة لغات. الإنجليزية والفرنسيّة والإيطالية والألمانية.

صدرت له عدة روايات من بينها "فخاخ الرائحة – 2003"، "القارورة – 2004"، و "نزهة الدلفين2006-".

ومجموعات قصصيّة كان آخرها " أخي يفتّش عن رامبو" من منشورات المركز الثقافي العربي.

وقد ترجم من أعماله الروائية:

إلى الإنكليزية:

- Wolves of the Crescent Moon-Penguin USA–New York 2007.
- Wolves of the Crescent Moon- AUC press- Cairo 2007.
- Munira's Bottle- AUC Press- Cairo- New York 2010.

إلى الفرنسية: Loin de cet enfer – Actes Sud-France 2007.

إلى الإيطالية: Le trappole del profumo-Aisara–Italy 2011.

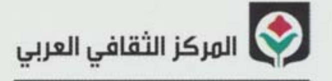
في هذه الرواية يتناول المحيميد أزمة العيش في مجتمع يتسلّط عليه "حرّاس الفضيلة". حرّاس يعتبرون أن مهمتهم كسر أيّ تمرّد. الحريّة الفرديّة أكبر جريمة. انكسر أو مت اختناقاً، أو اهرب...

الطبعة الأولى، مارس 2009 - الطبعة الثانية، يونيو 2009
الطبعة الثالثة، ديسمبر 2009 - الطبعة الرابعة، يناير 2011

موقع الكاتب على الشبكة: www.al-mohaimeed.net

ISBN 978-9953-68-383-2





الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
cca_casa_bey@yahoo.com
markaz@wanadoo.net.ma